



الأنبياء في العراق

دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والآثار
الدكتور
رعد شمس الدين الكيلاني



الأجباء في العراق

وزارة الثقافة



دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد - ٢٠٠١



دار الشؤون الثقافية العامة • أحياء عربية • - شركة عامة
حقوق الطبع محفوظة
تتمون جميع المراسلات الى :
رئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة : عائل ابراهيم
المشؤون :

المراقب - بغداد - اعظمية

ص . ب . ٤٠٢٦ - فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ - هاتف ٤٤٢٦٠٤٤

البريد الالكتروني dar@arubadirect.net

الموقع على شبكة الانترنت www.arubadirect.net/eng/who/who-info.htm

سلسلة رسائل جليلة

الانبياء في العراق

دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والأنار

الدكتور
رعد شمس الدين الكيلاني

الطبعة الاولى - بغداد ٢٠٠١

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
اجمعين وبعد :

فان الكتابة في تاريخ قبل الاسلام ترتبط بالاسلام عن طريق الانبياء ولذلك
تعرض مؤرخو الاسلام لاحداث هذا التاريخ من خلال هذا المنظور فكتب الطبري وغيره
من رواد المؤرخين عن الملوك والامم والانبياء واخبارهم . وكانوا بذلك يمهّدون لمرحلة
الرسالة الاخيرة وهي رسالة محمد (ص) . ولكن كانت هذه الكتابات تستقي جلّ
معلوماتها عن طريق اهل الكتب السماوية والانبياء التي سبقت الاسلام وخصوصا
التوراة واخبار اهل الكتاب . واعتمدت كذلك في جزء من مآنها التاريخية على
اخباريين كانوا قد عثروا وعاشوا في ظروف اكتسبوا خلالها المعلومات والاخبار عن
سبقيهم . وكانت . الفاية من نقل هذه الاخبار هي الاعتزاز بتاريخ الاقوام والقبائل
وتمجيد تاريخ تلك القبائل ، ولذلك غلب عليها التزخيم والاسطورة وافتقدت في كثير
من مآنها الى المنهجية والعلمية . وعندما نشأ علم التاريخ في امة الاسلام كانت
نواعي نشأته مرتبطة بخدمة الشريعة وكتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ولذلك
(كان الغرض الاول من تدوين العلوم في الاسلام هو حفظ الشريعة فكل علم يخمس

نلك الفرض فهو واجب الدرامة ، حتى يكون الاشتغال به وسيلة الى قصد سام . ومن هنا كان الاشتغال بعلم المغازي والسيرة مكملاً لملم الفقهاء (١) والكتابة في التاريخ بصورة عامة محفوظة بالصعوبات والتأثر والافعال وذلك لصعوبة تجرد المؤرخ عن الانحياز لاهداف مسبقة او الاستدراج نحو الاهواء والشغف بالتضخيم او الاهمال والكذب ولذلك قال ديورانت : (معظم التاريخ ظن وبقية من املاء الهوى) (٢) . وعندما وضع المسلمون قواعد الرواية للحديث النبوي الشريف كان هدفهم الاول صيانة السنة من الوضع والتحريف ثم انتقلت هذه القواعد والضوابط الى العلوم الاخرى واثرت فيها مثل علوم التفسير والسيرة والتاريخ وكان التاريخ اقرب العلوم واكثرها تأثراً بقواعد المحدثين ولكنه لم يسلم من الوضع والتحريف والتزييف في بعض رواياته بل ان معظم المحدثين لا يعترفون بروايات المغازي والسيرة والتفسير - ولكن يمكن القول بصورة عامة ان الحركة الفكرية العلمية الاسلامية انقذت التاريخ الاسلامي من الضياع عن طريق اختبار الرواية التاريخية تأثراً بالحديث والرواية الحديثية - وقد حاول الغربيون ولكن بعد مدة متأخرة ان يحاكيوا المنهجية الاسلامية في نقد الرواية فكتبوا عن نقد الوثائق التاريخية ظاهرياً وباطلياً ولكن تبقى الفجوة كبيرة بين ما حققه المسلمون وبين الضوابط التي وضعها المؤرخون الغربيون لكتابة التاريخ . ولكن هذا الكلام يمكن قبوله اذا كان موضوعه تاريخ الاسلام اما اذا كان الموضوع تاريخ قبل الاسلام فالمسألة تزيد تعقيداً بالنسبة لمؤرخي الاسلام حيث كتبوا تاريخ قبل الاسلام بطريقة تختلف عن كتابتهم لتاريخ الاسلام . ولذلك عندما بدأت في البحث من اجل الكتابة عن الانبياء في العراق وجدت الرواية الاسلامية قد اختلفت منهجيتها لتتوحد مع الرواية التوراتية واخبار اهل الكتاب توحداً يكاد يكون متطابقاً . ولهذا السبب كانت المهمة ليست بيسيرة في عملية غربلة الرواية الاسلامية والبحث عن الروايات الصحيحة او الروايات التي يمكن الاعتماد بها . فكان تخليص الرواية الاسلامية من الاثر الاسرائيلي والثقافة الاسرائيلية المشوهة يعد من اهم نواحي الرسالة . وكان النص القرآني

(١) المدخل الى التاريخ / نور الدين حاطم وجماعته / ص ١٦٥ / مطبعة الانشاء / دمشق ١٩٦٥ .

(٢) ديورانت / هول / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ٢٢ / ط٤ / مطابع الديوري / القاهرة ١٩٧٣ .

والحديث الصحيح هو الفرصة الوحيدة للخروج بصورة ايجابية لتاريخ هؤلاء الانبياء عليهم السلام . ولكنني وجدت ان الدراسات الاثرية قد وصلت الى مرحلة متطورة وغطت مساحات واسعة من التاريخ وان هذه الدراسات وان كانت تنتمي الى خلفية علمانية لا تؤمن بالدين غير اني قد وصلت الى حقيقة مهمة وهي ان معظم نتائج هذه الدراسات قد وظف لخدمة التوراة والدراسات اللاهوتية . فشجمني ذلك الى ادخال الآثار كمصدر لتفسير النصوص القرآنية واستكمال الصورة التاريخية للرواية التاريخية المذكورة في النص القرآني والنص التوراتي والوثيقة الآتية . فكانت هذه الدراسة وبحسب علمي الاولى من نوعها في العالم الاسلامي ادخلت الآثار بصورة رئيسة ومهمة في اسناد الرواية التاريخية الاسلامية . وقد اقتصر الرسالة على الانبياء الذين ظهوروا في العراق او الانبياء الذين مروا بالعراق . وانا اذ يسر لي رب العالمين اتمام هذه الدراسة اقدم شكرى وتقديرى لاستاذي الدكتور محمد جاسم المشهداني الذي اعانني على اختيار الموضوع وارشدني اليه ، ومع شيخ المؤرخين في العراق اطال الله عمره ونفع بعلمه استاذي الدكتور حسين امين الذي تكرم ففمرني برعايته وتوجيهاته عندما كان يقرأ لي ما كتبه اثناء الاشراف على الرسالة ولساني يلهج بالدعاء له وشكرى لا يكافىء صنيعه فلعل الدعاء بان يجازيه الله خيراً علي افضل ما اقمته له من ثمرة لهذه الدراسة التي واكبها خطوة خطوة ، فنسال الله تعالى ان يكتب له مشاركة في الاجر . ولا يفوتني ان اتقدم بالشكر والدعاء للدكتور عامر سليمان استاذ التاريخ القديم في جامعة الموصل الذي استقبلني وناقشني وارشدني الى بعض القضايا التي كنت بعيداً عنها في مجال الآثار والتاريخ القديم . وشكرى وتقديرى لاستاذي الدكتور عمادالدين خليل المفكر الاسلامي والمؤرخ الكبير الذي شجعني وابدى توجيهاته القيمة حول الدراسة . كما واشكر الدكتور محمد طه الاعظمي المتخصص بالتاريخ القديم الذي اعانني ببعض المصادر . وفي الختام اسعو الله ان يجازي خيراً كل من اعانني على انجاز هذا العمل من المشورة الفكرية الى الطباعة وان يتقبل الله منا ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين —

الفصل الاول

ظهور الانبياء

وأثره

في حضارات وادي الرافدين

المبحث الاول

البداية الواعية او فجر الوعي

ان تحديد نقطة البداية بالنسبة لتاريخ التاريخ او ما قبل التاريخ كما سماها دانيال ولسن وجاء بعده جون لوبيك الذي نشر كتاباً سماها أزمنة ما قبل التاريخ (Prehistoric Times) وكان ذلك سنة ١٨٦٥ ، ان تحديد نقطة البداية لهذه المساحة ، التاريخية الهائلة تبدو غير منطقية وغير علمية ، ولكن دأب باحثو التاريخ في وقت متأخر على التعرض اليها وشدت اهتمام العلماء في تخصصات الانثروبولوجي (العلم الذي يبحث في وصف الانسان) وتأسست فلسفات بوضعت نظريات تقوم على نتائج متابعة التطور التاريخي لاشكال الحياة . انسحب هذا التأثير على مجالات ثقافية واجتماعية وبنية ، وانقسمت الآراء واحتكمت ساحات الحوار والنقاش وحدثت معارك طال امدها ، ولكن هذه المعارك كانت في مختبرات البحوث ومراكز الدراسات وطباعة الكلمة ، ولذلك اكتسب هذا الموضوع أهمية قصوى بالنسبة لمجالات عديدة في التخصصات العلمية الكل كان يبحث عن الحقيقة كيف كانت ؟ وحاول بعض العلماء الذين كانوا يملكون حساً فلسفياً ان يصوغ هذه المعطيات التي تبلورت نتيجة هذه الابحاث صياغة محبوبة تروي قصة متكاملة في فصولها منذ البداية حتى عصرنا الحالي^(١) ، كما فعل ديورانت في قصة الحضارة

(١) وقد كانت محاولة تونبي في كتابة تاريخ البشرية الذي نشره بجزأين تعتبر أحسن مثال على ما نكرنا وغيره كثير .

والدكتور رالف لنتون في كتابه شجرة الحضارة^(٢) .

ان البحث عن أصل الحياة ومن ثم أصل الانسان وعن نوره في الحياة وعن بداياته الاولى على الارض وهو يخطو خطواته الاولى تاركاً وراءه آثاره ومخلفاته وهو يمارس الحياة . ليس يسيراً والبحث عن أشكال تطور هذا الانسان وتطور وسائل عيشه ابتداءً من الانسان الاول الى إقامة المجتمعات المدنية الاولى حيث اقيم اول مجتمع وظهور اول المفاهيم الدينية التي تعد « الاهداف الرئيسية في دراسة الحضارة^(٣) . ومن ثم متابعة تطور التكوين الاجتماعي الاول الى تنظيم العلاقة الاجتماعية وضبطها بمركز اداري يتمثل بالسلطة والدولة حتى بداية تكون نول المدن (City States) ، واستمرار تصعيد الفعالية للنشاط الانساني حتى يبلغ النورة علماً يتمثل في حضارة . ان البحث عن القصة من خلال هذا المسار حتى تنتهي الى الصورة التي في وعينا المعاصر التي نرى من خلالها سيطرة الانسان على مقدرات هذا الكوكب ، كل هذه الامور تضع أمامنا معضلات قد تصل في بعض نقاطها الى الغاز يستحيل فهمها وتحليلها ، كما سماها بذلك توينبي وهو يتابع فصول هذه القصة ويحاول ان يتعامل مع البداية المعقدة^(٤) . لقد ذكر لنا العلماء ان « الحياة بدأت تظهر على سطح الارض منذ اكثر من ١٥٠٠ مليون سنة ، بلليل وجود آثار كاربونية من أصل عضوي بين طبقات الصخور الرسوبية ، وكانت عضويات هذا الزمن الابتدائي (Primary Age) هي الاصل المشترك لجميع الاحياء ، وكان هذا الاصل المشترك عبارة عن كتلة مجهرية هلامية شفافة نصف نباتية ونصف حيوانية تسمى بالمعصية ، وهي ذات خلية واحدة تفرعت الى فرعين اصبحا فيما بعد اصل إحياء المملكة النباتية والمملكة الحيوانية^(٥) .

ان هذه الفرضية لبداية الحياة لا يوجد دليل مادي على صحتها وان المشكلة

(٢) انظر : لنتون / د. رالف / هجرة الحضارة، قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى

بداية العصر الحديث / ترجمة - أحمد فخري / نشر من مكتبة الانجلو مصرية ه . ت .

(٣) لنتون / د. رالف / شجرة الحضارة / م . س / ص ٢٣ .

(٤) انظر توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٠ وما بعدها / الاهلية ، بيروت سنة ١٩٨٨ .

(٥) الديباغ / د. تقي ود . وليد الجادر / عصر ما قبل التاريخ / ص ٩ / مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٣ .

تزايد تعقيداً ولا يمكن النظر اليها بهذه الطريقة الافتراضية لان هذا الفرض يقودنا الى فروض أخرى تبدو أكثر غرابة ويصعب تقبلها تلقائياً ونحن نقراً عن العصر الميوسيني الذي بدأ قبل ٢٦٠ مليون سنة واستمر مدة ٣٥ مليون سنة « وفي اواخر هذا العصر بدأت الحياة تزحف نحو اليابس ببطء في اول الامر ثم بسرعة وفي العصر الديفوني الذي بدأ ٣٢٥ مليون سنة واستمر ٤٥ مليون سنة وفي نهاية هذا العصر تطورت مجموعة من الاسماك الفقرية التي كانت تعيش في المستنقعات واستطاعت ان تنمى في نفسها جهازاً تنفسياً يلائم فصل الجفاف فاكتملت المقدرة على التنفس بواسطة رئة وهي مستلقية في الطين وفي مجموعة أخرى من الاسماك نمت الزعانف بحيث أصبحت تستطيع ان تنتقل بها في هيئة اقدام من مستنقع الى آخر وهكذا ظهرت البرمائيات^(٦). اننا نستطيع قبول تقدير المدة الزمنية والعقب الجيولوجية وكذلك تقدير عصور ظهور أنواع الكائنات الحية ولكن لا يمكن ان نتقبل تبسيط رواية التفسيرات الخلقية بالصورة المذكورة . على الرغم من ان اصل الحياة لا يزال حالة من حالات المجهول الذي يستحيل الاجابة عليه ، يضاف اليه التعقيد الحاصل في اشكال الحياة وهي تطور نفسها ، ومن المعلوم « ان كل خلية على حدة والخلايا جميعاً انما هي نوع من الحاسب الآلي (Computer) مكون من أنظمة تبادلية تجل عن الحصر . كيف تسنى لمثل هذا النظام الممعد ان يتكون ٩ على الرغم من كل ما بين ايدينا من معارف فان العلم لم يتوصل الى الاجابة على هذا السؤال^(٧) . ان النظريات الموجوبة لن تفسر لنا كيف تكونت الاشكال المعقدة بدرجة عظيمة كما انها لم تمنحنا بالمعطيات البيانية التي تحكم أداؤها وتكاثرها . كما أنها لم تبصرونا بخصوص تعقد النظام الذي يحكم كل صغيرة وكبيرة من سلوك الكائن ككل^(٨) . ان مشكلة التطور العام لاشكال الحياة قضية معقدة متشعبة ، تتطلب البحث في ميادين متباينة منها العلوم الطبيعية (علم النبات والحيوان) والتشريح المقارن وعلم الاحاث (Paleontology) الذي يبحث عن المتحجرات المتبقية في الطبقات الرسوبية . وكذلك علم الاجنة والكيمياء . ومع ذلك فقد نشر باحثون على

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٧) بوكاي / موريس / أصل الانسان ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج / ص ٣١ / الرياض سنة ١٩٨٥ .

(٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان / ص ٩٢ .

درجة كبيرة من العلم نتاج أبحاثهم بصورة تتسم بالتعميم دون أن يكون لديهم أي معلومات تفصيلية عما يمكن أن يكون لدى سواهم من الخبراء في الميادين الأخرى ذات الصلة بنفس الموضوع^(٩).

آخر نظريات التطور هي نظرية (التطور الخلاق)^(١٠) التي تعد منطقية كما يقول جراسيه وأوضح صلاحيتها في كتابه مختصر علم البيولوجي العام . ان هذه النظرية ادعى للتقبل والمناقشة العلمية لانها ادخلت أثر الجينات بخلاف دارون ولا مارك . ان وجود الجينات وتطبيقاتها في النقل والتعبير يدفعنا الى الاقتناع بهذه النظرية ، وهذه الجينات هي التي تعطينا التفسيرات للحالات الغامضة في مراحل التطور والتكيف ضمن البيئة والغاء دور الجينات في عملية التطور الخلاق سوف يدفعنا الى الاعتقاد بأثر المصادفة الذي يتعارض مع المنهجية العلمية والاعتبارات المنطقية « ان مسألة الجينات هي المطلب المطلق المسبق للتطور ونحن لا يمكننا ان نحاشي هذه الامكانية لان ادراكنا العام الكلي للتطور وآلياته المركزة في أعماقه تتوقف عليه »^(١١) . ومع ادخال أثر الجينات تبقى المشكلة بالغة التعقيد .

ان نظرة الى المحيط الحيوي وهو المحيط الذي يتكون من الأرض اليابسة والماء والهواء والايوكومين وهو الجزء المسكون من المحيط الحيوي وهذا الايوكومين الشامل - اصغر بكثير من المحيط الحيوي^(١٢) .

ان نظرة الى عمق المشكلة وهي تتبدى الى الباحث بصورة تشكل في معظمها لفزاً معقداً لا يمكن استيعابه الا من زاوية واحدة نستطيع من خلالها التغلب على الاشكاليات التي تعترض القناعة واليقين ، هذه الزاوية هي الاستناد في جميع احكامنا الى رؤية عميقة تتشكل عن طريق الخبرة العلمية المتخصصة « تلك الخبرة التي تشكل مصدر النظرة الجديدة »^(١٣) ، ومن خلال النظرة الجديدة العلمية المنهجية

(٩) أنهر ، بوكاي / م . ت / ص ٣٨ .

(١٠) (التطور الخلاق Creative Valuation) وهي نظرية تبنها ب . ب . جراسيه رئيس قسم التطور في جامعة السوربون وسياهي معالمها في الصلحات القائمة .

(١١) بوكاي / م . ت / ص ٩٦ .

(١٢) أنهر ، تبليبي / أرندل / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٠ .

(١٣) أغريص / روبرت م . مع جورج ستانيسو / العلم في منظوره الجديد ، ترجمة د . كمال خللايلي / ص ١٤٦ / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / سنة ١٩٨٩ .

المتجاوزة للمادية التي أثبتت قصورها لتعذر الموازنة ما بين منهجها وبين الحقائق التي كشفتها نظرية النسبية ، وميكانيكا الكم ، ومبحث الأعصاب والفيزياء الفلكية ، هذه العلوم والكشوف التي قادت الى التطلع نحو الافاق الواسعة في الكون والوجود كما يصرح يوجين فيغلر على انه في فيزياء القرن العشرين « قادت دراسة العالم الخارجي ناتها الى ما يفيد ان مضمون الوعي هو حقيقة مطلقة » ، وكل ما في الامر هو ان المادية بعد أن اختبرت على اوسع نطاق ممكن في جميع فروع العلم قد اخفقت في اجتياز امتحان التجربة ، اما فيما يتعلق بالدين فالظاهر ان مستقبل النظرة الجديدة يوحى بالعودة بتقافتنا الى الايمان بوجود الله الواحد وبإعادة التأكيد على الجانب الروحي من طبيعة الانسان^(١٤) .

ان هذه النظرة الجديدة تمنح الانسان نوعاً من الاستقرار وتحدد عنده الاطار العام الذي يمكن ان يدرك من خلاله طبيعة وجوده ووعيه وتشكل عنده القناعة بضرورة الالتزام بحدود المعرفة على وفق مدى الطاقة العقلية التي يمتلكها ويستطيع ان يحيط بها عقل الانسان ان الايمان بالله وبالدين كمنهج واضح المعالم يحدد للانسان طبيعة مسيرته وحدود المساحات المسموح بها لكي يلجأ عقل الانسان ، هذه القناعات ستفرض نفسها على الانسان ضمن المؤثرات الواضحة الآن والتي لم يستطيع الانسان التخلي عنها او التخلص منها كما يقول توينبي : « ومن ثم يبدو من المحتمل ان الحياة ستزعم الكائنات البشرية في المستقبل كما أرغمتها في الماضي على ان تصيغ اجوبتها بالنسبة للقضايا الدهالية في عبارات حتمية دولية لا يمكن التثبت منها - فالدين في الحقيقة هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية فهي الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الظواهر الطبيعية^(١٥) . ولكن ونحن نتكلم على هذه النظرة وهي عملية تدعم القناعات بالرؤيا الدينية ينبغي الا نستلجج الى المساحات الاسطورية والخرافية التي تعلقت بالدين ووضعت ضمن اشكال وقوالب امتزجت بالدين حتى عاد من الصعب الفصل بينهما وبين الحقيقة الدينية ولذلك سنوظف كل القراءات العلمية لاشكال التاريخ المشترك على الارض بوصف هذه الآثار وثائق رالمة وأئلة مادية تعزز القناعات المنطقية للتفسيرات الدينية للتاريخ . ان هذا

(١٤) أغريوس / روبرت / العلم في منظوره الجديد / م . ص / ص ١٤٦ - ١٤٧ يقتصر .

(١٥) توينبي / أريولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ١٩٤ .

العملية تعد مغامرة كما سماها شيلنجر^(١٦) ، ولكن شيلنجر وغيره من المؤرخين الغربيين مثل توينبي وآخرين حاولوا رسم خارطة التاريخ من خلال الحضارة الغربية وعثوها مركز الحضارة الانسانية ، وقد ذكر شيلنجر ذلك بقوله « واعني على وجه التحديد الحضارة الغربية من اوروبية وأمريكية^(١٧) . ويحاول هؤلاء المؤرخون والفلاسفة الغربيون ان يتخلصوا من هذه العقدة بون جدوى ويشير شيلنجر الى ان منهجية المؤرخين أسيرة لهذه الرقبة وانهم يمالجون « رقعة اوريا الغربية بوصفها قطباً ثابتاً ويقعة فريدة من نوعها اختيرت على سطح الكرة الارضية بون ما سبب مفضل الا لاننا نعيش عليها ونمتد بان التواريخ الهندية والبابلية والمصرية أقل جوهرية وأقل كثافة وأكثر تخفيفاً^(١٨) ، وينتقد توينبي كذلك هذه النظرة الى التاريخ التي تُعرفه « بأنه سلسلة من الاحداث التي أدت الى سيطرة الغرب^(١٩) . ان هؤلاء المؤرخين قد يكونون أكثر انصافاً من غيرهم بحيث تمت أكبر عملية تعميم على معظم اعمدة التاريخ الانساني وسلط الضوء على الحضارة الهلينية ثم الرومانية وتجاهل هؤلاء عن عمد الصفحات الحضارية التي التي التبتت من ارض الرافدين وبلاد النيل ، وسحاول في دراستنا هذه على اعادة تركيز الضوء على آثار هذه الحضارة التي تدفن لها الانسانية جمعاء . وسنحلل النتائج والمكتشفات الآتية ونقارن مع النتائج التي توصل اليها المؤرخون الغربيون انفسهم . ونحاول ان نضع هذه الحضارة في مكانها الطبيعي من حيث السبق الزمني والاهمية التاريخية وأثارها على الانسانية في حاضرها ومستقبلها ، ولكننا ونحن نتأمل هذه الحضارة ونحاول ان نتقصى بداياتها وفجر ابتنائها والتعرف على جذورها ونشوتها سوف يقولنا هذا المصار الى ان ندرك حقيقة مهمة وهي ان الصورة المفقودة هي الجزء الأكبر من التاريخ من حيث المساحة والبعد الزمني حتى اذا نظرنا الى ما قبل التاريخ وجدنا ان الجزء المفقود وهو الجزء الذي ضاعت ملامحه يمثل ٩٩٪ من التاريخ « وان التاريخ المدون بكامله هو في الواقع تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي وهو كذلك

-
- (١٦) انظر : شيلنجر / أرلوند / تنوير الحضارة الغربية / ج ١ ص ٣٩ حيث يقول (نحاول لاول مرة المغامرة في وضع تقرير مسبق للتاريخ) .
 (١٧) شيلنجر / أرلوند / تنوير الغرب / ج ١ ص ٣٩ .
 (١٨) شيلنجر / ت . م . ج ١ ص ٦١ .
 (١٩) توينبي / أرلوند / تاريخ البشرية / ج ١ ص ١٠ .

بالمعنى الذاتي كما نهب بديتو كروتشي - إن الحاجة المهمة في التاريخ هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي^(٢٠).

كيف نفهم ونعرف على فجر الوعي ؟

أنا عندما نصف بدايات تخليق الحياة لا نريد ان نبتعد عن الموضوع الذي نحن بصدده ولكن معظم الذين يتصنون الى ما قبل التاريخ لا بد لهم من المرور على البدايات التي شكلت حركة الحياة والتاريخ ، وقد بدأت الدراسات الحديثة تنحى هذا المنحى . لقد نشأ علم الاحاث (Paleontology) في وقت متأخر ولكنه أحدث أثراً عظيماً في مسار الابحاث العلمية التي تبحث عن اصل الحياة والانسان (Anthropology) السلوك الانساني . ولذلك جاء علم الاحاث ليمرر الدراسات الآتية وشكل مع علم الآثار (Archeology) وحدة متصلة لخدمة الدراسات التاريخية كذلك . فكان لا بد من المرور سريعاً على أهم النتائج والاستنتاجات حول نشأة الحياة وتطورها . وعندما نتابع هذا الموضوع لا نريد ان نحض نظرية معينة ولا ندافع عنها وانما سنوظف بتجرد النتائج التي لا تتعارض مع نصوص القرآن وقواعد الدين . ولأن التطرق الى هذه المواضيع بشكل تعمساً وهاجساً يدفع القارئ الذي يتابع الموضوع الى الرفض المطلق الذي يحكمه الاقتناع المسبق الذي يستند الى الخوف من قبول فكرة « التطور » - حتى في دائرة مملكة الحيوان - خشية ان يمتد هذا الرأي الى الانسان مما يؤدي الى مخالفة ما جاءت به التعاليم الدينية التي تملأهم الرغبة في تأييدها^(٢١) وقد فات هؤلاء ان جوانب عديدة من الاكتشافات العلمية التي يستخدمها المانيون تصلح ان تقدم كبراهين قاطعة لمصلحة الاتجاه المعاكس للمادية . والفريق الآخر الذي ينتفع في غمرة الحماسة ونشوة الانتصارات العلمية الى ممارسة الارهاب الفكري ومحاولة توظيف كل صغيرة وكبيرة للانتصار للفكرة المادية وقد يقع للتصحيح وأمثال أخرى الى إخفاء معلومات وتشويش وبليلة المقالات التي آلت بها كثير من البشر وهم يذعنون بأجوبته لزاء المعضلات القديمة ومنها الأصل الحيلة وأصل الانسان . « لقد كان بلوغ تلكاً وتناً من لوتان

(٢٠) // ترجمي // ارنولد / تذكين البعثة // ١٤٠٠ م ١٤٠٠ م

(٢١) // بيوكي / د مويوس / السبل الاستاذ / م ٢٦٠

الترسانة الاحادية وكان دائم الاستعداد لنعم اية افكار تدعّم ما يذهبون اليه . ولكننا نرى ان وقوع التطور حتى حين ينسحب على الانسان لم يعد يشكل تهديداً للمعتقد الديني فقد اثارت الدراسات الاخيرة نقاشاً - فيما يختص بنظام الحياة ونشاطاتها - انت بالفعل الى توجيهنا كلية الى عكس اتجاه الموضوع الرئيس للخلافات السابقة»^(٢٢) .

كيف نصف بداية الحياة ؟ لقد توصل العلماء في القرن الحالي الى نتائج غيرت نظرتنا الى الحياة والكون ! « والقضية كلها نظرة »^(٢٣) ، كما يقول المؤرخ توماس بري . والبداية يصفها العلماء بأنها كانت عبارة عن جزيء هلامي يمثل انبثاق الحياة الاولى وكان ذلك قبل مئات الملايين من السنين كما ذكرنا سابقاً ، وما زالت القضية غير محسومة بالنسبة الى ما وراء هذا الحدث وكيفية ظهور الخلية الى مسرح الوجود ثم اعقب هذا الظهور عمليات ازديت تعقيداً في تطوير وتنويع هذه الحياة ، هل تملك هذه الحياة وعياً كان وراء التغيرات التي طرأت عليها ؟ والمشكلة يمكن ان ينظر اليها من زاوية الانسان وعقله وعلاقة العقل بالوجود البيولوجي للماغ ، يقول بنفليك : « يبدو من المؤكد ان تفسير العقل على أساس النشاط المصحي فاحل للماغ سيحل امراً مستحيلاً كل الاستحالة ... ومن نواعي السخرية ان بنفليك بدأ ابحاثه بهدف إثبات العكس تماماً فيقول : طول حياتي العلمية سمعت جاهداً كثيرين من العلماء الى اثبات ان المماغ ينسر العقل غير ان الالة حملته آخر الامر على الاقرار بان العقل البشري والارادة البشرية حقيقتان غير مابيتين . ويعلن بنفليك : « يا له من أمر مثير ان نكتشف ان العالم يستطيع بدوره ان يؤمن عن حق بوجود الروح . « واذا كان العقل والارادة غير مابيتين فلا شك ان هاتين العلتين على حد تعبير الكس « لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطراً على الجسم والمماغ كليهما »^(٢٤) .

ان بداية الحياة على الصورة التي رسمها علماء الاحاث والاحياء الدقيقة

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٢٣) أغريس / روبرت م . وجورج ن . ستانيسو / العلم في منظوره الجديد / ص ١٥ ترجمة كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(٢٥) بوكاي / موييس / أصل الانسان / ص ٩٤ .

وغيرهم من العلماء الذين يعملون بجد لا ينقطع ولا يتوقف ، هذه الصورة كما ذكرنا لا بدل عنها ولكن مع الصورة يبرز على السطح تطور هذه الصورة البدائية للخلايا الحياتية نباتية وحيوانية والعلماء حتى الوقت الحاضر لم يصلوا الى نتيجة مجمع عليها حول تطور أشكال الحياة عبر ملايين السنين وما زال هؤلاء ينقض بعضهم بعضاً وفرضياتهم ونظرياتهم لا تتوقف . ان التغييرات التي تحصل في الخلية تتم عبر سلسلة معقدة من الاوامر والبرامج يصعب ايجاد تفسير منطقي لها بخاصة علما تكون هذه التغييرات كبيرة تؤثر في طبيعة وظيفة الخلية وشكلها ونوعها . ان العلماء حددوا الجينات الموجودة في الخلية وجعلوا هذه الجينات هي التي تحكم الاستجابات للمنبهات والتغييرات التي تحدث في الخلية . والغريب « أن التطور بدأ في التضائل بتقدم العالم في العمر »^(٢٦) ، ولا يوجد تفسير علمي لهذه الظاهرة كما انه لا يوجد تفسير علمي لعدم حصول تطور على بعض الانواع من الكائنات الحية منذ ملايين السنين ، فقد حافظت انواع من البكتريا على وجودها ملايين السنين^(٢٧) ومن أمثلتها كذلك العرصور وحشرات بحرية لها خياشيم تسمى ملوك السرطين (King Carbe) فضلاً عن نباتات مختلفة لم تتأثر اي منها بالطفقات^(٢٨) . وقد أكد العلماء ان أي تغيير في الخلية لا بد ان يركز على الجينات وعلى « معلومات محددة مودعة في داخل كل خلية ومسجلة على شريط الـ (DNA) فيها ومتضمنة الشفرة الوراثية . ان الابرار الذي يتمتع به النوع كله الذي يمرر عنه في تلك الشكل المصغر الى أقصى درجة وهو ايضاً الابرار المودع في السلسلة . سلسلة النسب ولكن ما هي القوة المحركة لهذه العمليات يقول جراسيه قد تكون نبضات استجابة من المحيط الخارجي »^(٢٩) . يسميها جراسيه نظرية التطور الخلاق (Creative Evaluation) وهي خلق جينات جديدة تقوم بمهمة التطور والتغيير ونحن نسميها الاوامر الربانية الخلاقة المقدره بقدرها كما يقول تعالى ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر ﴾^(٣٠) . نريد ان نخرج برؤية الى الاحداث من خلال نصوص القرآن الكريم الذي قدم لنا

(٢٦) انظر : م . ص ص ٨٠ .

(٢٧) انظر : م . ص ص ٨٠ .

(٢٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان م . ص / ص ٩٦ .

(٢٩) سورة القمر الايات ٤٩ / ٥٠ .

صورة فيها من الاعتبار ما ينفع الانسان ليعتدز الايمان بالله وقدرته التي تتجلى في المدى الواسع من تنوع الحياة فهذه الانواع الكثيرة والاصناف التي لا حصر لها في مملكتي الحيوان والنبات كلها تؤدي الى الحقيقة الكبرى التي لا مراء فيها وهي ﴿ الله الخالق البارئ المصور ﴾ (٢٠٠) ان هذه الحياة تيسر على وفق سنن ونواميس خلقية تخضع لهداية الله ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (٢٠١) . الله يعطي المادة الصماء الخلق ويمنحها الحياة ويرسم لها طريق التخليق ويهيئها للتطور والتغيير والتكيف مع البيئة والزمن . العلماء جميعاً لا يجيبون عن التغير الواعي المطرد نحو تحسين النوع وحمايته . فلا يمكن للمصاغة ان تجد لها مكاناً يستحق ان يكون جواباً لهذا التساؤل ولا الظفرة كذلك التي عبر عنها علماء التطور (Mutation) وجعلوها متناً منخوفاً انهار امام الحياة في صورها من اصفر جزء الخلية الى اكبر جزء مادي وهو الكون الذي يدور على وفق ناموس التخليق الالهي .

قال تعالى ﴿ لو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً لفتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (٢٢١) . لقد جمل القرآن الكريم اصل الحياة الماء ثم كان القرآن الكريم دائماً يربط الماء بالشجر « ان لا ينفك الماء والشجريتلازمان في اكثر الآيات القرآنية بوضوح فحيثما ذكر الماء فالغالب ان يذكر الشجر معه والمكس صحيح . مثل قوله تعالى ﴿ امن خلق السموات والارض واتزل لكم من السماء ماء فانبتا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم ان تنبتوا شجرها اذ الله مع الله بل هم قوم خصمون ﴾ (٢٢٢) و (٢٢٣) .

ولامر ما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ان يتفكروا في آية من كتاب الله وقال : ويل لمن قرأها ولم يتلكر فيها ﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما اتزل من السماء طائفا به الارض بعد موتها وث فيها من كل ذبابة وتصريف الرياح والسحاب المسفر

(٢٠) سورة الحشر / ٢٤ .

(٢١) سورة طه / ٥٠ .

(٢٢) الانبياء / ٢٠ .

(٢٣) سورة النمل / ٦٠ .

(٢٤) الزبيدي / د. كاسد ياسر / الطبعة في القرآن الكريم / ص ٨٥ .

بين السماء والأرض لايت لقوم يعقلون ﴿٣٦٣﴾ . هي دعوة للتفكر في رحاب الكون وأفاق العقل وحيد إدراكه وسديات البصر في السموات والأرض والليل والنهار وتهياة الماء وتقليله لجريان الفلك في آية من آيات الله ونزول الماء سبب الحياة على الأرض والنباتات التي تشق الأرض لتعبر عن حركة الحياة . وإيجاد الحياة الحيوانية وما يدبُّ على الأرض من الخلق الحيواني وسريان الرياح على وفق مقتضى خدمة الحياة وكل ذلك ينطق بأن الله تعالى قد سخر للانسان تلك المخلوق المكرم كل ما في الوجود وكل ذلك من غير قوة ذاتية للانسان بل نعم الله التي أسبغها على الانسان حتى نكر القرآن الكريم عجز الانسان عن الاحاطة بنعم الله ومجرد عد هذه النعم واحصائها مما يتعذر على الانسان ﴿ وان تعلموا نعمه الله لا تحصوها ﴾ ابراهيم / ٣٤ .

(٣٥) سورة البقرة / ١٦٤ .

(٣٦) من حديث طويل رواه ابن حبان في صحيحه عن عطاء انظر : ابن حجر الهيتمي / ابو العباس احمد بن محمد ت ٩٧٤ هـ الزواجر عن اقتراف الكبائر / ج ١ ص ٣٢ / دار الكتب العلمية / ١٩٨٧ ط ١ .

المبحث الثاني آدم (عليه السلام) أبو البشر

ان دراسة آدم (عليه السلام) وحياته من ضمن أنبياء العراق كان بسبب وجود رقم طينية تؤكد قصة خلقه من الطين ، وهذه الرقم الطينية وجدت في التراث المقيدي لحضارة وادي الرافدين وكذلك أكد قصة جنة آدم وقيم طيني على شكل ختم محفوظ في المتحف البريطاني يصور قصة آدم مع حواء في الجنة وخلف حواء صورة حية وبين آدم وحواء شجرة وتمثل النخلة وهي تؤكد قدم هذه الشجرة في وادي الرافدين ، والصورة تمثل الرجل والمرأة قد مدا يديهما لتناول الثمرة . وفي رقم طينية وصفت جنة عدن او جنة آدم . كل هذه الشواهد تؤكد ارتباط قصة آدم (عليه السلام) بارض الرافدين ، وقصة آدم (عليه السلام) تمثل قصة الانسان الاول الذي كرمه الله تعالى وكانت بداية تاريخ البشرية المكرمة تنطلق من نقطة ارتباطها بابيها آدم (عليه السلام) النبي الانسان فلا غرابة ان تقوم على ارض الرافدين اول الحضارات وأول البدايات المكرمة كانت على أرضها . وقد حاولت بعض الفلاسفة المعاصرة أن تبحث عن أصل الانسان وتأسست علوم في ميدان البحث عن أصل الانسان وتاريخ وجوده على الارض من هذه العلوم علم الانثروبولوجي . ومنذ أكثر من قرن من الزمان تواصلت النظريات والبحوث ولم يتوصل العلماء الى وضع صورة مقبولة حول أصل الانسان ووجوده على الارض . لذلك نرى انه من غير المفيد البحث عن قضية خلق الانسان من خلال هذه المعايير وان دراسة القضية من خلال التاريخ الديني والرواية الطينية يمكن ان تمنح الدارسين المعيرة والغاية من وجود الانسان على الارض ، وان البحث عن خلفية القصة قبل الغاية الدينية من خلق الانسان لا تشكل أهمية في حياة الانسان على الارض لذلك سنقوم بدراسة قصة آدم في الرواية الاسلامية ونقارنها مع الرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية .

ادم (عليه السلام) في الرواية الاسلامية :

كانت الرواية الاسلامية خالية من المفاهيم الاسطورية ومستعملة على التصورات البشرية فاعطت لقصة ادم ابعادها الاخلاقية والاعتقائية من بون أن تتلبس باهواء البشر وتصوراتهم المحنونة فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم ونكره البخاري (من طريق سميد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى عليه وسلم قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فيأتون ادم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء ، ونكر تمام الحديث) (٢٧) . هذا الحديث يؤكد الآيات القرآنية ودلالاتها على حقائق أهمها :

- ١ - إن ادم (عليه السلام) ابو البشر .
- ٢ - ان الله تعالى خلقه بيده وهو أمر غيبي له دلالة معنوية تدل على ان الله سبحانه وتعالى قد تمهد خلق ادم بعنايته ورعايته وتكريمه .
- ٣ - ان الله تعالى علم ادم الالسنه واللغات ونطق اسماء الاشياء مما يدل على بداية اللغة واسسها كانت عند ادم عليه السلام .
- ٤ - ان الله تعالى كرم هذا المخلوق وأسجد له ملائكته وقد اختلف في معنى هذا السجود (قال قتادة في قوله تعالى ﴿ وَإِلَّا لَنَأْتِيَنَّكَ الْمَلَائِكَةُ سَاجِدُونَ ﴾ لَأَدَمُ ﴿ فَكَانَتِ الطَّاعَةُ لِلَّهِ وَالسَّجْدَةُ لِأَدَمَ أَكْرَمَ اللَّهِ أَدَمَ أَنَّ أَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ﴾ وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام واکرام كما قال تعالى ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الاسم الماضي ولكنه نسخ في ملتنا) (٢٨) .

لقد أكدت هذه الحقائق جميع الآيات التي تعرضت لقصة ادم في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَلَّاكُمُ الْمَلَائِكَةُ نَاقِلَاتُ الْوَحْيِ فِي الْأَرْضِ خَلِيلَاتٍ ﴾ ، فلتوا لتجعل فيها من يفسد فيها ويهلك النعماء وتحن نسيج بهنك وتلبس لك قال تي اعلم ما لا تعلمون • وعلم ادم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال تبيوني بأسماء هؤلاء اني كتم صلاتين • فلتوا يهلكن لا علم لآلآ ما علمتا • فله أبت العلم الحكيم •

(٢٧) ابن كثير / ابو الفداء لسبيل ٧٧٤ هـ / تفسير التنبوء / ص ١٠ .

(٢٨) ابن كثير / ابو الفداء لسبيل / تفسير القرآن الكريم / ١٤ ص ٧٧ .

قال يا آدم اتينهم باسمائهم • فلما اتبأهم باسمائهم قال ألم اهل لكم اتى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبون وما كنتم تكتمون • وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه • وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه • انه هو التواب الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعاً فلما ياتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون • والذين كفروا وليتأملوا انهم اصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٢٣﴾ وقال تعالى فى سورة ص ﴿ إذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرأ من طين فلانا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين • فسجد الملائكة كلهم اجمعون • الا إبليس • استكبر وكان من الكافرين • قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي • استكبرت لم كنت من العالين • قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين • قال فاخرج منها فانك رجيم • ولن عليك لعنتي الى يوم الدين ﴾ ﴿٢٤﴾ وهذه الايات تدل على بعض نظرية التطور لماورن وما أفرزته المذاهب المادية من نظريات حول تطور الانسان من الحيوان والقرود • ولان قوله تعالى ﴿ فلانا سويته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين ﴾ منكره (فاء) التعميق وتلك يمنع التراخي ومعلوم ان آدم عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له كان (عليه السلام) بكامل صورته البشرية ولم يكن على هيئة أخرى . وفى الحديث النبوي الشريف (خلق الله آدم على صورته) فخلق آدم جاء كاملاً من جهة هيئته وصورته الانسانية . وقال الامام الرازي فى تفسيره : ان الله تعالى خلق آدم على صورة الانسان ﴿٢٥﴾ . لقد شكلت قصة آدم (عليه السلام) فى الرواية الاسلامية اساساً لفهم الوجود الانساني على الارض ، فقد بدأت القصة بفكر عناصرها وهى كما تدل عليها الايات والاحاديث الصحيحة يمكن ايجازها وتحديثها بالمناصر الآتية :

(٢٩) سورة البقرة / ٣٠ - ٣٩ .

(٤٠) سورة ص / ٧١ - ٧٨ .

(٤١) زيدان / د . عبدالكريم / المستند من قصص القرآن للدعوة والدعاة / ج ١ ص ٢٦ /

مؤسسة الرسالة بيروت / ١٩٩٧ .

١ - ان آدم (عليه السلام) اشترك معه منذ البداية زوجة ، فاعطى وجود الزوجة معنى الاسرة وبدايات المجتمع البشري وهذا يدل على اجتماعية الانسان وضرورة الاجتماع لاستمرارية الحياة . فكانت بداية الاسرة ارتباط هذه الاسرة بنظام ينبي قائم على طاعة اوامر الله تعالى حيث تدل الايات على بداية التوجيهات الربانية للانسان ضمن تربية وتدريب لضبط النفس بموجب الاوامر والنواهي ، وكذلك اصطفى آدم (عليه السلام) ووضعت فيه الملكات والاستعدادات فقد جاء خلق آدم « متمماً لخلق الارض وتهيأتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي اتبع له ان يتخذ مكانه في الارض خليفة لله رب العالمين . لذلك كان آدم يمثل امراً اراده الله فكانت ارادة الله تتلقى مع العناصر الاولى الطبيعية فكان الخلق الالهي او الفعل الالهي يتخذ شكلين لخلق الحدث او الفعل . الاول : مباشرة الفعل التاريخي المتساق ضمن سلسلة مضبوطة بالنواميس ويأخذ هذا الحدث التاريخي امداده الزمنية المقدره له يخرج بصورته النهائية وهذا الشكل يمكن أن ينتظم من خلاله التاريخ من البداية السحيقة المقدره بملايين السنين الى النهاية المحسوبة ضمن المقاييس العلمية المتفقة مع منطق الدين وقدره الخالق . والشكل الاخر لخلق الحدث هو تجاوز النواميس الطبيعية ومن خلال الكلمة النافذة في الكون والعالم ﴿ انا قضي امراً فاجاء يقول له كن فيكون ﴾ (١٦) وهذا هو شكل المعجزات (١٧) .

٢ - ظهر في صورة الحدث عنصر آخر وهو الشيطان الذي جعله الله تعالى مادة الابتلاء في حياة الانسان وقد ذكرت الايات الكريمة ان الشيطان مخلوق من نار يأخذ شكلاً من أشكال الطاقة في حين كان آدم قد خلق من طين الذي يأخذ شكلاً من أشكال المادة وكان أصل خلق الشيطان سبباً من أسباب غروره وتكبره واستملاءه على أمر الله . فكان الشيطان لا يفك عن غواية الانسان واستدراجه الى المعاصي منذ أن أعلن عداوته للانسان الاول آدم عليه السلام . (وفي صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله صلى عليه وسلم قال

(٤٢) سورة مريم / ٣٥ .

(٤٣) خليل / د. عبدالدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / ص ١١٨ - ١١٩ .

خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم ^(١١) .
 الشيطان الذي أعلن تمرده ودخل في لعنة الله كان أصله من الجن وهم
 المخلوقات التي تشارك الانسان الحياة في صورة غير مرئية لأن تكوينها
 الطافي يسمح لها أن تعيش وفق حياة روحانية غير مادية . ويؤثر هذا
 المخلوق على الانسان عن طريق الوسوسة كما فُتحت آيات قصة آدم . وقد
 حذر الرب جلّت قدرته آدم من إبليس وأمره ونهاه عن طاعة إبليس الشقي لللا
 يشقى كما شقى إبليس .

٢ - العنصر الآخر من عناصر قصة آدم (عليه السلام) (الملائكة) الملائكة
 التي كانت طائفة لأمر ربها وسجنت لآدم وقد عبرت هذه المخلوقات عن
 عبادتها للخالق بالطاعة والامتثال ومر الله . الملائكة خلقها الله من نور كما
 بين الحديث . وقد أعطى الله لها نوراً في حياة الانسان ووظائف أخرى
 أناطها الله بها مثل حفظ الانسان والعروج الى السموات ورفع الاعمال التي
 يقوم بها البشر وكتابتها وغيرها من الامور الغيبية التي لا يستطيع العقل
 البشري أن يدركها لانها خارج حدود طاقة عقل الانسان ولكن النص أخبر بها
 فوجب الايمان بها والتصديق بها . وينهب البعض استناداً الى قول الملائكة
 ﴿ اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ويقول : « ان الملائكة لم
 يقولوا ذلك الا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا
 ذلك ، وان آدم كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا . وكل هذه الاقوال
 لا تستند الى نص قطعي الثبوت والدلالة والمسألة لا يترتب عليها نفع
 ولا ضرر والله لم ينص على شيء منها في الكتب السماوية فوجب السكوت
 عنها ^(١٢) .

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١٢ .

(٤٥) الذنار / عبدالوهاب / قصص الانبياء / ص ١٢ / دار احياء التراث العربي بيروت ط ٢

أدم (عليه السلام) في الرواية التطورية :

ورد في الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين / ١ / ٢٦ : « ثم قال الله : لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا فيتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء فخلق الله الإنسان على صورته على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم وباركهم الله وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويمعتني بها وأمر الرب الإله آدم قائلاً : كل ما تشاء من جميع اشجار الجنة ولكن اياك ان تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لأنك حين تأكل منها حتماً تموت . . . ثم قال الرب الإله : ليس مستحسن أن يبقى آدم وحيداً سأصنع له معيماً مضابهاً . . . فلوطن الرب الإله آدم في نوم عميق ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسد مكانه باللحم . . . وكانت الحية أكر وحوش البرية التي صنعها الرب الإله فصالت المرأة : أحقاً أمركم الله الا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ فاجابت المرأة : يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها فقد قال الإله : لا تأكلا منه ولا تلمسا له لكي لا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل ان الله يعرف انه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تفتحن اعينكما فتصيران مثله قادرتين على التمييز بين الخير والشر . وعندما شاهدت المرأة ان الشجرة لذية للمأكول وشهية للعيون ومثيرة للنظر قطعت من ثمرها واكلت ثم أعطت زوجها ايضاً فآكل معها . فانفتحت للحال اعينهما وأدركا انهما عريانان فخاطبا لانفسهما مأزر من أوراق التين »^(١٧) .

الطرد من الجنة :

« وبما آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي وصنع الله لآدم وامراته اقمصة جلد والبسهما وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا يعرف الخير والشر فلعله يأكل ايضاً من شجرة الحياة فيحيا الى الابد فاخرجه الله من جنة عدن ليعمل في الارض التي خلق منها وأقام الله شرطي جنة عدن الكروبيم (الملائكة) ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة »^(١٨) .

(٤٦) الكتاب المقدس / العهد القديم / تك ١ - ٣ .

(٤٧) عن محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل /

مقارنة بين الرواية الإسلامية والرواية التوراتية :

ان مقارنة بسيطة بين الرواية الإسلامية والرواية التوراتية توضح لنا أهمية الرواية الإسلامية وخلوها من الأخطاء والاريكات التي في الرواية التوراتية . ان الرواية التوراتية تتفق مع الرواية الإسلامية في شخصية آدم (عليه السلام) وبعض النقاط التي تلتقي فيها القصة في الروايتين . ولكن الخلافات بين الروايتين توضح لنا عظمة الرواية القرآنية والحديثية الصحيحة من الخطأ بينما وقعت التوراة في أخطاء لا يمكن تبريرها الا بارجاع سبب هذه الأخطاء إلى الآثار البشرية في صياغة القصة وتأثرها بالتراث الرافديني كما سنرى لاحقاً ويمكن ايجاز اختلاف الروايتين في النقاط الآتية :

- ١ - الرواية التوراتية خالية من اعلان الاستخلاف الذي كرم الله به آدم والبشرية جمعاء . وخالية من ذكر اي اشارة لسجود الملائكة للمخلوق المكرم .
- ٢ - الرواية التوراتية خالية من ذكر الشيطان وبوره وان هذا الاغفال للشيطان يفقد القصة عنصراً مهماً من عناصر الحكمة والغاية التي وضعت للاعتبار لبني آدم حيث سيقوم الشيطان بنور الفؤاد والافساد ومشاركة بني الانسان في حياتهم وهو ما يقتضي بلورة الوعي والاستعداد لمواجهة وسوسة الشيطان في حياة الانسان .
- ٣ - الرواية التوراتية وصفت الرب جلّت قدرته وتعالى علواً كبيراً بالكذب حيث بررت منع آدم وزوجه من أكل الشجرة بقول الرب (لانك حين تأكل منها حتماً ستموت) ولكن آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة لم يموتا . وقد صورت التوراة الرب جلّت قدرته بأنه انما منع آدم وحواء من أكل الشجرة خوفاً من ان يكونا خالدين مثله وهذا يتنافى مع تنزيه الرب جلّت قدرته عن مثل هذه الامور .
- ٤ - وردت في الرواية التوراتية عبارة تدل على معنى شركي ووثني كما في روايات الرقم الطينية وهي تصور خطاب الالهة المتمدة للبشر وذلك في النص التوراتي (وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا) وهذا يدل على تأثر الرواية التوراتية بالتراث الرافديني وحضارة وادي الرافدين .
- ٥ - فقدت الرواية التوراتية أي معنى تربوي أخلاقي وعقائدي يضع الانسان أمام حقيقة وجوده وهي العبودية للخالق وعدم مخالفة اوامره الامر الذي توضحت

معالمه في الرواية القرآنية .

٦ - الرواية القرآنية خالية من ذكر الحية وحديثها مع حواء الذي نكرته التوراة ويبدو ان الحية كانت البديل عن الشيطان في الرواية القرآنية لان الغواية كانت بسببها في الرواية التوراتية .

آدم (عليه السلام) في الرقم الطينينة :

وردت قصة خلق آدم والخلقية والكون في التراث الرافديني فقد « ألف السومريون والبابليون من بعدهم أساطير وقصصاً عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان وجاءوا بهذا الخصوص بافكار مهمة اعتمتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلاً او جزءاً وتكرر من هذه الاساطير في سبيل المثال الاسطورة الخاصة بجلجامش ورفيقه أنكيو حيث تحتوي مقدماتها رغم قصرها على معلومات غاية في الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله انليل بعد أن كانتا كتلة واحدة . وقد كان خلق الانسان واحداً من المواضيع التي تناولتها الاساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة ايضاً^(٤٨) وقد ذكرت اسطورة سومرية يعود زمن تدوينها الى الالف الثالث قبل الميلاد^(٤٩) تذكر هذه الاسطورة ان الالهة ارادت ان تخلق عبداً من الطين الذي يؤخذ من وسط مياه العمق وتخلق منه الانسان وفي النص البابلي ان الالهة خلقت الانسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة (لوللو ناللسا) هذه الكلمة مستعارة من السومرية وتعني حرفياً الانسان الاول^(٥٠) . وقصة أدب البابلية تتلقي مع قصة آدم التوراتية في كثير من النقاط فقد صورت الاسطورة المخلوق أدباً الذي خلقتة الالهة ومنحته الحكمة ولكنه خالف اوامر الرب عندما حاول الحصول على الخلود وفي النهاية يفشل في الحصول على الخلود وتميذه الالهة الى الارض . كما ان الختم الذي عثر عليه في آثار وادي الرافدين يعبر تعبيراً واضحاً على قصة جنة آدم . وهو محفوظ حالياً في المتحف البريطاني الذي سمي (ختم الاغراء) (فانه ينقل بصفة افنية جو الفريوس الذي ورد في التوراة « سفر التكوين ٣ » لان عناصر

(٤٨) علي - د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٢٤٥ - ٢٤٧ ، بتصرف .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ / يأخذ عن (Kramer, O.P.Cit pp68) .

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .

تصميمه تتألف من اله وشجرة وامرأة وتعبان جنباً الى جنب) (١١) ولكن هذه الرقـم الطينية والاختام التي تحدثت عن قصة آدم حاول كل الذين تعرضوا لها أن يثبتوا من خلالها تأثير حضارة وادي الرافدين في التوراة فقد جملوا كل تطابق في القصة يعني ان التوراة قد اقتبست هذه القصة من تراث حضارة وادي الرافدين وهذا الامر لا يمكن تعميمه ولا بد من التفصيل . فان اشتراك عناصر القصة بين الرقـم الطينية والتوراة يمكن ان ينظر اليه من جهة أخرى وهي إن هذا الاشتراك مصدره تأثير الذبوات على حضارة وادي الرافدين ومن ثم انعكس هذا التأثير على التوراة وتكوينها ، وقد تكون التوراة قد استعادت القصة وعناصرها عن طريق الوحي لان التوراة الاصلية مصدرها الوحي والنبوة . وعليه فان تكرار الحدث وعناصره قد يكون عن طريق انتقال المعلومة من السابق الى اللاحق وهذا الغالب حيث ان حضارة وادي الرافدين سابقة للتوراة وقد يكون مصدره الوحي والنبوة وقد تعرضت للتحريف والتضخيم ويبرز هذا الجانب وهو تأثير الذبوة في حالات الاخبار عن أمور صدقها القرآن الكريم وأثبت العلم الحديث حقيقتها مثل ان الكون كان كتلة واحدة ثم انفصل وان الانسان خلق من طين . اذ لا يمكن ان يعقل ان يتوصل العقل البشري ضمن حدود المعرفة للمصور القديمة الى هذه الحقائق ما لم تكن هذه الحقائق قد نطق بها أنبياء ومن ثم أضاف اليها البشر تحريفاً وتضخيماً وتحولت الى روايات اسطورية تعبر عن معتقدات وثنية . وهكذا نجد من خلال هذه المقارنة ان شخصية آدم (عليه السلام) حقيقة تضافرت لتأكيدها الرقـم الطينية مع الرواية التوراتية ثم جاءت الرواية الاسلامية من القرآن والسنة النبوية الصحيحة لتوضح هذه الحقيقة من دون التعرض لملايسات القصة التي لا قيمة تاريخية لها من حيث الاعتبار والفائدة وكذلك نجد ان الرواية القرآنية لم تحدد اعماراً ولا ازماناً ولا أسماء غير آدم (عليه السلام) وانما وضحت القصة وعناصرها وما ارتبط بها لتؤكد هذه القصة نورها في تعليم الانسانية قيمة وجودها واسباب صلاح حياتها وكل العناصر التي ذكرتها الرواية الاسلامية وأغفلتها الرواية التوراتية كانت تشكل تأثيراً واضحاً ينسجم مع الغاية من القصة مثل الشيطان والملائكة والسجود لآدم (عليه السلام) بينما نجد ان كل العناصر التي أغفلتها الرواية الاسلامية وذكرتها الرواية التوراتية او الرقـم الطينية كانت تعبر عن

عصمة الرواية الاسلامية وريادية مصدرها لان نكرها كان يعطي صورة خاطئة او اسطورية لا قيمة لها مثل الحية او مفهوماً كفرياً او شركياً مثل اسناد الكذب الى الرب جلّت قدرته عندما منع آدم من الاكل من الشجرة تعالى الله علواً كبيراً .

اذا عدنا الان الى موضوع خلق آدم (عليه السلام) وجدنا ان نصوص القرآن الكريم قد اوضحت بان الله تعالى قد أسكنه الجنة . وقد اختلف العلماء حول حقيقة هذه الجنة ، هل هي جنة الخلد ؟ أم جنة في الارض هياها الله تعالى لسكن هذا المخلوق الجديد ؟ جمهور العلماء قال : أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى وأبنتهم من القرآن والسنة كثيرة . وقال آخرون انها لم تكن جنة الخلد بل هي جنة اعدها الله لايتلاءم آدم في الارض ووفر له فيها حاجاته من طعام وشراب وسكن ولباس ، وهذا القول محكي عن أبي بن كعب وعبدالله بن عباس وهب بن منبه وسفيان بن عيينه واختاره ابن قتيبة في المعارف^(٥٢) ، وذكر القرطبي هذا الرأي عن الممثلة والقبيرة^(٥٣) (وهي فرق اسلامية لها آراء في الاعتقاد) . وكذلك ذكر ابن القيم خلاف العلماء حول الجنة ونكر انلة الفريقين ومن طريق ما ذكر من انلة القائلين بان الجنة في الارض قولهم : « أين الدليل على اصعاد مادة آدم (العانة التي خلق منها آدم) واصعاده بعد خلقه الى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه اصلاً ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . ومن المعلوم ان ما فوق السموات ليس بمكان للطين الارضي المتكبر الرائحة الذي قد أنتن وانما محله الارض »^(٥٤) . وقد أسهب ابن القيم في كتابه وتعقب الفريقين وأبنتهم حتى نقل رأياً ثالثاً للرازي قال : المسألة يتوقف فيها لامكان الجميع وعدم القطع . الى ان قال ابن القيم في ختام نقله لآلة الفريقين « فهذا هو موقف الفريقين ونهاية اقدام الطالفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسألة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه »^(٥٥) .

والمسألة تحتل ان تكون الجنة في الارض بل ان النصوص القرآنية تتلجم

(٥٢) انظر : ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ١٦ وما بعدها .

(٥٣) انظر : القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج ١ ص ٣٠٢ .

(٥٤) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن أبي بكر النمشقي ٧٥١ هـ / مفتاح دار السمانا

ومنتهى ولاية العلم والارادة / ص ٢٧ / دار الكتب العلمية بيروت / د ٥ .

(٥٥) انظر : ابن القيم / محمد بن أبي بكر النمشقي / مفتاح السمانا / م . ص /

دلالتها مع هذا الرأي ، فلو تأملنا قوله تعالى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾^(٥٦)، وقوله تعالى ﴿ والله أخرجكم من الأرض نباتاً ﴾^(٥٧) ، فالنص يشير الى ارتباط الانسان بالأرض في جميع مراحل وجوده . وإذا كانت هذه الجنة في الأرض أين تكون . لقد تطرقت التوراة الى جنة الأرض التي أسكن الله آدم فيها وسميت جنة عدن ، وقد ذكر ابن كثير ان جنة آدم جنة في الأرض « هذا القول نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب »^(٥٨) .

ويذكر ويلكوكس حول جنة عدن المذكورة في التوراة في التكرير الذي أعده وتوصل الى نتائج أثبتتها في هذا التكرير وقد استغرق بحثه سنيّاً طوالت يقول عنها « لقد قضيت أربعة وثلاثين عاماً في دراسة كل ما ورد في العهد القديم مما له صلة بالري والاقطار التي يشملها نظام الري وهذه الدراسة مضبوغة بتحرر عملي دقيق لتلك الاقطار (يعني مصر والعراق) والذي ساعدني على هذا اختصاصي بهندسة الري ومعرفتي الجيدة باللغة العامية »^(٥٩) وحول جنة عدن يذكر « الحوائث التي ورد ذكرها في الفصل الاوّل من سفر التكوين وقعت في ارض لا توجد سواها بالامطار . ولما كانت مصر والعراق وهما اقدم البلاد المتقدمة في العالم . فمن المظنون جداً ان تكون اقدم الاقوام التي استوطنت هذين القطرين انما نزعت اليها من بلاد العرب »^(٦٠) استهدفت أثناء اقامتي في العراق مدة ثلاث سنوات دراسة نهر الفرات من منبعه الى مصبه لاصل الى معرفة مكان الجنة التي يمكن تأمين وصول المياه المسيحية اليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة فظهر لي انه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن ان تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الاراضي المستصلحة في منطقة الاهوار قرب الخليج ، جنوب الناصرية بجوار مدينة اربو القديمة حيث كانت عدن السومريين^(٦١) . « وكانت هذه الجنة حديقة غذاء مليئة

(٥٦) سورة طه / ٥٥ .

(٥٧) سورة نوح / ١٧ .

(٥٨) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء ص ١٧ .

(٥٩) ويلكوكس / سير ولهم / من جنة عدن الى عبور نهر الارمن / تعريب د. محمد الهاشمي /

المقدمة ص ١ / بغداد سنة ١٩٢٩ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٦١) ويلكوكس / ن . م . / ص ١١ .

بالنخل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما إنها مليئة بأشجار الكروم أشجار المعرفة التي حرم أكل ثمرها^(٦٢) . لقد حاول ويلكوكس ان يثبت من خلال بحثه هذا ان جنة عدن في مفهوم التوراة او جنة آدم في المفهوم الاسلامي هي منطقة على شاطئ الفرات وفرت العناية الالهية فيها أنواع الثمار والأشجار وهيا الله سبحانه ظروفاً مناخياً وماء دائماً وتتفاوت هذه الاسباب لتكون بيئة صالحة لعيش اول انسان أو بداية الجنس البشري حيث انطلق في تكوين أول تجمعات حضارية .

« وقد عثر على فخاريات في موقع جرمو (وهي أقدم القرى الزراعية المكتشفة في شمال العراق) ومنذ الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة وهامة^(٦٣) . ان التعرف على ظهور الانسان الاول أو بداية العصر الذي تتحدث عنه الروايات الدينية وهو عصر آدم عليه السلام ليس أمراً سهلاً ولكن اجمع علماء الطبقة وعلماء الاديان على ضرورة الايمان بوجود حدث مهم ظهر فيه الانسان يمثل النوع الانساني الحالي ، ولكن الخلاف حول التفاصيل . وهذا يدعو الى ضرورة تقبل آراء الطرفين وعدم اللجوء الى التكنيب والتهكم وانكار امور يطرحها النص الديني ، ولا يوجد دليل على عدم صحتها ، كما ذهب للتون الى ذلك بقوله « لسنا نعرف أين ظهر أول من يمكن التعرف عليه كممثل لنوعنا البشري ولكننا متأكدون من انه لم يظهر في مساحة صغيرة محددة المعالم وبعبارة أخرى لم تكن هناك جنة عدن »^(٦٤) . لقد اثبتت البحوث المختصة بتاريخ الحضارات ومتابعتها والدراسات الجيولوجية والمكتشفات الاثارية ان وادي الرافدين هو مهد الجنس البشري « وأطلق عليه هذا الاسم مع ان الانسان عاش وأصاب حظاً من التقدم قبل ان يتكون هذا الوادي بمصور عديدة وبالرغم من ان الباحث قد يعثر على بعض الانوات والاسلحة التي تعود الى العصر الحجري القديم في الهضبة الصحراوية الممتدة بين حوض الفرات وغور الاردن ، الا ان لهذه التسمية ما يبررها ، اذ ان هذا الوادي من البقاع التي يمكننا ان نتبع في

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٦٣) البلاغ / د. تقي مع وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / ص ١٣٨ .

(٦٤) للتون / د. والف / شجرة الحضارة ترجمة د. احمد فخري / ج ١ ص ٤٢ / القاهرة /

تاريخه السحيق أصول حضارتنا الحالية»^(٦٥) . ولكننا ونحن نبحث عن تاريخ الانسان نبحث عنه من حيث انسانيته لا من حيث حيوانيته ، وقد « وصف هربر التاريخ على انه تربية الجنس البشري وتهذيبه . ونعته كنت بأنه تطور فكرة الحرية وارتقاؤها . وعرفه هيجل بأنه امتداد ذات لروح العالم »^(٦٦) . وهذا المفهوم يتطابق مع اهداف القرآن في سرد الحدث التاريخي الذي حافظ على العبارة وطالب الانسان باعتبار احوال الامم ومصالحها وسلط الضوء على الحدث من خلال ارتباطه بالقضية التي يدعو اليها القرآن وهاجم القرآن العقل الذي لا يتعظ بالتاريخ ﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾^(٦٧) . لقد ذكر الطبري رواية تحدثنا عن لحظات موت آدم كما يلي : « لما كتب آدم وصيته مات صلوات الله عليه واجتمعت عليه الملائكة من اجل انه كان صفي الرحمن فقببرته الملائكة وشيت واخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي اول قرية كانت في الارض »^(٦٨) .

وفي رواية عن عبدالله بن الامام احمد يروي حديثاً عن أبي بن كعب « ان آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بني أني أشتهي من ثمار الجنة قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم اكفانه وحلوطه ، ومعهم الفلوس والمساحي والمكاثل ، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلانت بأدم ، فقال : اليك عني فاني انما أتيت من قبلك ، فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفلوه وحلطوه وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضوه في قبره ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم ... هذه سننكم »^(٦٩) . وقد ذكر ابن القيم حديث أبي هذا في الاستدلال على ان الجنة التي

(٦٥) / ويلي / سيوليانارد / وادي الرافدين مهد الحضارة تعريب احمد عبدالباقي / ص ١٥ / مكتبة المثلى د . ت .

(٦٦) / شبلانجر / أرند / تطور الحضارة الغربية / ج ٢ ص ٦٥ .

(٦٧) / سورة الحج آية / ٤٦ .

(٦٨) / الطبري / ابن جرير ٣١٠ هـ / تاريخ الرسل والملوك / ج ١ ص ١٥٩ . والرواية تناقض ان ابريس اول من خط بالقلم . رواية أبي بن كعب أقرب للقبول والهم .

(٦٩) / ابن كثير / ابو الفداء إسماعيل / تاريخ الانبياء / ص ٥٦ وقال عنه اسناد صحيح .

أسكن فيها آدم هي في الأرض لأن أولاده ذهبوا لقطف الثمر الذي اشتهاه منها^(١٠٠) . والآثار المروية توضح لنا بدايات تشكيل التجمعات السكانية بعد آدم ، حيث أوضحت الأحاديث أول قرية كانت في الأرض متصلة بمصر آدم .

جنة آدم التي تحدثت عنها النصوص في آيات قرآنية وأحاديث نبوية والتي نكر العلماء الاختلاف حولها هل هي في الأرض ؟ أو في السماء ؟ المنطق وتسلسل الأحداث لا يمنع من القول بوجود هذه الجنة في الأرض لكي تتسق قصة الخلق مع جميع عناصرها فتشكل فهماً متماسكاً لا توجد في تكوينه ثغرة أو فجوة يصعب على العقل استيعابها .

آدم النبي الرسول اصطفاه الله وكرمه ورفع له نبوته وأسكنه جنته التي هيأها له لكي تكون أول مرحلة من مراحل الامتحان والابتلاء . وبعد أن استدرج الشيطان هذا المخلوق الكريم وزين له مخالفة تعاليم الرب أخرجه الله من هذه الجنة إلى أرض فيها من المعاناة والتعب والشقاء مما أَرَادَهُ اللهُ لِلنَّاسِ لِيَذُوقُوا وَعَذَابَهُمْ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ فيها من معادن البشر . وقد زين الشيطان لآدم مخالفة الرب بفكرة الخلود « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فكيف يكون في جنة الخلد ويبحث عن خلود ؟ وإن هذا النص القرآني يؤكد أن آدم عليه السلام كان يعرف الموت ويخافه وربما قد شاهد حالات موت أمامه فكان اغراء إبليس له بالخلود يعبر عن معاناة آدم عليه السلام . فكان إخراج آدم هو هجرة عكسية باتجاه أرض مجدية لحكمة أرادها الله تعالى ، فكانت مكة وفي أثر مروي عن النبي ﷺ أن الله أمر آدم أن يبني الكعبة في مكة ويطوف حولها كما تطوف الملائكة^(١٠١) . وحديث آخر أن الأرض رحمت من مكة^(١٠٢) . فهي لذلك تسمى أم القرى . ومنها بدأ تكوين الأرض فهي مركز الأرض .

إن قبول فكرة وجود آدم في جنته في وادي الرافدين فكرة منطقية ولا يسبب تبليها أي تعارض مع نصوص صحيحة وبنقطة من أحاديث أو معاني آيات قرآنية وقد عثر في وادي الرافدين على رقيم على شكل ختم اسطواني يعتقد أنه يمثل فكرة جنة

(٧٠) انظر : ابن القيم / مفتاح السعادة / ص ١٩ .

(٧١) انظر : السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / ج ١

ص ١٣٩ / دار الفكر بيروت ١٩٨٢ .

(٧٢) انظر : القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج ١ ص ٢٦٣ .

ألم ومحفوظ حالياً في البريطاني باسم « ختم الاغراء »^(٧٣) وهذا يعزز القناعة بجنوب تداخل حضارة وادي الرافدين مع القصة الدينية ويدايتها على ارض الرافدين ، ومن ثم كان إخراج ألم من هذه الجنة بعد الخطيئة واتجاهه نحو مكة أمر تعززه أحاديث كثيرة وآراء علماء مسلمين ، وكذلك لا يتعارض مع الاستنتاج الطبيعى والمنطقي . ولقد وردت روايات حول أقرب الانبياء لألم هو شيت ، وهناك معلومات ضئيلة حوله وأحاديث قليلة لا نستطيع الجزم بصحتها منها حديث أبي نر « ان الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيت خمسين صحيفة . ومنها ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي نر أيضاً مرفوعاً » ان شيت كان نبياً وأنزل عليه خمسين صحيفة^(٧٤) ، وبعد شيت وردت أخبار يرويها علماء التاريخ معظمها أو كلها مستقاة من أهل الكتاب وأخبار الفرس ولا سبيل الى تصديقها أو نفيها ويذكرها ابن كثير في قصص الانبياء والمسمودي في مروج الذهب^(٧٥) . اما أدريس فقد ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى ﴿ والذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً علياً ﴾^(٧٦) . واختلف في عصره ومكانه وقيل اسم ادريس « اخذوخ ، والصابئة تزعم انه هو هرمس ، ومعنى هرمس عطارد »^(٧٧) - إشارة الى قوله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾ اي رفعه الى السماء - وقال بعض العلماء : « إن ادريس ولد ببابل ، وقد اخذ في اول عمره بعلم شيت بن ألم ولما كبر آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني ألم عن مخالفتهم شريعة ألم وشيت فاطاعه نفر قليل وخالفه جم غفير فامر أتباعه بالهجرة فقتل عليهم ترك بابل فقال لهم : اذا هاجرنا رزقنا الله غيره ، فخرجوا حتى وصلوا مصر ورأى النيل فدعا الله وسبح ، وهو أول من رسم قواعد تمليد المدن »^(٧٨) .

(٧٣) انظر : بارو / اندريه / سور فلوندا حضارتها ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي / ص ٨٥ ، بغداد / ١٩٧٨ .

(٧٤) انظر : ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٥٧ - ٥٨ .

(٧٥) انظر : ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٥٨ والمسمودي / ابو الحسن علي بن الحسين ٢٤٦٥ / مروج الذهب وصان الجواهر / ج ١ ص ٢٨ وما بعدها / تحقيق محيي الدين عبد الحميد .

(٧٦) سورة مريم آية ٥٦ / ٥٧ .

(٧٧) المسمودي / مروج الذهب / ج ١ ص ٢٩ .

(٧٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٢٦ .

وقد وريت روايات بأن إدريس أول من خط بالقلم^(٧٩) ، وإذا صحت هذه الروايات فيمكن عد عصر إدريس عصر بداية الكتابة . والحقيقة ان الكتابة كالفن حيث تعتبر اعظم حدث بعد اللغة تعلمه واكتسبه الانسان . وأقدم وثائق تتعلق بمصور فجر التاريخ تعود الى المجتمع السومري « وقد أظهر التلقيب الآثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بذاهيتين متميزتين من المدينة السومرية : الكتابة والمعمار الديني (اي المتملق بالهيكل) والعمل الخلاق كان اختراع الرموز^(٨٠) (اي الإشارات الكتابية) . ان اي محاولة لمعرفة جذور التكون الحضاري وحل الاشكاليات العالقة في نهج الباحثين حول نقطة البداية او جذر حضارة وادي الرافدين ، تعتبر هذه المحاولة ميؤوس منها حتى وصل الحال ان أحد الباحثين ذكر : « ان سئل اي سومري أو أي أكدي عن ميلاد حضارته فلمه يجيب بكل بساطة : (انها نشأت هكذا) »^(٨١) . ونكرر فركفورث ذلك بقوله : « لن نتناول مسألة كيف أصبحت الحضارة في المطلق ممكنة ؟ لاني لا اعتقد ان هناك جواباً أكيداً عن هذا السؤال . ويقول في موضع آخر : اعتقد انه على المؤرخ ان يعتبر هذا السؤال تستحيل الاجابة عليه »^(٨٢) .

طبقاً للنصوص القرآنية والحديثية وتفسيرات العلماء لها نخلص الى مفهوم حول المعرفة التي مدحها الله الخالق الى آدم المخلوق استناداً الى قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾^(٨٣) ، ما هو العلم الذي تعلمه آدم ؟ وما هي الاسماء التي تعلمها ؟ المسألة ليست سهلة التحليل والمعرفة . بل ان المعلومات المضافة في النص تكاد تحولها الى رمز للاثبات المعرفية والاستعدادات والملكات العلمية التي مدحها الله سبحانه وتعالى لآدم . « فقد ذهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المدخرة كفاء ما في هذه الارض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ويوجب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الالهية ، وقد أبدعه الله سر القدرة على

(٧٩) انظر : الصابوني / محمد علي / النبوة والانباء / ص ٢٣٥ رواية عن ابن اسحاق .

(٨٠) توبتي / أرولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٧٧ .

(٨١) انظر : ديفيد وجوان اوتيس / نشوء الحضارة ترجمة لطفي الخوري / ص ٢٩٤ / دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٨ .

(٨٢) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الأدنى ترجمة ميخائيل خوري / ص ٩-١٣ .

(٨٣) سورة البقرة ٣١ .

الرمز بالاسماء للمسميات ، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الارض^(٨٤) . لقد اعطى الله تعالى الانسان القدرة على الكلام ، وهذه القدرة لا يملكها غير الانسان من المخلوقات الحية . فكانت وسيلة الاتصال والتخاطب هذه هي السبب الاول في ربط الانسان مع أفراد مجتمعه ومثلت بداية الصفة الاجتماعية التي يمتاز بها الانسان عن باقي الحيوانات ، وكانت اللغة العامل المشترك بين البشر في كل زمان ومكان ولولاها لتعذرت إقامة مجتمعات مدنية وبناء الحضارات ثم تلت هذه القدرة كخطوة متقدمة الكتابة فقد استطاع الانسان بما منحه الله من استعداد للترقي وبما أهله للاستخلاف ان يرمز الى الاصوات بصور كتابية طورها الى حروف فكانت الكتابة واستناداً للبحوث الآثارية والدراسات الانثروبولوجية للسلوك الاجتماعي للانسان فقد توصل العلماء الى ان السومريين وهم سكان العراق القدامى اول من ابتدع الكتابة . واستناداً الى وثائق وجدت على شكل رقم طينية نستطيع ان نقول بان العراقيين القدامى قد سبقوا غيرهم الى هذا الانجاز العظيم . ويذكر ماير بان « ارض سومر كان يسكنها قوم يدعون بالسومريين وهم جنس غير سامي ولكنهم وجدوا على هذه الارض وامتزجوا بالاكديين (الساميين) وكانوا يمتلكون نظاماً للكتابة وفنوناً أخرى وثقافة متطورة ، وقد استوطنوا في حوض نهر الفرات وكونوا نواة الحضارة »^(٨٥) . وقد كان هؤلاء السومريون يكتبون على الواح طينية وهي رطبة ثم تجفف على أشعة الشمس لعدة أيام ومن ثم يحتفظ بها كالواح تشبه الألواح الخشبية وكانت هذه الألواح تتضمن خطابات ومراسلات ملكية ولصوص دينية ومعاملات تجارية ، وقد شاع استعمالها قبل ٣٠٠٠ ق م . وقد استطاع العلماء ان يتابعوا تطور نظام الكتابة السومري من الكتابة الصورية اذ كانت تكتب الكلمات على شكل صور تعبر عن المعنى ثم تطورت الى إشارات رمزية ترمز الى معنى الكلمة . والتي يعبر عنها (برسم الفكرة) او (الفكرة المرسومة ideograph) . وتبقى بداية الكتابة مجهولة التاريخ^(٨٦) ، ولكن المؤكد إنها بدأت على أرض الرافدين وانهم

(٨٤) قطب / سيد / في هلال القرن / ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ / دار الشروق بيروت ط ١١ ١٩٨٥ .

(٨٥) MYERS/ Philip Van ness/ Ancient history/ p. 50 Boston, USA 1916/ Second

Ed. 2-

C.E. Van Sickle/ Apolitical and cultural history/ of the Ancient world V. 1 p. (٨٦)

43/ Houghton MIFFLIN Company USA 1947.

نقلوها الى وادي النيل ، ولا خلاف بين المؤرخين على ذلك الا ان الدكتور احمد فخري ينفى هذا التأثير ويؤكد بان الكتابة في مصر مستقلة عن الكتابة السومرية ونشأت موازية لها ومستقلة عنها^(٨٧) . ولكن توينبي يقول « ان أقوى دليل على التأثير السومري على الكتابة المصرية هو ظهورها المفاجيء عكس الكتابة السومرية وما عرفناه عنها من تطور تدريجي من السابقة السورية . وهذا أقوى دليل منفرد يشير الى ان التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية^(٨٨) . ان اللغة والكتابة أمران معقدان لا سبيل الى معرفة جذورها بصورة دقيقة وقد نهب بعض العلماء المسلمين الى ان اللغة توقيفية اي بتعليم من الله والهام . وكذلك الكتابة فقد جاء في القرآن الكريم ﴿ اقرأ وربك الاكرم ﴾ الذي علم بالقلم ﴾ علم الانسان ما لم يعلم ﴿^(٨٩) ، هذا النص القرآني ربط بين القراءة وهي نطق يعبر عن اللغة والكتابة بالقلم وجعل مصدرها من الله تعالى واذا كان أم عليه السلام قد علمه الله تعالى القابلية على النطق بأسماء الاشياء تطورت هذه القابلية حتى وصلت الى عصر اديس عليه السلام بعد شيث الى الكتابة ورسم الفكرة (ideograph) وقد وريت روايات تذكر بان اديس عليه السلام هاجر من بابل الى مصر^(٩٠) ، وليس من المستبعد ان يكون اديس عليه السلام هو الذي نقل أسلوب الكتابة الى مصر . وقد وجدت أختام أسطوانية في مصر مستورة من بلاد ما بين النهرين^(٩١) كليل مادي على انتقال الكتابة من العراق الى مصر . ويبدو ان الكتابة على الألواح بقيت حتى عصر موسى عليه السلام يحدود القرن ١٥ ق م ، فقد ورد نص في القرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة وهو قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿ واخذ الألواح في نسطها هدى ورحمة ﴾^(٩٢) .

(٨٧) انظر ، كريمر / سامويل / الواح سومر ترجمة طه باقر / المقدمة ص ٤١ .

(٨٨) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ١٤ ص ٨٣ .

(٨٩) سورة الملق / ٣ / ٥ .

(٩٠) انظر : الحجار / قصص الانبياء / ص ٢٦ عن النبوة والانبياء للصايني ص ٢٣٦ .

(٩١) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاقصى / ص ١٠٣ .

(٩٢) سورة الاعراف آية ١٥٤ .

أهمية الملابس في قصة آدم :

ورد في قصة آدم ذكر الملابس وارتباطها بالحياة الانسانية وقد ذكرت الرواية القرآنية إن إبليس أغوى آدم وزوجه بنزع اللباس الامر الذي يعطي انطباعاً بأن الفطرة الاسلامية التي فطر الله الانسان عليها مرتبطة بالملابس التي تستر العورة وقد وضحت الرواية القرآنية ان الملابس مظهر من مظاهر الانسان المكرم .

وقد وجدت آثار وصور تؤكد ارتباط الانسان بالملابس في حضارة وادي الرافدين حيث وجد الانسان العراقي القديم (السومريون) وهو يرتدي الملابس وفي أقدم صور ونقوش للانسان القديم أكدت ارتباط الانسان بالملابس وستر العورة ويقول برستد حول السومريين « وجل ما لدينا عنهم هو وجدنا صورهم على الآثار القديمة مخلوقا الرؤوس وعليهم نقب (تنورات) من الصوف الخشن . ومنذ عهد عريق في القدم حين كانوا لا يزالون يستعملون الأدوات الحجرية »^(٩٢) ، وكذلك ذكر سيكل « السومريون لا نعرف عنهم أكثر من أنهم حالقي رؤوسهم يلففون بتنورات صوفية »^(٩٣) . حسب نتائج البحوث الأثرية أن القدماء كانوا يرتدون الملابس ، ولكن متى بدأ الانسان يلبس الملابس ؟ القرآن الكريم تصدى لهذه القضية ويربط بينها وبين حال الانسان مع الله وقد عرض القرآن كذلك ان انكشاف السوء كان بوحى الشيطان وقد ربط القرآن بين قضية اللباس وستر العورة والخطيئة الاولى عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة وبذلك كانت الملابس مظهر من مظاهر الاستخلاف الحضاري ، قال تعالى ﴿ فلما بصرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يطغفان عليهما من ورق الجنة ... ﴾^(٩٤) ، هذا النص يعلمنا بأن فطرة الانسان مجبولة على ستر العورة فانهما بعد المعصية أحسا وشعرا بما يملكان من سوءات قد انكشفت « فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه في بعض (يخصفان) ويضعان هذا الورق المشبك على سوءاتهما ، مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الانسان فطرة من تعريها »^(٩٥) .

(٩٢) براستد / : جاييس هنري / المصور القديمة ، ترجمة داود قريان / ص ٨١ .

(٩٤) C. E. Van Sickle/ History of the ancient world/ p. 40 .

(٩٥) سورة الاعراف : ٢٢ .

(٩٦) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٢ ص ١٢٦٩ .

وفي نص قرآني آخر ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يليقاً بآيائكم ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ يا بني آدم لا يلبس الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴿^(٩٧)﴾ ، النص القرآني واضح لا يقبل اللبس حين يعلن بان الله عندما خلق الانسان خلقه مكرماً مميّزاً عن الحيوان فكانت الفطرة تتفق مع طبيعة الوظيفة التي خُيِّل لها الانسان وكان الاصل والبداءة ستر العورة والانحراف هو المري « ان المري فطرة حيوانية ولا يميل الانسان اليه الا وهو يرتكس الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان وان رؤية المري جمالاً هو انكاس في النطق البشري قطعاً . والاسلام حين يدخل حضارته الى هذه المناطق يكون اول مظاهر الحضارة اكتساء المرأة^(٩٨) ، ولذلك نحن على يقين بان الصور التي وجدت في حفريات السومريين ومخلفاتهم وهم يسترون عوراتهم انما كان من تأثير النبوات وتدعوات الانبياء ويؤكد لنا كذلك هذا الامر بان الوظيفة الحضارية للانسان كان مصدرها التكريم الرباني واتساق هذا الكائن مع ارادة الله لكي يؤدي وظيفة الخلافة على الارض وان ارتداد البشرية نحو الحيوانية كان بإغراء الشيطان عندما نزع لباس الانسان ورغب لهم الانكاس نحو الوظيفة البيولوجية الحيوانية والتخلي عن الوظيفة الروحية لارتداء لباس التقوى فكان المري والثنية مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً وكان الحياء والتقوى من مظاهر الحضارة . وقد أثبتت الدراسات الاتارية ان الانسان العاقل في العصور الحجرية قد ارتدى الملابس (ولا ريب في ان ملابسه كانت من الجلود واليف النباتات لا من المنسوجات وان اوعيته كانت من الحجارة والمظام لا من الفخار والمعادن)^(٩٩) .

ان نبوة آدم كانت الانطلاقة الاولى نحو بناء حضاري انساني مرتبط بالسماء وكانت البداية التي أتاحت للانسان الانطلاق نحو تسخير الموجودات التي حوله . واذا كان العلم الحديث عاجز عن معرفة أصل الانسان الواعي ومتى بدأت رحلة وجوده على الارض فإننا نجد الاجابة عن أصل الانسان في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لقد كانت البداية منذ الاعلان الرباني في

(٩٧) سورة الاعراف : ٢٦ - ٢٧ .

(٩٨) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٣ ص ١٢٧٥ .

(٩٩) البياض / د تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / ص ١٤ .

الملا الاعلى عن استخلاف الانسان ﴿ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ﴾ (١٠٠) ، وبعد الاستخلاف وضع القرآن الكريم الاساس الصحيح للبناء الحضاري وأكد ان الحضارة الحقيقية والقيم الحقيقية هي الحضارة المستمدة من تعاليم السماء لضمان مسيرة الانسان على الارض بسلام ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً إلا ما يؤتيكم مني هندي فمن تبع هادي فلاحوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكلوا مما يتلأنا لذلك أصعاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١٠١) . إذا نبوة آدم الاصل الانساني لهذا الكائن المتفرد . وعلى الارض كانت التجربة الاولى للانسان مع السماء واستمرت المصيرة ترعاها السماء من خلال الانبياء والرسل . وكانت الاستجابات الطبيعية للظفرة التي فطر عليها الانسان تمثل نقاط انطلاق نحو تطوير الواقع وبما يملك الانسان من استعدادات أوجدها الله فيه كانت الحياة تتطور نحو الاستقلال والتسخير الامثل للارض وما عليها . التي تمثل البيئة التي يعيش فيها الانسان لقد كانت أولى الخطوات التي خطاها الانسان على الارض والتي تمثل استعداده لتسخير ما حوله عبر عنها بالصيد الذي كان يمثل المرحلة الاولى من حياة الانسان الذي استخدم عقله وطور وسائله للصيد والدفاع عن نفسه ثم تطورت فعالياته نحو الزراعة وتسخير الارض ثم تدجين الحيوانات كالغلم والماعز ثم تطورت الى صناعة الفخاريات وغيرها .

لقد كانت طبيعة الخلق التي امتاز بها الانسان تؤهله للقيام بدور عظيم على الارض . وقد ميز الخالق هذا المخلوق عن باقي المخلوقات في نقاط عديدة لعل ابسطها اختلافه عن الحيوانات في تكوينه الحيواني (البايولوجي) فقد امتازت منذ اللحظات الاولى عن باقي الحيوانات بكبر حجم الجسممة وشكل العمود الفقري بل حتى عظامه كلها تختلف عن عظام الحيوانات الاخرى وكذلك القوس في باطن القدم الذي يؤوله للمشي على القدمين . ثم امتاز الانسان بطاقات وملكات اودعها الخالق فيه مكنته لأن يقفز في الخط الاول للسيادة على الارض وما عليها من موجودات اول هذه الطاقات هي اللغة الوسيلة التي امتاز بها الانسان على جميع الحيوانات وتفرّد بكونه الحيوان الناطق الوحيد . ثم تطورت اللغة الى الكتابة التي تعبر عن عمل ابداعي راقٍ لعقل الانسان .

(١٠٠) سورة البقرة : ٣٠ .

(١٠١) سورة البقرة : ٢٨ - ٣٩ .

ولعل أهم امتياز وأرقاء هو العقل أو الوعي وهو غير الدماغ كما اثبت العلم ذلك هو جوهر الانسان وسماء القرآن الكريم الخُود ﴿ قل هو الذي جعل لكم السمع والابصار والالفة ﴾ (١٠٦) ، وسماء القلب ﴿ اظلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ (١٠٧) ، قلب الانسان وعيه بذاته وهو الطاقة التي منحها الله للانسان وبها استطاع الانسان ان يطور قابلياته ويزداد تمكيناً في السيطرة على مقدرات الارض . هذه الطاقات التي ميزت الانسان لا يزال العلم على ما بلغه من تطور يقف عاجزاً لان يجد تفسيراً لها وكيفية تكوينها وظهورها الى عالم الانسان . فاللغة لا يوجد تفسير علمي لتمييز الانسان بها ولكن القرآن الكريم وضع لنا أساسها ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ (١٠٨) . يجهل التاريخ كيف استطاع الانسان أن يصل في ابداعه الى الكتابة والقرآن الكريم وضع لنا بانها استعداد يملكه الانسان لتطوير معلوماته ﴿ علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ... ﴾ (١٠٩) .

لقد تطورت الحياة وتعمقت صورها بمر السنين ولكن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (١١٠) ، وشهدت ارض العراق أقدم المذنيات والحضارات وسبق المجتمع العراقي القديم كل مجتمعات الارض من تمكنه من ترويض الطبيعة والسيطرة على مياه الانهار (دجلة والفرات) : « والمدنية السومرية هي اقدم المذنيات الاقليمية التي نملك وثائق تتعلق بها . وهي أيضاً الوحيدة التي من المؤكد انها تطورت عن مجتمع او مجتمعات ما قبل المدنية والتي لم تنقل عن أي مجتمع شبيه بها كان كان قائماً قبل ذلك . بل ولم تكن نتيجة احياء من أي مجتمع من هذا النوع » (١١١) . لقد حفظ السومريون لنا انعكاسات وأصداء ما

(١٠٢) سورة تبارك : ٢٣ . هناك تحليلات ودراسات تقول ان للانسان جسماً اخر مكوناً من مادة امكن تصويرها بواسطة اجهزة خاصة اظهرتها مضئلة وهي ما تسمى بالهالة (Aura) ومركزها القلب . انظر كتاب الانسان تلك المخلوق المجيب / د . سمير يحيى جمال / ص ٤١ .

(١٠٣) سورة الحج : ٤٦ .

(١٠٤) سورة البقرة / ٣١ .

(١٠٥) سورة الملق : ٤ - ٥ .

(١٠٦) سورة طه : ٢٤ .

(١٠٧) تولدي / أرولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٧٧ .

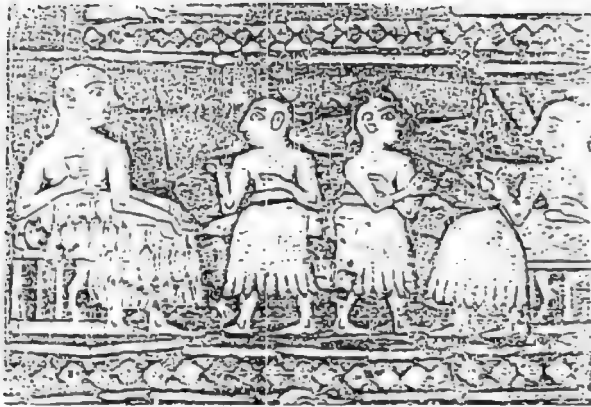
قبل التاريخ من خلال الرقم الطينية التي تعد من اعظم الوثائق التي ساعدتنا على التعرف على طبيعة حياة المجتمعات القديمة وعلى معتقدات الانسان القديم ومستوى تفكيره . كذلك لقد ساعدتنا مخلفات السومريين على النجاح في ربط النقاط الغامضة في التاريخ القديم واستطعنا من خلال تحليل هذه الآثار والمخلفات من ايجاد تصورات منطقية مترابطة حول كثير من النقاط التي كانت غامضة بخاصة فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم التي تعرضت لفترات التاريخ القديم والاشكاليات المتولدة من المقارنة بين روايات القرآن الكريم وروايات الرقم الطينية ورواية العهد القديم (التوراة) .

وقامت في الغرب دراسات عديدة مقارنة بين التوراة والآثار . فكانت الحاجة ملحة لإدخال القرآن الكريم مصدراً من المصادر المهمة التي تعيننا على التعرف على نشاط الانسان على الارض في المصور القديمة وفجر التاريخ وحتى ما قبل التاريخ وخصوصاً فيما يتعلق بالانبياء وعصورهم وبداية الخليقة وتكون السماوات والارض وتخليقها بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ (١٠٨) .

ان اصل العراقيين القدماء وما يسمون بالسومريين لا يزال مثار جدل وقضية تعنتت حولها الآراء « لقد أصبح السومريون مسألة عويصة حتى ان المعنيين بحضارة العراق القديم صاروا يسمونها بـ (المشكلة السومرية) ومنذ الثلاثينيات والنقاش محتدم بين المستشرقين المختصين بالكتابات المسمارية وأتباعين حول هذه المشكلة دون التوصل الى نتيجة حاسمة تحظى بقبول الغالبية » (١٠٩)

(١٠٨) سورة المجدة / ٧ - ٨ .

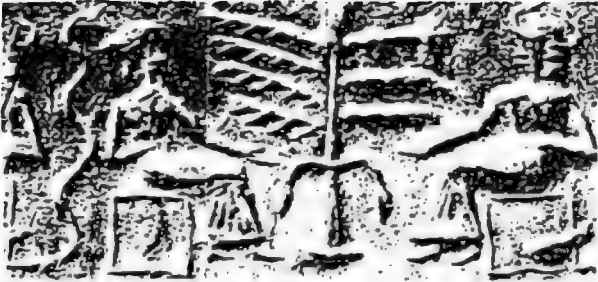
(١٠٩) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر في التوراة / ص ٢٦ .



١٧٨ - اهر، الرأية السلام تفصيلية منظر تقديم الماء المقدس (النص الاول من
الكتاب الثالث المتحف البريطاني .

بارو / النديه / سومر لغونها حضارتها ص

شكل يمثل الصومريين وهم يرتدون الثنورات وهو ما يؤكد ان الانسان قد ارتبط
بالملايس منذ بداية مسيرة الوعي والتكريم التي بدأها أنم عليه السلام وقد نلت
التقنيات والمكتشفات الاثرية على قدم استخدام الملايس وستر المورة بالنصبة
للانسان القديم



شكل يمثل رجل وأمامه امرأة وبينهما نخلة والمرأة والرجل قد مآ ينيهما لتناول
 الثمرة من الشجرة وخلف المرأة الحية . ويعتقد ان هذا الرسم يعبر عن جنة آدم
 (المتحف البريطاني)

بارو / اللويه / سومر للولها حضارتها ص ٨٥



خارطة تمثل القسم الشمالي من بلاد وادي الرافدين
 موضعاً فيها قرية جرمو وموقعها التي يعتقد أنها أقدم قرية
 بارو / اندريه / سومر فنونها حضارتها من

المبحث الثالث

قابيل وهابيل

بقيت حادثة لها دلالتها وقرينة الصلة بمصر أم عليه السلام ووقعت أحداثها كما تشير الروايات التاريخية على أرض العراق هذه الحادثة نكروها القرآن الكريم ولها دلالتها وآثارها في حياة الإنسان على الأرض . وهي حادثة أول جريمة ارتكبت على الأرض بعد الاستخلاف وتلقي المنهج الإلهي وهي الحادثة التي قتل فيها أحد ابني آدم أخاه نتيجة لحقد تولد في قلبه من مرض للنسي وانحراف عن الفطرة بسبب الحسد . وقد ذكرت هذه القصة في العهد القديم وقد غلب على رواية التوراة أسلوب قصصي مبسط غير هائل وإنما يفلب عليه أسلوب الرواية وتدخل هذه الرواية في تفاصيل وتضمينات في أسماء ومسميات الشخصيات دون التركيز على الحدث ومن يتأملها يجد شخصية الراوي قد انطبعت على صياغة القصة . على عكس الرواية القرآنية فهي رواية تربوية هائلة ركزت على جوهر قضية وهي العبادة وتقديم القران وقبوله من الله تعالى فقد وضحت العلاقة بين الإنسان والاله ، بين العبد والمعبود . ثم عكست سلوكيات الإنسان تجاه الإنسان في قضية الصراع بين الخير والشر ، وقد أعطى القرآن مفهوماً تربوياً للإنسان وهو يتعامل مع الإنسان في علاقاته الاجتماعية كلها . ان هذا الحدث ورد في العهد القديم في جوهر الحدث التاريخي كواقعة حصلت بين ابني آدم ، ولكن القرآن الكريم اختلف مع العهد القديم في التفاصيل والصياغة أي ان القرآن الكريم اختلف أسلوباً ومغزياً . وقد فسر السير ويلكوكس هذا الحدث تفسيراً مادياً بعيداً عن القيم الدينية في معرض حديثه عن رواية العهد القديم . فقد ذكر ان سبب الحدث هو الصراع على الماء بين الفلاحين والرعاة ، ويدل على استمرار

تلك الخصومة بسبب تخريب السدود من حين الى آخر ، وما ورد في العهد القديم من ان الله كان يقبل قرايين هابيل ويزنري بقايل وقرايينه ويظهر ذلك ان النضال بين الاخوين بلغ شدته فظن قبايل مرة ان اخاه قام بكسر السدود فعدا عليه وندس يده فقتله^(١١٠) .

نذكر ابناء نصوص القصة كما وردت في العهد القديم والقرآن الكريم وسنقارن بين النصين . ورد في العهد القديم سفر التكوين الاصحاح (٤) ما يأتي : « اما قبايل فقد عمل في فلاحه الارض ، وحدث بعد مرور ايام ان قدم قبايل من ثمار الارض قريانا للرب ، وقدم هابيل ايضا من خيرة ابيكار غنمه واسمها ، فتقبل الرب قريان هابيل ورضي عنه فاغتاف قبايل جداً وتجهم وجهه كمدأ ، فسأل الرب قبايل : (لماذا اغتظت ؟ لماذا تجهم وجهك ؟ لو احسنت في تصرفك الا يشرق وجهك فرحاً ؟ وان لم تحسن التصرف فعند الباب خطيئة تنتظرك تتشوق ان تتسلط عليك ، لكن يجب ان تتحكم فيها . وعاد قبايل يتظاهر بالود لاخيه هابيل وحدث اذ كانا معاً في الحقل ان قبايل هجم على اخيه هابيل فقتله »^(١١١) .

ولنقرأ النص في القرآن الكريم ﴿ واتل عليهم نبا ابني آدم بالحق اذ قربا قربتهما فتقبل من احدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتنك قال انما يتقبل الله من المتقين لنن بسطت اليك يديك تقتتي ما انا ببسط يدي اليك لاقتلك اتي اخاف الله رب العالمين اتي اريد ان تبوء بالمي والملك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الفاسقين فبعث الله غرباً يبعث في الارض ليريه كيف يواري سوءة اخيه قال يا ويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الطراب فلواري سوءة اخي فاصبح من التادمين ﴾^(١١٢) .

لو قارنا بين النصين سنجد ما يأتي :-

- ١ - ذكر العهد القديم اسمي ابلي آدم ولم يذكر النص القرآني الاسمين ، وعدم ذكر الاسماء يدل على تركيز القرآن على الفعل لا على الشخص ، ولذلك رتب القرآن المسؤولية على الفعل وكذلك القرب من الله وترقي الانسان مرتب على العمل ايضاً وبخلاص القية . وقد يور النص القرآني قبول العمل على التقوى

(١١٠) بطركوس / لفسير ولهم / من جنة عدن / ص ١٧ .

(١١١) الكتاب المصحف / العهد القديم / التكوين / ٤ / ص ٥ .

(١١٢) سورة المائدة : ٢٧ - ٣١ .

﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ولم يتطرق نص التوراة الى هذا المعنى .
٢ - ركز النص القرآني على الحوار بين الاخوين وأعطى للموقف الصحيح تأثيراً يدفع الانسان للتطلع نحو التسامح وحب الخير مما يدفع الحياة نحو الحالة الايجابية رغم سطوة الظلم وقسوته ، ويبقى الظلم مستعطباً اسود لا يمنع الحياة إشعاعاً ونوراً بل يحفزها نحو الانكماش والتوقف عن الابداع . ولم يركز النص التوراتي على هذه القضية .

٣ - بل النص القرآني من خلال تركيزه على الحوار على وجود معاني الايمان بالآخرة والجنة والنار والاثم المتولد من الخطيئة وعاقبة الظالمين . كل هذه المعاني كلها تؤكد أثر نبوة آدم عليه السلام في الحياة والمجتمع ويقالها تؤثر على الناس في فجر الانسانية . وتؤكد الآيات القرآنية كذلك ان هذه الجريمة اول خروج وتمرد على تعاليم الانبياء التي حملوها الى البشر وأوحاها الله اليهم . في حين غابت هذه المعاني عن نص العهد القديم .

٤ - يشترك النص القرآني مع نص العهد القديم في إثبات أول انواع المبادات التي شرعها الله للبشر ، وهي تقديم القرابين تمهيداً عن ارتباط الانسان بالخالق من خلال ممارسة هذه العبادة . ويبدو ان هذه العبادة قد أصابها التشويه والتحريف والتغيير شأن الانسان دائماً في إيمانه الذي يتحول بمرور الزمن من التوحيد الى الاشراك مع الخالق بسبب الضعف والجهل وغواية الشيطان ويمرور الزمن يتحول الناس بالاتجاه الخاطيء فيرسل الله تعالى من الانبياء والرسل يصححون مسيرة الانسان . وقد نلت الآثار على وجود مذابح في جميع المعابد المكتشفة .

٥ - نص العهد القديم يعكس وجود إصرار على الخطيئة ، وان هذه الخطيئة موجودة . وجعل النص من قابيل يحتال ويتظاهر بالود لكي يظهر بفرصة يقتل فيها أخاه ، وهذا المعنى يدفع القارئ للاعتقاد بالجبرية وان الشر متاجل في الانسان ، في حين ان النص القرآني يصور انفعالاً أدنياً ولحظة حقد وحسد سيطرت على الاخ لم يستطع معها ان يقاوم الفجور الكامن في النفس وارتكب الجريمة على أثرها بسبب فشله في الابتلاء وعجزه عن كبت الحقد . وهذا يعكس لنا أن صراعاً حدث في داخل النفس يدل عليه صيغة التهديد ﴿ لا تقتله ﴾ ويصور لنا النص نفسية المؤمن المسلم الذي يمتلك ايماناً

وخوفاً من الله يجعله يرتفع عن المستوى الحيواني الذي سيطر على الآخر .

٦ - لم يذكر النص التوراتي قصة الغراب بينما ذكر النص القرآني حادثة الغراب هذه وفي هذا إشارة الى أن هذه الحادثة كانت قبل أن يشيع الدفن ويتعلم الانسان كيف يدفن موته ، وكذلك تؤكد لنا قصة الغراب قضية قدم الحادثة وقربها من فجر التاريخ (أي قبل التاريخ) . وكذلك أكد لنا النص القرآني بأن الانسان كان يتعلم ويقلد الحيوانات سواء في السلوك أم في الأصوات وغيرها . وكذلك عادة دفن الموتى التي بدأت على أرض العراق كانت تمثل استجابة قابيل الأولى في دفن جثة أخيه وكان الفرض منها دفن الجثة والتخلص من التحلل الذي يصيب الجسد وعبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ كيف يواري سوءة أخيه ﴾^(١١٢) ثم تحولت هذه الطريقة الى أن يدفن مع الميت من الطعام والكنوز بل قد يدفن معه أحياء من نساء وعبيد ، هذا التمييز في طريقة الدفن ليس بمستغرب لأن الانسان الذي يتمتع عن تعاليم الدين يستسلم لعواطفه واهوائه كما نرى في طريقة دفن الموتى اليوم . ولذلك عندما كان العراقيون القدامى يدفنون موتاهم لم يكونوا يدفنون معهم من الحلبي والكنوز كما كان يفعل المصريون القدامى ، ذكر ذلك بروتست^(١١٣) .

ينكر الآثاريون أن انسان نهاوندثال أول من دفن الموتى^(١١٤) وقد وجدت في كهف شانيدر في قبر بنور أزهار بورية مما يشير بأن المدفون شخص عزيز وضع دافئه في قبره بعض الازهار البرية تعبيراً عن الود^(١١٥) .

لا بد أن نذكر ونحن بصدد تحليل هذه القصة والمقارنة بين العهد القديم والقرآن الكريم ، ان هذه القصة وبقفاصيل قريبة قد وجدت على رقم طينية تحكي تراثاً سومرياً في أدب المناظرة بين الفلاح والراعي ، وقضية تقديم القرابين والصراع بين الاخوة^(١١٦) . إن التفسيرات في بعض التفاصيل لا تؤثر على حقيقة تفرض نفسها وهي

(١١٣) سورة المائدة / ٣١

(١١٤) انظر براست / د . جاييمس هنري / المصور القديمة ، ترجمة داود

فريان / ص ٨٥ .

(١١٥) الدباغ / د تكي / الوطن العربي في المصور الحجرية / ص ١٢

(١١٦) Solecky. R.: Shanidar "Iche Flower poeple" .

(١١٧) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٢٨١ - ٢٩١ . وكذلك كريمر /

أن الإيمان بوقوع هذه الحادثة في فجر تاريخ البشرية قد أصبح حقيقة و يقيناً بالنسبة لكل دارس للتاريخ القديم ، ولكن بالنسبة لنا كمسلمين ونحن نتطلع الى النص القرآني عند قوله تعالى ﴿ وَاَمَلْ عَلَيْهِمْ نَبَا ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ نعلم انه الحق المبين وبذلك يزداد ايمان المؤمنين . ونزداد يقيناً بأهمية القرآن الكريم كمصدر لمعرفة التاريخ القديم . آخر قضية يمكن إثارتها ونحن نسير من عمق التاريخ وتتحرك من عصور ما قبل التاريخ باتجاه عصر فجر التاريخ مع الانسان الواعي الذي توقفنا عنده وحللنا نتائج بحوث العلماء المتخصصين في مجالات البحث عن أصل الانسان والتاريخ القديم ، وكذلك درسنا نصوص القرآن ومعانيها حول بداية عصر الانسان الواعي منذ آدم عليه السلام .

المبحث الرابع

أثر النبوات في حضارة وادي الرافدين

إن أصل الحضارة متوافق مع منهج الله ثم يحدث التراجع ومما يؤكد هذا الاستنتاج ما اكتشفه الآثاريون من رقم طينية توضح عقائد الانسان القديم وافكاره وكيف كان مستوى تفكيره ونظراته الى الكون والحياة ، لقد وجد في مخلفات السومريين من الرقم الطينية ما يؤكد ان عقيدة العراقيين القدماء أساسها تراث الانبياء وصنعقد مقارنة بين ما استطاع علماء الآثار والتوصل اليه ممن استطاع ان يقرأ ما كتبه العراقيون القدامى (علماء المسماريات) وبين ما قرره القرآن الكريم من مسائل عقائدية وحقائق تاريخية . وبذلك نستطيع ان نقول بان حضارة وادي الرافدين وأي حضارة قامت على الارض لم تكن وليدة الفراغ او الانقطاع بل كانت نتاج تفاعل المجتمع مع الرسائل السماوية واننا حينما نذكر الحضارة العراقية بسبب اجماع علماء الآثار والمؤرخين على انها أقدم حضارة عرفتها البشرية وامتازت بشموليتها وعالميتها ، وقد كشفت التنقيبات عن تأثير هذه الحضارة على حضارات عديدة فقد انتقلت تأثيرات حضارة وادي الرافدين في كل الاتجاهات الى « إيران وبلاد اورارتو (أرمينيا) في الشرق والشمال الشرقي والى بلدان الخليج العربي في الجنوب والى سوريا وفلسطين ومصر في الغرب والى بلاد الاناضول واليونان باتجاه الشمال والشمال الغربي^(١١٨) . ان تحليلنا لمقائده سكان وادي الرافدين القدماء يؤكد لنا بان هذه المقائده بغايا نبوات لان العقل البشري لا يستطيع ان يبتدع عقيدة . وهذه

(١١٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ١٧٣

المقيدة موجودة في الكتب المقدسة والقرآن الكريم على الخصوص . لقد غلب على ظن كثير من الباحثين ان المصالة مكموسة اذ فرضوا بان الكتب المقنسة قد تأثرت بالموروث السومري ولو كانت هذه العقائد اسطورية المعنى لكان هذا الامر مقبولا ولكن بعد تقدم العلم الحديث تأكد بان هذه العقائد حقيقية ويقين لا سبيل الى إنكاره^(١١٩) .

ولعل أهم العقائد السومرية التي كانت سائلة وتؤثر على الحياة في وادي الرافدين وعالمياً ، هذه العقائد هي :-

- ١ - الاعتقاد بأن المياة الاثرية (في السومرية Abzu) كانت أصلاً للوجود .
 - ٢ - الاعتقاد بأن الكون (An-Ki) كان في الاصل كتلة واحدة وانه شطر فيما بعد الى شطرين هما السماء (an) والارض (ki) .
 - ٣ - ان الانسان خلق من طين (حسب الرواية السومرية) ومن طين ممزوج بدم أحد الالهة (حسب الرواية البابلية) وان خلقه كان على صورة نكر وأنشئ منذ البدء .
 - ٤ - ان الانسان خلق من أجل ان يعبد الالهة ويقيم معابدها ويخصها بالنذور والقرابين .
 - ٥ - ان الموت مصير كل انسان ولا يخلد سوى الالهة .
 - ٦ - خلق البابليون على كبير أربابهم مروج أسماء عديدة للتمظيم والتعجيد بلغ عندها خمسين اسماً .
 - ٧ - اعتقد البابليون بأنه كان - (كلمة) كبير ألهمتهم مروج قنرة على فعل كل شيء سواء في الخلق أم في الفناء^(١٢٠) .
- هذه خلاصة لأهم معتقدات العراقيين القدماء ، ولو وضعنا أمام كل فقرة أعلاه آية من القرآن الكريم توافق معناها لم نجد عناء في ذلك .
- فلو تأملنا هذه المعتقدات لوجدنا ان لها أصلاً مع معاني آيات في القرآن الكريم وكما يأتي :-

(١١٩) انظر موريس بوكاي وكتبه ١ (أصل الانسان ، ٢) دراسة الكتب المقنسة في ضوء المعارف الحديثة . هذه الكتب تؤكد ما ذهبنا اليه ، وانظر كذلك موريس وكتابه العلم يدعو للايمان وكتب غيرهم كثيرة تؤكد هذه الحقيقة .

(١٢٠) علي / د فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ١٠٨

- ١ - الماء أصل الحياة في القرآن الكريم نكر في الآية الآتية وهي الآية التي تؤكد أصل الكون الواحد ﴿ لو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ (١١١) .
 - ٢ - خلق الانسان من طين ذكر في أكثر من آية ﴿ وبنا خلق الانسان من طين ﴾ ، ﴿ اتى خالق بشراً من طين ﴾ . وكذلك يمكن تعديل التصور البابلي مع قوله تعالى ﴿ فلما سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ تعديل مزج دم الالهة بنفخة الروح الالهية . وكذلك بداية الخلق كان من نكر وانثى ولبيل الزوجية هذا أحد الالهة على حاجة الحياة لزوج (نكر وانثى) للاستمرار وهذا لبيل على ان الانسان خلقه الله وفق نظام الزوجية . فهو خلق مقصود لا مكان للصدفة ولا للعبث والمضوائية في وجوده . ﴿ يا ايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ (١١٢) ، قال المفسرون (نكر وانثى) هما آدم وحواء (١١٣) .
 - ٣ - العقيدة الرابعة (ان الانسان خلق من أجل أن يعبد الالهة) نكره القرآن الكريم بصيغة التوحيد وليس الاشراك مع الله بآلهة أخرى كما كان يشرك القدماء ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ (١١٤) .
 - ٤ - الموت مصير البشر ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ .
 - ٥ - وجود الاسماء الحسنى لله عقيدة قديمة نجدها عند السومريين والبابليين القدماء ﴿ والله الاسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ .
 - ٦ - الكلمة الكونية الربانية ليست غائبة في عقيدة البشر ولم تغيب يوماً ﴿ انا فلي امرأ فإتما يقول له كن فيكون ﴾ (١١٥) .
- لقد حوى تراب الرافدين بنور النبوة والانبياء فمعه يتطلع الانسان الى قصة الانسان

(١٢١) سورة الانبياء / ٣٠ .

(١٢٢) سورة الحجرات ، ١٢ .

(١٢٣) ابن كثير / ابو القاسم اسماعيل بن ٧٧٤هـ / ٤٤٤٤ م / ٢١٧ / دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .

(١٢٤) سورة الفتح : ٥٦ .

(١٢٥) سورة مريم / ٢٥ .

الاول والمجتمع الاول والحضارة الاولى والمدنية الاولى اذ رسم الحق تعالى خطوات المصيرية الاولى وتركت آثارها وبصماتها على الحياة الانسانية على الارض . وعلى أرضه نسجت قصة الطوفان الاول حيث البداية الثانية لمصيرة الانسان مع نبي الله نوح عليه السلام وقد ترديدت قبله أصداء الانبياء والصالحين من شيت ابن آدم وانريس وما نكر من أسماء الصالحين ود ويقوت ويعوق ونسرا . على هذه الارض أسرار تاريخ الانسان كما نكر مالوان في مفكراته عندما كان يلقب في العراق « كانت الرفوف في غرفة الجلوس تضم مكتبة صغيرة . ولكننا كنا آنذاك نصنع التاريخ ولذا لم نكن بحاجة إلا الى مصادر قليلة »^(١٢٦) . إننا لا بد ان ندرك ان تحت تراب الرافدين كنوز التاريخ وقصة الحضارة للانسانية جمعاء ومراحل تطورها ولكن مما يؤسف له ان هذه الكنوز وقعت بأيدي غرياء حرصوا على التمتع على نتائج الابحاث والحفريات والكشوفات التي توصلوا اليها حتى نكر الاستاذ طه باقر هذه الحقيقة بقوله « من الامور التي عابها غير واحد على الحضارة الغربية الحاضرة وأخذه على أهل الاختصاص فيها متهمين إياهم بأنهم يسلكون في اخفاء نتائج بحوثهم ما كان عليه القدماء من أهل المعرفة في حرصهم على معرفتهم والرضن بها على الجماهير بحيث كانت من الاسرار المقتصة »^(١٢٧) .

ولكننا لو قارنا ما نشره الغربيون من تراجم الرقم الطينية التي وجبت في أرض العراق لأمكننا بسهولة معرفة أصول هذه الحضارة وجذورها التي لا يمكن ان نصفها الا انها حضارة كانت معتلة بالاثر الديني وسمات الدين الذي اوحاه الله تعالى الى أنبيائه ورسله وكل ما وجد من مفاهيم أسطورية أو وثنية أو شركية كان نتيجة طبيعية لكل تفاعل زمني مع الرسالة السماوية والانحراف المجتمع عنها بعد مدة من الزمن ، لو تأملنا حال الرسالات السماوية الثلاثة فنسجد ان نفس المفهوم يسري عليها ، اذ كان الله سبحانه وتعالى في كل مرة يرسل رسولاً او نبياً ثم تبعه مجموعة من بني قومه ويمارضه آخرون ثم ينتصر النبي واتباعه وتستقيم الحياة الانسانية بمقتضى الرسالة ثم بعد مدة من الزمن يبدأ الانحراف وتتمطل الرسالة حتى يبعث الله تعالى نبياً آخر ليصحح المسار ويمالج الانحراف وهكذا حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ، ولذلك « ان المدنية لا تدفن لاي طائفة من طوائف البشر كما تدفن

(١٢٦) مالوان / ماكس / ملكرات مالوان ، ترجمة سمير الجليبي / ص ٣٦ .

(١٢٧) كريمر / صامويل / من الواح سومر ، ترجمة د. طه باقر / انهر منظمة المترجم ص ٥ .

لهذه الطائفة الربانية (الانبياء) . إنها تدن لها في حياتها ويقائها وفي شرفها وكرامتها وفي اعتدالها وسدانها فلولاها صلى الله عليهم وسلم لغرقت سفينة الانسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة ولتحولت البشرية الى قطعان من السائمة والوحوش لا تعرف رثاً ولا تعرف ديناً ولا خلقاً ولا تعرف رحمة ولا محبة ولا تعرف من معنى اسمى وغاية أعلى من العلف والرتع . ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة من القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضله وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم^(١٢٨) .

إن أهم سمة من سمات النبوة والانبياء إن دعوتهم لا تمثل أفكارهم وليست انعكاس لمعاناتهم وانما النبوة حدث طارئ في حياتهم يختارهم الله لها وليس لهم أدنى سبب ذاتي في اختيار المنهج او الوسيلة او الزمن وإنما هو فضل من الله لحكمة يعلمها ولظروف يختارها بحكمته وعقله ، ولكن هذه السمة لا تكون عديمة المناسبة مناقضة للواقع والسبب والمسبب ، ولكن عادة تتناسب الحكمة مع الظروف الموضوعية والاعتبارات البيئية ﴿ قل إني لا أملك لكم ضرراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً إلا بطلاً من الله ورسالاته ﴾^(١٢٩) ، ولكن رعاية الله كانت تحيط الانبياء وإرادة الله كانت ترسم لأقوامهم الخير في طريق الابتلاء الذي اختاره الله لهم وهو طريق الانبياء . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي عدم وجود اعتماد مسبق او تطلع للنبوة من قبل شخص النبي الكريم بقوله تعالى ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراك به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله الا لا تعقلون ﴾^(١٣٠) . لذلك فان العقائد التي يبلغها الانبياء لم تتطور في مفاهيمها عن عقائد سابقة كما يؤمن الماديون يتطور الدين من الطوطم الى تجريد الاله المعبود ، ولكن الحاجة والفطرة الموجودة داخل الانسان هي التي تنعكس في لحظات بعد عن نبوة وضعف الانسان الفطري أمام الظواهر الطبيعية هذه هي التي تنعكس في صورة

(١٢٨) الندوي / ابو الحسن علي الحسيني / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ص ٣١ / مكتبة

وهبة القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٥

(١٢٩) سورة الجن / ٢١ - ٢٣

(١٣٠) سورة يونس / ١٦

عبادة بدائية ليس لها علاقة بوضع الانسان المعنوي والثقافي ولذلك نجد صورة ساذجة للعبادة موجودة حتى في عصرنا الحالي على الرغم من التطور الحاصل في وسائل عيش الانسان .

ومن السمات الاخرى لدعوات الانبياء الدعوة الى عبادة الاله الواحد والتوحيد « والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشمايرها هي التشديد على جانب الآخرة واللهج بها أو الاشارة بذكرها والتنويه بشأنها تنويهاً يحملها من النقاط الاساسية في دعوتهم ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ويتنوق كلامهم أن الآخرة هي دائماً نصب أعينهم »^(١٣١) ، وقد انعكس هذا الايمان على المجتمعات وحياة الناس حتى الملوك والامراء الذين انحرفوا عن الايمان بمعقيدة الانبياء كانوا يؤمنون بالآخرة وما المقابر الملكية وما فيها من متاع وكنوز الا تجسداً للايمان بالآخرة ومعقيدة البعث بعد الموت التي لا يمكن ان تفسر على أساس التحليل العقلي للانسان والتفكير الذاتي للعقل البشري ما لم يكن هناك من أثر للنبوة والانبياء وما معاني الايمان بالقيوم والجنة والنار وجنة عدن وغيرها من الافكار والمفاهيم الممزوجة بالأسطورة الأصورة من صور الايمان بالقيوم الذي دعا اليه الانبياء . وأرى من المناسب ان ننقل تراجم لبعض الرقم الطينية التي ذكرها او ترجمها كريم في كتابه ألواح سومر لدرى وحدة المصدر وأثر النبوة والانبياء والعقيدة الواحدة التي أخذت صوراً مختلفة بحسب التحريف او التفسير الذي يحدثه البشر ، يقول كريم « ان المفكر السومري الكثير التأمل كانت له القدرة العقلية على ان يفكر تفكيراً منطقياً مترابطاً ومفهوماً في أي قضايا فكرية بما ذلك أصل الكون ونظام سيره »^(١٣٢) ، وإذ كانت اليهودية تمثل طفولة البشرية بما فيها من تشديد ومحرمات كانها أوامر ونواهٍ يجب عليها الاطفال محدودي التفكير فان الشعب السومري لم يختلف عن الصور التي حفظها القرآن الكريم عن الشعوب الاولى في فجر الانسانية ، بل ان السمات الاساسية لعقل الانسان لم تتبدل ولذلك كانت العقيدة التي جاء بها الانبياء واحدة في أسسها وقواعدها وانما كان الذي يتطور ويتغير هو التشريعات التي تنظم حياتهم فكان القرآن الكريم يصور حالات من تقييد التشريعات مثل ان يحل بعض المحرمات على الامم السابقة ويخفف عنهم الاغلال والقيود بتوسيع دائرة

(١٣١) الندوي / ابو الحسن / النبوة والانبياء . م . س / ص ٤٧ .

(١٣٢) كريم / سامويل / الواح سومر / ص ١٥٩

المباحات وتقليل المحرمات من الاطعمة والاشربة وغيرها من القيود الاجتماعية وهذا نص رقيمي يؤكد تأتيم الذين يتجاوزون الحدود ويتجراون على المحرمات اذ يقول هذا النص :

« من نظر نظرة رضى الى مواطن الشر
من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير
من بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير
من اكل ما ليس له ولم يقل اكلته
من قال اكلت ما حُرِّم
ومن قال لاشربن ما حُرِّم » (١٣٣)

وفي هذا النص دلالة على عدم تغير المعايير الاخلاقية وقيم الانبياء .
ويحدثنا كريم عن أهم نتيجة توصل اليها من خلال تحليله قصيدة سومرية وجدت على رقيم طيني مع حقيقة موجودة في التوراة والديانات الاخرى وهذه الحقيقة هي « إن حواء خلقت من ضلع آدم » تماماً كما في الاحاديث النبوية الصحيحة واشاراتها الواضحة الى هذه المعاني التي قد تعطي إشارة الى معنى رمزي مستعار وهذه الاستعارة نجدها لدى السومريين وانه لامر غريب حقاً « نص القصيدة السومرية : كان أحد أعضاء الاله انكي الذي أصابه المرض هو الضلع والكلمة السومرية للضلع هي تي : Ti وبعيت الالهة التي خلقت من أجل أن تشفي (ضلع انكي) بإسم « نن - تي » . اي (سيبة الضلع) ولكن تي في السومرية تعني ايضاً تحيي (نن - تي) تعني (سيبة الضلع) وتعني كذلك (السيدة التي تحيي) (١٣٤) . ونعتقد بأنه ليس من الصعوبة معرفة جنس هذه الحقيقة وكيف عرف السومريون أصل خلق حواء ؟ التي بدأ خلقها من ضلع آدم ﴿ خلق منها زوجها ﴾ فعندما خلقت حواء من ضلع آدم أكملت غاية خلقه وتكاملت معه فحققت له شفاءً من حالة النقص التي كان يفتقر اليها وإلى تكاملها معه من خلال حالة

(١٣٣) كريم / م . س / ص ١٧٨ وما بعدها .

(١٣٤) كريم / صامويل / م . س / ص ٢٤٤ وينكر كريم حول هذه الاستعارة والتورية في اللغة السومرية « وهكذا صارت « سيبة الضلع » في الانب السومري تعني او تطابق بطريق التورية او التلاعب بالالفاظ ايضاً « السيدة تحيي » فكانت هذه التورية التي تعد أقدم تورية ادبية من نوعها قد قالت وخلدت في قصة الفريوس التوراتية » . انظر كريم

ص ٢٤٤

الزوجية^(١٢٥) . وفي ترتيبه سومرية نجد حالات من التقارب مع بعض نصوص آيات من القرآن الكريم اذ جريت هذه الترتيبات من شواذب الشرك والمفاهيم الخاطئة التي دخلت الى العقيدة السومرية نتيجة التبديل الطبيعي للبشر بعد الانبياء . فقد نكر القرآن الكريم هذه الظاهرة ﴿ يعرفون الكلم عن مواضعه ﴾ لتقرأ هذه الترتيبات الموجودة على رقيم طيني :

الليل لو الامر الواسع المدى الذي كلمته مقدسة
 الرب الذي لا يبدل كلامه الذي يقدر المصائر الى الابد
 الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم
 الذي نوره المتعالي في دخائل قلب جميع البلدان
 الليل الذي يجلس مالئاً « المنصة » البيضاء الذي يتبوا المنصة السامية
 الذي يحكم ارادات القوة والسيادة والامارة
 آلهة الارض تسجد له خشية ورهبة
 وتتخلل آلهة السماء امامه
 مدينة نفر ذات مظهر يبعث الخوف والرعب
 والضالون والاشرار والظالمون والظالمون والمتجبرون والناكثون للمهد كل
 اولئك لا يقر شرهم في المدينة^(١٢٦) .
 ورقيم آخر كتب عليه
 « سبحان الاب الليل والحمد له »^(١٢٧) .

لو اردنا أن نضع أمام هذه الترتيبات آيات من القرآن الكريم لن نجد صعوبة في وضع هذه المرادفات القرآنية التي تؤكد ان هذه الترتيبات لا يمكن أن تكون من نتاج عقل البشر في تلك العصور الصحيحة .

(١٢٥) ولم يرد اسم حواء في نص قرآني او حديث صحيح يقول بان حواء من ضلع آدم ولكن الحقيقة التي تؤكدنا نصوص القرآن الكريم والاحاديث أن النساء أصل خلقهن من الرجال اي بداية خلق الانسان من نكر وانثى وهذا يعزز ما نحيينا اليه من ان آدم لم يكن اول مخلوق لان النص لم يقل بان خلق آدم من طين ولكن « بدأ خلق الانسان من طين » .

(١٢٦) كريمر / صامويل / م . س / ص ١٧٥

(١٢٧) كريمر / صامويل / م . س / ص ٢٣٠

الليل نو الامر الواسع المدى : ﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ (١٣٨) .
كلمته المنصبة : ﴿ يبيع السموات والارض وإذا قضى امراً فإنما يقول له كن
فيكون ﴾ (١٣٩) .

الرب الذي لا يبدل كلامه : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ (١٤٠) .
الذي يقدر المصائر الى الابد : ﴿ ويهلككم الله نفسه وإلى الله
المصير ﴾ (١٤١) .

الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم : ﴿ يعلم ما يلج في الارض وما
يخرج منها وما ينزل من السماء وما يخرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما
تعملون بصير ﴾ (١٤٢) .

الذي نوره المتعالي في دخائل قلب جميع البلدان : ﴿ الله نور السموات
والارض ﴾ (١٤٣) .

الليل الذي يجلس مائلاً المنصة البيضاء الذي يتبوأ المنصة السامية :
﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ (١٤٤) ، ﴿ خلق السموات والارض في ستة
ايام ثم استوى على العرش ﴾ (١٤٥) .

(١٣٨) سورة البقرة : ١١٥

(١٣٩) سورة البقرة : ١١٧

(١٤٠) سورة يونس : ٦٤ .

(١٤١) سورة آل عمران : ٢٨ .

(١٤٢) سورة الحديد : ٤

(١٤٣) سورة النور : ٣٥

(١٤٤) سورة طه : ٥ .

(١٤٥) سورة الحديد : ٤ .

قصة أيوب (عليه السلام)

التي كريمة بحثاً في جمعية الآداب التوراتية في ١٩٥٤/١٢/٢٩ بعنوان (الانسان وربه) وهي رواية سومرية لفكرة قصة أيوب . وقد عثر عليها على شكل ستة ألواح من الطين (١٣٥) سطرأ جمعت في مقالة شميرية سومرية عثرت عليها بعثة التنقيبات الأثرية لجامعة بنسلفانيا في مدينة لُفر التي تبعد زهاء ميل الى الجنوب من بغداد الآن . أربع قطع في متحف الجامعة وقطعتان في متحف الشرق القديم في استانبول^(١١) ، ويقول كريم : « ولكي نوضح روح القصيدة ومزاجها نقتبس هذا أهم المواطن وأحسنها فهماً ووضوحاً وينبغي للقارئ ان يتذكر على الدوام ما سبق ان نوهنا به من أن معرفتنا باللغة السومرية لا تزال غير كاملة وان بعض المواطن المترجمة سيحوز فيها ويحسن بمرور الزمن^(١٢) . وهذه أجزاء من القصيدة :-

يا الهي أريد أن أقف بين يديك
أريد أن أكلّمك وكلمتي أنين وحسرات
على رأيي التي ولدتني الا تنقطع عن بث شكاتي إليك
لتصرح زوجتي بالرتاء لعذابي
يخلق بي العذاب . والالم كنك إنني لم يقدر له سوى الدموع
يمسكني الحظ السيء يقبضته ويسلبني حتى نفس الحياة
المرض الخبيث يعم جسمي
لقد قالوا - أي الحكماء البارعون - كلمة صدق وحق

(١٤٦) كريم / صامويل / م . ص / ص ٢٠٧ .

(١٤٧) كريم / صامويل / م . ص / ص ٢١٠ . (وأيوب ورد ذكره في التوراة ويبدو سفر أيوب قريباً في وضعه وموضوعه بين أسفار العهد القديم لانه أول من نص على الايمان بالبعث في كتب العهد القديم وهو نبي ليس من بني اسرائيل ومختلف في عصره ويبدو انه أقدم من ابراهيم انظر المقاد / عباس محمود / ابو الانبياء / ص ١٩٦ . ويبدو ان قصة أيوب دخلت العهد القديم من وادي الرافدين . انظر ما سياتي حول أيوب (عليه السلام) فقد ألفينا له مبحثاً خاصاً يمد ابراهيم ويوطع عليهما السلام .

لم يولد لام طفل بلا خطيئة
ان الطفل البريء لم يكن في الوجود منذ القدم
لقد طرد شيطان المرض - والمرض الذي ضربه مثل - قد أزاله ويده ويذل
مصير السوء .

ويذل عذاب الرجل فرحاً وحبوراً^(١٤٨) .
وهذا رقيم طيني مقتطع يصف قدرة الاله
« والانهار لولاه ما جبلت مياهها الفيض والارواء
ولولاه ما وضع السمك بيضة في الاهوار
ولما بنت اطيوار السماء أعشاشها في الأرض الواسعة
وفي السماء لولاه ما جاءت بمائها السحب السائرة
ولولاه ما نمت النباتات والاعشاب التي يزهو بها السهل
ولما نتجت الاشجار النابتة في غابة الجبل أنمارها^(١٤٩) .

ويقول كريم : هناك عقيدة سومرية كانت تطغى على مبادئ السلوك والمثل العليا
عند السومريين تلك هي « أن الانسان صنع من طين ليعلم الالهة »^(١٥٠) .

نص يصف جنة عدن او الجنة

« في لعمون لا ينعق الغراب الاسود

ولا يفترس الاسد والذئب لا يفترس الحمل - ولم توجد الارملة - وما من أرمم يشتكي
ويقول (عيني مريضة) وعجوز لعمون لا تقول أنا عجوز - ولا يقول الشيخ (أنا
شيخ طاعن في السن) والعذراء لا تستحم - ومن عبر نهر الموت لا يتفوه ويقول -
(النص منخرم)^(١٥١) .

إن هذه النصوص تؤكد لنا حقيقة واحدة وهي أن كل الوجود ينطلق بالايمان بدءاً
منذ فجر الانسانية حتى عصرنا الحالي وان الدين يمثل الخطاب الالهي للانسان
ايضا وجد ومتى كان كما يقول كريم « وأذا كنت في ريب من الاخوة البشرية
والانسانية المشتركة بين جميع الاقوام والاجناس فارجع الى اقوالهم السائدة

(١٤٨) كريم / م . ص / ص ٢١٣ .

(١٤٩) كريم / م . ص / ص ١٧٨ .

(١٥٠) كريم / م . ص / ص ١٩٧ .

(١٥١) كريم / م . ص / ص ٢٤٥ .

وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم ونصائحهم فإنها أكثر من نتاج أدبي تخفرت قشره الاختلافات الحضارية وفروق البيئة وتكشف أمام أعيننا طبيعة البشر الأساسية حينئذ وأنى عاشوا . وقد جمعت الأمثال السومرية ونوتت قبل نيف وخمسة وتلاثين قرناً . وهذه نصوص بعض أمثالهم :

« لو وضعت في الماء لفسد »

« كتب علينا الموت فللتفق »

« من ملك الفضة الكثيرة فقد يكون سعيداً ومن ملك شعيراً كثيراً فقد يكون

سعيداً ؛ لكن من لا يملك شيئاً في وسعه أن ينام ١١ » (١٢٢) .

ان نظرة السومريين للدين وعقيدتهم حول الآلهة تعبر تعبيراً قوياً حول تأثر هذه العقيدة بالنبوات اذ ليس من المعقول ان يمتلك العقل البشري في تلك الفترة هذه التصورات وينسجها خياله من العدم لو لم تكن هناك محاولات لانباء حاولوا تصحيح عقيدة التوحيد والايمان أو التبليغ بوجود اله خالق مبدع هو الذي خلق الانسان والسموات والارض وكل ما في الوجود .

ان التقارب في التصورات الاساسية للعقيدة الدينية ابتداءً من التصورات البشرية حول الإله الخالق ومروراً بتصوراتهم حول خلق الانسان الهائف وتحديد هذا الخلق ومكوناته وكذلك التصورات التي تجمع بين عقيدة القدر والابتلاء والصبر على البلاء والخطايا والذنوب كل هذه الامور تضع أمام الباحثين نسجاً متقارباً من الصورة حتى بين المراحل المختلفة والاقوام والامم المختلفة وهو ما يؤكد وحدة الاصل والمصدر .

لقد كان المجتمع السومري ينظر الى قوى الطبيعة على انها انعكاس لقدرة الآلهة « وقد استمرت الآلهة السومرية بوصفها ممثلة لقوى الطبيعة على القيام بدورها جزءاً من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السومري ككل » (١٢٣) . ولذلك كانت الحضارة السومرية تمثل المحاولات الاولى للارتقاء الانساني على سلم الحضارة ، وكانت النبوات قد وضعت خطأ الانسان باتجاه تحقيق هذا الانجاز ، وقد انعكس هذا الاثر على صور الحياة وطبيعتها المدنية والفكرية والادبية والمعمارية في المجتمع السومري وكما تساعل توينبي « ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من

(١٥٢) كريس / الواح سومر / ص ٢١٧ - ٢١٩ .

(١٥٣) توينبي / أرنبند / تاريخ البشرية / ط ١ ص ٨١ .

المجتمع الذي اوجده السومريون ؟ فائض في الانتاج وتباين في الطبقات ، والكتابة ،
والعمارة الضخمة والمستقرات المدنية والحرب ، كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة
ولكن التغيير الجذري كان في صفة الالهة ووظيفتها^(١٠٤) .

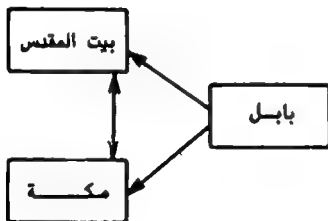
إن أعظم أثر نلاحظه على الحضارة السومرية هو أثرها العالمي الامر الذي
يؤكد هيمنة هذه الحضارة على عقل الانسان المعاصر لها وتأثره بها حيثما كان . ان
ظهور الحضارة في هذا المكان من وادي الرافدين في عصر يصعب فيه الاتصال
وينعدم وجود إمكانية امتلاك وسائل صناعية للسيطرة على الظروف البيئية يثير
تساؤلاً عن سر هذا الظهور المفاجيء ، وانه يمس لنا ان الامر كان يمثل استجابة لامر
إلهي . إراد الله لهذه البلاد ان تكون مركزاً روحانياً وحضارياً حيث شامت ارادته ان
تستقبل هذه الارض المهاجرين القادمين من الجزيرة وتمدهم حضارياً فينطلقون منها
الى الارض يبلغون رسالات الله . فعلى أرضها انطلق أبو البشر الثاني نوح (عليه
السلام) يعلم الانسانية دروساً في التحمل والمواجهة ومن هذه الارض اندفع أبو
الانبياء إبراهيم يعلم الانسانية الحكمة ويقيم عليها الحجة . ولذلك لو استحضرونا
هذه المعاني والاحداث سوف ندرك أن أرض الرافدين قد هيات بامر الله لامر عظيم
حتى إن بعض الباحثين يتعجبون من قيام الحضارة على هذه الرقعة بون غيرها
ويتساءلون عن خصوصية هذا الاختيار حيث يقول توينبي « وانه أمر يدعو الى
العجب ان تظهر أقدم المدنيات القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات لا في
مصر العليا بل في الحوض الأدنى لدجلة والفرات ، فالسومريون لم يسبقوا المصريين
فقط في مفامرتهم بل تفوقوا عليهم ، فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتماداً على
استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام وهي الفرين وقاموا باستيراد معظم
احتياجاتهم من أحجار التماثيل والنحاس وان استيراد الحجر الصالح للنحاس في
سومر كانت كلفته ككلفة استيراد الذهب او الفضة . وقال السومريون المصريين
بالتجارة ايضاً وكانوا اكثر نشاطاً منهم توسعوا تجارياً الى نهر السند وتوسعوا
تجارياً في الخليج العربي ولكن أهم عمل كبير في النقل والمتاجرة كان توسع
السومريين التجاري في الاتجاه الشمالي الغربي^(١٠٥) . لقد أثرت المدنية السومرية

(١٥٤) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ط ١ ص ٨٠ .

(١٥٥) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٨٧ . وهذا يؤكد تهية هذه المنطقة لكي تؤدي

في المدنيات المعاصرة لها جميعاً ، فقد ثبت أثرها على الطرعونية وعلى العيلامية التي كانت ملتبسة من الصومرية في كثير من ملامحها ، وعلى السندية وتسمى مدينة (الشرهيسوختا) التي قامت في حوض السند في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذي قامت فيه مدينة في آسيا الصغرى كانت تدور في فلك الصومرية « (١٠٦) .

وبعد أن توضحت لنا معالم صورة العالم القديم يمكننا أن نرسم مخطط يوضح ظهور الانبياء وارتباطه بالرقعة الجغرافية . حيث شكلت أرض الرافدين رأس المثلث الروحي للانطلاق نحو النقاط الأخرى . ويوضح كذلك التفاعل بين مهد الجنس البشري والانبياء ، ويمكن التعرف على الروابط الوثيقة والعلاقة الروحية التي كانت قائمة بين مدن الشرق الأدنى .



المثلث الروحي الذي يمثل العلاقة التاريخية بين المدن الثلاث ،
المدينتان المقدستان مكة وبيت المقدس مع بابل

→ دورها التاريخي وتتواصل مع فلسطين لتحتضن الذبوات حتى يحين دور مكة ومحمد
() .

(١٥٦) تولي / م . س / ١٤ ص ١١٠ .

- ١ - قال تعالى ﴿ وما أنزل على الصلّين ببابل هاروت وماروت ﴾ (١٧٧) ، نكر بابل يدل على انها كانت مركز القوة والسلطة الى عصر سليمان (عليه السلام) قبل الميلاد بحدود عشرة قرون ، وفي عصر سليمان بني بيت المقدس ، أراه سليمان ان يكون اعظم مسجد على الارض حتى سأل ربه ثلاث خصال « أیما رجل خرج من بيته لا يريد الا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » رواه احمد والنسائي . وقال ابن كثير بعد ان أورد الثالثة : « فرجع ان تكون الثالثة لنا وان الله قد أعطانا إياها » (١٧٨) ، يعني مكة . وأقام سليمان سوراً حول القدس (مدينة اورشليم) ويبدو ان تسمية اورشليم متأثرة بأسماء المدينة العراقية القديمة أور ، أو أن بابل كانت (باب ايل) اي باب الاله (١٧٩) ، فكانت اورشليم وتعلمي أور السلام .
- ٢ - قال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾ (١٨٠) أول رمز للتوحيد كان مكة ، وفي روايات ان الله أمر آدم ببناؤها والطواف حولها ، وروايات ان الارض بحيث من مكة ، وقد ذكرت هذه الروايات وتخريجها .
- ٣ - قال تعالى ﴿ سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾ (١٨١) .
- قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اختتن ابراهيم (عليه السلام) وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » ..
- رواه البخاري ، والقدوم اسم مكان كما نكر ذلك شراح الحديث .

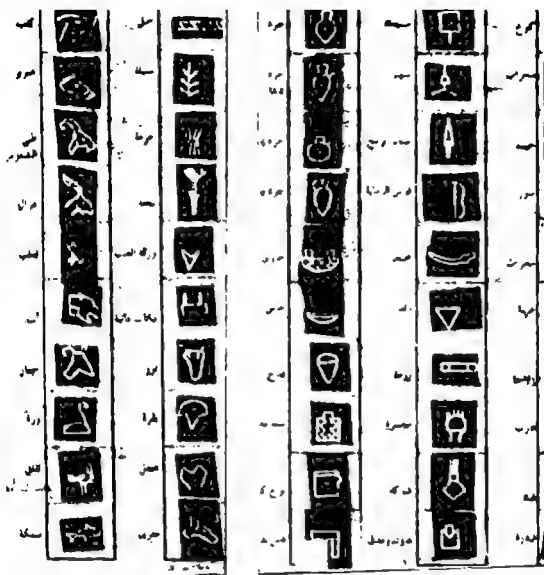
(١٥٧) سورة البقرة / ١٠٢

(١٥٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٧٠ .

(١٥٩) الطوك / علي / الاساطير / ص ١٢١

(١٦٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٦١) سورة الاسراء / ١ .



بارو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها

الكتابة الصورية التي كانت تعبر عن الفكرة بالصورة

وهي تمثل المرحلة السابقة للكتابة ويلاحظ أمام صورة القضيبي (sex) عبرت عن الختان مما يرجح ان الختان قد عرف في المجتمع العراقي القديم وهذه دلائل اثر النبوات في المجتمع العراقي القديم إذ ان الختان يمثل أول تكليف مماناة وقسوة لا يستجيب له الانسان ما لم يكن تحت وازع الدين



٨٦ - الوركاء المعبد الابيض (النصف الثاني من الالف الرابع ق . م .)
 ارو / اندريه / سومر فنونها حضارتها ص

- لوح صليبر خمبابا (اواخر الالف الثاني ق . م .) المتحف البريه

شكل يمثل الشيطان الذي عُرف بملحمة جلجامش خمبابا
في المتحف البريطاني ويمبر عن قبح صورة الشيطان في ذهن الفنان
القديم

بارو / اندريه / سومر فنونها حفا

صورة لورقيم طيني فيه تمرين هندسي
القديم نحو ١٨٠٠ ق.م. في حساب مساحة اجزاء ١١
بوستيفيت / نيكولاس / حضارة العراق

متعبدون (النصف الاول من الالف الثالث ق. م .) (أ) و (ب) تما
 حفاجي . (ج) و (د) تماثيل من تل اسمر

متعبدون متحف دمشق



في الحديث قال النبي (
 « إنا معشر الانبياء أ
 نمسك بإيماننا على ش
 رواه الطبراني في الكبير وقال إسناده

لشكال لتماثيل من مواقع أثرية مختلفة تمثل حال التعمد
 ت الابهادي اليمنى على اليسرى مما يؤكد حالة المباداة الذي ذكرها ا
 (續) من سنن الططرة وضع اليمنى على اليسرى
 / نيكولاس / حضارة العراق وآثاره
 رو / اندويه / سومر فنونها وحضارتها
 ان كل تماثيل او نقش يصور حالة عبادة او يرتبط بعبادة يصور حالة وض
 اليمنى على اليسرى

٨١- النسخة الأفضل حالة من قائمة اله

الجانب اسماء الملوك قبل ال

٨٢- تظهر الاختام الطينية التجارة في »

يستعمل في ختم الاكياس

نيوكلاس / حضارة اله

الفصل الثاني

النبي نوح (عليه السلام) أبو البشرية الثاني

المبحث الاول

متابعة تاريخية للتعرف على مصر النبطي نوح (عليه السلام)

ان القرآن الكريم سجل لنا أهم الاحداث التي مرت على البشرية وقد أكد القرآن الكريم على معنى واحد وبرزه ذلك هو مدى ارتباط الحدث بالهدف الذي أراده الله للإنسان وهو تحقيق العبودية لله على الأرض . ولعل أهم الاحداث التي كانت تمر على البشرية هي زمان إرسال الرسل وإعلان هؤلاء الرسل هذا النبا أو الحدث على ملاهم ودعوتهم الى التخلي عن الانحرافات التي دعت الى إرسال الرسول . وكان تواصل السماء غير منقطع عن الأرض وما ترك الله أمة الا وأرسل اليها رسولاً أو نبياً ولم يحدث انقطاع في حياة البشر ولكن منهم قمّ علينا القرآن قصته مع قومه ومنهم من لم يقصص كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمد (ﷺ) ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾^(١) . فكان الانبياء يتواصلون في النسب ذرية بعضها من بعض قال تعالى ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم وإسرائيل ومنهم هدينا واجتبينا ﴾^(٢) . فتواصلت بعد آدم في ذريته النبوة ولكن القرآن الكريم سلط الضوء

(١) النساء / ١٦٤

(٢) مريم / ٥٨ .

على النبوات والرسالات التي كانت تمثل أهمية قصوى في حياة البشرية ونكرمهم كان يعطي البشرية دروساً في الاحساس بالمسؤولية التي كان يتمتع بها هؤلاء والامانة . وينوع الاساليب التي عرضها القرآن والتي استخدمها هؤلاء الانبياء في دعوة القوامهم فكانت حصيلة دعواتهم تتركز في نهاية المطاف عند خاتمهم وأفضلهم محمد (ﷺ) فقد مثل محمد (ﷺ) الانموذج المتكامل للرسالة التي تستوفي شروط البقاء حتى آخر يوم من أيام عمر الانسان على الارض فكان آدم الاول ومحمد الخاتم عليه صلوات الله وسلامه . وبين آدم ومحمد (ﷺ) أنبياء ورسول ، والرسول هو الذي يوحي اليه ويحمل رسالة الى قومه ويكلف بتبليغها والنبي هو الذي يوحي اليه بشرع ولم يكلف بالتبليغ^(٣) . فالرسالة أعلى من النبوة وكل رسول نبي ولا عكس .

إن ظهور الانبياء صفة ملازمة للانسانية وهبة ربانية حبا الله الانسان بها فكان الانبياء والرسول يملعون الناس الخير ويحذرونهم من الشر ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . لفسكان عدد الانبياء كثيراً جداً « وقد وردت روايات بان عندهم يزيد على مائة وعشرين ألفاً اما الرسل منهم فقلّة والذين نكروا في القرآن الكريم يجب الايمان بهم تفضيلاً وهم (٢٥) خمسة وعشرون^(٤) .

إن أهم صفة تميزت بها دعوة الانبياء هي تثبيت عقيدة التوحيد في حياة البشر ونبذ الشرك وعبادة غير الله قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسلاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٥) .

لقد أرسل الله تعالى الانبياء والرسول بصورة متعاقبة ومعقبة واحدة مع شريعة تتناسب مع عصر الرسول المبعوث . وكان كل رسول يذكر قومه بالتجربة التي سبقته وعاقبة الاقوام الاخرى التي كذبت او عاندت . قال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾^(٦) الى ان نكرمهم بمن قبلهم ﴿ ولاذكروا إلا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله

(٣) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٣

(٤) الصابوني م . ص / ص ١٤ / يذكر رواية عند الانبياء والرسول عن الامام احمد .

(٥) النحل / ٣٦ .

(٦) الاعراف / ٦٥ .

لكنكم تفلحون»^(٧) . ثم جاءت بعد عاد ثمود وانطلق نبيهم ينكرهم بمن قبلهم
 ﴿ ولذكروا لا جعلكم خلائف من بعد عاد ويؤام في الارض لتظلمون من سهولها قصورا
 وتشكون الجبال بيوتا . فاذكروا لآله الله ولا تطوا في الارض مفسدين »^(٨) .

لقد وضع القرن الكريم الحدث التاريخي ضمن اطار المعيرة واستخلاص التجربة
 لبناء موقف جديد يتسم بالتواضع والقدرة على الثبات في مواجهة الصراع الذي
 يحصل بين المجتمع الجاهلي والانبياء واتباعهم من جهة أخرى . ﴿ كذلك نقص
 عليك من انباء ما قد سبق وقد آتيناك من انباء ذكرا » من اعرض عنه فانه يحمل يوم
 القيامة وزرا » خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا »^(٩) ومن خلال لقاء الضوء
 على هذه المساحات الهائلة من التاريخ القديم وضمن هذه التجارب التي خاضها
 الانبياء تبرز القدرة على تحمل اعباء المسؤولية ضمن العصر الاخير للانسان على
 الارض لقد كانت هذه القصص التي قصها القرآن وسيلة تربوية لاعادة المجتمع
 المسلم وبناء الامة التي اكتسبت الفضيلة الشهود على الامم ﴿ وكذلك جعلناكم امة
 وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »^(١٠) فكان محمد
 (ﷺ) سميأ وهو يتلقى تلك الشحنات من الطاقة الهائلة التي تحملها آيات القرآن
 وهي تنص عليه انباء أخوته الانبياء من قبله .

لقد أثبت القرآن الكريم في ثنايا آياته التي كانت ترمض مواقف الانبياء
 وتكشف النقاب عن جذور الاحداث والوقائع « بان التاريخ لا يتحرك فوضى وعلى غير
 هدف وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والاشياء .
 سواء بمواء . وإن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصفة . والقانون هو الذي يحكم
 التاريخ تلك هي العقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن
 الكريم »^(١١) . ان القرآن الكريم عندما عالج الوقائع من الجانب التاريخي تجاوز
 تفاصيل وفتاى كثيرة وعرض الواقعة من خلال وحدة الزمن وأزال حواجز الاختلافات
 العصرية فعندما كان يعرض القرآن الكريم قضية إعلان استقلال أمم نجده ينتقل

(٧) الاعراف / ٦٩ .

(٨) الاعراف / ٧٤ .

(٩) طه / ٩٩ - ١٠١ .

(١٠) البقرة / ١٤٣ .

(١١) خليل / د. عبدالدين / حول اعادة تشكيل العقل المسلم / ص ٣ / بغداد مطبعة مطير /

الى بني اسرائيل^(١٢) فيضع امام المتأمل احداثاً جرت من أزمنتها لكي يعطي خلاصة العبرة من الحدث التاريخي ولكن عندما كانت العبرة تحتاج في ابرازها الى عنصر الزمن وتأسيس مقياس حسي فقد ذكر القرآن الكريم بصورة تواصل العصر السابق مع اللاحق بالنسبة الى عاد الذين نكروهم بمصر نوح (عليه السلام) وثمود الذين نكروهم بمصر عاد . إن هذا التذكير وظف التاريخ لهدف عرض التجارب البشرية والاعتبار بعواقبها « وإثارة الفكر البشري وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الانسان »^(١٣) .

وإذا عدنا الى محاولة تحديد عصر نوح (عليه السلام) لا بد أن ندرك حقيقة وهي أن المسألة ليست بالسهولة بحيث تمالج بطريقة سطحية تلقائية بل أن الاضطراب الحاصل في رؤية كثير من دارسي التاريخ القديم يجعل الصورة فاقدة الملامح يتعذر معها تحديد أو ربط أو استنتاج علمي يكتسب القدرة على إقناع القارئ بوجود معلومة موثقة في تحديد عصره أو مكانه . لذلك نجد أن معظم قراءات التاريخ القديم مشوشة وإذا كان القدماء غلبت على طروحاتهم الخرافات والاساطير فإن المعاصرين غلبت عروضهم للتاريخ القديم الاوهام والاهواء والظنون كما يقول ديورانت « معظم التاريخ هن وبقيته من املاء الهوى »^(١٤) .

والقضية ليست عصر نوح أو مكانه مما يمجز متخصصو التاريخ القديم ان يبحثوا فيه ولكن معظم قضايا التاريخ القديم هي قضايا معلقة مفتوحة فيها الباب أمام الافتراضات والنظريات التي لا تنتهي ، ولا يمكن تصديقها أو تكذيبها بحال . ومن أمثلة معضلات التاريخ القديم أصل الانسان أو اللغة وكيفية ارتباطها بالانسان أو الكتابة ! واستخدام الوسائل أو تطويرها عند الانسان ابتداءً من الزراعة وتخزين الطعام والنار واستخدامها والمعائن . ثم أول تجمع سكاني متى وأين ! وهكذا كل القضايا التي تبرز أمام الباحثين عن طريق الحفريات والآثار تبدأ معها اوهام

(١٢) يمكن متابعة هذه الحالة في سورة البقرة بعد عرض قصة آدم ينتقل القرآن الكريم الى بني اسرائيل وفي أحداث كثيرة في القرآن يمزج القرآن الكريم الواقع ويمررها في مستوى واحد لبيان وحدة الاصل في المعلومة لانها من الله الخالق ووحدة العنصر المتلقي وهم الانسان في كل زمان ومكان . (فميرت القضية عن ارتباط المخلوق بالخالق) .

(١٣) خليل / د. عماد الدين / التفسير الاسلامي التاريخي / ص ١٠٦ .

(١٤) ديورانت / بول / قصة الحضارة / ج ١ ص ٢٣ سبق ان أشير الى هذه العبارة .

المؤرخين واستنتاجاتهم وما قضية أصل السومريين او العراقيين القدامى عنا ببعية .
لقد كان القرآن واضحاً في عرضه اسس التعامل مع القضايا الحاسمة والتي
تعد نقاط مفترق الطرق بين المناهج البشرية التي وضعها الفلاسفة والمفكرون مثل
المادية والمثالية التي حاولت حل الاشكاليات على وفق مستوى النظر للعقل
البشري . لقد اعطى القرآن مزيجاً متوازناً بين الايمان بقدرة الخالق اللامحدودة
وقدرة الانسان المستمدة من القابليات والاستعدادات التي اوجدها الله سبحانه
وتعالى عند الانسان فكانت النظرة القرآنية للحدث التاريخي تعطي الانسان
احساساً بالواقعية وانسجاماً مع نوااميس الوجود وسننه .

وبذلك ابتعدت القراءة الاسلامية عن الخرافة وعن الوهم وعن الهوى
والتعصب . فكان تركيز المؤثرات لايجاد الحالة الفعالة في أقصى مدها يحصل عند
تأمل النص القرآني وتحليله بدون ان يحدث تقاطع مع المنهج العقلي والعلمي
المتجرد .

ومنذ اللحظة الاولى لالتقاء الطين مع الارادة الالهية كانت القضية واضحة بكل
أبعادها وشموليتها وواقعيته . فكان الايمان بالغيب يضع الاطار المتناسق للمادة
الطينية وينتهي من صياغتها وفق أحسن تقويم فيكون الابداع الإلهي غير محدد
بالاشكال الطينية التي عبرت عن الحياة في اروع مثال فتبارك الله أحسن الخالقين .
فكان آدم الانسان يعيش على الارض ولا ندري مقدار السنين التي عاشها الانسان
المقوم على صورته^(١٥) البشرية وهو يعيش حياته ويتكرب على الاستعداد لتلقي
الوظيفة الربانية وهي الخلافة على الارض كم كانت هذه السنين ؟ عشرات الالاف !
مئات الالاف ! ملايين أمر في عالم الغيب^(١٦) .

وفي حديث بيرويه ابن عباس ان (بين آدم ونوح عشرة قرون)^(١٧) ورواية ابن

(١٥) في الحديث (خلق الله آدم على صورته وعبدة الضمير على الخالق او على آدم وفي كل
الحالات في الاولى المعنى الرمزي يتفق مع الثانية في تكريم الانسان .

(١٦) هناك اتفاق بين العلماء الحفريات (الاتارية) والاثريولوجي على ان الانسان العاقل ههر
بحدود ٤٠ ألف سنة ق . م . ولكن الانواع البشرية التي قبل العاقل لا يوجد تحديد دقيق
لبداية ظهورها على الارض .

(١٧) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٤٣ والحديث عن ابن عباس لم ينكر
رواية البخاري موقوفة لم مرفوعة والراجح أنها موقوفة .

عباس هذه في البخاري وفيها زيادة (عشرة قرون كلهم على الاسلام) وحديث ابي امامه الذي رواه ابن حبان في صحيحه ، ان رجلاً قال : يا رسول الله انبي كان آدم ؟ قال : نعم مكثتم ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون ^(١٨) . وقد اختلف العلماء في القرون المذكورة هل القرن مائة عام ؟ وقال بعض العلماء ان القرن يعني جيلاً كما في قوله (^(١٩)) (خير القرون قرني) وقوله تعالى : حكاية عن فرعون ﴿ قال لما بل القرون الاولى ﴾ ^(٢٠) .

وفي القرآن الكريم آية حددت المدة التي قضاه نوح يدعو قومه للتوحيد وهي قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً فآخاهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ ^(٢١) . هذه الآية سلطت الضوء على قضية غريبة وهي طول المدة . ان ألف عام إلا خمسين تمت تجاوزاً للمقاييس الطبيعية لعمر البشر . ويبدو ان بقاء نوح لم يكن بصيغة معزولة وغير متجانسة عن المجتمع الذي يعيش فيه بل ان سياق الآية يؤكد ان الامر لم يكن غريباً او خصوصية للنبي نوح تتميز بها عن قومه لكي يتحداهم عن طريق بقاءه ومكثه الطويل بل جاءت الآية لتؤكد اصرار قومه على موقفهم وصبر نوح على التبليغ ومن المعلوم ان العلماء كانوا يعتقدون باطوال غير منطقية لاعمار المظالم من البشر ^(٢٢) .

وهناك طريقة اتبعها السومريون الاوائل في تكوين مدد حكم ملوكهم هـ لعن جملة مدوناتهم ان ثمانية من ملوكهم حكموا قبل الطوفان (٣٤١٢٠٠) وهي جدول آخر يرتفع هذا الرقم الى (٤٥٦٠٠٠) سنة وهذه الاوتام الخيالية في تكوين اعمار الاشخاص مازالت لغزاً لم يتوصل الي حلّه حتى الان ^(٢٣) . لقد حاول بعض العلماء ان يحل هذا الاشكال وان يفسر هذه الاوتام الخيالية على أساس ان

(١٨) الصابوني / م . ج / ص ١٤٢ .

(١٩) سورة طه / ٥١ .

(٢٠) سورة المنكوت / ١٤ .

(٢١) انظر محمد / محمد قاسم / التفاضل في تاريخ واهل القرون من آدم حتى النبي الهادي / ٥٤٩ ويذكر (ان هذه الاعمار مازالت لغز يحير العلماء لانها كانت قائمة في المعتقد القديمة سواء في بلاد ما بين النهرين أو في مصر .

(٢٢) سورة - د احمد / مفصل السرب والفرج في التاريخ / ص ٤١٥ / دار الرشيد بغداد ١٩٨١ .

القدماء كانوا يمدون الشهور سنيناً وبعضهم ذهب الى ان بعضه ايام تعمل سنة وقد فسر عالم الآثار انوارد كبيراً هذه الظاهرة وهي « ان مؤرخي اليهود الذين حاولوا ملء الفراغ ، الواقع بين ما اعتقدوا انه التاريخ الصحيح لخلق العالم والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من تنوينات موثوق بها بعض الثقة فوجدوا عدداً من الاسماء ليستعينوا بها في ملء الفراغ وبدلاً من أن يكتبوا اسماء جديدة منوا في حياة الأشخاص الذين عندهم ليسوا هذا الفراغ في السنين^(٢٢) ، وهذا التحليل غير سليم ولا يخلو من تعميم غير دقيق اذ ان هذا الكلام قد ينطبق على منوني التوراة ولكن كيف نفسر قائمة إثبات الملوك السومرية وهي اقدم من التوراة وتاريخ تنوين التوراة . بل اذا اردنا ان نكون ملطقيين لابد ان نلزم أثر هذه الظاهرة وانتقالها من السومريين الى منوني التوراة . ولكن لابد ان نعلم بان هذه الظاهرة موجودة في الحضارة العراقية القديمة ولا بد ان نبحت عن أصل هذه الظاهرة . اننا نعلم من متابعة قصة الحضارة وما توصل اليه علماء الآثار بان المجتمع البشري كان محدوداً في بداياته الاولى . وكان المحيط الحيوي للانسان في العصر الجليدي الرابع (١٠٠,٠٠٠ - ١٥,٠٠٠) ق . م . ويسمى عصر روم كان المحيط الحيوي محدود وليس بالسمعة الحالية . وكان العراق وبلاد الشام مع شبه الجزيرة العربية ثم أجزاء من افريقيا كانت هذه المساحة تشكل محيطاً حيوياً يوفر للانسان وسائل الاستقرار الحياتي . واذا كان احمد سوسة يؤيد انوارد كبيراً فيما ذهب اليه فنحن لا نتفق معه اذ ان القضية لم تقتصر على التوراة ولا على قائمة إثبات الملوك السومرية بل ان القرآن الكريم ذكر بوضوح العدة التي قضاها نوح (عليه السلام) يدعو قومه الى عقيدة التوحيد . كما استشهدنا بالآية من سورة العنكبوت بان بقاء نوح يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة . وهذا يدل على ان عمره (عليه السلام) اكثر من هذه العدة المذكورة للدعوة . ويبدو ان اعمار البشرية في مراحلها الاولى كانت تمتاز بالطول اذ ان عمر نوح النبي لم يكن غريباً على قومه بل ان القرآن الكريم نكر في مواضع اخرى بان إطالة العمر على سبيل الاعجاز واردة ولكنها تبقى ضمن حدود الحكمة التي ارادها الله وهي اطالة العمر للتحدي للكافرين ثم ينتهي دور الانسان الذي أجرى الله عليه هذا الاعجاز كما حصل بالنسبة لفتية أهل الكهف حيث نكر

(٢٢) انظر سوسة / - احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الآثرية والمصادر التاريخية / ص ٢٠٢ .

القرآن الكريم ان الله انامهم ثلثمائة وتسع سنين وبعد يقطعتهم تغيرت مظاهر الحياة بالنسبة اليهم والى مجتمعهم فاصبحوا غرباء لا دور لهم فاماتهم الله . وكذلك بالنسبة لعزير المذكور بدون اسمه في سورة البقرة حينما اماته الله مائة عام ثم بعثه فإن القرآن الكريم عندما أجرى هذه الخوارق ركز على حالة التحدي وتغير نوااميس الحياة . فكيف لا يذكر هذا الامر عندما يذكر مئة مكوث نوح في قومه ولم ينه القرآن على هذه المسألة وهي طول الفترة . فدل ذلك على ان الاعمار كانت في تلك العصور تمتاز بطول السنين وقد عقب سيد قطب حول هذه الظاهرة بقوله « وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الافراد ولكننا نتلقاه من أصلق مصدر في هذا الوجود - وهذا وحده برهان صدقه - فإذا اردنا تفسيراً فإننا نستطيع ان نقول : ان عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً ، فليس ببعيد ان يمضى الله هذه الاجيال عن كثرة العدد طول العمر . لعمارة الارض وامتداد الحياة . حتى اذا تكاثرت الناس وعمرت الارض لم يعد هناك داع لطول الاعمار . وهذ الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الاحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الاعمار كما في النسر ويمضى الزواحف كالسلحفاة حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الاعوام . بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه اكثر من اسبوعين »^(٢١) .

وهذا يؤكد لنا ان الاعمار القديمة للانسان امتازت بهذه الصفة وقد ورد اثر عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر (رضي الله عنهما) كم لبث نوح (عليه السلام) في قومه ؟ قلت : ألف سنة الا خمسين عاماً . قال : فإن من كان قبلكم كانوا أطول أعماراً ، ثم لم يزل الناس ينقصون في الاخلاق والالجال والاحلام والاجسام الى يومهم هذا)^(٢٢) .

ويبدو ان نوح (عليه السلام) قد عثر أكثر من جيله ضمن الحدود الطبيعية للمعمرين حتى أنه شهد أولاد جيله وكيف تواصلوا على تكتييه والإعراض عنه وإشارة الى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن نوح (عليه السلام) ﴿ رب لا تفر على الارض من الكافرين دياراً ﴾ إنك إن تفرهم يضلوا عبادك ولا يفلتوا إلا فاجراً كفاراً ﴿^(٢٣) .

(٢٤) قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٥ ص ٢٧٢٧ .

(٢٥) السيوطي / عبدالرحمن جلال الدين / الدر المنتور في التفسير بالماتور / مجلد

ص ٤٥٦ / دار الفكر سنة ١٩٨٣

(٢٦) سورة نوح / ٢٦ - ٢٧

فان نوح (عليه السلام) عالى وشهد هذه الحالة وكان يرى الاب يصي ابنه بان يتخلص من نوح ومن دعوته .

وعلى هذا الاساس فان حديث ابن عباس يمكن حمله على ان القرن قد يصل الى الف عام اعتباراً بمعدلات أعمار البشر في تلك المصور فيكون بين أم ونوح (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف سنة . وفي ذلك يقول ابن كثير « وأن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ ^(٢٧) وقوله ﴿ لم نخلقنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ ^(٢٨) وقوله ﴿ ولقروناً بعد ذلك كثيراً ﴾ ^(٢٩) . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة . فعلى هذا يكون بين أم ونوح الوفا من السنين والله اعلم ^(٣٠) . اما رواية ابن عباس بأنهم كانوا على الاسلام فانه يدل على ان الاغلب كانوا على الاسلام او ان الاسلام كان هو الغالب ولا يمنع من وجود كافرين أو أن من القرون المتأخرة التي سبقت نوح لم يكونوا على الاسلام ^(٣١) . ولقد مثل عصر النبي نوح (عليه السلام) تكاملاً في استقرار المجتمع البشري ومرحلة من مراحل تمكين الانسان في الارض وتقام في الزمن على بعة آخر نبي الهم أو من كان يدعو البشرية الى طريق الحق . وهذه الحالة تمكس ان غروباً أصاب المجتمع البشري ونسياناً لقدرة الله وتذكراً للقيم والعقائد الصحيحة التي آمن بها من قبلهم ومن خلال الايات المنكورة في القرآن الكريم تدل على تطبيع المجتمع بالمعادية وإصرارهم على الموقف الخاطيء ونظرة طبقية كانت تحكم المجتمع بحيث عيبوه باتباعه الارائل ^(٣٢) (الفقراء) .

لقد مثلت رسالة نوح مرحلة جديدة من مراحل البشرية حتى عُذ نبي الله نوح (عليه السلام) (ابو البشرية الثاني) بعد أم (عليه السلام) وإذا كانت ملامح البشرية منذ أم حتى نوح يكتنفها الفموض ولم يتحدث القرآن الكريم عن أسماء الانبياء او مجتمعات بعد أم حتى نوح . وذلك بتقديراً لأن البشرية كانت تسير ببطء

(٢٧) سورة الاسراء / ١٧

(٢٨) سورة الفرقان / ٣٨ .

(٢٩) سورة المؤمنون / ٣١

(٣٠) ابن كثير / ابو الفداء / إسماعيل / قصص الانبياء / ص ٦٨ - ٦٢ .

(٣١) انظر ابن كثير / م . س / ص ٦١

(٣٢) انظر الايات حول نوح في سورة هود .

وتتغير بصورة متباعدة وكانت اعداد المجتمعات البشرية ضئيلة وأقدم تجمع سكاني اكتشف ضمن المكتشفات الآثار هو موقع جرمو في شمال العراق وقد سبق هذا الحدث بداية العصر الحجري الحديث او بالتحديد عصر توسط العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وقد امتاز هذا العصر بميزات بسبب اعتدال المناخ « وهو عصر تمهيد بين الاقتصاد المستهلك للطعام والمعتمد على صيد الحيوانات والاسماك وجمع الفواكه وبين الاقتصاد المنتج للطعام بالزراعة والرعي . ويسبب الندف الحاصل والاعتدال بالمناخ ظهرت مجالات جديدة للاستيطان في مواقع مفتوحة على شواطئ الانهار ومصباتها وعند العيون . بعد ان انتفت الحاجة الى الكهوف والملاجئ الصخرية والقبائل حصلت تقدم كبير في صناعة الآلات والابوات الحجرية . وفي موقع كريم شهر الذي يبعد قليلاً عن هضبة السليمانية استخرجت منازل ورحى وعظام حيوانات وتبين ان نصف تلك المظام يعود الى حيوانات مدجنة^(٣٢) وقد قدرت تواريخ هذا العصر قياساً على المواد المكتشفة في مواقعه حسب كاربون ١٤ الاشعاعي ان تاريخ هذا العصر ١٠٥٦٠ + ٦١٠ سنة وفي مصر وجدت آثار تعود الى نفس العصر^(٣٣) وقد لاحظ علماء الآثار ان نسبة عظام الحيوانات المدجنة كلما تأخرنا في الزمن تزايد « حيث تم احصاء بقايا عظام الحيوانات المستخرجة من موقع بالي كورا يعود تاريخه الى اواخر العصر الحجري القديم الاعلى ومن موقع كريم شهر يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط ومن قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث وتتل الارقام على تغيير نسبة عظام المعز والاعناب المدجنة من ٣٠٪ الى ٥٠٪ الى ٩٥٪ على التوالي^(٣٤) . ان الثورة الزراعية مثلت اعظم حدث حياتي يرتبط بطبيعة حياة الانسان وانتقاله الى مرحلة جديدة من مراحل وجوده على الارض « واقدم القرى الزراعية المكتشفة لاول مرة كانت جرمو هذه القرية حدد تاريخ بقايا انتاجاتها الحضارية باكثر من ٦٧٠٠ ق . م . وتقع القرية في ثنايا تل مرتفع مساحته خمسين كيلومتر شرق مدينة جمجمال . وتبعد اربعين كيلومتراً الى الشرق من مدينة كركوك . نقب فيها

(٣٣) الباغ / د تقي مع د ولید الجادر / عصر ما قبل التاريخ / ص ١٢٦ / مطبعة جامعة

بغداد ١٩٨٣

(٣٤) الباغ / د تقي مع ولید الجادر / ص ١٢٨

(٣٥) الباغ / د تقي م . س / ص ١٢٤

بريد وود وكشف عن بيوت سكن يقدر عندها خمسة وعشرين بيتاً وقدر بريد وود عدد سكان التجمع السكاني في هذه القرية الزراعية بحوالي (١٥٠) نسمة واستمر هؤلاء في السكن بالقرية نحو الاربعة قرون^(٣٦) .

لقد عثر في الطبقة الخامسة من موقع جرمو على فخاريات تتميز بكونها سمجة الصناعة سميكة الجدران هشة بلعل شبيها في درجات حرارة منخفضة نسبياً وطينتها غير نقية وغير مزخرفة . الا ان بعض الاواني كانت ملونة باللون الاسود^(٣٧) . ان طبيعة هذا العصر امتازت بثقله نوعية بعد ان خرج الانسان من الكهوف واستقر في السهول وعند مصبات الانهار ودجن الحيوانات وطور صناعات بسيطة كالاولاني والحلي والالات الزراعية تتكلم مع طبيعة المجتمع الزراعي . وان هذا العصر يمكن حصره بين ١٠,٠٠٠ - ٧,٠٠٠ ق.م . كانت فيه طبيعة الحياة زراعية بسيطة تتطور ببطء كما ذكرنا .

إذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تحدثت عن المجتمع الذي عاصر نوح (عليه السلام) نجدها تؤكد على النعم الزراعية وارتباط الماء بالزرع والنباتات والجنان وهو ما يؤكد بان عصر نوح كان عصرأ زراعياً بحيث حاول نوح (عليه السلام) ان يثغرهم بنعم الله عليهم ليربهم الى طريق الحق ﴿ قللت استغفروا ربكم انه كان ظاهرا ﴾ يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا^(٣٨) . ذكرهم بنعمة المطر والاموال المذكورة هي الانعام والحيوانات المدجنة اذ لم يكن في عصره مفهوم للمال غير هذا المفهوم وثغرهم بالانهار والجنان التي تزده بخضرتها على أطراف الانهار . وهذا وصف للطبيعة التي يمكن أن تكون مرسومة في ذهن الانسان المعاصر للنبي الله نوح (عليه السلام) . نستطيع بعد هذه الملاحظات ان نؤكد بان أول استقرار للانسان كان يقترن بالزراعة » وقد اتفق العلماء بشبه اجماع على ان الحضارة البخرية ومدنية الانسان

(٣٦) البهاغ / د تقي / م . م / ١٣٤ .

(٣٧) البهاغ / د تقي / م . ن / ص ١٣٨ .

(٣٨) سورة نوح / ١٠ - ١٢ وتجد ما لعبنا اليه حول مفهوم المال ما ذكره جواد علي : » وقد كان الجبل مقام (الله) ابي مقام الدينار والدينهم فسمند من الابل يقدر بهر الفتاة ويعدد من الابل لعدد الديار وتكنى الخصيصة / المقصود في تاريخ العرب قبل الاسلام / ج ١ ص ١٩٧ .

القديم بدأت أول ما بدأت مقترنة باختراع الزراعة
ان بلاد العرب وبخاصة شبه جزيرة العرب هي
الزراعة التي تعتمد على الري أول مرة في تاريخ
مدة الدورة الجليدية الرابعة التي دامت أكثر
الجيولوجيون عمر الأرض الى فترات أحدثها بليست
اربع نورات جليدية مع مراحلها الدقيقة ،
الجليدية (١٠) :-

اسم الدورة	
١ - دورة كلز (Gunz) الفترة الدقيقة الأولى (كلز - مندل)	
٢ - دورة مندل (Mindl) الفترة الدقيقة الثانية (مندل - رس)	
٣ - دوري رس Rise الفترة الدقيقة الثالثة (رس - ورم)	
٤ - دورة ورم (Wurm) الفترة الدقيقة الرابعة	

ان الذي يهمنا هو الدورة الرابعة عصر ور،
ظهروا في مجتمعات متقدمة ومارسوا دعوتهم
تأسست عند الاسس الأولى للحياة الانسانية

- (٣٩) سوسة / د. احمد / م. س. / ص ١١٤
(٤٠) سوسة / د. احمد / م. س. / ص ١٢١ وكذلك
وادي الرافدين .
(٤١) انطرسوسة / د. احمد / م. س. / ص ١٢١ و
د. وليد الجابر .

وبدأت التطلعات الروحية والماطفية والفكرية تصطبغ بها الحياة الانسانية علماً ان الدورة الرابعة معظمها مغطى بما يسمى بالعصور الحجرية وقد دعت بالعصور الحجرية لان الانسان الذي عاش تلك العصور كانت معظم (أدوات من الحجارة) وسميت أحياناً بـ (عصور ما قبل التاريخ) «^(١٢) وهذه العصور الحجرية قسمت كذلك وأهم عصر يعنينا هو العصر الحجري الحديث نيوليثيك (Neolithic) ويبدأ هذا العصر في حدود الالف الثامنة او السابعة الى سنة ٥٦٠٠ ق . م . ومن مظاهر النهضة الحضارية في هذا العصر :-

- ١ - الزراعة .
- ٢ - استئناس الحيوان .
- ٣ - تطور في صناعة الخزف (الفخار) .
- ٤ - الآلات الحجرية المصقولة بدلاً من المشطاة^(١٣) وقد قسم هذا العصر الى أقسام يمكن تحديثها كما يلي :-
- ١ - نور جرمو تاريخها ٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق . م .
- ٢ - نور حسونة تاريخها ٤٨٠٠ ق . م .
- ٣ - نور سامراء تاريخها ٥٥٠٠ - ٤١٠٠ ق . م .
- ثم يبدأ العصر الحجري المعدني او البرونزي (الكالكوثلتيك Calcolithic) ٥٦٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م . وقسم هذا العصر الى اربعة أنوار :-
- ١ - نور حلف تاريخه الى ما قبل ٥٠٠٠ ق . م .
- ٢ - نور العبيد تاريخه ٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق . م .
- ٣ - نور الوركاء ٣٨٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م .
- ٤ - نور جمدة نصر ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م .

عصر ورم المرحلة النقيطة الرابعة الواقعة ضمن حدود ١٥٠٠٠ ق . م . وفي نور جرمو بالتحديد في حدود الالف السابعة ق . م . يمكن ان نضع عصر النبي نوح (عليه السلام) ، لان ميزات نور جرمو يمكن ان نجدها في عصر نوح حيث الزراعة كما ذكرنا نكرها نوح (عليه السلام) لقومه وكذلك تدجين الحيوانات والانتعام وقد

(٤٢) سوسة / د . احمد / تاريخ وادي الرافدين / ص ١٢٣

(٤٣) سوسة / ن . م . / ص ١٢٧

نكرها نوح لقومه (باموال) اي انعام وقد ذكر القرآن الكريم نعمة امتلاك الانعام بقوله ﴿ لو لم يروا ما خلقنا لهم مما عملت ايدينا لتمتعوا فمهم لها عالمون ﴾ (١١) . فدل ذلك على أن الاموال المذكورة في سورة نوح هي من صنف تلك الانعام . والصفة الثالثة الفخار وفي آية (١٢) إشارة الى الطوفان كانت فوران التنوير والتنوير مكان النار والنفار قرينة على صناعة الفخار قال ابن كثير « نبتت الارض من سائر ارجائها حتى نبتت التناوير التي هي محال النار (١٣) وصناعة الفلك تلب على استعداد وبدائيات لتطوير قابليات الانسان نحو الصناعة فجاء أمر الله ببناء السفينة ضمن امكانية واستعداد الجماعة التي كانت مؤمنة مع نوح (عليه السلام) ، وحول السفينة هناك إشارة وردت حول استعمال القار الاسود فقد ورد في الاثر عن الثوري : « أمره أن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار » (١٤) واذا قارنا بالفخاريات التي عثر عليها في موقع جرمو فقد كان قسم منها مطلي بالالوان السوداء وان القار قد شاع استخدامه في ذلك العصر . كما سنتمرف على ذلك من خلال الدراسات الاتارية .

مكان النبي نوح (عليه السلام) ومجتمعه

(دراسة تحليلية ومقارنة)

ليس من السهولة أن نحدد المكان الذي ظهر فيه النبي نوح (عليه السلام) ولكننا سنحاول أن نحلل النصوص القرآنية ونمزج التحليل ونقارنه مع الحفريات والمكتشفات الاتارية لكي نجمع صورة حول عصره ونسلط الضوء على دعوته والمجتمع الذي بعث فيه والمكان الذي كان مسرحاً لأحداث رسالته وبذلك نتكامل العبرة وتتمرر ألة الايمان بأن دعوات الانبياء هي أصل المدنيات والحضارات ويزداد المؤمنون ايماناً ويتوقف الراضون لطرح القرآن حول نشأة الانسان ومستقبل وجوه

(٤٤) سورة يس / ٧١ .

(٤٥) وهي قوله تعالى ﴿ فلا جاء امرنا ولا تنور... ﴾ سورة المؤمنون / ٢٢ .

(٤٦) ابن كثير / ابو الداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٨ .

(٤٧) ابن كثير / ن . م / ص ٧٧ .

في رحلته على الأرض ويتميز نور القرآن بوصفه مصدراً مهماً لدراسة التاريخ القديم كذلك نعد هذا العمل يغطي طموح الإنسان وحاجته لمعرفة تاريخه كما يقول فولتير « أحب أن أعلم الخطوات التي سارها الإنسان من الهمجية إلى المدنية »^(١٨) .

لقد كان نوح يمثل أول الرسل إلى المجتمع البشري ولا يهنا مصير المجتمعات التي كانت موجودة في عصره ولم نعرف خبرها لأننا نحاول أن نتابع جهود الأنبياء في تغيير المجتمع البشري وأثارتهم فيما بعد . ونحن نعلم أن التوراة تصدت لذكر النبي نوح وبسوته وفصلت عملية الطوفان الذي حل في عصره وهذا يعد أقوى دليل على بقاء أثر النبي نوح على البشرية فنقل اليهود عبر توراتهم جزءاً من أخبار النبي نوح (عليه السلام) وانتقل هذا الأثر إلى المسيحية ثم جاء القرآن وتصدى بفضل دعوة النبي نوح (عليه السلام) وموقف قومه معه ومصيرهم فما من مسلم اليوم إلا وهو يعلم بأن نوح (عليه السلام) أحد أهم خمسة من الرسل الذين بعثهم الله وسماهم القرآن الكريم (أولي العزم) وما من مسيحي إلا ويعلم نور النبي نوح (عليه السلام) وكذلك اليهود . إن دياناة التوحيد الثلاثة تعرف شخصية النبي نوح (عليه السلام) وأثره في حياة البشر .

وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مجتمع نوح وأعطى بعض الملامح التي تصاعداً على رسم صورة لأقدم مجتمع بشري استشرى فيه الانحراف المقاتدي والاخلاقي بعد آدم (عليه السلام) وأنبياء أبوا دورهم لا نعرف عنهم شيئاً ولكن القرآن الكريم يتوقف في أكثر من موضع يعرض علينا صوراً لانحراف المجتمع في عصر نوح ويعرض لنا المحاولات العديدة التي مارسها نوح مع قومه لكي يغيرهم ويعيدهم إلى أصل اعتقادهم ويضع خطاهم على الطريق المستقيم الذي علمه الأنبياء للبشر . ولكنهم كانوا يرفضون كل المحاولات ويصدون عن النبي بشتى الوسائل ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدكم دعائي إلا فراراً وإني كلما دعوتهم لتفخر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾^(١٩) .

إصرار عجيب يوضحه لنا القرآن الكريم من خلال صور من الصد والإعراض جعل الأصابع في الأذان وتغطية الوجوه والعيون بالثياب وقتلنا بأن مسألة الملابس

(٤٨) هذا القول يستشهد به بورانت في قصة الحضارة م ١ ص ١

(٤٩) سورة نوح / ٥ - ٧ .

منذ آدم جعل الله الفطرة الملابس والانحراف عن الفطرة هو التمري وكشف السوءات وفي هذه الآية نستدل على ان عصر نوح كان متميزاً بالملابس والمنسوجات . وقلنا انه عصر زراعي مع بداية تشكلت نحو الصناعة مثل الآلات والفخاريات وما أن حل عصر العبيد نحو ٥٠٠٠ ق . م . الا وقد عم المحيط الحيوي القديم نماذج من القرى وبدايات المدن الصغيرة ومنذ بداية الالف السابع حتى الالف السادس كانت تتكامل نحو أشكال أكثر تعبيراً عن المجتمع والسلوك الاجتماعي . ولقد اكتشفت آثار وفخاريات تعود الى عصر العبيد على مدى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ومصر وفلسطين^(٥٠) .

ومنذ عصر آدم الذي مثل البداية ورمز الى العوامل والاسس التي بنى عليها المجتمع البشري وأراد الله أن يجعل من آدم النموذج الانساني الذي سيمثل الارادة الالهية على الارض بضعفه وقوته بخطاه وصوابه بالخير والشر الذي فيه . والامر لا يمكن ان يوضع في موقعه الا من خلال هذه الصورة التي رسمتها الارادة الالهية . وليست القضية ميتولوجيا كما يتصورها البعض بل هي حقيقة كبرى قام عليها الوجود واذا كانت هذه ميتولوجيا فانهم يقفون عاجزين عن اعطاء الانسان التفسير المنطقي لوجوده ومسيرته وتتحول إجاباتهم الى ميتولوجيا من نوع آخر غير منطقية قد تصل الى حد الخرافة كما عرفنا ذلك في الفصل الاول من هذه الدراسة عندما كان علماء الانثروبولوجي يتابعون مسألة تطور الحياة .

وكما اختار الله جلت قدرته آدم واصطفاه وكرمه بالنبوة ومنحه شرف مسؤولية الخلافة أختار الله نوحاً كذلك . وشخصية نوح القرآنية هي غير نوح التوراتية المشوهة وقد صور اليهود هذا النبي الكريم وصورته توراتهم شارباً للخمرة ويشربها حتى يثمل ويتحول كالقرود يقترن ويفقد اتزانه وعقله ويكفر بالله^(٥١) . ان اليهود يريدون ان يملكو تاريخ العالم لكي يسيطروا على الامم . ومن خلال تشويه الانبياء وشخصياتهم والافتراء عليهم بالبهتان والزور واتهامهم بشرب الخمر^(٥٢) والشذوذ

(٥٠) انظر النبأغ / د. تقي مع .د. وليد الجابر / عصور ما قبل التاريخ / الفصل الخامس الشرق الاثني في مصر الحجري الحديث . وكذلك سوسة / د. احمد تاريخ حضارة وادي الرافدين .

(٥١) الشوك / علي الاساطير بين المعتقدات الدينية / ص ١١٣

(٥٢) نص العهد القديم (واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتمري داخل

والفواحش لكي يظلوا للعالم ان الرذيلة هي أصل الوجود الانساني ولا وجود للفضيلة في عالم البشر بل هو عالم حيواني تحركه الشهوة وقد استطاعوا ان يمتلكوا القدرة على وضع الانسانية في موضع الشك والارتياب والاثام من خلال استهداف الانبياء وطمس حقائق دعواتهم وتشويه اكثر شخصياتهم وبذلك استطاعوا ان يقيبوا المعالم الواضحة والتي ارادها الله أن تكون القدوة للانسانية بشخصيات الانبياء . وحولوا حياتهم الى خمرة وجنس ويحت عن شهوة التسلط وصراع مع الله سبحانه وتعالى . وتراكت في نفوس البشر معاني الحقد والسواد . وهي محاولة لتغيير الفطرة باتجاه هدف الشيطان في زرع العداوة والبغضاء محل الاخوة والتسامح والسلام والمحبة .

لقد رسم القرآن الكريم شخصية النبي نوح (عليه السلام) بالقوة والمزيمة والطاعة لله والارتباط به وامتك نوح صفات اجتمعت فيه الشجاعة والصبر قال تعالى ﴿ كُنْتُ لِبَلْهَمٍ لَّوْمٍ نوح فكنبوا عبينا وقالوا مجنون وازدرج ﴾^(٢٢) وقال تعالى عنه ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ انا كذلك نجزي المحسنين ﴿ انه من عبادنا المؤمنين ﴾ ثم اغرقنا الآخرين ﴿^(٢٣) .

ولا يوجد في القرآن الكريم اي معلومة حول آباء نوح وأبنائه على عكس التوراة التي تفضل أخباراً صيغت بأسلوب اسطوري حول آباء ونسب النبي نوح وعن ذرية نوح . وإنه ولد له سام وحام ويافت وإنه كان لحام ولد اسمه كنعان « وهو الذي أبصر جده نوح في حالة سكر وعري وقام باخضاع جده . وان حام هو جد الجنس الاسود لأن نوح دعا عليه وعلى ذريته بالسواد وأن تكون ذرية حام خدم لذرية سام ويافت . وان الفرض من هذه السطور كما يقول (غريغز وياتاي) هو لتبرير استعباد العبريين للكنعانيين . وفي أحد المقاطع المدراشية أضيفت خطيئة الشفوذ الجنسي الى خطايا حام وفي سفر اللاويين يرد تعداد طويل للخطايا الجنسية الكنعانية »^(٢٤) .

في القرآن الكريم إشارات مقتضبة حول ذرية نوح ﴿ ولقد نالنا نوح فلتم

→ خيمته . فشاهد حام ابو الكنعانيين عرى ابيه « الكتاب المقدس / المهد القديم / التكوين

المحبين ونجيناه وأهلكه من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين ﴿٥٦﴾ .
﴿ فلوحيه إليه أن يصنع الفلك بأعيننا ووحينا فلما جاء أمرنا وفار التور فاسلك فيها من
كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ (٥٧) . وقال تعالى ﴿ فكنبوه
فأتجينا الذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ (٥٨) .
﴿ فكنبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلأف وأغرقنا الذين كذبوا
بآياتنا ﴾ (٥٩) وقال تعالى ﴿ وأوحى إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا
تبتس بها كانوا يفعلون ... حتى إذا جاء أمرنا وفار التور فلما أحمل فيها من كل
زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن ﴾ وما آمن معه إلا قليل ﴿ الآيات
من سورة هود . وتعرض آيات في سورة هود حول ابن نوح الذي كفر وأعرض عن دعوة
أبيه فأغرقه الله مع القوم الظالمين ﴾ ونادى نوح ربه فقال ربي إن ابني من أهلي وإن
وعيك العتي وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا
تسأل ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ قال رب إني أعوذ بك أن
أسألك ما ليس لي به علم ﴾ وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ (٦٠) وفي نص
آخر ﴿ فأتجينا ومن معه في الفلك المشعون ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ إن في ذلك
لآية ﴿ (٦١) . ﴿ فأتجينا وأصحاب السيفنة وجعلناهم آية للعالمين ﴾ (٦٢) . ﴿ وجعلنا
ذريته هم الباقين ﴾ (٦٣) . وفي إشارة واحدة إلى والدي نوح (عليه السلام) وهي آخر
آية في سورة نوح ﴿ رب اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ (٦٤) هذه معظم النصوص التي تحدثت عن ذرية نوح وشملت
الآيات القرآنية مع ذريته من آمن من قوم نوح واتبعوه وأشارت الآيات إلى أنهم كانوا
قليلاً . ولم يوجد في القرآن الكريم ما يروج له منظروا النظرية السامية وأن الساميين

(٥٦) سورة الصافات / ٧٥ - ٧٨ .

(٥٧) سورة المؤمنون / ٢٦ - ٢٧ .

(٥٨) سورة الاعراف / ٦٤ .

(٥٩) سورة يونس / ٧٢ .

(٦٠) سورة هود / ٤٧ .

(٦١) سورة الشعراء / ١٩ - ١٢١ .

(٦٢) سورة المئكبوت / ١٥ .

(٦٣) سورة الصافات / ٧٧ .

(٦٤) سورة نوح / ٢٨ .

يملكون العقل المبدع والجنس الصالح الذي كان مصدر الالهام والابداع في حياة البشرية . لكي يبرر اليهود عقيدتهم التي تمنحهم حق الاستعلاء واستعباد الشعوب على أساس إنهم الجنس السامي الوحيد الذي لم تختلط نماله بدماء ملوثة نكثت الخطيئة من حام وكلمان .

ان البيلة التي عاشها نوح وقومه يمكن تصورها بأنها بيلة زراعية وفيها بساتين وعلى مقربة من ضفاف الانهار لأن الله عندما أمره بصناعة الفلك إنما كان هذا العمل ضمن حدود الامكانية المتاحة له ولقومه لان الله سبحانه وتعالى لم يأمر خارج حدود طاقة الانسان . فالتقضى ان يكون نوح ومن معه يملكون تصوراً حول السفن والقوارب ويتماملون بالنقل المائي ولا يمكن ان يكون هذا المكان عند البطائح والاهوار لأنها ارض مسطحة لا مرتفعات فيها وقد أشار القرآن الكريم الى البيئة التي كان فيها قوم نوح فيها من المرتفعات او الهضاب مع السهول بحيث ذكر تعالى حكاية عن نوح عندما بدأ الطوفان وأشار نوح الى ابنه ان يركب معهم في السفينة ﴿ قال سلوي الى جبل يهضمي من الماء ﴾ . ويذكر السيد ويلكوكس ان العرب يطلقون لفظة الجبل على كل مرتفع حتى لو كان تلاً فيقول : « فلما اقتربنا من الشناقية لاحت لنا من بعيد اراض صحراوية واطلة فسالت الفلاحين عنها فقالوا في الحال : إنها الجبل . وفي الحقيقة لم تكن تلك الاراضي اكثر من تل بسيط وربما كانت لا تشبه الجبل اكثر من شبه تل »^(٦٥) . ونحن لا نتفق مع هذا التعميم لان النص القرآني يذكر بان نوح عندما طلب من ابنه الصعود الى السفينة كان جواب ابنه بأنه سوف ينجو من هذا الماء بالصعود على جبل عالٍ فاللجوء الى تل بسيط لم يكن يعطي شعوراً بالامان في اجواء الفيضان العارم الذي جرف الموجودات من مساكن وأشجار .

ويذكر السيد ويلكوكس أن سفينة نوح « ظهرت عائمة على سطح الماء اول مرة في احدى المدن التي كانت موجودة في تلك الايام في الفرات الاثني (في فرع كوش المندرس اليوم) فصارَت الى جهة الجنوب الشرقي مدفوعة بقوتي تيار الماء والرياح المنطفعتين من الشمال والشمال الغربي . وكانت مياه دجلة القديم تأتي من الشمال مدفوعة بقوة التيار فتلتقي بمياه الفرات في اور الكلدانيين فلا بد ان يكون التيار قد جرف الفلك بعد أن وصلت الى هذا المكان فدفعها الى المنطقة الصحراوية الواقعة

(٦٥) ويلكوكس / ولهم / من جنة عدن الى عبور نهر الارزن / ص ٢٢ / تمريب د. محمد الهاسمي

ويبدو من اسماء الرجال (اي الذين تسموا به مثل عبيد) ومن الشعر الجاهلي انه كان معبوداً عند كثير من القبائل . قال الحطيئة المبيسي :

فحيثاك وُدُّ ما هـذاك لفتيـه

وخصي باعلى ذي طواله فُجـب

ويبدو هذا الصم ضارباً في أعماق التاريخ فنجد عند الاراميين باسم هند وهو عندهم (اله البرق) ونجد باسم أد Adad عند البابليين والاشوريين . وهو عندهم قوة منمرة سخية معا . وود معبود ثمود كما تدل النقوش النبطية ومن معبودات اللحيانيين والمعينين «^(٦٩) فعيانة ود أعم مما ذكره ابن الكلبي وأشمل ، واقدم في تاريخ الشرق وأوغل وقد صنق رب العزة - وكل ما قاله حق - اذ رد عباته بدءاً الى قوم نوح (عليه السلام) «^(٧٠) . اما سواع فقد ذكر الشهرستاني ان هنبلأ عبيته فقال « وسواع لهذبل وكانوا يحجون اليه وينحرون اليه »^(٧١)

وهكذا كانت أصنام عصر نوح (عليه السلام) تفرض سطوتها وتأثيرها على بلاد العرب وقد ذكر زيدان في انساب العرب عن هذه الاصنام : « (بان ود كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويموق على صورة فرس ونسر على صورة نسر) وقد عرف الاخير بصيغته الارامية (نشرا) عنه التلمود وبعض الوثائق السريانية إلهاً عربياً »^(٧٢) . ونجد ان هذه الالهة قد انتشرت وعمت شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام كما ذكر المؤرخون بان القبائل العربية في شبه الجزيرة قد اخذت هذه الاصنام وعبيتها فكان ود لكلب في دومة الجندل وهي بالشام شمال الجزيرة . وهكذا اخذت باقي القبائل هذه الاصنام^(٧٣) . وقد وجدنا ان هذه الالهة قد حوتها كتابات أوغاريت اللبنانية فقد وجدت نصوص تذكر الالهة التي كانت

(٦٩) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر نقيب الهنلي الجاهلي / ص ١٢٩ - ١٣٠

(٧٠) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر نقيب الهنلي الجاهلي / ص ١٢٩ - ١٣٠

(٧١) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة عن الطلل والنحل / ص ١٢٧

(٧٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميثولوجيا عند العرب / ص ٥٧ / دار النهار بيروت ط ٢ سنة ١٩٧٩

(٧٣) انظر ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٤٢٦ .

منتشرة في بلاد أوغاريت الكنعانية التي كانت في أوج حضارتها المادية ونشاطها الاقتصادي كانت عقيدتها الوثنية قد أخذتها من الاقوام القريبة منهم . لهم اتصالات معهم وكان الالف الثالث قبل الميلاد الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد يمثل سطوة النفوذ السياسي والتجاري لبلاد الكنعانيين والتي كانت تشمل أوغاريت ضمن حدود مملكتها الى غزة وبين الصحراء السورية ومن سهول ادله في جنوبي آسيا الصغرى الى صحراء النقب . وشيدت مدن حول الخلجان فكانت موانئ ذات شأن . وقد اكتشفت في أوغاريت رأس الشمر (١٢ كم شمال اللاتقية) لوحات عليها كتابات مسمارية (بالخط البابلي) . وقد ورد في هذه النصوص ذكر الاله (م ت) وهو (موت) ويلقب بـ (مند - إل) أو (ي د - إل) ولفظه (مند) أو (يند) تعني شيئاً واحداً : الحبيب ، من جذر سامي مشترك : ود فهو حبيب الاله إيل أو الذي يحبه إيل ^(٧١) .

وإيل هو أعظم الآلهة وقد يكون هذا اللفظ يقصد به الله وهو الأرجح وإيل لفظه قديمة استخدمت عند البابليين بكثرة واستخدمها العبرانيون أو اليهود وقد سمي يعقوب (عليه السلام) بـ (اسرائيل) أي (عبد الله) و (صموئيل) تعني اسماعيل . وتعني (المنذور الى الاله إيل) ^(٧٢) . فإذا كان (ود) هو (ود - إل) في الاوغاريتية فهذا يؤكد ما ذهب اليه علماء التفسير وما ذهب اليه ابن عباس رضي الله عنه وآخرون بأن هذه المسميات هي لاناس صالحين . ونكر ابن كثير رواية عن الباقر « أن وئاً كان رجلاً صالحاً وكان محبباً في قومه . فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه . فلما رأى ابليس جزعهم عليه تشبه في صورة انسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا نعم ، فصور لهم مثله ، قال : فوضموه في نادبهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من نكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالاً مثله

(٧٤) انظر فريشه / انيس / ملاحم واساطير من أوغاريت (رأس الشمر) / ص ١٨ - ٥٢ يتصرف / دار النهار بيروت ١٩٨٠ .

(٧٥) انظر سوسة / د احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٣ . ولكن د سوسة يقول معنى اسماعيل (اسمع ايها الاله ايل) ويترك بينه وبين صموئيل ولكننا نرجح ان صموئيل هو نفسه اسماعيل ثم حث التغير في النطق لاحقاً . لان اسماعيل هو النبع او المنذور الى الله .

ليكون له في بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . قال : فمثل لكل أهل بيت تمتالاً مثله فاقبلوا فجعلوا ينكرون به . قال : وأدرك أبنائهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : فتتأسلوا ودرس أمر نكرهم إياه حتى اتخنوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم . فكان أول ما عبد غير الله (ود) الصنم الذي سموه (ودأ)^(٧٦) .

ان انتشار الثقافة الوثنية أو العقائد الوثنية على هذا المدى الواسع يؤكد لنا هيمنة ثقافة وادي الرافدين على منطقة الشرق الأدنى في المصور القديمة فقد أثبت لنا الشعر الجاهلي أن الميثولوجيا التي كان يتفنن بها الشعراء كانت مستقاة من بلاد الرافدين كما وريت روايات نكرناها في كتب التفسير والتاريخ تؤكد هذا المعنى . وكذلك الرقم الحجرية التي اكتشفت في أوغاريت أكدت انتشار الثقافة البابلية في العالم القديم كله . إننا بقاء هذه المعتقدات بعد الطوفان يؤكد إن حدث الطوفان قد حدث في مساحة محددة شملت حدود الأرض والرقعة الجغرافية التي كانت تمثل العالم كله بالنسبة للمجتمع النوبي نوح وعصره وذلك لصعوبة المواصلات والاتصال البطيء مع العالم الخارجي . ولذلك بعد الطوفان استمرت بعض الاقوام على وثنياتها التي أخذتها من قوم نوح قبل الطوفان لقد أثبتت الابحاث الآثارية بأن العراق شهد طوفاناً عظيماً أثر على العصر الذي حدث فيه وامتد تأثيره خارج حدود وادي الرافدين وتناقلته البشرية وامتد الى عصور لاحقة وتحول الى أسطورة ضخمتها أخيلة الالباء والقصاصين وتحول الى قصائد ملحمية وأشعار جكمية تعبر عن علاقة الانسان بالخالق وتضع التفسيرات التي عكسها الطوفان على نهضة الانسان القديم الذي نُقلت اليه رواية الطوفان عبر الاجيال فتحول الطوفان من حقيقة جاءت لتحقيق اعجاز الله سبحانه وتعالى ولتنقل للاجيال اللاحقة صورة الفضب الإلهي على المجتمعات الكافرة . تحول ملحمة شعرية تعبر عن معاناة الانسان الذي يبحث عن الحقيقة وسط ركاب من الافكار الجاهلية قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ فاتجنيده وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين^(٧٧) . فكانت نجات نوح (عليه السلام) ومن معه آية للعالمين وبهذا تتصافر الأدلة لتؤكد حقيقة واحدة وهي ان العراق كان

(٧٦) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٧١ . وانظر تفسير القرآن العظيم / ج ٤

ص ٤٢٧ يورد نفس الرواية .

(٧٧) سورة الممتكوت / ١٤ - ١٥ .

يمثل المكان المناسب للنبي نوح (عليه السلام) واحداث عصره وبعوته ورسالته كانت على أرض الرافدين . وقد أكد الجيولوجيون والآثاريون إن أرض الرافدين قد شهدت اول الاستيطانات البشرية المرتبطة بالزراعة التي تعتمد على سقي الانهار وقد أكد الباحث الآثاري الجيولوجي نوزل « إن أعرق وأبعد مدى لجنور الحضارة أو ما يصطلح عليه (Up to) كان يشكل نواة جنور حضارة وادي الرافدين . وقد كانت المستوطنات البشرية تتجمع في الاماكن المرتفعة لتجنب الفيضانات ، وقد نجد آثار أقدم المستوطنات في وادي الرافدين قد تركزت في ثلاثة انواع من المناطق المرتفعة وهي : (١) في بداية تشكل الانهار كانت المستقرات على ضفاف هذه الانهار . (٢) ثم نجدها على قمم الجبال الموازية لسلسلة جبال زاغروس التي تقطعها في العصر الحالي السهول الفرينية . (٣) ونجدها كذلك على أعلى التلال ضمن سلاسل من الجبال او التلال او الكثب التي تشكلت خلال العشرات الالاف من السنين بسبب الرياح . ومن المعقول جداً أن الاستقرار البشري قبل الالف الرابع (ق . م .) قد أخذ موضعه في المناطق الأكثر ارتفاعاً لكي تكون هذه المستقرات في مامن من الفيضانات » (٧٨) .

المبحث الثاني

دعوة النبي نوح (عليه السلام)

دراسة اجتماعية مقارنة بين نصوص القرآن الكريم والآثار

كان عصر النبي نوح (عليه السلام) يمثل تكاملاً منطقيًا وعقليًا ونضجاً في المجتمع البشري بحيث أصبح الانسان فيه كامل الوعي وتخلص الانسان عبر آلاف السنين من أمور بدائية كثيرة واستجمع في ذاكرته تراكم المنجزات التي أحدثها عقل الانسان وهو يتعامل مع الطبيعة ويواجه أنواع شتى من التحديات ، استطاع ان يدجن كثيراً من الحيوانات التي هيأها الله سبحانه وتعالى لتتألف مع الانسان وتمنحه جزءاً من حاجاته التي اوجد الله من خلال توافق تكوين هذه الحيوانات في خلقها ووظيفتها لكي تؤدي خدمة لحياة الانسان على الارض فاحس الانسان بقرب الحيوانات المخلوقة خصيصاً لتتوافق مع حاجاته وكان حواراً حصل بين الانسان وهذه الحيوانات فوجد الانسان أن الامر مهياً لتقليل هذه الحيوانات . وكذلك اكتشف هذا الانسان من خلال المخزون المعرفي الذي اودعه الله فيه الزراعة واستطاع ان يزرع انواعاً من الحبوب . التي وجدها تلبي حاجته وتوفر له أمناً غذائياً . واستطاع ان يطور بعض الانوات وأن يتأمل فيما حوله من حياة واشكالها ومن خلال المحاكاة والتطوير اكتشف النار وبدأت مرحلة الصناعة . وكانت التغيرات التي تحدث في حياة الانسان تسير ببطء . وكان التغيير يسير بخطى بطيئة الحركة . ولكن « نحن نعرف من دراستنا للتاريخ والآثار انه قد حدث في حضارات كثيرة أن مدداً طويلة من التغير

البطيء والهواء التصبي قد اعقبتهما مند تتميز بالتغير السريع المصحوب بالتطور . وقد ارتبعت بفترات التغير السريع عمليات تكنولوجية جديدة مثل الزراعة . أو على نطاق اصغر تصنيع الحديد التي خلقت إمكانات حضارية جديدة واضحة سرعان ما استفلها الانسان^(٧٩) .

وكانت حركة التطور السريع التي تحدث نقله في حياة المجتمعات كانت تمثل مراحل فاصلة في المصور القديمة . وهذه من الامور الملفتة لنظر الباحثين وكان ثورة الحياة على الأرض محددة بصعود مستويات لتغيير طبيعة الحياة على الأرض بحيث تسير المجتمعات بصورة بطيئة وفجأة تتسارع خطوات التغيير لترسم صورة جديدة من الحياة بعد سبات طويل^(٨٠) .

لقد كانت البشرية في عصر نوح قد وصلت الى عهد من الرخاء والاسترخاء وابتعدت عن عوامل شلها الى السماء بسبب هذا الواقع الجديد الذي طفى على حياة المجتمع حيث الانحراف العقائدي وانتشار الوثنية وعبادة الاصنام واتباع الشهوات والاهواء وعبادة المال كما حدد القرآن هذا المفهوم بقوله تعالى حكاية عن نوح : ﴿ واتبهوا من لم يزدده ماله وولده إلا خساراً ﴾^(٨١) واستعملت طبيعة المترفين واصابها الغرور بحيث عدوا ان دعوة النبي نوح تمثل حرباً عليهم ومحاولةً لتجريبهم من مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية . وقد ذكر القرآن الكريم الوضع النفسي الذي كان يعاني منه الكافرون واسباب صدمهم وإعراضهم وحريهم لنوح (عليه السلام) كما في قوله تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلاً ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كافيين ﴾^(٨٢) .

هذه النقاط التي حدها النص القرآني تؤكد رفض هذه الطبقة لنبوة نوح بوصفه انساناً عادياً مثلهم وهذا يشير فيهم حسداً وحقداً . وكذلك العقلية التي كانت سائدة ، تكوينها الثقافي والايديولوجي يعيش في أوهام وميتولوجيا تتوقع أن يكون النبي فوق البشر وهذا المرض يمود عند كثير من الناس عند كل نبوة ونبي . وكذلك اتباع الفقراء

(٧٩) لتون / رالف / حجرة الحضارة / ص ٩١ .

(٨٠) لتون / رالف / حجرة الحضارة / ص ٩١ وما بعدها .

(٨١) سورة نوح / ٢١ .

(٨٢) سورة هود / ٢٧ .

والمحرومين للذبي يؤكد وجود ظلم اجتماعي وطبقي يعبر عن نفسه في رفض لكل قيم وغفلت تؤمن بمساواة البشر ولا فضل لأحد على أحد . لأن هذه القيم سوف تحرم المترفين من الاستمتاع بخدمة الفقراء والمستضعفين وامتھانهم وتسخيرهم لتحقيق شهواتهم ومتمهم .

لقد وضع القرآن الكريم مقياس التكريم للعمل الذي يوكبه الانسان وقد اشارت الايات التي تحدثت عن أحد أبناء نوح الذي رفض الهدى الذي جاء به نوح واختار لنفسه طريقاً آخر . وقد أكدت هذه الايات بطلان سيادة الدم وتفاضل الاجناس منذ بداية البشرية وان سيادة العالم مسخرة لمن يستجيب لناموس الله الذي اودعه في المجتمع البشري . وعندما تحركت عاطفة الابوة في نوح قال : رب إن ابني من أهلي . حسم القرآن هذه القضية وتجاوز الرب جلّت قدرته المواطف التي من شأنها ان تفسد الحياة اذا كانت هي الفاعلة والمؤثرة في المقاييس الانسانية فحدد الله جلّت قدرته بأيات وكلمات قليلة أساس العلاقة معه من بني الانسان ﴿ انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ﴾ هكذا بكل وضوح وضعت القضية ضمن مسارها الصحيح . العمل الصالح هو نسب الانسان . ان القرآن الكريم في تعاليمه كان يؤسس قواعد ويضع الموازين لمحاصرة الباطل وفتح المجال امام الانسان لكي يتحرك لعمارة الارض بوحى القيم السماوية الخالصة . ولا يوجد تفضيل لانسان على انسان ولا مجتمع على مجتمع الا بمقتضى المقاييس التي وضعها الله سبحانه . وقد الفت هذه الايات الاعتبارات التي تشبث بها اليهود ليدبروا سيطرتهم على العالم من خلال إرهاب الفكر الذي يعادي السامية ولذلك جاءت نظريات الحتمية البايولوجية^(٨٣) رد فعل ضد السامية لعبت « الاسويين والافريقيين واليهود منحطين وراثياً »^(٨٤) . ان هذه النظريات تنور في فلك الصراع على التاريخ وهذا يعني الصراع على المستقبل وكلها يحكمها الهوى والتمصب والاستعلاء على الانسانية « لأن التحكم الاجتماعي بمعناه الوراثي

(٨٣) الحتمية البايولوجية آخر صرخة في الحضارة الغربية المعاصرة وهي نظرية تمسبة تزك على ان الشعوب المختلفة تخلطها وراثي ولا جنوس من محاولة اصلاحها انظر المصدر اهداء .

(٨٤) دلا / ستيفن / وآخرين / علم الاحياء والايولوجيا والطبعية البشرية / ص ٢٤ / سلسلة عالم المعرفة ترجمة د مصطفى ابراهيم فهمي .

النهائي يعني سلب انسانية الانسان»^(٨٥) وحتى لو سلمنا بوجود تأثير وراثي للسلوك « لكن اتصال الجماعات الانسانية القديمة ببعضها والتنافس بينها عمليتان استمرتتا منذ أقدم العصور»^(٨٦) وهو ما أدى الى تمازج النماء الى حد يجعل نقاء الجنس أشبه بالأسطورة^(٨٧).

لقد بعث الله نوحاً الى مجتمع يعرف كيف يراوغ واستمرأ الحياة الدنيا وركن اليها . وكان هذا المجتمع قد وصل مستوى نقله الى المرحلة الثانية لانطلاقه البشرية بعد آدم الذي مثل عصره نواة الانطلاقة الاولى للانسانية فكان نوح (عليه السلام) يسمى (أبا البشرية الثاني) وكانت البشرية قد نمت أباهما الاول وانقطع التاريخ وطوت صفحات النسيان الاسس التي وضعها آدم (عليه السلام) لنزيته من بعده . فطال الزمان آلاف السنين انفصلت البشرية عن عبوديتها للخالق بفعل مؤثرات كثيرة جعلها الله أسباباً يختبر بها عباده الذين يثبتون على الحق ولا يغيرون ولا يبدلون . وكان الشيطان يراقب الانسان ويبحث له عن فرصة لكي يزيّن للناس عبادة غير الله من الاشياء التي يوهمهم بها بأن لها أثر على الحياة . تارة يدخل عن طريق غير مباشر كما دخل على قوم نوح (عليه السلام) عندما أغرامهم بنصب ينكرون بها صالحهم ثم انحرفوا من الذكرى الى العبادة وتارة يوهمهم بآثار الكواكب والشمس والقمر وقد يصل الامر الى حيوانات واحجار يؤلفها الانسان لكي يشبع غريزة التدين وفطرته التي قذفها الله في أعماقه . فكانت الرسالة في عصر نوح تمثل احتياج الجسد الى الروح . وتمثل الماء من السماء الى الارض اليابسة العطشى . لقد كانت ضرورة أكثر من ضرورة الهواء الى الحياة لأنها وضعت الفعل العظيم لحياة الانسان على الارض فكان الدين المتكامل في العقيدة والمنهج بحيث يلائم ما وصل اليه المستوى التصوري للانسان حول إحساسه بذاته ووجوده ووظيفته على الارض وعمقت رسالة نوح الاحساس بضرورة الدين للحياة وأصلت الطريق الذي وضعه الله للانسان على الارض . لقد عبرت رسالة نوح عن قضيتين في حياة البشر الاولى العقيدة وهي الايمان بالاله الواحد والثانية تشريع يتلاءم مع طبيعة العصر عبر عنها

(٨٥) رعد / ستيفن / م . ن / ص ١٠٦

(٨٦) لنتون / رالف / شجرة الحضارة / ج ١ ص ٦٤ .

(٨٧) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سيمر الى التوراة / ص ٤٩ وما بعدها .

القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ (٨٨).

ولقد أسست قصة نوح (عليه السلام) القرآنية مبدأ ومقاساً للقيمة الانسانية وهو الايمان والعمل الصالح والفت اي تأثير للاعتبارات العرقية والمنصرية وقد تمثل هذا المعنى في قضية ابن نوح الكافر وزوجه الكافرة . ويعد هذا المبدأ من اعظم المبادئ التي عرفتها البشرية وما زالت الانسانية تحاول وتكافح من اجل هذا المبدأ العظيم الذي الفى المنصرية والعرقية والعصبية والبشرية وما تزال تعاني من هذه الامراض وتحتاج الى استعادة هذه المعاني العظيمة التي أصلتها وثبتتها رسالة نوح (عليه السلام) . ومما يؤسف له ان اليهودية بتوراتها وتلمودها وفكرها شكلت محوراً لتسمير هذه الاسس والمعاني والقيم وذلك من خلال السامية والمناداة بها وصحابة من يرفض هذه الفكرة المزيفة . وان من رحمة الله وأثر رسالة نوح (عليه السلام) ان هذه القيم أصبحت معلماً لا سبيل الى محوه من عقل الانسانية . او من رصيدها الواعي .

وقد عبرت دعوة نوح (عليه السلام) عن نظام ديني متكامل من خلال عبادة الله الواحد مع قيم ونظام اخلاقي (يعبر عنه بالتقوى) وشريعة تتمثل بطاعة النبي والتزام توجيهاته بوصفه موجهاً للمجتمع الذي يعيش عصره ويمبر عن الدين بواقعية الحياة . لا شك ان تطور وسائل الحياة والعيش مر بمراحل طويلة منذ آدم الى نوح وقد مثلت توجيهات آدم الاسس التي يقوم عليها المجتمع البشري ووضعت الانسان ضمن مستوى التكريم الإلهي . ونحن نابعنا المظاهر الاولى التي عبر عنها القرآن بكلمات مقتضبة تتلام مع بدايات بسيطة فكانت استجابة آدم وزوجه الى توجيهات الرب جلّت قدرته هي المحور الاساسي وفي المخالفة الشقاء والمعاناة وقد طبقت التجربة بكل بقائنها عارضة لنموذج الانسان الذي يخطأ ويعود وقد نجح فيها آدم وعبر عن النموذج البشري الانساني الكامل ، ثم كانت الايات القليلة تضع ملامح الصورة الصحيحة للانسانية من خلال التاكيد على الملابس واستبشام العري وتقبّحه لتؤكد ان أسس الحضارة الحقيقية تقوم على قيم ومبادئ أخلاقية وقد أحسن ليورانت عندما وصف شروط قيام الحضارة عندما قال : « والحضارة مشروطة بطائفة من العوامل هي التي تستحث خطاها او تموق مسراها أولها العوامل الجيولوجية والعوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية وما هذه العوامل الصانية

والبيولوجية الا شروط لازمة لنشأة المدنية لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنية ولا تنشأها من العدم . إذ لا بد ان يضاف اليها العوامل النفسية الدقيقة فلا بد ان يسود الناس نظام سياسي ولا مننوحة كذلك من وحدة لغوية الى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الافكار ثم لا مننوحة ايضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة او الاسرة او المدرسة او غيرها حتى تكون هناك في لعبة الحياة قاعدة يربعاها اللاعبون ويعترف بها الخارجون عليها^(٨٩) .

ثم نقلنا القرآن الكريم الى الجيل الذي بعد آدم ومنذ البداية الاولى حيث قصة ابني آدم وكيف عرض القرآن الكريم العلاقة بين الانسان في مجتمع بدائي يحمل خصائص الارتقاء وقد عبّر القرآن الكريم عن نوعين من الانسان الاول يمثل الاستجابة للخير وكبت نوازع النفس المرضية كالهوى والحسد والثاني يمثل النوع الآخر الذي أحبط في الارتقاء واستجاب لغواية الشيطان فكانت اول جريمة على الارض وبينت هذه القصة ان الانسان لا يتغير في باطنه فهو انسان بما يحمل من خير وشر فهو يعيش في صراع مستمر في حياته ﴿ ونفس وما سواها فلهمها فجورها وتقواها . قد اطلع من ركاها وقد خاب من ناصها ﴾^(٩٠) . ولكن في ثانيا القصة عرضت لنا الايات مشهداً عرفنا من خلاله ان الانسان البدائي لم يكن يعرف الدفن ورسم لنا القرآن الكريم صورة من صور تطور التصور الانساني للحياة من خلال دفن الجثث والموتى . وكيف بدأ يتخلص الانسان من الصور الوحشية البدائية ويهذب في تصورات ووسائل عيشه من خلال ازالة المناظر المستقبحة وتنظيف البيئة . والانسان الهمجي متحضر ايضاً كما يذكر ديورانت ضمن مفهوم واقعه وتكيفه لذلك الواقع . فهو يرى ان الانسان عندما بدأ يخزن طعامه بدأت معاناته « تلك ان الانسان اذا ما بدأ يفكر في غده فقد خرج بذلك من جنة عدن الى وادي الهموم ، وحلت به صفة الغم . وها هنا يشتد فيه الجشع وتبدأ الملكية^(٩١) والاثانية » ولكن مع تطور أساليب إبحار القوت كان يتبلور نظام سياسي واجتماع الناس لتحصيل

(٨٩) ديورانت / اول / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ٣ - ٧ .

(٩٠) سورة الشمس / ٧ - ١٠ .

(٩١) ديورانت / اول / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ١١ ويذكر ديورانت مثل عند قبيلة البيهمن في افريقيا (اما وليمة او مجاعة) ويقول ان في قصر الدهر هنا لحكمة صامتة .

القوت أعان على قيام الدولة»^(٩٢).

لقد علّمنا القرآن من خلال قصة ابني آدم أن الانسان البدائي (الذي كان يعيش عصر الهوموسابينز في بداياته الاولى) لم يكن يعرف كيف يدفن موته ولذلك ندرت الهياكل القديمة كحفريات (Fossils) لأن عدم دفن الموتى كان يعني «ترك الجسد ملقى في العراء الذي يصبح بدوره عنصراً اقتصادياً يضاف الى ما تقدمه الطبيعة . اذ تتولى امر تلك الجسد الجوارح من الصقور وابناء آوى وجميع أنواع أكلة الرمم ، حتى البكتريا التي تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام والقوارض التي تأتي في النهاية على تلك المظالم لأجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير»^(٩٣) . فكان دفن الموتى من أقدم الاشياء التي اكتسبها الانسان من مظاهر التحضر والتخلص من التوحش . عندما وصلت البشرية الى عصر نوح كانت البشرية قد تأسست في تصوراتها قواعد المدنية وبناء المجتمعات ونواة الاستقرار والقرى والمدن حيث استطاع الانسان ان يشكل ظاهرة « التمدن (Urbanisation) التي يمكن أن تعد بحق أرقى انجاز توصل اليه الانسان في استقراره على الأرض . فالمدينة ولادة الحضارة أو انها في الواقع هي الحضارة وهي الانسان متموضعاً ضمن اطار جغرافي اجتماعي محدد يعبر عن نظرتة الى العالم . وعن تطلعاته وهمومه»^(٩٤) . لقد وصل الانسان في عصر نوح الى مستوى من الوعي الثقافي وكان يملك تصورات حول الله سبحانه وتعالى والآخرة وعكست لنا الايات القرآنية مستوى ثقافي وحجج عقلية كان يجادل بها قوم نوح نبيهم حيث قال تعالى : ﴿ فقال الصّالّين كفروا من قومهم ما هذا إلا بشر مثكم يريد ان يتفضّل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في لبائنا الاولين • ان هو إلا رجل به جنة فترهبوا به حتى حين ﴾^(٩٥) . لقد كان هؤلاء يعرفون ان هناك خالقاً هو الله وكانوا يعرفون هناك ملائكة وصرحوا بأن ثقافتهم الدينية التي تلقوها من آبائهم لم تذكر لهم أن الله كان يرسل بشراً رسلاً ولذلك برروا رفضهم لدعوة نوح (عليه السلام) . وقد وصفوا نبيهم

(٩٢) انظر ديورانت / م - ن / ص ١٢

(٩٣) انتون / رالف / شجرة الحضارة / ج ١ ص ٢٨ .

(٩٤) مصطفى / شاكر / المدن في الاسلام حتى العصر العثماني / م ص ١٠ / ط ١ الكويت

١٩٨٨

(٩٥) سورة المؤمنون / ٢٤ - ٢٥

بانه مجنون أصابه مس من الجنون فعليهم الانتظار ومراقبة احواله لعله يهلك فيتخلص المجتمع من هذه المنفصات التي أظهرها هذا النبي ودعا اليها . ونحن نعلم أن المعترفين هم الذين تصدوا لنوح (عليه السلام) وحاربوا دعوت لانهم وجدوا هذه الدعوة تعني الغاء الامتيازات التي حصلوا عليها في الطبقة التي كانت سائدة في تلك العصر . وعندما صرح هؤلاء بأنهم ما سمعوا بما يدعيه نبيهم من آبائهم الاولين ولم ينقل لهم من الاجيال السابقة لهم ما جاء به نوح (عليه السلام) . وهذا يؤكد لنا أن الدين أصل وفطرة فطر الانسان عليها ولم يتطور هذا الدين حسب تطور عقل الانسان وحاجته ولم تتبدع افكار الانسان بل هو المنهج الاصيل في حياة البشر ولم تسبق الافكار المعائد « وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة »^(٩٦) . ينظر الغريبيون على ان الدين تولد في نفس الانسان نتيجة لمؤثرات قاهرة انعكست في حياة الانسان على شكل عقيدة دينية عبر من خلالها الانسان عن استجابته لبعض التحديات التي عجز عن التمكن منها والتغلب عليها ومن العوامل التي يعتقد هؤلاء الغريبيون انها كانت تؤثر على خلق العقيدة الدينية « الخوف من الموت والدمشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة او الاحداث التي ليس في مقدور الانسان فهمها . وكان أهم ما تملكت به دهشتهم وما استوقف انظارهم بسرّه العجيب هما الجنس والاحلام . لقد بهت الانسان البدائي لهذه الاعاجيب التي يراها في نومه وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص اولئك الذين يعلم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة»^(٩٧) . إن أعظم ما هو موجود عند الانسان هو تلك المخزون المعرفي الذي يحويه في باطنه في مساحة هائلة وراء الوعي لا تزال سراً من أسرار الخلق . ان الانسان الذي اودع الله فيه سراً من التعامل مع البيئة في كل المصور منذ آدم (عليه السلام) هو نفسه لم يتغير انما تغيرت الظروف نتيجة لمعامل عديدة منها الخبرة المتراكمة التي تنتقل من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر كان الانسان خلالها يحور ويطور ويعدل ففي كل عصر لم يكن هناك خلق ولكن تطوير وكشف لان الانسان لا يخلق ولكن الخلق صفة للخالق فالانسان « الهمجي هو ايضاً متقدم

(٩٦) ديورانت / بول / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ١٠١

(٩٧) ديورانت / بول / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ١٠٠ . وانظر كذلك شيلنجر / اسوالد /

تطور العرب / ج ١ ص ٢٢٠ حيث يقول : « انها الاتيان ذاتها التي ولدت ضمنها للنس

وليقة في الشرق . للنس تسعل من جديد بخمرة الاحلام والمخاوف والتوحد .

بمعنى هام من معاني المدنية لانه يعني بنقل تراث القبيلة الى أبنائه . وما تراث القبيلة الا مجموعة الانظمة والمادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التي هزبتها أثناء جهانها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الارض والاستمتاع بتلك الحياة واننا حين نطلق على غيرها من الناس اسم (الهمج) او (المتوحشين) فقد لا نميز بمثل هذه الالفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة بل نعبر بها عن حبنا المارم لانفسنا لا اكثر . ولا شك اننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب السانجة التي تستطيع ان تملنا كثيرا جداً من الجود وحسن الخلق . فلو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا ان الامم المريانة قد أنشأتها او أبركتها جميعاً إلا شعباً واحداً . ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الاسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة^(٩٨) وهذا الكلام وان كان يعبر عن وجهة نظر فيلسوف ومؤرخ وعالم غربي يصدر عن مؤثرات حضارته واننا لا نتطابق معه في الآراء ولكن تبقى بعض الحقائق والمفاهيم مما لا يختلف عليه . وتدل على اتفاق منطقي في عقول البشر اينما وجدوا ومتى ما وجدوا .

ولذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح لم يكن يعبر عن صفة مميزة لهذا المجتمع البشري بل كان القرآن يرسم صورة المجتمع بجذوره وكأنه لم يتغير على مدار المصور والدهور . ومنذ وضع القرآن جميع الامم في مستوى واحد لكي يغطي خلاصة تجربة هؤلاء الاقوام ومصائرهم لتتشكل العبرة والعظة للانسانية على مدار الزمان قال تعالى ﴿ اِلهَ ياتِكُمْ نَبَا النَّحْنِ مِنْ قِبَلِكُمْ قَوْمِ نوح وَعَاد وَثمود وَالنَّحْنِ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ اِلَّا اللّٰهُ ﴾ جاءتهم رسالهم بالبينات فرجوا ايديهم في الهواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لنبي لك شك مما تدعوننا اليه مريب^(٩٩) وقد تكرر هذا الموقف في القرآن الكريم لكي يتعلم الانسان أن الجاهلية واحدة في مفهومها وصفاتها وأهدافها ولكن قد تتغير صورها وأشكالها وكذلك دعوة الانبياء دعوة واحدة تحمل حقيقة واحدة وهي التوحيد والدعوة الى عبادة الاله الواحد « والذي يقرأ القرآن يلحظ ولا شك التركيز على هذا المعنى في أكثر من مناسبة وفي أكثر من صورة . ان الانبياء جميعاً قد جامعوا بكلمة واحدة يقولونها لا قوامهم (﴿ اعبدوا الله ما لكم من اِله غيره ﴾ وأن اقوامهم - في جاهليتهم - وقفوا من أنبيائهم موقفاً واحداً ، هو رفض الايمان بلا إله

(٩٨) نيزات / دل / قصة الحضارة / ١٢ ج ١ ص ٩٠ .

(٩٩) سورة ابراهيم / ٩ .

الا الله . وتارة يوجه الحديث الى الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة كما في سورة فصلت ﴿ ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (١٠٠) . قوله واحدة ، وموقف واحد مكرر . ان هؤلاء الملا المتجبرين على اقوامهم الذين يستعبدون البشر بسلطانهم انما يقتصبون في الحقيقة سلطاناً ليس لهم . انما هو حق الله سبحانه وتعالى وانهم يكونون غارقين في الترف الفاجر الى انقائهم حريصين على الاستمتاع بهذا الترف الذي حصلوا عليه من ابتزاز حقوق العبيد واستغلال كدحهم وجهدهم . فيكرهون تحرر اولئك العبيد من سلطانهم . ثم تقع سلسلة من الاحداث تتشابه في كل جاعلية او تتماثل (١٠١) . نريد ان نثبت حقيقة تستند الى نصوص القرآن وهي ان عصر نوح عصر اول الرسالات ومنه بدأت سلسلة الرسل والانبياء ولذلك عرض القرآن الكريم عصر نوح اول المصور في كل استعراض يستعرض فيه مجموعة رسالات وبعوات . قال تعالى مخاطباً محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح واتيين من بعده واوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان واتينا داود زبوراً ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً (١٠٢) والسنة تثبت ما اثبتته القرآن وتجعل اول رسول الى الارض هو نوح (عليه السلام) « فكان اول رسول بعثه الله الى اهل الارض كما ثبت في الصحيحين من حديث ابي حيان عن ابي زرعة بن عمرو بن جرير . عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (قال فياتون اثم فيقولون : يا اثم انت ابو البشر خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك واسكنك الله الجنة ، الا تشفع لنا الى ربك ؟ الا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبلي مثله ولا يغضب بعدي مثله ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، انهبوا الى غيري ، انهبوا الى نوح فياتون نوحاً فيقولون : يا نوح انت اول الرسل الى اهل الارض وسماك الله عبداً شكورا ، الا ترى الى ما نحن فيه . الا ترى الى ما بلغنا ؟ الا تشفع لنا الى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلي مثله ولا يغضب بعدي

(١٠٠) سورة فصلت / ٤٣ .

(١٠١) قطب / محمد كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٧٠ - ٧٩ بتصريف .

(١٠٢) سورة النساء / ١٦٢ - ١٦٥

مثله . (نفسى نفسى) ونكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح - (١٠٣) نوح (عليه السلام) أول رسول الى الارض ونحن نقرر هذه الحقيقة تواجهنا إشكالية في نظرتنا الى التاريخ واحداث عصره ومجتمعه ورسالته . هل كان نوح (عليه السلام) رسولاً يمثل رسالة عالمية الى كل الانسانية ؟ أم كانت رسالته خاصة بقومه ؟ هل كان هناك أنبياء أو رسل يعاصرونه الى أقوام آخرين ؟ وإذا كان نوح يمثل رسالة عالمية عمت جميع الارض ولم يكن هناك أنبياء أو رسل عاصرونه فما هو مصير البشر الذين لم يصل اليهم تأثير رسالة نوح ؟ وهذه الاشكالية نفسها التي واجهتنا عند حديثنا عن آدم (عليه السلام) وعن الاقوام الذين كانوا قبله . والاقوام الذين عاصروه وهل يوجد حقاً أناس قبل آدم ؟ وهل كان هناك من البشر من عاصر آدم ؟

نكرت آيات في سورة هود أمراً يبعث على التساؤل ، هذه الايات هي قوله تعالى ﴿ في قليل يا نوح اهبط بسلام منا وبركنا عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ (١٠٤) . يا ترى من المقصود بقوله تعالى ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ فهم غير ﴿ أمم ممن معك ﴾ فهل كان هناك بشر يعاصرون قوم نوح في بلاد أخرى أخبر الله تعالى انه سيتمهم أو يبارك لهم ويعذب آخرين (١٠٥) قال ابن كثير : « قال محمد بن كعب : دخل في هذا الكلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك في المذاب والمتاع كل كافر وكافرة الى يوم القيامة » . وقد نوه الشيخ عبدالكريم المدرس الى وجود آراء تقول بعدم وقوع الطوفان شاملاً لكل الارض استناداً الى هذه الآية بقوله « ومما يحسن الاطلاع انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الارضية او اختصاصه بأقليم سيدنا نوح (عليه السلام) ونحن اذا نظرنا الى النصوص علمنا عمومها » (١٠٦) .

(١٠٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٠ - ٧١ .

(١٠٤) سورة هود / ٤٨ .

(١٠٥) ويلهبط هذا المذهب الدكتور محمد بهيومي مهران في كتابه / دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ج ٤ ص ٩٢ حيث يقول ، الا يفهم من قوله تعالى ﴿ أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ﴾ لم يعصهم منا عذاب أليم ؟ أن هناك آخرين لم يشملهم الطوفان وان الله سبحانه وتعالى سيتمهم الى حين ثم يعصهم عذاب أليم ؟ .

(١٠٦) المدرس / عبدالكريم / مواهب الرحمن في تفسير القرآن / ج ٤ ص ٢٤ .

ولكننا نمود ونؤكد ان الجواب على هذه الاسئلة لا نملكه ولا يمكن أن نجزم بالحقيقة حول هذه القضايا . لاننا لم نشهد التاريخ منذ البداية ولم نخلق الانسان ونحن غير مسؤولين الا عن واقعنا . الماضي نعتبر احداثه وتماثل وقائمه لتتيز الخبرة لمعالجة الواقع . أما المستقبل فلا سبيل الى معرفته ولكن معرفة الماضي تعيننا على إدراك الواقع وتمنحنا إحساساً متوازناً بالمستقبل غير منقاد للاهواء والمواطف فيكون الانسان المرتبط بالماضي اكثر حكمة وهو يرى المستقبل ترتسم صورته في مخيلته فلا يستدرج للآلم والشقاء اذا كانت الصورة لهذا المستقبل سلبية تعاني من نقص عن مستقبل يطمح اليه فلك الانسان فيعود الى واقعه يعمل فيه ويصحح لكي يصل الى النتائج التي يريدها في مسيرته التي يعيشها على الارض . هذه الاطر للتعامل مع التاريخ هي الاطر الواقعية التي ينبغي للانسان ان ينعن لها وقد ثبت القرآن الكريم هذه المعاني وهو يتحدث عن أخطاء الماضي بالنسبة للام سبقت فاراد القرآن الكريم أن يضع أنظار الإنسان امام الواقعية بمبدأ عن المثالية ورسم حدود المساحة الخارجة عن التأثير فيها او التأثير بها فقال تعالى ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ القرآن الكريم يحدد هنا المسؤولية ويجعلها ضمن حدود الواقع فلا يُسأل الانسان عن أعمال الماضين ولا يكتسب شيئاً من أجر العاملين الماضين . وهذه قاعدة قرآنية يمكن أن نضمها أمام الباحثين وهم يكتبون التاريخ . فلا بد ان يتحرك الباحث عن التاريخ ضمن المساحة التاريخية الواضحة التي ينعكس استيعابها على الدارس وعياً وفهماً لزيادة رصيد التجربة الانسانية ولا يسبب تشويشاً وغبشاً في الرؤية ويضع الانسانية تحت الحدود المكرمة حيث التصورات الحيوانية والمقاييس البيولوجية . لذلك نجد معظم الباحثين والمتخصصين في التاريخ القديم قد تأثروا بالمفاهيم التي أفرزتها الحضارة الغربية مثل نظرية التطور والتفسيرات المادية للتاريخ فجاءت تفسيرات التاريخ مشوشة وتخمينات غير دقيقة منساقة وراء ظنون وأهواء . وفي كثير بل في معظم نقاط التاريخ هناك معضلات لا سبيل الى حلها أو حل الفازها وكما ذكرنا سابقاً بأن المؤرخين لا يملكون سوى الافتراضات والتوقعات بل أدى غياب الحقائق الى جعل التاريخ عبارة عن عيئولوجيا شعرية أو متعة خيالية لا جدوى من متابعة نقائنها . ولا فائدة في محتواها . على إننا لا ننكر الجهود المخلصة والجادة والابحاث المتوازنة الباحثة عن الحقيقة الرائضة للتشويه المعتمد لتاريخ الانسانية

والاعتراف بجهود الامم في بناء تاريخ الانسانية جمعاء .

وإذا عدنا الى الاسئلة المطروحة سابقاً بإمكاننا ان نطمئن الى القرآن الكريم لانه وحده الذي حفظ لنا أهم أحداث تاريخ البشرية لاننا اذا قرأنا التاريخ القديم قراءة غريبة فإننا سوف ننتبه وسط ركام من الاخبار التي نسجتها أخيلة الفلاسفة والمفكرين وسوف نجد أن هناك إغفالاً وطمساً متعمداً لمساحات هائلة من التاريخ وتهميشاً لأدوار كثير من الامم بسبب التعصب والهوى . « ولم يحدث أن بون إغريقي عظيم حدثاً من شأنه أن يساعد على تثبيت مظاهر التجربة والخبرة للبصيرة الداخلية . ولم يرق أي من الناس بالتأمل في التاريخ تأملاً جدياً »^(١٠٧) . في التاريخ القديم كل الاشياء وظفت لخدمة النص القرآني ولإثبات دلالته على التاريخ . ومن خلال هذه الرؤيا نستطيع أن نفهم سر تقدم المصريين في تحنيط الموتى . سجد ان فرعون الخروج الذي خرج بطارد موسى (عليه السلام) ومن معه الذي هلك غرقاً قام المصريون بتحنيطه ليكون لمن خلفه آية كما حدث القرآن الكريم بذلك . ان دراسة نصوص القرآن الكريم التي تعرضت للتاريخ القديم والمفقود أكدت أن القرآن الكريم قد حافظ على هذا التاريخ رحمة للانسانية ليطلعها على حقيقة تاريخها فتعامل فيه وتكتسب العبرة والخبرة قال تعالى مخاطباً محمد (ﷺ) ﴿ ولكننا انشأنا قروناً فطاول عليهم العمر وما كنت ثلوثاً في أهل مدين تنكوا عليهم ليمتأنا ولكننا كنا مرسلين ﴾^(١٠٨) وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الطيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يلقون الظالمهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾^(١٠٩) . آيات كثيرة في القرآن تدعو الى التوقف والتأمل وتؤكد بأن الله سبحانه وتعالى قد نقل الينا في قرآنه الكريم ما يدفع الانسان من أحداث ووقائع وعبر بتفاصيل دقيقة إذا احتاج الامر الى بيان وتوضيح وأحياناً مروراً عابراً في حالة سرد عدة وقائع لتأكيد حقيقة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب انريس انه كان صديقاً نبياً » ورفهناه مكتأً عليا^(١١٠) ولم يحدث القرآن عن إتريس اكثر من هذه المعلومات وجاءت في معرض الكلام عن مجموعة من الانبياء فكانت رواية المعلومة القرآنية لغرض تمييز

(١٠٧) (شبلمجر / اسوالد / شعور العرب / ١٤ ص ٥٦ - ٥٩ .

(١٠٨) (سورة القصص / ٤٥ .

(١٠٩) (سورة آل عمران / ٤٤ .

(١١٠) (سورة مريم / ٥٦ - ٥٧ .

دور الانبياء وتحملهم أمانة دعوة الناس الى الحق عبر الأجيال والعصور التي عاشها هؤلاء الانبياء . وعند تأمل نصوص القرآن نجد أن الهدف من ذكر أخبار الانبياء جاء لتأكيد حقيقة واحدة وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يترك البشرية ، بل تواصل إرسال الرسل والانبياء الى البشرية كلما انحرفت عن هدي السماء وأطبقت الوثنية والكفر على الارض فيرسل الله تعالى نبياً او رسولاً لانقاذ البشرية من ضلالتها وحيوتها . فتحصل لدينا من آثار هؤلاء الانبياء على الحياة وبقايا آثار ديواتهم على البشرية أن الدين أصيل في الحياة وعميق في باطن الذات الانسانية ولا يمكن أن نجد إنساناً عاقلاً منذ أن وجد الهوموسابيز حتى يومنا الحالي الا والدين يظهر على سلوكه وينمكس على حياته يعتبر عنه أحياناً بالايمان بالحياة الاخرى والبعث بعد الموت وأحياناً يعتبر عنه تعبيراً مدهرفاً بعبودية أشياء وحيوانات اعتقد الانسان بانها تملك تأثيراً على حياته أو موته^(١١١) فاستسلم لها خائفاً طالباً منها أن تمنحه إحساساً بالراحة التي يملكها العابون ولكننا ونحن نقرأ التاريخ القديم تبرز أمامنا مشكلة معقدة تترك الباحثين الذين يحاولون أن يخضعوا التاريخ للفهم الديني فوجد أن الرؤية الدينية للحدث التاريخي تبدو منسجمة من ميدان التاريخ القديم لان الذين كتبوا التاريخ وحلّلوا آثاره كانت تحكمهم افرازات الحضارة الغربية والجازات العقل الغربي فكانت هذه التحليلات تُطرح لعلامه القناعات العلمية المادية وقليل من الدراسات دبت على حقائق مهمة مثل متابعة عقيدة التوحيد وآثارها في العصور القديمة أو ارتباط أحداث التاريخ وشخصياته بالاديان المعروفة . بل عكس ذلك وجدنا طمعاً لمعالم الانبياء وإنكاراً لوجود شخصياتهم ما عدا محاولات قليلة كان هدفها خدمة التوراة والمهد القديم الذي تعرض الى ذكر الانبياء واحداث التاريخ القديم (ما قبل الميلاد) فكانت بعض المؤسسات المرتبطة بهذه الاهداف تخصص

(١١١) الطوطم ، بداية عبد الانسان فيها الحيوانات « هلود أوجبوا (OJIBWA) أطلقوا اسم طوطم على حيوانهم الخاص الذي يمدونه وعلى العقيرة التي تعبده وعلى كل عضو من تلك العقيرة ثم جاء علماء الاجناس البشرية فحلّلوا هذه الكلمة وجعلوها اسماً على مذهب (الطوطمية) الذي يدل دلالة غامضة على عبادة لشيء معين وعبادة يكون الشيء المعبود حيواناً او نباتاً وقد وجدنا انواعاً مختلفة من الطوطم في اصقاع مختلفة من الارض ليس بينها رابطة ظاهرة « ديورانت / بول / قصة الحضارة / ص ١٠٦ .

ملح مالية لدعم الباحثين الذي يخدمون أهداف التوراة وينتصرون لما منكور فيها^(١١٢).

ان عقيدة التوحيد التي نبّحت عنها في الآثار سوف لن نجدها . لأن التوحيد يعبر عن وحدانية الخالق وهذه العقيدة ترفض جعل أي شيء مادي واسطة للارتباط بالله . ولذلك كانت فترات ظهورها على الأرض كمقيدة يدين بها البشر كانت فائدة لكل أثر مادي يمكن أن يندل عليها خصوصاً قبل الكتابة وعصور ما قبل التاريخ . أما بعد اختراع الكتابة فإن المونوات الباقية على الرقم الطينية كانت تمثل السلطة السياسية والملوك والطبقة المترفة التي كانت تتكف مع السلطة لمحاربة الانبياء كما عرفنا من خلال الايات التي تعرضت لمجتمع النبي نوح (عليه السلام) . إلا ان العقيدة الوثنية وعبادة الاصنام التي ظهرت في عصر نوح وتحدث عنها القرآن الكريم نجدها تظهر ايضاً في عصر ابراهيم وقد أشار القرآن الكريم الى الحوار الذي دار بين ابراهيم وقومه وتسفيه عبادة الالهة المتعمدة التي تمتلها الاصنام . وهكذا نجد مظاهر الانحراف العقائدي التي ابرزها القرآن الكريم كانت هي الواقع الذي نشهد به الرقم الطينية في تمجيد الالهة المدينة التي كانت منتشرة في العالم القديم الذي يمتلئ الشرق الانسي والذي كان مركزه بلاد وادي الرافدين . ولكننا لو حللنا بعض النصوص القديمة الموجودة في الرقم الطينية يمكننا أن نستشف وجود محاولات وتطلعات نحو التوحيد « ففي قصيدة الخلق ان إله بابل يظهر إلهاً بين الإله الأخرى لا شك انه يلوّقها جميعاً ولكنه ليس بعد الاله الوحيد للكون . الا ان في الخاتمة سطرين بهذا الشأن يردان بنبرة فريضة فأذ يتكلم الالهة عن مربوخ يهتفون : « إذا انقسم البشر بشان الالهة ، أما نحن فجميع الاسماء التي اطلقناها عليه ليكون هو إلهاً » ، (اللوح ٤ ، السطر ١١٩ - ١٢٠) وكانني بالشاعر هنا وهو يستشف وحدانية الله . يتخيل أن هذه الصيغة العليا من الشعور الديني تظل فوق متناول فكرة البشر المتقلبة ولا يمكن إدراكها الا بالمثل الإلهي ولكنها مع تلك مذكورة هنا . إن الديانة البابلية لم تتقدم هكذا بون أن تظهر ميولاً وتطلعات نحو وحدانية الله «^(١١٣) . إن تحليل هذه العبارات يرجح شعوراً كامناً في نفس الشاعر كما نكر تلك لابات

(١١٢) انظر بالقر / د . طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ وما بعدها .

(١١٣) لابات / رينيه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية (ترجمة الاب البير أبونا ود . وليد الجادر / ص ٧٤ / جامعة بغداد ١٩٨٨)

كان هذا الشعور الذي أضاء لنا إشارة واضحة بأن الفكر البشري كان يحاول الارتقاء لاستيعاب التوحيد العقيدة التي شوحتها أفكار البشر وأوهامهم وثبتت احراف البشر مصالح الملوك والمترفين والكهنة ورجال الدين الذين لم يكونوا بأي حال يرغبون ان يتجردوا عن الامتيازات المادية التي حصلوا عليها نتيجة إطباق ظلام الجهل على عقول المستضعفين الذين رفعوا مكانة الكهنة وحكمهم في حياتهم كما قال تعالى ﴿ اتخلوا أحيارهم ورهبتهم أرهباً من دون الله ﴾ . ولو توفرت دراسات جادة وأمانة لتحليل نصوص الكتابات المسمارية للتعرف على حقيقة العقائد الدينية وآثار الايمان على المجتمعات القديمة لاستطعنا ان نخرج بنتائج يكون لها أثر حاسم في تاريخ الاديان ، وبذلك نستطيع ان نوظف دراسات التاريخ القديم لخدمة الحقيقة وتاصيل التوازن والعلمية الهادفة ولنبتمد عن التعصب والهوى والاحكام المسبقة المنفلقة .

بالاضافة الى ذلك يمكننا دراسة نصوص التوراة لخدمة الحقيقة وذلك لان التوراة تعد أقدم نص تحدث عن التاريخ القديم ونكر شخصياته ومدته وأهم الاحداث والوقائع . ولكن بشرط استبعاد الاساطير والروايات التي تهدف الى تكريس سيطرة اليهود على العالم والروايات التي أثبت العلم خطأها ويكون ذلك باعتبار جوهر القضية المذكورة في التوراة اذا تطابقت مع القرآن الكريم فيمكن ان نعتبر نكر جوهر الحديث يدعم ويخدم النص القرآني خصوصاً عند دراسة النص القرآني سوف نزداد استقراراً بأن ما يتضمنه القرآن الكريم خالي من الاخطاء الواضحة التي تبنتها التوراة . وقد حث القرآن الكريم الى اخراج التوراة الحقيقة لان القضية واحدة وان المسلمين يعتقدون بأن الكتب السماوية مصدرها واحد وهو الله جل جلالته ولكن هذه الكتب لم تسلم من التحريف والاضافة . ما عدا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه ولذلك لا يمكن ان تجد التناقضات الموجودة في الكتب الاخرى هذه التناقضات لا يمكن ان تجدها في القرآن الكريم^(١١١) قال تعالى ﴿ قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ .

(١١٤) انظر / محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ وأحداث التوراة من أمم حتى سبي بابل / ستار برس القاهرة - ١٩٩٢ . وكذلك بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

بقيت قضية نوح أن نحسمها ونحن لنهي هذه الفقرة ، وهي القضية التي أثارته
الاسئلة السابقة حول عالمية رسالة نوح (عليه السلام) . وهل هناك بشر كانوا
يعاصرونه لم تصل دعوته اليهم ؟ وقد أكدنا إن الجواب عن هذه الاسئلة ليس مهماً
بقدر الحقائق التي عرضتها آيات القرآن الكريم وهي تتصدى لمعالجة رسالة نوح
(عليه السلام) وعصره والانحرافات التي كانت تصود البشرية في عصره . ولكننا
لا نشك بين رسالة نوح (عليه السلام) كانت عالمية بحدود المفهوم للعالم في
عصره^(١١٥) . لأن العالم في عصره لم يكن بالسمة الحالية وكما قلنا فإن أرض الرافدين
كانت تشكل وحدة جغرافية مع أرض الشام وشبه الجزيرة العربية وهي تشكل بذلك
معظم العالم الذي كان يعاصر النبي نوح (عليه السلام) . وقد أثبتنا أن الثقافة
التي كانت سائدة في العالم المذكور كانت الثقافة الوثنية التي كانت في قوم نوح .
وأكدت ذلك المكتشفات الأثرية في أوغاريت ونكر أسماء الاصنام التي ذكرها القرآن
الكريم في عصر نوح (عليه السلام) في الرقم الحجرية الموجودة في أوغاريت
وكذلك الشعر الجاهلي في شبه الجزيرة نقل لنا أسماء أصنام قوم نوح وشيوخها في
شبه الجزيرة . كما أن أسماء هذه الاصنام موجودة في الكتابات المسمارية في بابل
وأرض الرافدين « شهدوا مبعداً لأند في المدينة »^(١١٦) . ويبدو أن الاتصال كان
موجوداً في حدود هذه المساحة وكانت التأثيرات تنتقل الى جميع المدن والقرى
المنتشرة في هذه البلاد الواسعة . ومن المعلوم لدى المسلمين ان الله لا يعذب أحداً
حتى يبعث اليهم رسولا يقيم عليه الحجة ويزيل الشبهة وقد رويت أحاديث بهذا
المعنى وقال ابن كثير : « أما النار فإنها دار عدل لا يدخلها احد الا بعد الاعذار اليه
وقيام الحجة عليه وفي حديث رواية الامام احمد . ان رسول الله (ﷺ) قال : أربعة
يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً . ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات
في فترة ، فاما الأصم فيقول رب قد جاء الاسلام وما اسمع شيئاً . واما الأحمق فيقول

(١١٥) لقد حدد القرآن الكريم رسالة نوح بقومه ولقطة اعداد البشر والوحدة الجغرافية للمنطقة
ساعد على انتقال تأثير ثقافة قوم نوح سواء الجاهلية أم الرسالة التي بلغها نوح الى
قومه . وقد جاءت آحاديت تؤكد ان كل الانبياء أرسلوا الى اقوامهم ما عدا النبي محمد
(ﷺ) فقد بعث الى الناس كافة . كما أكدت تلك الاحاديث النبوية الصحيحة .
(١١٦) انظر لآيات / ربه / المعتقدات النبوية في بلاد وادي الرافدين / ص ٢٦
(اتراساس) .

رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذقوني باليعرب وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الاسلام وما اعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول ، فيأخذ موافقهم ليطيعه فيرسل اليهم ان ادخلوا النار ، فوا الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً^(١١٧) . وقد أورد عشرة أحاديث بهذا المعنى وقال عنها بعضها صحيح والآخر ضعيف يعضد بعضها بعضاً ويتقوى بالصحيح فهي تفيد الحجة . وأجاب عن اعتراض امتحان الرب لهؤلاء في عرصات يوم القيامة عندما يأمرهم بالدخول في النار وقالوا بأن الدار الآخرة ليست دار تكليف وإنما دار جزاء وقال ان هذا لا ينافي التكليف في عرصات قبل دخول الجنة او النار كما ثبت ذلك في عقيدة أهل السنة والجماعة . حاصل ما تقدم بأن الناس الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء يختبرهم الله تعالى يوم القيامة فيأمرهم بدخول النار فان اطاعوه كانت النار برداً وسلاماً عليهم ويدخلهم الجنة وإن خافوا ولم يدخلوها يقول لهم الرب : لقد عصيتموني فأنتم لرسلي أكثر عصيانياً فيؤمر بهم الى جهنم . وهذا الامر يوضح لنا أحوال كثير من الناس الذين لم يتركوا الانبياء او لم يسمموا بدعوتهم فان الله سبحانه وتعالى لن يظلم ولا يهذب أحداً الا بعمله وحكمته . لذلك إذا عدنا الى مقالتنا فان من عاش من البشر في عصر نوح او عصر آدم او عصر اي نبي ينطبق عليهم هذا الكلام . كما وان الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على الناس بالانبياء والفطرة كما في قوله تعالى ﴿ ولا اخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾^(١١٨) . فالحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾^(١١٩) فان هذا الاشهاد هو إشهاد الفطرة فكل إنسان لابد أن يكون في داخله إيمان بوجود الله فالإيمان أصيل « ولا شك أن الاقرار بالربوبية أمر فطري والشرك حادث طارئ » والابناء تقلدوه عن الآباء ، فإننا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء

(١١٧) انظر ابن كثير / ابو الفداء / تيسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٢٩ .

(١١٨) سورة الاعراف / ١٧٢ .

(١١٩) سورة النساء / ١٦٥ .

(١٢٠) ابن ابي العز / علي بن علي بن محمد ت ٧٩٢ هـ / شرح المفيدة الطحاوية ، تحقيق شهاب الارناؤوط عبدالله بن عبدالمحسن التركي / ج ١ ص ٣١٢ / مؤسسة الرسالة .

أشركوا ونحن جرينا على عانتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم انكم كنتم معترفين بالصانع مقزين بان الله ريك لا شريك له وقد شهدتم بذلك على انفسكم^(١٢١) . وبذلك توضح لدينا ان البشر الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء أمرهم موكل الى الله ولا ندري ما الله فاعل بهم ولا يهنا ان نعرف مصيرهم ولكن نحن نعلم كذلك ان الله حكيم عادل رحيم لا يظلم ويفر ويرحم بعلمه وحكمته فان شاء غلبهم فبعمله وإن شاء رحمهم فلحكمة يعلمها كما قال تعالى حكاية عن عيسى (عليه السلام) ﴿ إن تعلمهم لآياتهم عبادك وإن تغفلهم فإني لن آتاك بغفلهم ﴾^(١٢٢) فقال عزيز حكيم ولم غفور رحيم لانه قد يرحم أناساً ظاهريهم يستحقون العذاب ولكن شاعت حكمة الله ولأمر غاب عن عقول البشر أن يفر لهم ويرحمهم . وليس أمراً مستبعداً على الله أن يعامل أهل الفترة ومن لم تصله دعوة الانبياء معاملة الحيوانات بعد أن يقضي بينهم فيما كانوا يتظالمون به في الحياة الدنيا ويقتصر للمظلوم من الظالم ثم يحولهم الى تراب كما ذكر تعالى ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾^(١٢٣) و أي يود الكافر ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجوز حتى انه ليلتصم للشاة الجماء من الغناء فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي كنت حيواناً فارجع الى التراب^(١٢٤) إذ قد تكون رحمة الله بهم أن يحولهم الى تراب وتلك أمنية الكافرين ، أما الاحتمال الآخر وهو الذي وضحته أحاديث كثيرة كما ذكرنا وإن الاحاديث ذكرت ان هؤلاء يحتجون ويختبرهم رب العزة ليظهر طاعتهم وحقيقة مصلحتهم فيكشفك أمرهم ويعرف قدرهم ومزاولتهم التي يعلمها الله في علم الغيب ولكن شاعت ارادته أن يقيم حجته على خلقه فيحكم الانسان على نفسه . فإذا عرفنا ذلك ابركنا ان الامر يعود الى حالة القرآن الكريم عندما سال فرعون موسى عن القرون الاولى فقال له موسى ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾^(١٢٥) وهذا هو موقف المؤمن بقدرته الله

(١٢١) ابن ابي العز / علي بن عيسى بن محمد / شرح المصنف الطحاوية / ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٥ .

(١٢٢) صورة المصنف // ١١٨ -

(١٢٣) سورة البقرة // ٤٠ -

(١٢٤) الفات كنز / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٤٦٦ -

(١٢٥) سورة طه / ٥٢ -

وعظمته فلا يسأل وانما يكل الامور الى بارئها فان الله تعالى ﴿ له الامر والعلم ﴾ ولا تبديل للكلمات الله . والامر لم يقتصر على عصر نوح او عصر موسى وعيسى وإنما يشمل دعوة خاتم الانبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث يوجد على الارض بشر لم يسمعو ولم تصلهم دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وهذه المسألة موجبة على مدار الرسالات والنبوات والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وهو الذي لا يفيب عن علمه ببيب النملة السوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء فهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين .

أما دليلنا على وجود بشر في عصر نوح (عليه السلام) لم تصلهم دعوته او كانوا خارج محيط دعوته على الارض فقد استشهدنا بأية ذكر الله تعالى فيها نوعين من الاسم [أم من مع نوح) و (أم أخرى) وذلك في قوله تعالى ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أم من معك ﴾ وأهم صنعتهم لم يمسهم منا غلب اليهم ﴿ (١١٦) . إن المفسرين فسروا هذه الآية بأن السلام عليه وعلى من معه » ويدخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة الى يوم القيامة » (١١٧) ونكر بعض المفسرين المعاصرين « انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الارضية أو اختصاصه بالاقليم الذي كان فيه سيدنا نوح (عليه السلام) (١١٨) وهذا الكلام نكره في معرض تفسيره للآية المنكورة . وهذا النص القرآني اشكل على المفسرين لانه ذكر أمماً غير الامم التي مع نوح في السفينة مما يشعر بوجود هذه الامم ووقت الطوفان وقد يفسر النص على أساس ان المنكوبين أمم لاحقة ولكن القول بوجود أمم وقت الطوفان لا يتعارض مع النص . ولو عضدنا هذا الفهم بأيات أخرى تتوضح لنا المسألة بصورة أفضل فقد ذكر الله تعالى قوم نوح (عليه السلام) في معرض نكره لاقوام آخرين وهذا يعني إن قوم نوح (عليه السلام) كانوا هم المعنيين بالرسالة ولا يمنع ان ينتقل تأثيرها الى بقية المناطق وشمول معظم البشر بدعوته ولكن سبب ضعف المواصلات وبدائية الحياة وبساطتها كل هذا لا يمنع وجود اقوام تعذر وصول دعوته اليهم أو ان الله تعالى قد بعث أنبياء محدودي التأثير الى قراهم أو اقوامهم

(١٢٦) سورة هود / ٤٨ .

(١٢٧) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٤٨ .

(١٢٨) المنرى / عبدالكريم / مواهب الرحمن / ج ٤ ص ٣٠٤ .

ونحن لا نعلمهم وهذا أمر غيبي لا سبيل الى الوصول اليه . وهذا الايات التي نكرت دعوة نوح (عليه السلام) هي ﴿ كلبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾ (١٢٩) ﴿ ألم يأتكم نيا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ﴾ (١٣٠) ﴿ ألم يأتكم نيا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ﴾ (١٣١) . وقوله تعالى ﴿ كلبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ﴾ (١٣٢) .

ولكن دعوة نوح (عليه السلام) كانت بداية الرسالات واتخذت معلماً من معالم الحياة الانسانية على الارض كما اعتبرت نبوة آدم (عليه السلام) المعلم الاول للبداية الفاضلة المكرمة كانت رسالة نوح (عليه السلام) المعلم الثاني ولذلك أعطى القرآن الكريم أهمية خاصة لرسالة سيدنا نوح (عليه السلام) فكان عندما يتحدث عن تاريخ الرسالات يبدأ به (عليه السلام) ﴿ كلبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخلوه ﴾ (١٣٣) . ونحن نعلم ان قبل نوح هناك أمة وأجيال بعد آدم (عليه السلام) كما ذكر الحديث الصحيح الذي استشهدنا به في البداية بأن هناك عشرة قرون كلها على الاسلام . وهذه الرواية في صحيح البخاري . كيف يكونون على الاسلام بدون أنبياء ؟ لقد كان هناك أنبياء لكن القرآن الكريم لم يذكرهم لان القرآن الكريم أرخ لبداية الرسالات من رسالة نوح (عليه السلام) لأهميتها ولذلك قد يهمل القرآن الكريم صفحات من تاريخ البشر او يسكت عنها لعدم أهميتها او لا حاجة لذكرها ومن هذا المفهوم نستطيع أن نستوعب نصوص القرآن الكريم التي عدت آدم أبا البشر بوصفه (عليه السلام) الانسان المصطفى الذي تتشرف البشرية التي يبدأ تاريخها من عنده أن تنتسب اليه . فعندما ينطق القرآن بـ (نرية آدم) فقد يعني تغليب الاكرام على الكل او تشريف الكل بإرجاع نسبها الى الاصل المكرم وكذلك قوله تعالى : ﴿ نرية من حملنا مع نوح إنه كان عبأ

(١٢٩) سورة الشعراء / ١٠٥

(١٣٠) سورة التوبة / ٧٠ .

(١٣١) سورة إبراهيم / ٩ .

(١٣٢) سورة ص / ١٢ - ١٣

(١٣٣) سورة غافر / ٥ .

شكروا ﴿١٣١﴾ . نكر ان البقية من البشر انما من نرية من كان مع نوح (عليه السلام) . وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة وهي جعل الانبياء آباء البشر كما في قوله تعالى حكاية عن لوط (عليه السلام) : ﴿ هؤلاء ينتمون اليك ﴾ (١٣٢) وهو يدعوهم الى الزواج من بنات القرية . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (١٣٣) . وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هننا واجتبينا ﴾ (١٣٤) .

إذا كان الانبياء قبل نوح من نرية آدم فمجيء ذكر من حمل مع نوح يؤكد ان الأمر جاء على العموم ولتقليب كرامة الانبياء إذ إن الواقع يؤكد أن النبي من نرية رجل وامرأة ويقلب نكر الرجل كما في قوله تعالى : ﴿ من ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴾ ولذلك عندما نكر النحس من حمل مع نوح لم يذكر النرية وكان يقصدها لان السياق يدعو الى ذلك فدل على أن النرية تعني الارتباط أي ان الانبياء مرتبطون بمضمحل ببعض برابطة نسب نقية اصطفاها الله تعالى ولا يشترط أن تكون بمعناها الخاص المباشر وهي أن يكون كل نبي ابن نبي ولكن قد يكون الارتباط غير مباشر عبر أجيال سابقة كما الأمر مع كثير من الانبياء مثل إبراهيم (عليه السلام) فقد كان أبوه كافراً وكذلك لم تعرف شيئاً عن أحوال آباء كثير من الانبياء مثل نوح وموسى وداود وإبراهيم ويونس وغيرهم عليهم صلوات ربي وسلامه . وكذلك فإن عيسى ابن مريم لم يكن له أب . فيتضح لنا من ذلك بأن القرآن عندما يذكر النرية انما يعني بذلك الارتباط غير المباشر (وهو ارتباط الكرامة) وهذا الخطاب مستعمل في القرآن الكريم كثير عندما يذكر (بني آدم) وكذلك عندما نكر دعوة لوط (عليه السلام) قومه للزواج من بنات قومه « قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من بنات أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحاً وقال سميد بن جبير يعني نساؤهم هن بناته هو نبيهم ويقال في بعض القراءات (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا

(١٣٤) سورة الاسراء / ٣

(١٣٥) سورة هود / ٧٨

(١٣٦) سورة الحديد / ٢٦ .

(١٣٧) سورة مريم / ٥٨ .

روي عن الربيع ابن انس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وغيرهم^(١٢٨) وبذلك نستطيع أن نتحدث عن احتمال وجود أقوام خارج محيط التأثير لرسالة نوح كما إننا من نص القرآن الذي يتحدث عن الناجين مع نوح ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۚ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾^(١٢٩) نفهم من النص أن أهله المذكورين هم الذين آمنوا به مع أهله فاستوعبت أهله من آمن معه من قومه لأن كل مؤمن يرتبط بنبيه رباط الاهلية وكل كافر ولو كان من ذرية نبي فهو ليس من أهله كما نكر القرآن الكريم ذلك وكذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ يؤكد ما ذهبنا اليه بأن الذرية المقصودة ليست الذرية المباشرة من نوح (عليه السلام) ولكن ذريته المؤمنة مع ذرية المؤمنين من قومه . وقد نكر القرآن الكريم لفظة تمبر عن خاص الخاص وهي (ذرية نوح) وأراد به ذرية قومه فهي من باب إطلاق الخاص ويراد به العام أو نكر الخاص واشتماله للعام . وكذلك قد غلب القرآن الكريم هذا الخاص الذي يشمل نوح وقومه على العام الذي يشمل من موجود من البشر ولم يكن لهم اعتبار يستحق الذكر لأن مقصود الحق جلّت قدرته إعطاء الاهمية للرسالة والكرامة للرسول ولمن آمن به وتبعه وأهمل الآخرين لأنهم لم يكونوا بالاهمية من الرسول واتباعه .

لقد أرسل الله نوحاً إلى قومه وكل الآيات أكدت ارتباط دعوة نوح (عليه السلام) إلى قومه وفي قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١٣٠) ولم ينكر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل نوحاً إلى العالمين بينما نكر القرآن الكريم عالمية رسالة محمد (ﷺ) بقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فإن القرآن الكريم تحدث عنه وعن قومه وفي كل الآيات التي تحدثت عن نوح (عليه السلام) فإنها تذكر قوم نوح ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴾ ﴿ أَمْ يَأْتِمُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوْمِ نوح وَعَاد وَثَمُودُ ﴾ ومع هذه الحقيقة تصير الروايات على جمل نوح (عليه السلام) قد بعث ولم يكن على الأرض الا قومه . وهذا يخالف المنطق والعقل ولم يرد نص يقول بأن الأرض كانت خالية من البشر الا قوم نوح . وهذه

(١٢٨) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٥٣ .

(١٢٩) سورة الصافات / ٧٦ - ٧٧ .

(١٤٠) سورة نوح / ١

القناعة المتأثرة بالرواية التوراتية انتقلت الى الطوفان فجعلته عاماً لكل الارض ولكل البشر وان السفينة وحجمها قد صورت بطريقة مرتبطة بتصور عموم الطوفان وان هذه السفينة هي من عدة طوابق وفيها جميع أنواع الحيوانات الى غير ذلك من الاسرائيليات وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان الطوفان لا يمكن ان يعم الكرة الارضية لان الماء الذي ارتفع الى اعلى مستوى وغطى الجبال هذه الكمية من الماء لا يمكن تصريفها إذا كان الماء قد غطى جميع سطح اليابسة على الكرة الارضية^(١١) . وقد أكد القرآن الكريم ان هذا الماء من الارض ولم يات من خارجها ﴿ وليل يا ارض ابلي ماءك ويا سماء اللهي فاذا كان هذا الماء هو ماء الارض وما نزل من السماء هو من الارض أيضاً لانه جاء من المطر والمطر نتيجة لتبخر مياه البحار والمحيطات . واذا كان ماء الارض هذا قد غطى جميع الارض فالتقت بذلك مياه المحيطات والبحار بمياه الطوفان فكيف نتصور ان الكرة الارضية قد تحولت للى كرة مائية ؟ وكيف تسنى للارض ان تبتلع الماء مرة اخرى وتظهر اليابسة ؟ كل هذا يؤكد ان فكرة عموم الطوفان فكرة تتعارض مع العقل والمنطق وان القرآن الكريم عندما أطلق كلمة الارض بقوله تعالى ﴿ ولجبرنا الارض هيونا ﴾ انما اراد ارض القوم الذين كذبوا واعرضوا وهي ارض قوم نوح (عليه السلام) وقد ذكر ابن الجوزي استخدام القرآن الكريم لكلمة الارض يمكن ان تعيننا على فهم الارض المذكورة في الآية اعلاه . فقد قال :

« الأرض تذكر ويراد بها ارض الاردن : ﴿ ولا تمثوا في الارض مفلسين ﴾ ويراد بها القبر : ﴿ لو تسوى بهم الارض ﴾ .

ويراد بها ارض مكة : ﴿ كنا مستضعفين في الارض ﴾ .
ويراد بها ارض المدينة : ﴿ ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .
ويراد بها ارض الاسلام : ﴿ ويسعون في الارض فساداً ﴾ .
ويراد بها ارض التيه : ﴿ يتيهون في الارض ﴾ .
ويراد بها الارضون السبع : ﴿ وما من دابة في الارض ﴾ .

(١٤١) اطلمت على دراسة باللغة الانكليزية تثبت رياضياً وحساب حجم الماء طبقاً للرواية التوراتية التي اكدت عموم الطوفان للكرة الارضية فقد اثبتت هذه الدراسة استحالة ان يكون الطوفان قد عم جميع الارض وبالمستوى الذي تذكره الكتب الدينية .

ويزاد بها أرض مصر: ﴿ اجعلني على خزانة الأرض ﴾ .
 ويزاد بها القلب: ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .
 ويزاد بها أرض الغرب: ﴿ مفسين في الأرض ﴾ .
 ويزاد بها الجنة: ﴿ الحمد لله الذي أوتينا الأرض نتبوا من الجنة حيث
 نشاء ﴾ . التمس أجر العاملين ﴾ .
 ويزاد بها أرض الروم: ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ .
 ويزاد بها أرض فارس: ﴿ وأرضاً لم تطئوها ﴾ .
 ويزاد بها أرض القيامة: ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ .
 ﴿ وأشرقَت الأرض بنور ربها ﴾ — (١١٢) .
 وهذا يرجح لدينا أن الطوفان لم يكن عاماً بل كان موضعياً .

(١٤٢) ابن الجوزي / أبو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ٥٩٧ هـ / المدهش ص ٢٤

الطوفان

دراسة مقارنة بين الرواية القرآنية والتوراتية

والرقم الطينية

أولاً : الطوفان في الرواية القرآنية :-

(العقوبات الربانية في مفهوم القرآن)

لقد خلق الله تعالى الانسان ومنحه عقلاً وأعطاه قابلية التعلم ولكن الانسان وهو يملك هذه الميزات التي جعلته فوق الخلائق الحيوانية التي تعيش معه على الارض لم يترك هملاً **﴿ ايعصب الانسان أن يترك سدى ﴾** (١١٣) . فكان إرسال الرسل السنة التي وضعها الرب جلّت قدرته لإقامة الحجة على البشر بأن الخلق قد أوجده خالقه لغاية . وهذه الغاية هي تحقيق العبودية لله . فكان الرسل يحققون الاتصال بالسماء من خلال الوحي ويعلمون البشرية جوانب من عالم الغيب أخفي عليهم لمحدودية العقل والفكر البشري . ومنذ آدم وحتى نوح (عليه السلام) كان الدين يمثل النفس الذي تحيا به البشرية الحياة الحقيقية ولذلك فإن الاسلام وما مثله من عقيدة التي يتركز فيها التوحيد وهو أفراد الخالق بالعبودية والتخلص من سطوة

المعائد الجاهلية التي تتشكل عقائدها التي يبتدعها عقل البشر وتنفيذ هذه العقائد بحسب الواقع والبيئة ولكنها كانت دائماً تتجه باتجاه المادية المَجسنة بالاصنام او الحيوانات أو الأفلاك وروحها الخرافة والاسطورة ومحركها الهوى والشهوة . ولهذا فإن الاسلام دين الفطرة ودين الانبياء جميعاً من لدن آدم ونوح الى محمد (ﷺ) كلهم جاءوا بكلمة التوحيد : لا إله الا الله وكلهم دعوا الى اخلاص العبادة لله ونبذ الشرك ونبذ الالهة المدعاة في أي صورة من الصور بشراً كانوا أم أصناماً أم كائنات أخرى مما خلق الله في الكون . وأن الاصل في البشرية الايمان والكفر الطارئ كما أخبر رسول الله (ﷺ) . لا كما يقول علم الاجتماع الجاهلي ولا علم تاريخ الاديان الجاهلي ولا علم مقارنة الاديان الجاهلي وأن هذه العقيدة لم تتطور كما تزعم تلك العلوم الجاهلية إنما تتطور هو الشرك لانه صناعة بشرية ومن ثم يتأثر بأحوال البشر ومدى ما لديهم من علم ومدى احتكاكهم بالكون المادي والبيئة من حولهم ولكن هذا كله من الخط المنحرف عن الدين وليس خط الدين ! إنما خط الدين هو خط الاسلام هو الذي كان عليه آدم (عليه السلام) وعشرة أجيال من بعده (كما ورد في الحديث الصحيح) وكان عليه نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم جميعاً^(١١) ولذلك كان الانبياء يبذلون جهوداً عظيمة للمحافظة على هذا الخط الاصيل في الحياة البشرية وكان كل نبي يذكر قومه بأحوال القوم الذين كذبوا قبلهم كما نكر هود قومه عندما أعرضوا نكرهم بقوم نوح ونكر صالح قومه بقوم هود . وكانت البشرية تخطو خطوات باتجاه تطوير المنجزات العقلية وهي ترث مخلفات القوم الآخرين فكان العقل البشري يزداد رصيده في التطور المادي ولا يمنعه وضعه المتطور من التصدي للانبياء والانكار عليهم وتحدي السماء بل العكس كان يحصل حيث يزداد الانسان طغياناً وكفراً كلما أحس بان البيئة التي أحيطت به أصبحت أكثر انعاساً واستجابة لما حدث من تطوير في وسائل تسخير الوجود . فهذا هود (عليه السلام) يذكر قومه بما حصل لقوم نوح ويذكرهم بنعم الله عليهم من مظاهر القوة وزيادة البسطة وكثرة البنيان واتخاذ المصانع والبحث عن الخلود وهو الوهم الذي زعه الشيطان في حياة البشر منذ آدم (عليه السلام) ﴿ هل أدلك على شجرة الغلذ وملك لا يلي ﴾ .

وقال هود لقومه : ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله عليكم تفلحون ﴾ ^(١١٥) ويقول لهم في موضع آخر ﴿ آتيتون بكل ربح ليه تعبتون وتستغنون مصانع لعلكم تخلصون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعوا ﴾ ^(١١٦) وهكذا كانت الانسانية تتراكم عندها الخبرة في السيطرة على البيئة والابداع في وسائل الاسترخاء والعيش . « وللك إن أي جاهلية من جاهليات التاريخ لم تخل من (براعات) بشرية في مختلف فواحي الحياة ولم تخل من تحقيق بعض الخير للناس ولكن هذا الخير الجزئي لا يوتي بتماره الكاملة في حياة الناس . ويضيع أثره في النهاية . بسبب الشر الجوهري الاكبر وهو رفض الهدى الرباني واتباع منهج الحياة غير منهج الله . وحتى لا يفتن الدارس بمظاهر التقدم العلمي والعمراني الموجود في بعض الجاهليات فيظن من أجل ذلك أنها ليست جاهليات » ^(١١٧) لقد كانت سنة الله في الحضارات او الجاهليات او القرى كما يسميها القرآن ثابتة لم تتغير في كل مرة يحدث انحراف عن الخط الاصيل وهو توحيد الخالق بالعبودية وتبليس الاهواء أفكار الناس فيلبسوا الحق بالباطل فيعمت الله رسولاً ليصحح المسار ويميد البشرية الى منهجها الاصيل وتغيرت أحوال وأمم وظروف ولكن القضية بقيت واحدة كما تغيرت جاهليات في صورها وأنواع الشرك فيها كان الخطاب يأتي بما يلائم البيئة والظروف التي كان يعيشها القوم ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومهم ليبين لهم ﴾ ^(١١٨) . وأخذت سنن التغيير طابعها المميز الذي لا يتخلف وهو إهلاك المعرضين ونجاة الرسول واتباعه المؤمنين ويحدثنا القرآن الكريم ان معظم القرى لم تكن ممن يستجيب لدعوة الرسول ﴿ وما جعلنا لأكثرهم من عهد وإن وجبنا أكثرهم لفاسقين ﴾ ^(١١٩) . فكان النبي ومن معه يرثون مخلفات المرحلة التي سبقتهم وهذه الوراثة ليست مادية وممتلكات وإنما وراثة التمكين في الأرض وبسط النفوذ ويتقاسم الزمان ويخلف النبي وجيله أجيال تبعد عن المنهج الاصيل وقد حدثنا القرآن عن هذه السنة بقول تعالى : ﴿ أو لم يهد للنين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أجناسا

(١٤٥) سورة الاعراف / ٦٩

(١٤٦) سورة الشعراء / ٢٨ - ٣١

(١٤٧) فطلب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٤٥ .

(١٤٨) سورة ابراهيم / ٤

(١٤٩) سورة الاعراف / ١٠٢

بنفوسهم ونطيع على قلوبهم فهم لا يسمعون» (١٠٠). وتقرأ ما كتبه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية «قال ابن عباس (رضي الله عنه) أولم يتسنى لهم أن لو نشاء اصبناهم بنفوسهم. وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها يقول تعالى أولم يتسنى للنين يستخلفون في الأرض من بعد اهلاك آخرين قبلهم كانوا اهلها فصاروا سيرتهم وعملوا اعمالهم وعتوا على ربهم» أن لو نشاء اصبناهم بنفوسهم» يقول أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم. قلت وهكذا قال تعالى» ألهم يهد لهم كم اهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات لأولي النهى» وقال تعالى: «أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون» وقال: «أولم تكونوا أقسمت من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم» وقال تعالى: «أولم يروا كم اهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرراً وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بنفوسهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين» وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد «فأصبحوا لآثرى مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين» إلى أن قال تعالى «ولقد اهلكنا من أقرى وصفنا الآيات لعلمهم يرجعون» وقال تعالى «فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد» ألهم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أولئان يسمعون بها فأنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمة بأعدائه وحصول نعمه بأوليائه» (١٠١).

نريد أن نؤكد عدة حقائق من خلال استشهدنا بهذه النصوص القرآنية منها :

١ - إن الناجين من الانبياء وأتباعهم يستأنفون الحياة بعد العقاب الذي نزل بقومهم وهؤلاء يوثون مجالات الانشطة الحضارية المادية وينقلونها الى الاجيال اللاحقة .

٢ - إن سنة الله في المعرضين إنزال العقاب والهلاك وفي الموالين للمنهج الاصيل التوحيدى هي النجاة والمعيش في ظل النعيم الوارف . في الحياة الدنيا والرحمة والفران والنعيم المقيم في الآخرة .

٣ - إن القرآن الكريم دعى للاعتبار من خلال التاريخ وأثار الاقوام السابقة وقد

(١٥٠) سورة الاعراف / ١٠٠

(١٥١) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٢٢٤

وضع القرآن الكريم التاريخ في اولويات برنامج التذكير الرباني للانسانية .
لقد كانت العقوبات تمثل المعالجة الاخيرة للاعراض والاصرار على الموقف الخاطيء
للانسان ولم تكن هذه العقوبة خارجة عن اطار السنن ولكنها متناسقة تماماً مع
الموقف الذي يمثلته المعرضون فيكون الجزء من جنس العمل وقبل العقوبة يحاول
النبي أن يخفف ومن ثم يعدل انحدار قومه نحو الهاوية ويحاول ان يمسك بوسائل
التأثير ويحفز فيهم كوامن الخير من خلال النصح والتذكير وقد يضطره قومه الى طلب
خرق نواميس الوجود من خلال المعجزات لإحداث صدمة شعورية في نفوس الناس
يحاول النبي من خلال هذه المعجزة ان يزيل طبقات الران المتلبدة على قلوب ومشاعر
قومه الذين انغمسوا في مايتهم وابتعدوا في انحرافاتهم وانقلب مقياسهم للخير
والحق .

ولقد بينت لنا الايات القرآنية في أكثر من موضع « ان الدمار التاريخي بإبعاده
المختلفة ما كان ليحقيق بجماعة ما إلا أن يُمارس في نطاقها ، قواعد وقيادة ، ظلماً
وفجوراً وترفاً وإجراماً ولقد كانت مشيئة الله تمنح هذه الجماعة البشرية الفرصة
الكاملة للحياة الطيبة العادلة السعيدة المؤمنة ولكنها كانت تضيّع هذه الفرصة
فتضيع » (١٢٢)

لقد كانت هذه العقوبات التي أنزلها الله بالاقوام المكذبة لانبيائه ورسله
متنوعة وقد احتلت أخبار هذه الاقوام ومصائرهما التي آلت اليها في القرآن مساحة
واسعة وحددت آيات قرآنية بتفاصيل دقيقة ألوان العذاب والعقاب الذي أصاب الذين
كانوا يعوقون عمل الانبياء . « ونحن نتكلم عن الفعل الإلهي المباشر أمام قوتين
كونيتين يسخرها الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المنظورة ، وقوة الروح غير
المنظورة . في الاولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة العنت
والشرك والتكابر البشري : السيل ، الجفاف ، الحاصب ، الصيحة ، الخسف او
الزلازل أو الرجفة ، الفرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الوبئة ،
الريح العاتية ، الامانة الجماعية ، تمزيق المجتمعات ، الخوف الجوع ، ثم الدمار
الشامل بون الإشارة الى الوسيلة بالذات . وفي الثانية نلتقي بجند الله الذين لا يرون
وبحشود الملائكة وبالطاقات الروحية التي لا تحلها حدود ، والتي تستطيع في
لحظات ان تقلب الهزيمة الى نصر وأن تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على

المقاومة والثبات»^(١٥٢). وفق هذا المنظور نستطيع ان نستوعب التاريخ ومن خلال الايمان بالغيب تتكامل عندنا التصورات الواعية لاحداث التاريخ وان عدم الايمان بالغيب يعني أننا نغمض أعيننا ونصمت وتدع أحداث التاريخ وحقائقه يسدل عليها ستار النسيان ونكون بذلك قد مارسنا اخفاء متعمداً لحقائق التاريخ ووزّنا القيمة الحقيقية للوثائق التي بين أيدينا وهي ما تحكي لنا قصة الانسان على الارض . وهذا الخط الفاصل بين المؤرخ المسلم الذي يحس بسمؤليته تجاه تدوين الحدث التاريخي وهو يحلل الوثائق التي يمتلكها وبين المؤرخ الذي لا تربطه بالايمان بالخالق والايمان بالحق أية رابطة وإنما هو يُخضع التاريخ لمقله المحدود الذي يعجز عن ايجاد أبسط التفسيرات لأبسط الحقائق التاريخية والتي سبق وأن تحدثنا عنها مثل أصل الحياة أصل الانسان ، أصل اللغة أصل الكتابة . وأصل الحضارة وجنورها .

الطوفان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كنبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عينا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ فدعا ربه أني مغلوب هاتصر ﴿ ففتحن أبواب السماء بغاء منهمر ﴾ وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴿ ولقد تركناها لآلة فهل من مذكر ﴾ فكيف كان عذابنا ونذر سورة القمر/ ٩ - ١٦

لقد تحدثت نصوص كثيرة في القرآن الكريم حول هذا الطوفان ولكنها لم تتعرض الى تفاصيل خارج إطار الهدف المرسوم للقصة في القرآن الكريم وعلى العكس من ذلك فقد وقعت التوراة أو العهد القديم بمغالطات وأخطاء جعلت رواية الطوفان تأخذ مسار الاسطورة بينما حافظ النص القرآني على تماسكه وإعجازه ولم يدع أي مجال وثرة لتخيلاتها واكتشاف تناقضات في ثنايا عرض قصة الطوفان في مواضع مختلفة من سور القرآن الكريم . وسنحاول فيما يلي القيام بعملية إحصاء واستشهاد بالآيات والنصوص القرآنية التي تعرضت للطوفان وسنقوم بعملية دراسة متأنية لهذه النصوص للخروج بنتائج وتصورات ضمن معطيات النص والرواية القرآنية للطوفان .

من خلال نصوص القرآن يبدو أن تطوراً ونضجاً قد وصل اليه إنسان عصر نوح حتى تبلورت قابليات هذا الانسان في الدفاع عن الطبقية الاجتماعية وتبرير الظلم والانتقاص من الرسالة بسبب انتماء المستضعفين اليها . وهذا يعكس لنا أن إنسان عصر نوح قد انتقل من البدائية الى عصر الزراعة ويمكن القول كذلك بأن عقل الانسان في هذا العصر قد تأسست عنده الاسس الفكرية الاولى نتيجة تراكم الخبرة منذ عصر آدم (عليه السلام) حتى هذا العصر . أول نص يطالعنا في القرآن حول قوم نوح ورسالته في سورة الشعراء في خمس آيات من سورة الشعراء قصة نوح ودعوته وإيجاز . وقد أكت معظم الآيات التي تعرضت لقصة نوح (عليه السلام) بأن الله قد أرسل نوحاً الى قومه وقد ارتبطت دعوة نوح بقومه وفي آيات سورة الاعراف إشارة الى العالمين اي المحيط خارج قوم نوح وقد نكر نوح (عليه السلام)

بأنه « رسول من رب العالمين »^(١٤٤) . وهذا يؤكد أن دعوة ورسالة نوح (عليه السلام) قد ارتبطت مباشرة بقومه وبصورة غير مباشرة بالعالم خارج قوم نوح . وهذه القضية تدفعنا الى التساؤلات القديمة حول من كان يعيش من البشر خارج المحيط الانساني او البشري لقوم نوح فمن الواضح بأن نوح قد أرسل الى قومه ومن المعقول جداً أن ينتقل تأثير رسالته الى المجتمعات القريبة او التي تعيش ضمن مساحة جغرافية يمكن الاتصال بها ضمن وسائل الاتصال المتاحة في ذلك العصر . وقد تتسع هذه المساحة لأن أعمار البشر كانت أطول فكان طول العمر يتيح فرصة للإنسان لكي يتحرك على أوسع مدى ويهاجر ويغير مستقراته طلباً لموارد الطبيعة التي تحقق له نوعاً من الأمن الغذائي له ولحيواناته وينقل الإنسان معه في تنقلاته معتقداته وطرائق تفكيره ووسائل عيشه فيكون المحيط الثقافي خصوصاً في بداية تكون المستقرات البشرية يكون بمستوى ثقافي متقارب وطابع الحياة وأسلوب المعيشة يتشابه ولذلك كانت العصور الحجرية يطلق عليها أسماء مواقع اكتشفت فيها أدوات تلك العصر « ففي العصر الحجري القديم الاوسط من ١٢٠,٠٠٠ سنة الى ٣٥,٠٠٠ ظهرت صناعة الشظايا الليفولوازية نسبة الى بلدة ليفولوا القريبة من باريس وظهرت الشظايا المستديرة نسبة الى موقع موستيه في حوض الدوردون بفرنسا . اما العصر المولتري فقد سمي كذلك نسبة الى منطقة سلوتره بمقاطعة الساندون حيث وجدت آلات في احد الكهوف أما العصر الاخير يسمى العصر المكليليني نسبة الى موقع مكللين في منطقة الدوردون بجنوب فرنسا »^(١٤٥) . الذي نريد تكديده أن ثقافة حياة عصر ما وصناعاته وطبيعة حياته نجدها في مواقع مختلفة من نول مختلفة بل قد تصل الى قارات^(١٤٦) مختلفة فمن الممكن أن نجد أدوات العصر

(١٥٤) اقرأ الايات ٥٩ - ٦٤ من سورة الاعراف .

(١٥٥) الدباع / د. تقي / الوطن العربي في العصور / ص ١١ - ١٣

(١٥٦) ويذهب بعض الباحثين بأن تطور الصناعات للمصور الحجرية كان محلياً « وانها كانت

نتيجة لتطوير صناعة الآلات الحصرية المحلية ويؤكد ذلك التشابه حضارة اللوس

البيهودية في كل من افريقيا وآسيا وأوروبا « أنظر - الدباع / د. تقي ود. الجابر / عصور قبل

التاريخ / ص ١٠٧ . ولكن في موضع آخر ينبغي هذا الاستنتاج حيث ينكر العديد من

الباحثين أن شمال افريقيا الاصل لمتل هذه الأدوات المتقنة الصنع وقد انتشرت منها

أساليب استخراجها الى مناطق أخرى / ص ١١١

المكبليني في فلسطين وفرنسا والمغرب وهذا من أقوى الأدلة على انتقال طرق العيش والوسائل التي يستخدمها الانسان في عصور ما قبل التاريخ بين مناطق متباعدة الامر الذي يدل على حدوث هجرات ونقل خبرات بين بني البشر في عصور ما قبل التاريخ وأن هذه الظاهرة قد تقلصت الى أبعد الحدود بعد استقرار الانسان وتكون المستقرات الحضرية وبداية تكون الحضارات . وقد أكد المنقبون أن طبيعة الحياة المعيشية للتجمعات السكانية الاولى كانت قليلة الاستقرار ويغلب عليها التنقل ولكن في عصر جرمو (القرية التي اكتشفت في شمال العراق في الالف السابع قبل الميلاد) بدأت الحياة الاجتماعية تأخذ طابع الاستقرار لسنوات طويلة قد تصل الى عدة قرون كما ذكرنا ذلك حول جرمو . وليس من السهل أن نجد أدلة مادية على انتقال او تأثير حضارة وادي الرافدين في حضارة وادي النيل ولم تكن بالسهولة نفسها التي كان يعثر فيه على أدوات حجرية تتميز بميزات عصر من العصور الحجرية القديمة ومع ان العكس هو الذي يذهب اليه المنطق والعقل لان تطور الحياة وتدرج انواع اكثر من الحيوانات يوفر سهولة الاتصال بين الجماعات البشرية وبذلك يتمزّد لدينا انتقال أدوات الاستخدام لإنسان العصور الحجرية قد تم بناءً على زيادة في اعمار الانسان مما يساعد على زيادة في الانتقال ومعدلات الهجرة عن العصور المتأخرة التي بدأ فيها عصر الانسان الطبيعي في معدلات اعماره وذلك عندما بدأت معدلات النمو السكاني بالازدياد وبدا التوازن الطبيعي في حياة الانسان يتشكل مع زيادة الحركة البشرية وزيادة في الانتاج .

واذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تتحدث عن الطوفان الذي أهلك قوم نوح فسنجد أن أكثر السور تفصيلاً لحدث الطوفان وما قبله وما بعده هي سورة هود الايات من ٢٥ - ٤٩ . ونذكر هنا فقط الايات التي تتحدث عن الطوفان ونبدأ من قوله تعالى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تغاطبني في الذين ظلموا ﴾ إنهم مفركون • ويصنع الفلك وكلما مر عليه فومه سفروا منه • قال إن تسفروا منا فإننا نسفر منكم كما تسفرون • فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويعل عليه عذاب مقيم • حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل • وقال أركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها أن ربي لغفور رحيم • وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح أبنته وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين • قال سأوي الى جبل يعصمني من الماء قال

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المفريقين • وليل
يا أرض أبلي ماءك ويا سماء أظلمي وغيضي الماء ولغضي الأمر واستوت على الجودي
وليل نمداً للقوم الظالمين • ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق
وانت أحكم الحاكمين • قال يا نوح انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن
ما ليس لك به علم اني اعطتك أن تكون من الجاهلين • قال ربي اني أعوذ بك أن أسألك
ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين • قيل يا نوح اهبط بسلام
منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمعتهم ثم يمسهم منا عذاب اليم • تلك من
أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة
للمتعقين ﴿١١٧﴾ .

لقد تعرضت الايات قبل ذكر السفينة الى الحوار الذي كان يحصل بين نوح
(عليه السلام) وقومه وكيف كان يحاول إقناعهم للتخلي عن عنادهم وكفرهم وكيف
كانوا يجادلون ويسخرون وقد تكررت قصة عنادهم في معظم النصوص القرآنية التي
تحدثت عن رسالة نوح (عليه السلام) وفي هذا تأكيداً لسريان سنة الله في الاقوام
التي تكفر بالرسالات بان الله يرسل اليها رسولاً ويقيم عليها الحجة وتستخدم معهم
كل الوسائل الممكنة في عصرهم ثم ينذرهم نبيهم بسوء العاقبة إذا استمرت
أوضاعهم على النحو الذي يلقون به دعوة الله حتى يصل حالهم في التحدي
والصلف ان يطلبوا من نبيهم أن يأتي ما يخوفهم به من العذاب ﴿ قالوا يا نوح قد
جادلتنا فاكثرت جدالتنا فأتنا بما تعلمنا ان كنت من الصادقين ﴾ (١١٨) . ثم ان الله أخبر
نوحاً بعاقبة القوم أنها ستكون غرقاً وأمره بصناعة السفينة وتعرضت نصوص قرآنية
لهذا الامر وهو بناء السفينة وان هذا البناء كان تحت رعاية الله ويتوجيه منه لان نوح
(عليه السلام) لم يكن يملك الخبرة في تصميم السفن أو لم يكن يمتلك تصوراً حول
وظيفة هذه السفينة وحجمها وكيفية الاغراق وطبيعة الطوفان . أخبر الله تعالى
﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أي تحت رعايتنا بتهيئة مستلزمات انجاز هذا
العمل ويكون بناء السفينة بموجب أمر الله وقد اوحى الله تعالى لنبيه تصميم هذه
السفينة قال ابن كثير ﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ أعيننا ﴾ أي بمرأى منا

﴿ ووحينا ﴾ تعليمنا لك ما تصلحه ^(١٠٩) . وهذا يوضح لنا بأن السفينة قد صممت بمقتضى وحي الله وإنها صممت لتلائم حاجة النبي نوح (عليه السلام) لكي تتم عملية انقائه ومن معه من المؤمنين وما يحمل معه من الحيوانات التي لا تستطيع السباحة التي كانت تعيش ضمن البيئة التي يمشي فيها قوم نوح . وأن الله قد أمره بحمل من كل زوج اثنين أي ذكر وأنثى من كل نوع لاستمرار النوع حتى لا ينقرض . وأن هذا الامر جاء يتوافق مع خطة وضعها الله لاستكشاف الحياة بعد الطوفان بالنسبة للناجين من قوم نوح . حتى تعود الحياة الى اوضاعها الطبيعية ضمن مدة منطقية لزيادة الانواع وتكاثرها وبذلك تستأنف الحياة نشاطها . وهذا الامر يساعدنا على فهم طبيعة الطوفان وأنه لم يكن غطى عموم اليابسة في كل الارض إذ لو كان كذلك لعجز نبي الله نوح عن إحصاء جميع أنواع الحيوانات التي تدب على سطح الكرة الأرضية وكيف كان يتسنى له أن يطوف في الأرض ليحضر من كل نوع زوجين ؟ وكما كان يستغرق من الوقت من أجل إنجاز هذا العمل الغير منطقي ؟ وهل يمكن ان يتصور أن بمقدور انسان أن يجمع من كل انواع المخلوقات على الأرض زوجين ؟ ونحن نعلم ان كل بيئة فيها أنواع من الحيوانات تتكامل حياتها مع هذه البيئة وقد استغرق انتشار هذه الحيوانات على الأرض منذ ان أوجدها الله وتكاثرت وتنوعت استغرق هذا الامر ملايين السنين ثم ان أمر بناء السفينة وإخبار الله لبيه بنتيجة القوم ﴿ اتهم مفركون ﴾ هذا الامر كان يحتم عليه الانشغال كلياً ببناء السفينة خصوصاً إن المؤمنين الذين كانوا معه قلة فلم تكن عنده من الايدي العاملة الكثيرة مما يساعد على انجاز سفينة بضخامة ما يتصور أنها تستوعب كل أنواع المخلوقات الحيوانية في عصره . ثم ان استجابة الله لنوح كانت سريعة كما يوحى سياق النص في سورة القمر ﴿ فلما ربه انهي مغلوب فانتصر ﴾ ففتحت أبواب السماء بماء منهمر • وفجّرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ ^(١١٠) . فلا يمكن مع هذه العجلة وسرعة الحدث ان ينصرف نوح (عليه السلام) لجمع أصناف الحيوانات ليضعها في السفينة لو لم تكن هذه الحيوانات المتواجدة في البيئة حول بيوت القرية ومع الانسان في بيوت القرية بالنسبة للمدجنة منها . ولو قيل أن الزمن من أمر البناء الى البناء استغرق وقتاً طويلاً في بعض روايات الحديث النبوي وهي ضعيفة وموقوفة

(١٠٩) ابن كثير / ابو الداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٤٤ .

(١٦٠) سورة القمر / ١٠ - ١٢

على بعض علماء السلف^(١٦١) أن الله أمره أن يفرس شجراً ليعمل منه السفينة ففرسه وانتظره مائة سنة ثم دجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة . وهذا الامر لا يصمد أمام النقد في الرواية ولا يخلوا من الغرابة في المتن . وكذلك فان نص القرآن الكريم لم يوجد فيه أي ذكر لانصراف نوح في البحث عن انواع الحيوانات أو أي إشارة الا حين التنفيذ ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار الثور فلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾^(١٦٢) . ولم يتطرق النص القرآني حول ابعاد السفينة وشكلها إلا إشارات في بعض الآيات حول وصف السفينة وهي قوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات ألواح وثقار ﴾^(١٦٣) . وهو ما يعطينا فكرة حول تكوين السفينة وأنها بنيت من ألواح الخشب والفُسْر تعني المسامير وتعني الحبال التي تربط السفينة^(١٦٤) ونحن نعلم ان استخدام الخشب قديم حيث وجد علماء الآثار بأن إنسان عصور ما قبل التاريخ قد استخدم الخشب في حياته اليومية « فقد عثر في تل الصوان في الطبقات تعود الى الألف السادس قبل الميلاد على آثار لطبقات عارضة خشبية على جانبي المدخل بين غرفتين تشير الى وجود عارضة كانت تسند سقف المدخل وعلى ارتفاع ٩٠ سم من أرضية الطبقة الثالثة دور (A)^(١٦٥) كما نرى انه لا بد أن يكون سكان تل الصوان قد استخدموا نوعاً من العوارض الخشبية لتسقيف الوحدات البنائية ولكن ليس لدينا دليل أثري يثبت ذلك »^(١٦٦) . وهذا بسبب تعرض الخشب للتلف . وقد وريت روايات « عن الثوري : بأن الله أمره أن يطلي ظاهرها ويأطنها بالقار وأن يجعل لها جُجُوجاً أزود (أي صدر السفينة طائل يشق الماء »^(١٦٧) ومعروف عند علماء الآثار كذلك أن استعمال القار كان شائعاً في عصور ما قبل التاريخ « وقد عرفت مادة القير في مواقع

(١٦١) انظر ابن كثير / أبو الفداء / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

(١٦٢) سورة هود / ٤٠ .

(١٦٣) سورة القمر / ١٢ .

(١٦٤) الرازي / محمد بن ابي بكر / مختار الصحاح / ص ٢٠٤ . وكذلك الزبيدي / محمد

مرتضى / تاج العروس / ج ١١ ص ٢٩٠ . وكذلك ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٨١ .

(١٦٥) وهو دور يمثل قسم من طبقات الحفر في الموقع الآثري .

(١٦٦) جورج / دوني / عمارة الألف السادس ق . م . في تل الصوان / ص ٧٥ - ٨٠ . وتل

الصوان موقع على نهر بجلة جنوب سامراء بـ ١٠ كم .

(١٦٧) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

عديدة في وادي الرافدين كمادة عازلة للرطوبة والماء وفي تل الصوان عرف استخدامها منذ زمن الطبقة الاولى فقد عثرنا في تحرياتنا الموقعية على بقايا القير في الركن الداخلي من الزاوية الغربية من الغرفة وفي عمليات الموسم الاول عثرنا على بارية وهي مغطاة بالقير على ارضية إحدى الغرف لابنية الطبقة الاولى وقد تمثل هذه بقايا سقف متساقطة على ارضية الغرفة وإذا صح هذا يمثل اسلوب متطور في عزل السقف بالحصران ثم تقطيعتها بمادة القير «^(١٦٨)» اما النُشْر وهي كلمة اختلف في تفسيرها منهم من قال أنها المسامير ومنهم من قال « خيط من ليف تُشُدُّ بها الواحها »^(١٦٩) والرأي الثاني أرجح لأن عصر نوح زراعي ولم يستخدم المعدن في عصره وفي القاموس أيضاً : « النوسر : نبات يجاوز الزرع في الطول »^(١٧٠) وهذا يرجح استخدام حبال مصنوعة من ألياف النباتات لتثبيت الالواح وهذا يؤكد بان عمل السفينة كان قد تم بوسائل متوفرة في البيئة الزراعية ولم تكن بالضخامة التي يتصورها بعض المفسرين متأثرين في تلك بمعلومات التوراة . حتى قال ابن كثير : « وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها »^(١٧١) وهذا لا يمكن بحال لأن بعد عصر نوح وحتى عصرنا الحاضر قد تطورت صناعة السفن وأصبحت بعض السفن مدن مصفورة وهذا كله بسبب اعتقاد معظم المفسرين بضموم الطوفان للكرة الارضية .

ومن خلال النص القرآني يتضح لنا أن قرية نوح (عليه السلام) لم تكن على النهر مباشرة وإنما كانت تبعد عن ضفاف النهر ولذلك كان قومه يسخرون منه عندما ينظرون اليه وهو منصرف لبناء السفينة ويتعجبون من عقله وكذلك عندما كان نوح ينكرهم بنعم الله كان ينكرهم ويرغبهم بما تتطلع اليه نفوسهم من جنات ويساتين وانهار وزروع وفيرة وأنعام كثيرة ﴿ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفرا ﴾ يرسل السماء عليكم مدررا ﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهار ﴾^(١٧٢) . وهذا يدل على أنهم كانوا بحاجة الى هذه النعم فالنعم الموجودة قليلة يكثرها والماء

(١٦٨) جورج / بوبي / عملية الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان / ص ٧٨ .

(١٦٩) الزبيدي / محمد مرتضى / تاج المروسة / ج ١١ ص ٢٩٠ .

(١٧٠) الزبيدي / م . م / ص ١١٤ ص ٢٩١ .

(١٧١) ابن كثير / قصص الانبياء ٩ ص ٧٦ .

(١٧٢) سورة نوح / ١٠ - ١٢ .

المفقود يرسل السماء عليهم مدرارا . وان الامتتان بذكر إجراء الانهار وجعل الجنات يوحي بان قوم نوح كانوا قد عرفوا الجنان والانهار ولكنها لم تكن عندهم بالوفرة الكثيرة فكان الكلام بترغيبهم فيها اسلوباً يرجى منه أن يؤثر فيهم ويربطهم بمفاهيم الايمان بالله وقدرته . كما وان الطوفان عندما وصفته نصوص القرآن الكريم لم تكن هناك إشارة الى أن الانهار قد ارتفع الماء فيها ولم يرد أي ذكر لأي نهر فقد ورد في القرآن الكريم أن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وتفجر عيون الماء من الارض ﴿ ففتحن أبواب السماء بهاء منهراً ﴾ ولجئنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿ (١٧٣) ﴾ . وفي آيات أخر من سورة هود ﴿ وليل يا أرض ابلغي ماءك ويا سماء اظمي ﴾ (١٧٤) . وقد ذكرت نصوص القرآن بان مستوى الماء قد غطى أعلى مرتفع في المنطقة ومن سياق النص يتوضح بان المنطقة كانت فيها مرتفعات وهي على شكل هضبة وهي أعلى مستوى من الارض المجاورة ولذلك تولد تيار مائي وصفه القرآن الكريم ﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ فان تولد الموج نتيجة للتلاق وتلاطم تيارات تجري بانحدار سريع وعلى ضوء ذلك يمكننا تصور المنطقة التي كانت عليها قرية نوح (عليه السلام) بانها لم تكن على ضفاف الانهار وقد تكون قريبة منها وذلك ان نصوص القرآن الكريم لم تذكر ان الطوفان حدث بسبب فيضان النهر بل ان جميع نصوص القرآن التي تصدت لشرح الطوفان لم تذكر من قريب أو من بعيد حول احتمالية تأثير مناسيب مياه الانهار على الطوفان . وكذلك نستطيع أن نستبعد وجود قرية نوح على المسطحات الجنوبية من العراق لانها لو كانت هناك وحدث الطوفان لم تحدث تيارات ماء لعدم وجود انحدارات تؤدي الى جريان الماء كالجبال . ويذكر النص القرآني بان نوح (عليه السلام) قد حمل معه أهله ومن آمن معه من قومه وقد حدثت الرواية القرآنية أن الذين آمنوا معه كانوا قليل ﴿ وما آمن معه الا قليل ﴾ . وقد حمل نوح (عليه السلام) في السفينة أهله . ولم يفصل القرآن الكريم من هؤلاء الاهل ؟ وقد استثنى منهم ﴿ الا من سبق عليه القول ﴾ وقد أوضح أهل التفسير أنها (زوجته) التي كانت كافرة ولم تتبع زوجها نوح وقد ورد ذكر لابي نوح (عليه السلام) حتى انه دعى لهما بقوله ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولعن دخل بيتي مؤمناً

وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴿١٧٥﴾ ودعاء نوح (عليه السلام)
لوالديه يشمر بأنهما كانا معه مؤمنين . خصوصاً ان القرآن لم يعقب على دعائه كما
عقب على دعاء ابراهيم لابيه ﴿ وما كان دعاء ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه
فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن ابراهيم لأواه حليم ﴾ (١٧٦) .

وأن القرآن الكريم قد نهى رسول الله (ﷺ) أن يستغفر للمشركين ولو كانوا
أولي قربي . والنص يوضح حقيقة أخرى وهي أن الأهل يشمل الزوجة والابناء لانه
عندما أمره بحمل أهله أستثنى منهم الكافرين وعندما دعا نوح أبنه ليركب معه وكان
كافراً وكانت آخر محاولة من نوح الذي كان يحمل مشاعر الأبوة والعطف على الولد .
هذا الولد الذي أصر إلى آخر لحظة أن يكون مع الكافرين وعندما اختفى عن أنظار
نوح (عليه السلام) خلف الأمواج تحركت في قلبه عاطفة قوية دفعت به إلى اللجوء
إلى الله لكي يتدخل لإنقاذ ابنه وقال نوح ﴿ ربني إن ابني من أهلي ﴾ الآية . فنهاه الله
تعالى عن الدعاء لإنقاذ ولده . لأنه أصر أن يكون مع الكافرين . ولانه سبحانه وتعالى
يريد من قلب المؤمن أن يتوجه بكل ما يحمل من عواطف ومشاعر نحو الحقيقة
الكبرى في الوجود وهي الإيمان بالخالق وبذلك يتخلص الإنسان من كل مؤثر دنيوي
يدفعه بالاتجاه الخاطيء الذي يفسد الاسس الصحيحة التي تقوم عليها الحياة
وتتصلح بها فيتخلص من التمسب والهوى والمحابة والظلم والحقد وكل الامراض
الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الجاهلية وقد حدد النص القرآني العلاقة
الحقيقية التي تربط أفراد المجتمع وتكون الامة قد بنيت على أساسها ﴿ انه ليس من
أهلك انه عمل غير صالح ﴾ . وهذا الاساس للعلاقة الانسانية يصلح أن يرتبط من
خلاله جميع البشر من خلال الاعتبار الانساني والعمل الصالح وقد أكد القرآن الكريم
هذه الحقيقة في مواضع عدة ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . وعلى منهجية القرآن
المعجزة لم يذكر القرآن الكريم اسم هذا الولد . ولم يذكر كذلك من كان معه من أولاده
وما هي اسمائهم وما يتشبهت به بعض المفسرين من ذكر لأسماء ونسج لروايات
وقصص كلها لم تثبت وهو مما نقله أهل الكتاب ودخل في تفسير الرواية القرآنية
كذلك في النص القرآني لم يتطرق إلى أصناف الحيوانات التي حملها وقد وردت

روايات تفسيرية^(١٧٧) بأنه حمل الجحوش والحيات والحيوانات المستأنسة الأخرى وجعل السفينة طوابق وهذا كله خارج دلالة النص القرآني ولم يثبت فيه حديث صحيح . ولكن الظاهر من النص بأنه حمل معه ما كان ضمن بيئته وقريبه منه من أنعام وحيوانات من كل نوع ذكر وأنثى وكما ذكرنا سابقاً كان الهدف من هذا العمل هو تثبيت الواقعية التي يدعو إليها القرآن وأن الأمر لا يحتاج أن يوضع ضمن إطار غيبي ميتافيزيقي أشبه ما يكون حديث خرافة خصوصاً وإن سياق الآيات لم ينكر بأن هناك حديث حول معجزة ضمن أجواء تحدّ وإنما أخذ بأسباب الحياة وأتباع السنن التي تنهض بها الحياة فإن نوحاً والناجين معه بعد الطوفان كانوا يحتاجون إلى ما يكمل حياتهم وقد جعل الله تعالى حياة الإنسان على الأرض تتكامل مع الحيوان والنبات والكل يحقق التوازن بالقدر الإلهي للحياة والكل يؤدي وظيفة تتكامل مع النوع الآخر وكذلك الشمس والقمر والنجوم والآنهار والملييل لقد جعل الله من هذا التركيب والمزيج والقص الموجود والذي يتكامل بانتمائش جملة سبباً من أسباب الإيمان به لكي يدرك الإنسان من خلال حاجته للمخلوقات الأخرى بأنه ليس إلهاً ولا يستطيع أن يستغني عن الحياة . كما لو أن الأمر كان فيه معجزة لذكرها النص كما كان ينكر حول معجزات المسيح (عليه السلام) ﴿ يرى الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله . وينفخ من الطين كهيئة الطير فيكون طيراً بإذن الله ﴾^(١٧٨) ولما لم ينكر النص القرآني حاجة قوم نوح خصوصاً أن الذين كانوا معه في السفينة مؤمنين ولما لم ينكر النص وجود مثل هذه الحاجة نجد أنه من الضروري عدم الخروج عن دلالة النص القرآني إلا إذا وجد نص حديثي . وعلى هذا فإن الروايات الكثيرة التي تتحدث عن أمور غير منطقية والتي تسربت إلى التفسير من الأسرائيليات لا بد من الابتعاد عنها وتنقية التفسير من هذه الخرافات . فأنهم ينكرون بأن إبليس تعلق بنذب الحمار وتمتر الحمار عند صعوده إلى السفينة بسبب ذلك . لماذا يصعد إبليس إلى السفينة ؟ وإنه غير مادي لا يتأثر بالطوفان . وكذلك ينكرون أن الفارة أنت قوم نوح فعمط الأسد فخرجت القطعة . وهذا كله لم يعد يقنع عقلية الإنسان المعاصر ومن الخطأ

(١٧٧) انظر ابن كثير/ تفسير القرآن الكريم العظيم / ج ٢ تفسير سورة هود ص ٤٤١

(١٧٨) نص الآية ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل إني جئتكم بآية من ربكم إني أخلق لكم من الطين كهيئة

الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبهر الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ... ﴾

الآية / آل عمران / ٤٩ ونص آخر في سورة المائدة آية ١١٠

الاستشهاد به في كتب التفسير .

ونعود الى النص القرآني فنجد يحدثنا عن لحظات الطوفان الرهيب وكيف إن السفينة أخذت تجري بهم في موج كالجبال جريان السفينة كان يعني أنها انحدرت من المستوى المرتفع من الشمال نحو الجنوب . وقد كانت السفينة تسير سيراً محدداً الهدف ﴿ وحملناه على ذات ألواح ونُشر . تجري بأعيننا جزاة لمن كان كفر ﴾ (١٧٩) فإنها كانت تسير بمناية الله ورعايته . وقد أراد لها أن تستقر على (الجودي) . وهنا نجد الخلاف في الروايات حول مكان هذا الجبل الذي سماه القرآن (الجودي) « قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة : وقال الضحاك : الجودي جبل في الموصل وبعضهم هو الطور وفي أثر عن نوبة بن سالم قال رأيت زبر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألتك أنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرسست من هنا » (١٨٠) .

إن تحديد مكان الجبل والتعرف عليه من العبث خصوصاً أن منهجية القرآن كما أشرنا في دراستنا لا ترتبط بالاسماء عند عرض الحدث لأن الهدف من سياق الرواية هو استخلاص العبرة . وإن القرآن الكريم لم يصدر من بشر وإنما جاء من عند الله وهو المعلم الحكيم والمسلم عندما يتلقى الرواية القرآنية على أساس التصديق واليقين . ولكن ونحن نتأمل النص القرآني يدفعنا شوق الى معرفة المجهول وذلك عندما يصرح النص باسم الجبل وإن أسماه (الجودي) في مثل هذه الحالة منحنا النص القرآني وضوحاً أكثر وبنيت صورة الحدث وقد أخذ جوهر القضية معظم مساحتها ولكن مع هذا الجوهر ظهرت بعض العلامات الخافتة يشوبها بعض الضباب والتضالُّ وكانت أكثر هذه الاشياء إثارة للتساؤل هو (الجودي) . إن هذه التسمية بحروفها وبنائها تدل على أنها عربية وقد ذكر أحمد سوسة ذلك « ان الفلك (استوت على الجودي) وهي كلمة عربية الامر الذي يؤيد أنها رست على مرتفع من الصحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات التي تملو عن سطح البحر بما يقارب (٦٥ متر) . » (١٨١)

(١٧٩) سورة القمر / ١٣ - ١٤

(١٨٠) انظر ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٤٤٧

(١٨١) سوسة / د . احمد مقالة عن موطن الطوفان واستقرار فلك نوح / ص ١٨٥ - ١٩٢ . ورد هنا للكلام في كتاب (معجزة القرآن والطوفان) المهندس سعد حاتم مرزة ص ٩٩ .

وهذا الكلام يبقى ضمن الاستنتاجات حول مكان استقرار السفينة وقد ورد أسم الجبل في التوراة بـ (أرازات) « وقد جاء في التوراة العبرانية (استقر الفلك على جبل ارازات) وهو جبل يقع في أرمينيا بينما تذكر التوراة السامرية أنه جبل سرنديب وهو يقع في سريلانكا »^(١٨٢) . وتذكر ملحمة كلكامش البابلية أن أسم الجبل الذي استقرت عليه السفينة هو (جبل نصير)^(١٨٣) .

ويذكر المرحوم د. طه باقر أن معنى جبل النصير « إذا صحت قراءة اسم الجبل في الملحمة (نصير) فلعل معناه جبل الخلاص . وأن هذا الجبل يقع بموجب أخبار الملك الآشوري (آشور ناصريال) الثاني إلى جنوبي الزاب الصغير »^(١٨٤) . وينهب كذلك الدكتور طه باقر إلى أن الجبل الذي استقرت عليه السفينة بحسب رواية (بيروسوس) (برعوشا الكاتب البابلي ، القرن الثالث ق . م .) سمي هذا الجبل بأسم الـ (كوربيين) . « ويستنتج الدكتور طه بأن معنى (كوربيين) الأكراة . »^(١٨٥) . وكما توضح بأن الأمر لا يعمد الاستنتاجات والتوقعات لعدم وجود دليل مادي يحسم المسألة . ولكن نكر أسم الجبل في ملحمة كلكامش بـ (جبل النصير) لا يتعارض مع التسمية القرآنية لأنه يحمل اسماً من البيئة وله معنى (جبل الخلاص) وقد يكون اطلاق هذه التسمية جاءت لتعبر عن الذخيرة أكثر من ارتباطها بأسم جبل ارتباطاً حرفياً أو يقصد بها جبل يعينه كذلك رواية الكاتب البابلي لا يشترط أن تتطابق مع تحليل واستنتاج د . طه باقر بل أن أسم جبل (كوربيين) قد تعمرض هذه الكلمة للنحت ففتحول بمرور الزمن إلى الجبل (الكوربيين) أي تتطابق مع التسمية القرآنية التي تدرجت لاحقاً فكانت اللفظة التي استعملها القرآن الكريم تتطابق مع اللفظ الأخير للكلمة وهو « الكودي » أو (الجودي) . وقد حاول كتبة التوراة الابتعاد عن البيئة العربية فاعطوا أسماء لا تنسجم مع سياق أحداث الطوفان فاطلقوا اسم جبل ارازات وهو في أرمينيا بينما

(١٨٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في التواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى السبي البابلي / ص ١٢

(١٨٣) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ١٤١

(١٨٤) انظر باقر / د. طه / م . س / ص ١٤١

(١٨٥) انظر / باقر / د. طه / م . س / ص ١٤١

حدثت التوراة السامرية الجبل بأنه سرنديب في سريلانكا^(١٨٦) . وليس غريباً أن يعتمد مدونو التوراة على معلومات من شأنها أن تسلط الضوء على تاريخ العرب فقد أزالوا من التاريخ أخبار أنبياء العرب مثل هود وصالح . ولذلك نرجح أن الجبل الذي استقرت عليه السفينة كان في جزيرة العرب لهذا السبب وسبب آخر وهو أن قوم هود كانوا في الاحقاف جنوب الجزيرة العربية في اليمن . وأن نبيهم بُعث اليهم نكرهم بقوم نوح . فقال هود ﴿ لو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينظركم وادكروا ألا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فادكروا آلاء الله هلكم تفلحون^(١٨٧) . عندما نكّرهم نبيهم هود يقوم نوح إنَّ هذا يعني أنهم كانوا قريبين منهم ما زالوا يسمعون أخبار نوح وقومه وكيف كانت أحوالهم ؟ . وكذلك هناك سبب ثالث يدفعنا الى هذا الرأي وهو أن الله تعالى علّم نوحاً أن يدعو ويطلب منه أن ينزله في مكان مبارك وذلك في قوله تعالى ﴿ ولقل ربي اقرنني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾^(١٨٨) . ولا يمكن أن يكون جبل في ارمينيا أو سريلانكا منزلاً مباركاً اهل البركات الا في ارض العرب وبلادهم وأخص بلاد العرب « أم القرى وما حولها » اي مكة وما حولها . نزل نوح (عليه السلام) بمباركة الرب له الى ارض مباركة ومع أمة مباركة وهكذا انتهت مرحلة الصراع وبدأت البشرية مرحلة جديدة وهي ما بعد الطوفان واعتُبرت بداية لمرحلة جديدة بعد أن تجاوزت التجربة السابقة وعلى هذه المجموعة التي اجتازت الامتحان مع نبيها (عليه السلام) أن تخطو خطوات تستأنف بها نورها لادها الجماعة المؤمنة الوحيدة على الارض وكان عليها برغم قلة عددها أن تؤدي نورها لايصال الحق الذي نزل اليهم الى المجتمع البشري الذي كان يتواجد على الارض في ذلك العصر . وبعد استقرار نوح وقومه المؤمنين ويمرور السنين وهم على شبه جزيرة العرب بدأوا يتكاثرون وتزايد أعدادهم ثم بدأت مرحلة الهجرة والتفرق وكان الحنين الى بلاد الرافدين الهاجس الاول . وهكذا بدأت الهجرة تلحظ دورتها في الحياة . لقد اخرج آدم من جنته على ارض الرافدين الى ارض

(١٨٦) « ويكود - بلاشير Blackett وفي رأي هذا الكاتب ان هناك كتلة جبلية بهذا الاسم (الجودي) بالجزيرة العربية انظر بيكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٨ .

(١٨٧) سورة الاعراف / ٦٩ .

(١٨٨) سورة المؤمنون / ٢٩ .

التكليف والوحي والرسالات الى مكة وما حولها ثم عاد أبناؤه الى ارض الخيبر والبركات والانهار الى ارض الرافدين والقصة تتكرر هنا مع نوح حيث أخرجته الطوفان من ارض الرافدين الى مكة » وقد روى ابن جرير والازرقى عن عبدالرحمن ابن سابط او غيره من التابعين مرسلاً ان قبر نوح (عليه السلام) بالمسجد الحرام « (١٨٩) .

وهكذا نرى ان المجتمع البشري بدأ يخطو خطوات نحو النضج في الوعي وبدأت أشكال الحياة في الواقع تتطور بخطى متسارعة منذ آدم (عليه السلام) حتى نوح ولقد حدث تطور في الوعي وأساليب الحياة في زمن نوح . وبدأ الانسان في عصر نوح يمتلك وعياً وخبرة متراكمة وقد ذكر القرآن الكريم نصاً في سورة نوح في سياق تذكير نوح لقومه بنعم الله عليهم ينكرهم بأن الله خلقهم أطواراً في قوله تعالى ﴿ ما لكم لا ترجون لله ولقائه وقد خلقكم أطواراً ﴾ (١٩٠) وهذه الكلمة (أطواراً) الذكر الوحيد في القرآن الذي جاءت به في هذا الموضع ومن الجائز أن يكون نوح ينكرهم بمن قبلهم من البشر وأطوارهم التي كانوا فيها وكيف امتن الله عليهم وجعلهم بأحسن تقويم (١٩١) وقد قال المفسرون أن أطواراً تعني مراحل التخليق للجنين في الرحم . وهذا ممكن لكن هذه الملاحظة لا تثير في قوم نوح الاحساس بقدرة الخالق في عصرهم .

(١٨٩) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٣ .

(١٩٠) سورة نوح / ١٣ - ١٤

(١٩١) انظر بوكاي / موريي / أصل الانسان / ص ١٩٧ - ١٩٨ ويقول تعقياً على هذه الآية

() ولم يجد في السورة أي ذكر لنمو الجنين قبل الولادة وهي الظاهرة التي فسرها المفسرون التكنيديون التكماء من خلال كلمة (أطواراً) . وهذه الآية توضح درجة كافيّة وشافية ان الشكل البشري يتعرض لتحويلات لدرجة أننا لو رفعنا الآية لم يتغير المعنى .

ثانياً : الطوفان في الرواية التوراتية

إن استشهدنا بالرواية التوراتية لا يعني إننا نقبل هذه الرواية أو نعتمدها ولكننا وجدنا أن معظم من كُتِبَ في التاريخ القديم قد استقى معلوماته منها أو من شروحاتها أو ما كتبه أحيار اليهود وهذا يعني أن التاريخ القديم ويضمه تاريخ الانبياء بيد اليهود ولذلك فأننا نعتبر هذه الظاهرة من أخطر الظواهر التي استقرت في أذهان الباحثين من القدم والمحدثين ولا بد من التصدي لها من خلال البحث العلمي ونشر الحقائق التي تتوضح للدارسين وقد عتَمَ عليه اليهود واحتكروا مصادر تعليمها . وقد مارس اليهود هذا الدور في بداية البعثة النبوية لرسول الله (ﷺ) حيث كانوا يحتفظون بمعلومات تاريخية حول فتية أهل الكهف وذوي القرنين^(١٩٢) . وما نك إلا لقناعة اليهود بأن إحكام السيطرة على التاريخ يعني أحكام السيطرة على المستقبل . وكذلك إذا استطاع يهود أن يحجبوا المعلومات التاريخية ويتحكموا فيها فإن هذا يعني أنه لم يبق مصدر يرجع إليه الباحث عن التاريخ إلا التوراة وهذا يجعل اليهود يعدون التوراة هي عهد الله لشعبه الذي اختاره ولذلك وبصورة غير مباشرة يقول يهود للعالم نحن سائتكم وما في توراتنا هو الحق ولا حق غيره . وقد استطاع مفكرهم أن يقنعوا الباحثين والمتخصصين بأن الأخطاء التي في التوراة هي أخطاء بسبب بشر وليس من الله وذلك تخلصوا من احتمالية إلغاء اعتبار التوراة بسبب تصادمها مع الحقائق العلمية التي أصبحت ثابتة في عصرنا ولا تقبل المراجعة . وقد ذكر جان جيتون (Jean Guitton) هذه حقيقة في كتابه التعليم المسيحي الموجز الصادر ١٩٧٨ حيث يقول « أن الأخطاء العلمية في التوراة هي أخطاء البشرية . فقد كان الإنسان منذ زمان طويل مثل الطفل يجهل العلم »^(١٩٣) ومن المؤسف أن يدافع المسيحيون عن التوراة بهذه الطريقة التي يقلب عليها التعمص وهو أمر غريب حقاً عندما يتحدث الأب ديفو في كتابه (مدخل الى سفر التكوين » أن التوراة لا

(١٩٢) انظر ابن كثير / ابو الفداء / تفسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٧١ - ٧٢ .

(١٩٣) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٥٨ .

تنتمي الى اي من هذه الدراسات العلمية»^(١١١) وهو في معرض حديثه عن التناقضات بين العلم والتوراة .

« وفي الوثيقة المسكونية الرابعة الصادرة من المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) هناك جملتان خاصتان بالمعهد القديم (الفصل الرابع ص ٥٣) تشير الى الشوائب ويطلان بعض النصوص وبشكل لا يسمح بأية معارضة تقول : (بالنظر الى الوضع الانساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الانسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عله ورحمته مع الانسان غير ان هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم الهي) ترى هل يبقى التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة او سيتبعه تغيير في الموقف »^(١١٢) وقد كان للعلماء المسلمين موقف قديم من التوراة ومعلومات أهل الكتاب أو ما يسمى بالاسرائيليات وعلى الرغم من التحمس الموجود تجاه المعلومات المنقولة عن أهل الكتاب إلا أننا نجد ان معظم المفسرين والمؤرخين الذين تكلموا حول مواضيع التاريخ القديم او حتى ما قبل التاريخ مثل بدء الخليقة وخلق الانسان . فإن هؤلاء قد طفت على كتاباتهم الاسرائيليات ولذلك لا نجد اي كتاب في التفسير او التاريخ من الكتب التي ألفها القدماء الا وتوجد فيه نسبة من الاستشهادات الاسرائيلية وهذا الاتجاه ينسجم مع ثقافة عصرهم اذ لا سبيل الى استيعاب النصوص القرآنية والحديثية بالنسبة لمصرهم الا من خلال معلومات هؤلاء . وقد وجدت أحاديث نبوية تحذر المسلمين من اعتماد معلومات أهل الكتاب كمصدر لتكوين ثقافة اسلامية ولكن هناك نصوص لاحاديث نبوية أخرى تسمح للمسلمين أن يستعينوا بمعلومات أهل الكتاب هناك نصوص في القرآن الكريم تذكر بأن التوراة فيها هدى ونور ولكنها حرفت وبلت كما دلت على ذلك نصوص وآيات في القرآن الكريم وفي نص من القرآن الكريم يطالب ويتحدى اليهود بأن يأتوا بالتوراة لمطالعتها ومعرفة ما فيها ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتوها إن كنتم صادقين ﴾^(١١٣) وحديث البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص الذي فيه « وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » . ويقول « الدكتور رمزي

(١٩٤) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٥٨ .

(١٩٥) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٦٠ - ٦٢ يتصرف .

(١٩٦) سورة آل عمران / ٩٣ .

نمناعة : إن وجه التوفيق بين هذه الاحاديث التي تفيد سؤال أهل الكتاب وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي يجيز التحديث عنهم ، يتبين لنا من شرح حديث عبدالله بن عمرو ومعناه ، فإن معنى قوله (٥٥) : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه وهو ما يوافق القرآن أو السنة الصحيحة ، لما في الحديث عنهم من العظة والاعتبار ولا يجوز أن يكون المعنى : حدثوا عنهم بكل حديث حق أو باطل . إذ من المعلوم بالضرورة أن النبي (ﷺ) لا يجيز التحديث بالكذب (١٧٧) . التوراة بناءً على ما تقدم يمكن الاستفادة منها بوصفها من أقدم المصادر التاريخية فإذا اتفق النص القرآني مع التوراة كان هذا بمثابة تعزيز للنص وتأكيد على أهمية القرآن كمصدر للتاريخ القديم خصوصاً إن النص القرآني خالي من كل شوائب وتناقضات وكل ما يتنافى ويتعارض مع البحوث العلمية والحقائق الثابتة . فإذا تحدث القرآن عن الطوفان وتحدثت التوراة كذلك فإن هذا يدل على تأكيد الحدث . وإن هذا القرآن من عند الله ولا يمكن أن يكون من محمد (ﷺ) إذ لو كان من عند محمد (ﷺ) لتكررت الأخطاء التي توجد في النص التوراتي وأعيدت في النص القرآني وبما أن الذي يحدث المكسر وهو خلو النص القرآني من الأخطاء الواضحة والمؤكدة والتي وقعت فيها التوراة فإننا نستطيع أن نؤكد بالنسبة لدارسي النص القرآني من غير المسلمين أن هذا القرآن من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافات كثيرة . على وفق هذا الملهج سندرج النص التوراتي للطوفان ونحاول أن ندرس هذا النص ونقارن مع النص القرآني ومنخرج بنتائج من شأنها تسليط الضوء على هذا الحدث العظيم الذي جعله الله عبرةً للأجيال كما قال تعالى ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَاحِ وَنَسَرَ ۖ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَفَرَ ۖ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا لِهَبْلٍ مِنْ مَذْكُرٍ ۖ ﴾ (١٧٨) يبدأ العهد القديم رواية الطوفان عند الاصحاح السادس من سفر التكوين واستقرت الرواية ثلاثة إصحاحات (٦ ، ٧ ، ٨) وسوف نأخذ بكتابة هذه الاصحاحات نقلاً عن الكتاب المقدس الذي يتلوه المسيحيون والذي يتضمن العهد القديم (التوراة وما أضيف إليها) والعهد الجديد (الانجيل) بمجموع رواياته الأربع ورسائله .

(١٩٧) نمناعة / د. رمزي / الاسرائيليات واثرها في كتب التفسير / ص ٢٧٣ نقلاً عن كتاب (نو القرنين الثالث والخامس والسادس) محمد خير رمضان يوسف / ص ٧١ .

(١٩٨) سورة القمر / ١٣ - ١٥

سفر التكوين : الاصحاح ٦ : حبة الجبابرة :

وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الارض وولد لهم بنات انجذبت اذهار أبناء الله الى بنات الناس فرأوا أنهم جميلات فاتخذوا لانفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم . فقال الرب : « لن يمكت روجي مجاهداً في الانسان الى الابد . هو بشري زائع . لذلك لن تطول أيامه اكثر من مائة وعشرين سنة فقط » وفي تلك الحقب كان في الارض جبابرة وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس ولدت لهم أبناء . صار هؤلاء الابناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم .

عقاب الله للبشرية : ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض وان كل تصور فكر قلبه يتسم دائماً بالاثم . فعلا قلبه الاسف والحزن لانه خلق الانسان وقال الرب : « أمحو الانسان الذي خلقته عن وجه الارض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت أني خلقتة » . أما نوح فقد حظي برضا الرب .

نوح يصنع فلكاً :

وهذا سجل مواليد نوح : كان نوح صالحاً كاملاً في زمانه وسار نوح مع الله وأنجب نوح ثلاثة أبناء هم سام وحام وياث واذ ساد الشر الارض امام الله وعمها الظلم نظر الله واذا بها فاسدة لأن كل بشر على الارض قد سلك في طريق الاثم . فقال الله لنوح : « قد أزلت نهاية البشر جميعاً أمامي . لانهم ملأوا الارض ظلماً . لذلك سأبيدهم مع الارض . ابن لك فلكاً من خشب السرو . واجعل فيها غرفاً تغطيها بالزفت من الداخل والخارج أصنعه على هذا المثال . ليكون طوله ثلاثمائة نراع (نحو مائة وخمسة وثلاثين متراً) وعرضه خمسين نراع (نحو اثنين وعشرين ونصف متراً) . واجعل له نافذة على انخفاض نراع . (نحو خمسة واربعين سنتمتراً) من السفف وباباً تقيمه في جانبه وليكن للفلك طوابق سفلية ومتوسطة وعملوية . فها أنا أغرق الارض بطوفان من المياه لايبدي كل كائن حي فيها ممن تحت السماء كل ما على الارض لايد ان يموت ولكني سأقيم معك عهداً فتدخل إنت مع بنيك وامراتك ونساء بنيك الى الفلك وتأخذ معك في الفلك زوجين ذكراً وأنثى من كل كائن حي نو جسد لاستبقائهم معك . تدخل معك اثنتين من كل صنف من أصناف الطيور والبهائم والزواحف على الارض حفاظاً على استمرار بقائهما . وتخزن لنفسك من كل طعام يؤكل وتخزنه عنبك ليكون لك ولها غذاء . وفعل نوح تماماً بمقتضى ما أمر الرب به .

الاصحاح : ٧ الامر بملء الفلك :

وقال الرب لنوح «هيا ادخل آلتي وأهل بيتك جميعاً الى الفلك لانني وجدتك وحكك صالحاً امامي في هذا الجيل خذ معك من كل نوع من الحيوانات الطاهرة سبعة ذكور وسبع إناث وزوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات الأخرى غير الطاهرة وخذ معك من كل نوع من الطيور سبعة ذكور وسبع إناث لاستبقاء نسلها على وجه كل الأرض . فإنني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض اربعين يوماً ليلاً ونهاراً فامحوا عن وجه الأرض كل مخلوق حي » . وفعل نوح بموجب كل ما أمره الرب به وكان عمر نوح ستمائة سنة عندما حدث طوفان الماء على الأرض فدخل نوح الى الفلك مع زوجته وابنائهم وزوجاتهم (ليدجوا) من مياه الطوفان وكذلك الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة والطيور والزواحف دخلت مع نوح الى الفلك زوجين زوجين ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً .

الطوفان :

وما إن انقضت الايام السبعة حتى فاضت المياه على الأرض ففي سنة ستمائة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه فتفجرت المياه من اللحج العميقة باطن الأرض وهطلت أمطار السماء الهزيرة وأستمر هذا الطوفان على الأرض ليلاً ونهاراً مدة اربعين يوماً في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الطوفان دخل وزوجته وابنائهم . سام وحام ويافت وزوجاتهم الثلاث الى الفلك ودخل معهم ايضاً من الوحوش والبهائم والزواحف والطيور ونوات الاجنحة كل بحسب أصنافها من جميع المخلوقات الحية أقبلت الى الفلك ودخلت مع نوح زوجين زوجين ذكراً وأنثى دخلت من كل ذي جسد كما أمره الله ثم أغلق الرب عليه باب الفلك . ودام الطوفان اربعين يوماً على الأرض وطلعت المياه ورفعت الفلك فوق الأرض وتكاثرت المياه على الأرض وطلعت جداً فكان الفلك يطفو فوق المياه وتماثلت المياه جداً فوق الأرض حتى أغرقت جميع الجبال العالية التي تحت السماء كلها وبلغ ارتفاعها خمس عشرة ذراعاً (نحو سبعة امتار) عن أعلى الجبال فمات كل كائن يتحرك على الأرض من طيور وبهائم ووحوش وزواحف وكل بشر مات كل ما يحيى ويتنفس على اليابسة وباد من على سطح الأرض كل كائن حي سواء من الناس أم البهائم أم الزواحف أم الطيور أبينت من الأرض ولم يبق سوى نوح ومن معه في الفلك وظلت المياه طاغية على الأرض مدة مائة وخمسين يوماً .

الاصحاح : ٨ : تناقص المياه :

ثم افتقد الله نجاحاً وما معه في الفلك من وحوش وبهائم فارسل ريحاً على الارض فتقلصت المياه وانسدت ينابيع اللجج وميازيب السماء واحتبس المطر وتراجعت المياه عن الارض تدريجياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك على جبل أراتات في اليوم السابع عشر من الشهر السابع للطوفان ، وظلت المياه تتناقص تدريجياً حتى الشهر العاشر وفي اليوم الاول من الشهر العاشر بدت قمم الجبال .

إرسال الغراب والحمامة : وبعد أربعين يوماً أخرى فتح نوح النافذة ، التي كان قد عملها في الفلك وأطلق غراباً فخرج وظل يحوم متردداً الى الفلك حتى جفت المياه عن الارض ثم أطلق نوح حمامة من الفلك ليرى ان كانت المياه قد تقلصت عن وجه الارض ولكن الحمامة لم تجد موضعاً تستقر عليه رجليها فرجعت اليه في الفلك لان المياه كانت ما زالت تتمر سطح الارض فمد يده وأخذها .

وهكذا يستمر النص في وصف أحوال ما بعد الطوفان ففي الآية ١٣ من الاصحاح ٨ يصف ظهور الارض وكيف رأى سطح الارض قد أخذ في الجفاف . وحتى الآية ١٥ يبدأ نوح بالخروج من السفينة بأمر الله وفي الآية ٢٠ تصف بناء نوح مذبح للرب وفي الاصحاح التاسع يبرم الرب ميثاقاً وعهداً مع نوح ومن معه بأنه لا يبيد بالطوفان كل جسد ثائية وعلامة العهد ظهور قوس من السحاب ، نقاط كثيرة تلتنقي فيها قصة الطوفان في التوراة مع قصة الطوفان في القرآن وتختلف أيضاً في نقاط كثيرة قد تكون جوهرية وسوف نبين أثناء نقاط الاتفاق بدون تعقيب لانها يمضد بعضها بعضاً فتشكل حقيقة تاريخية بالنسبة لنا غير قابلة للمراجعة وهذه النقاط هي :

١ - شخصية النبي نوح (عليه السلام) وهو النبي الذي تدخل الرب جلّت قدرته لنصرته فاغرق الكافرين من قومه وقد أطلق القرآن والتوراة اسم النبي نوح وهذا الاتفاق على التسمية يؤكد تطابق القصة والحدث وأن الطوفان الذي في القرآن هو نفسه في التوراة .

٢ - الطوفان حدث عقوبة من الرب للبشر العصاة وأنجي الله المؤمنين مع نوح في سفينة أمره ببناؤها وقد اتفقت التوراة مع القرآن بأن هذه السفينة من ألواح الخشب .

٣ - تتفق التوراة مع القرآن بأن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وخروج الماء من يذابيع الأرض .

٤ - تتفق التوراة مع القرآن على أن المياه ارتفعت إلى أعلى نقطة موجودة وغطت الجبال .

٥ - تتفق التوراة مع القرآن على أن السفينة استقرت على جبل وتختلف تسمية هذا الجبل ففي التوراة اسمه (أراوات) وفي القرآن اسمه (الجودي) .

٦ - تتفق رواية التوراة مع القرآن على أن الله أمر نوحاً بأن يضع في السفينة معه من الأحياء من كل نوع زوجين (ذكر وأنثى) .

مع ملاحظة أن هذه الاتفاقات هي من حيث العموم أي أن هناك اختلافات في التفاصيل الدقيقة كما في الاتفاق على استقرار السفينة على جبل والاختلاف على التسمية . أما الاختلافات فيمكن تحليلها كما يأتي :

١ - النظرة إلى شخصية النبي نوح (عليه السلام) وإلى وضع البشرية في عصره ففي نص التوراة في حلبة الجبابرة هناك تصور خاص يعطي صفة خاصة لنوع من البشر كانهم أعلى من الإنسان العادي « انجذبت أنظار أبناء الله إلى بنات الناس » من هم أبناء الله ؟ ومن هن بنات الناس ؟ وكان مدوئي التوراة أرادوا منذ البداية وضع أصل اليهود بوصفهم « أبناء الله وأحياءه » كما في نص القرآن الكريم أرادوا منذ البداية أن يوجدوا لهم مكاناً فوق البشرية . ولم يتطرق النص القرآني في كل مواضعه إلى مثل هذا الاتجاه الغريب .

٢ - مبدأ العقوبة الذي وضعته التوراة على لسان الرب يعكس صورة لا تتفق بالرب الخالق بحيث ينتم على خلق البشر وينزع منه الحكمة والعدل ويضطه الغضب للانتقام حاشاه وتعالى علواً كبيراً . « فقال الرب : لن يمكث روحي مجاهداً في الإنسان إلى الأبد . هو بشري زائف » « فعلا قلبه الأسف والحزن لأنه خلق الإنسان » وقال الرب « أمحو الإنسان الذي خلقته عن وجه الأرض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت أني خلقتة » .

٣ - النص التوراتي تعامل منذ البداية مع عموم البشرية في عصر النبي نوح وكان التوراة تتحدث عن البشرية في كل بقاع الأرض وهي حالة ممتدة منذ عصر

ألم لم يتكبر الخطاب . بينما في النص القرآني كان الخطاب دائماً يحدّص
 في قوم نوح ﴿ كلّبت قبلهم قوم نوح ﴾ ﴿ ألم يتكلم نأ اللّين من قبلكم قوم نوح
 وعاد ولمود ﴾ ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه ۝ أن ائدر قومك من قبل أن يأتهم
 غلب اليم ﴾ . وجميع الآيات التي تحدّثت عن دعوة نوح في القرآن الكريم
 كانت توجه الخطاب نحو نوح وقومه . وهذه حقيقة جوهرية في النظرة الى
 الطوفان لان الذين نزلوا التوراة تعاملوا منذ البداية على أساس عموم
 الطوفان وقد شمل كل البشر وعم كل الارض . وتأسيساً على هذه الفرضية
 أضطر مدوّنو التوراة الى أن يخلع خيالهم نحو تضخيم حجم السفينة
 والتوسع في ذكر أصناف الحيوانات والطيور التي وضعها نوح في السفينة
 ومما يؤسف له إن هذه المدوى انتقلت الى الاسلاميين من مفسرين ومؤرخين
 فاقتبسوا هذه المعلومات ووضعوها في كتبهم ودفنهم هذا الامر الى الاعتقاد
 كذلك بعموم الطوفان لكل الارض مع ان القرآن يقتض كارتة الطوفان
 باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح . وهذا يشكل الفارق
 الاساسي الاول بين الروايتين (١٩٩) .

٤ - لم يذكر النص القرآني اية تفاصيل أو مسميات ترتبط بالطوفان فلم يذكر
 أسماء أبناء نوح الذين ركبوا معه في السفينة ولم يذكر أسم ابن نوح الذي
 هلك في الطوفان . كذلك لم يتطرق الى انواع الحيوانات أو تفاصيل أكثر من
 ذكر الزوجين في الحيوانات التي أمر نوح (عليه السلام) بإدخالها في
 السفينة ولم يتطرق كذلك النص القرآني الى ابعاد السفينة وطبيعة شكلها .
 وكذلك حدد القرآن زوجة نوح بأنها مئن سبق عليه القول وقد وُصفت بالخيانة
 الكفرية لأنها لم تستجب الى دعوة نوح . في حين سكّنت التوراة عن زوجته
 بل ذكر النص التوراتي بأنها كانت مع نوح في السفينة . وهذه الملهجية التي
 اتبعها القرآن الكريم في الرواية التاريخية كانت مطردة في عدم الخوض في
 المسميات والتفاصيل الدقيقة الجانبية وذلك لان النص القرآني أريد له أن
 يعبر عن خلال المطلق الذي هو كلام الله على المعبود الذي هو الحدث
 التاريخي المتكبر بالبشر وكلام الله المعلن عندما يتحدث عن حياة البشر

(١٩٩) بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة /
 ص ٢٤٧ .

لا يمكن ان يتموضع في غير المقدس وهو الحدث ولذلك نجد ان القرآن الكريم يرتفع عن المباشرة وإنما يسمو نحو الرمزية والتشابه ومن خلال استيعاب حالة المتشابه نتوصل الى المحكم . فلكي لا تأخذ المسميات الصفة القدسية لذلك ابتعد القرآن الكريم عنها ولكي يملح البشرية المعاني المطلقة والعبر المحكمة ابتعد النص القرآني عن التلبس في التفاصيل والمسميات وهو بذلك يوضح المنهج الاصيل للعلاقة بين البشر والوحي المعتزل من السماء وهم يتفاعلون معه .

٥ - حددت التوراة ان الطوفان خُتَّ عندما كان عمر نوح ستمائة عام ولم يتطرق النص القرآني الى اي تحديدات زمنية لا عمر نوح ولا مدة الطوفان وغيرها من التحديدات الزمنية . وإن تحديد الطوفان عندما كان عمر نوح ستمائة سنة من النقاط التي عدت من الاخطاء العلمية التي تتضارب فيها نصوص التوراة بعضها ببعض « ان الرواية الكهنوتية حددت زمن الطوفان عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام غير انه من المعروف بحسب الانساب المذكورة في الاصحاح الخامس من سفر التكوين ان نوحاً قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عام (وهذه الانساب كهنوتية المصدر هي ايضاً) . يؤيد نتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم ومن ناحية يخرى فجدول نسب ابراهيم الذي يعطيه سفر التكوين يسمح بتقدير ان ابراهيم كان يعيش في نحو ١٨٥٠ ق.م . فإن زمن الطوفان يتحدد انن على حسب التوراة بـ (٢١ أو ٢٢) قرناً قبل المسيح . وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتمل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طبعاً قبل نص التوراة . كيف يمكن اليوم تصور كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الارض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م . ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الارض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها الى الاجيال التالية وبالنسبة لمصر على سبيل المثال كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى وبالنظر الى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فانه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات « (٢٠٠) .

(٢٠٠) انظر بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٥ . ويؤكد بوكاي « منذ ان حصل

ويضيف بوكاي في صفحة أخرى « إن البشرية والامر هكذا تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداءً من أولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث أنه عندما يولد ابراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فانه يجد الانسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات . كيف يمكن لاعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل الى هذا الحد ... ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية » (٢٠١) .

وهكذا نجد إن الرواية التوراتية ليست نصاً ولا وثيقة تاريخية وإنما هي قصة تمكلى بالاعطاء والتعديل والتحريف . كما وأنها تمثل روايتين الرواية الكهنوتية والرواية اليهودية وإن تعدد المصادر للحدث نفسه يفقده القيمة التاريخية . وهكذا نجد ان العلماء المسلمين لم يكونوا على مستوى من الدقة عندما استشهدوا بالاسرائيليات لتفسير النص القرآني ولو ترك النص القرآني وحده يعبر عن الحقيقة لتخلصنا من التشويشات والاضطراب في عملية فهم النص . وهكذا يتعمق لدينا شعور بان الاستغناء عن النص القرآني في دراسة التاريخ القديم خسارة لا تعوض وان هذا القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا تشبع منه العلماء ولا تلتبس به الاهواء وصلى الله العظيم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ (٢٠٢) .

→ المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الاحداث في المصور القديمة . كفت هذه الحويلات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين أن تكون موضع تصديق سارغ المسؤولون بحذلقها من كتب التوراة لكن المعلقين المحثين على هذه الانساب - التي احتفظ بها - لا يلقون انتباه قراء كتب التعليم الديني العامة نحو الاخطاء التي تحتويها . هامش ص ٢٤٥ .

(٢٠١) بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٥٣ .

(٢٠٢) سورة فصلت / ٤٢ .

ثالثاً : الطوفان في الروايات التاريخية والرقم الطينية

لم يترك حدث في تاريخ البشرية أثراً في ذاكرة التاريخ كما ترك الطوفان . فقد تناقلته الشعوب والامم وشكل تراثاً يتربد على السنة البشر . الاجيال تناقلته والشعراء انفتحت قرائحهم في استلهامه . وكان ذلك من أهم أسباب حفظه وإشاعة نكوه على مر العصور . « وقد أكد اليكساندر كوندرايوف الذي ناقش موضوع الطوفان - ان قصص الطوفان ليست مقصورة على شعب من الشعوب فهي متداولة بين سكان الجزر الشرقية في اوقيانوسيا (المحيط الهادي) واليابانيين ، والصينيين والبروميين والهنود الحمر فضلاً عن شعوب البحر المتوسط . وهناك طوفانات موضعية تحصل لمسبب أو آخر نتيجة زوبان مفاجيء وسريع للتفوج أو أعاصير مصحوبة بالمطر أو احتياج موجي ناجم عن اضطرابات او اهتزازات في قاع البحر او زلازل الارض والبحر او انفجارات بركانية . وفي حدود عمر الانسان المتحضر لم تحصل كارثة ذات بعد مدمر على صعيد كوني فلماذا إذن يقول كوندرايوف تتواتر حكايات الشعوب عن الكوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك على ضوء الحقيقة الآتية : ان أفق العالم المحيط بأي شعب من الشعوب القديمة محدود بالرقعة التي يوجد فيها أو أوسع منها الى هذا الحد أو ذاك فبالقياس الى ساكن الجزيرة فان العالم يقتصر على جزيرته فقط أو مجموعة من الجزر المحيطة به وبالنسبة لسكان وادي من الوديان لا يتجاوز العالم حدود الجبال المحيطة به وهكذا فان حدوث كارثة موضعية سيرتك انطباعاً عندما تطالهم الكارثة . بان أركان العالم تنهاوى على أبنائه لانهم لا يعرفون شيئاً عن الاصقاع الاخرى »^(١٠٢) وبغض النظر عن أهداف الدراسة العلمانية التي قام كوندرايوف والتي استشهد بها علي الشوك فإننا نجد أنفسنا أمام استنتاجات تخدم الاهداف المتجربة عن القناعات المسبقة التي تحكم عقول معظم الباحثين اليوم في هذا المجال . وان هذه الاستنتاجات لا تتقاطع مع حقيقة قصة الطوفان في النصوص القرآنية . ان شيعو قصة الطوفان بين الشعوب وصياغة هذه القصة صياغات متعددة

« الذي يدعى طوفان ديوكاليون (Deucalion) الجد المزعوم لليونانيين كما يذكر تنقيح بمقتضى البينة المختلفة للشعوب كما في أسطورة القارة المفقودة اثلثتا والتي يغلب عن الظن أنها من نسج مخيلة افلاطون » وقصة الطوفان اليوناني روبرت غريغز في كتابه (الاساطير الاغريقية) « وهي قصة تكاد تتشابه مع طوفان نوح التوراتي وطوفان كلكامش الاكدي » ويقول روبرت غريغز إن أسطورة طوفان ديوكاليون نقلها الهيلانيون من آسيا وتكرنا بأسطورة نوح التوراتية وعشتار البابلية^(٢٠٤). ان هذا الانتشار الواسع لحدث الطوفان يؤكد بما لا يقبل الشك حدوث طوفان هائل انتقلت اصدائه الى العالم . وإذا كان التعبير عن هذه الطوفانات اخذ طابع الاساطير « فان الاساطير القديمة مهما احتوت من العيالفات في بناء أحداثها ولكنها مع ذلك مستندة الى معلومات تاريخية حقيقية . وهذا يعني ان الاسطورة لا تصنع من الخيال المجرد ، بل تعمل فقط على تجسيم تلك الحقائق التاريخية والمبالغة فيها »^(٢٠٥) وكذلك عد الطوفان موضوعاً تفسير منطقي وتبرير مقنع عندما يصف تصور الذين حلت عليهم الكارثة وإن الصورة الانطباعية المتروكة لدى الناجين منهم بان الأرض كلها قد حلت بها الكارثة . لشدة هول الصدمة ولصعوبة الاتصال بالمجتمعات الاخرى . وان تفسير كوندرا توف لظاهرة وجود الهنود الحمر في العالم الجديد وسكان استراليا القدماء كان بسبب مرحلة جليدية مرت على الأرض قبل ٢٥ ألف سنة أدت الى انخفاض مستوى المياه في البحار والمحيطات مما أدى الى ظهور جسور برية بين القارات ساعدت على انتقال النوع البشري والحيوانات والنباتات بين القارات وبعد فترة من الزمن بحدود ٥ - ٨ آلاف من السنين ما لبثت هذه الجسور أن انغمرت مرة اخرى بمياه للمحيطات بعد ان ارتفعت مناسيبها بالتدرج^(٢٠٦) إن هذا التفسير معقول جداً ولكننا لا نتفق معه على تفسير الطوفان بأنه حدث بعد فترة نفاء مرت على الأرض بعد الفترة الجليدية كانت سبباً في نوبان التلوج وحدث طوفان عم الأرض وسمى هذا بالنفاء الفلاندي (نسبة الى مقاطعة فلاندر البلجيكية) لان هذا يقود الى الفرضيات والخيال العلمي ويفرض سؤال نفسه لماذا حصل هذا النفاء وما هي أسبابه ؟ فلا يستطيع الاجابة عنه

(٢٠٤) الشوك / علي / الاساطير / ص ١٠٢

(٢٠٥) رشيد / د. فوزي / مرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / ص ٢٠ - ٢١

(٢٠٦) الشوك / علي / الاساطير / ص ١١٠

ويحيله الى فرضيات واستنتاجات .

إن ان ترديد الطوفان في تراث الشعوب وأدب الملاحم يضع أمامنا حقيقة تستدعي أن نشد إليها انتباهنا وتتسأل عن سر تخليد الطوفان وجعله معلماً من معالم تاريخ المعتقدات والاديان حتى ان البشرية تؤرخ لبدائيتها منذ الطوفان فيقولون (ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان) . ان هذه الظاهرة وهي تواتر حكاية الطوفان هي التي جعلت كوندارتوف يتسأل عن سرها ويقول : لم يحدث حدث أو طوفان كوني في حدود عمر الانسان المتحضر فلماذا تتواتر حكايات الشعوب عن كوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ وهو سؤال يستحق الوقوف عنده . ان القرآن الكريم عندما تحدث عن الطوفان ونجاة نوح ومن معه ختم الكلام عن الطوفان بقوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾ (٢٠٧) وقال قتادة : أبقي الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الامة . والظاهر ان المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ (٢٠٨) . بحسب رأي قتادة إن الله جعل السفينة آية لتتذكر الاجيال قدرة الله وبطشه بالمكذابين المعاندين ولكن تحللت أخشاب السفينة وتحولت الى رماد وتراب أين الآية ؟ الآية في ذكر الشعوب لحدث الطوفان . هذه الاثار والرقم الطينية هي الآية المتروكة لمن يريد أن يتذكر . وهذا يربطنا بأية أخرى جعلت الاثر المادي دليلاً على قدرة الله تلك الآية هي جثة الفرعون الذي خرج يطارد موسى وبني اسرائيل فاغرقه الله ثم أخرج جثته وألقيت هذه الجثة على الساحل فاخذ المصريون جثته وحفظوه واحتفظوا بهذه الجثة على عانتهم في تحنيط ملوكهم مصداقاً لقوله تعالى ﴿ فاليوم نجيك ببنتك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ (٢٠٩) (في عصر النبي محمد (ﷺ) كان كل شيء مجهولاً عن هذا الامر ولم تكتشف جثث الفراعنة الذين شك الناس في العصر الحديث ان لهم علاقة بالخروج والتي كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الاخرى للنيل امام الاقصر الحالية . وكما يقول القرآن فقد انقذ بدن هذا الفرعون وأياً كان هذا الفرعون فهو الان في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة

(٢٠٧) سورة القمر / ١٥

(٢٠٨) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢٦٤

(٢٠٩) سورة يونس / ٩٢ .

ويمستطيع الزوار أن يروه . وقد علق الأب كوراوييه (R. P. Courroyer) الأستاذ بمدرسة الكتاب المقدس حول موت فرعون : « يشير القرآن اليه (أي موت فرعون) في سورة يونس الايات من ٩٠ - ٩٢ . وعلى حسب التراث الشعبي فان فرعون قد ابتلع بجيشه (وهذا ما لا يقوله النص المقدس - يعني التوراة) . وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي عجول البحر »^(٢١٠) إذن : القرآن الكريم قال بلجأة الجنة والتوراة لم تذكر شيئاً حول جثته والتراث الشعبي يقول انه يسكن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي آية عظيمة أعلنها القرآن وتحدى فيها عقول البشر وهو يعلن استبقاء جثة الفرعون لتبقى لمن خلفه آية . وإذا كان التحنيط الذي برع به المصريون القدماء أريد له أن يختم الحقيقة التي أراد أن يثبتها القرآن فإن هذا التوافق يشكل معجزة أخرى لمقدرة الله تعالى . وتحنيط الفرعون يقابل الرقم الطيني الذي حفظته الأرض من البلى والذي يحكي قصة الطوفان كأقدم شاهد مادي على هذه المعجزة والآية التي تنترج تحت قوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾^(٢١١) . فقد أبدع الشاعر العراقي في إعطاء صورة مؤثرة في وصف الطوفان فكانت ملحمة كلكامش كنز عظيم لا يقدر بثمن لأنها اعطتنا تصورات ووضحت لنا إشكاليات ما كان لنا أن نتخيلها أو تمر على بال الباحثين في هذا المجال وفي التاريخ الانساني بصورة عامة . ويعد الالب العراقي أقدم الاداب في العالم فقد سبق ألب وادي النيل وألب أوغاريت الكنعانية والالب العبراني الذي تمثل التوراة أقدم وثائقه^(٢١٢) . ومع هذا القم الذي امتاز به الالب العراقي « فالسومريون لم يتصوروا أنفسهم حديثي عهد في المدنية والحضارة بل عدوا أنفسهم وراثاً ما ضي بعيد مجيد ، إذ تخيلوا تلك الماضي على هيئة عصر « ذهبي » كان السلام والوئام فيه يسودان العالم . فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء وكان الخير يعم الكون وكان البشر (بلسان واحد يمجدون الاله اثليل »^(٢١٣) وهذه المعاني تتفق مع النصوص الاسلامية التي تؤكد ان البشرية كانت على الاسلام ثم اجتالهم الشياطين وبدأت

(٢١٠) بكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢١١) سورة القمر / ١٥

(٢١٢) انظر باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٩ . / نشر وزارة الاعلام ببغداد / سنة ١٩٧٥

(٢١٣) انظر د. طه باقر / م . س . / ص ١٠ / ينقل عن :

الانحرافات منذ عصر نوح (عليه السلام) حيث طغت الوثنية وتعدد الالهة والفساد الاجتماعي والظلم وبذلك تبرز القناعة بأن عصر نوح مثل الجنود الحقيقية لحضارة وادي الرافدين التي تعد أقدم حضارة عرفت البشرية . فرصة عظيمة تركها لنا المراقبون القدماء فقد تفرقنا من خلال الرقم الطينية على معتقداتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية وأنظمتهم السياسية في صورة يمجز الوصف في التعبير عن الامتنان لهم بها وهي معجزة حقا أن تكون الكتابة على أرض الرافدين أقدم الوثائق المدونة في العالم ومن الغريب أن يسبق أهل الرافدين غيرهم في تدوين حياتهم على ألواح الطين في عصور موغلة في القدم وعلى وفق طريقة ليست من السهولة بمكان ، فلكي يكتب العراقي القديم قصيدة شعرية أو عقد أو وثيقة بيع أو وثيقة حكم قضائي فعليه أن يهبط لوح الطين ويكتب عليه وهو رطب ثم يتركه يجف تحت أشعة الشمس لعدة أيام ثم يحتفظ بهذه الألواح كاللوح الخشب^(١١) . لقد ارتبطت أرض الرافدين بالنبوات ارتباطاً غريباً فعلى هذه الأرض بدأ الإنسان قصة الدين الأولى منذ آدم ونريته حتى نوح (عليه السلام) لقد عبر الأنبياء عن أهم قضية ترتبط مع حياة الإنسان هذه القضية هي قضية الدين . العلاقة مع الخالق ، فكان لابد لهذه العلاقة من أن تحفظ شواهدا منذ بداياتها الأولى حيث فجر الرسالات . فكان لابد لهذا الضعب أن يهبط الله له أسباب الكتابة لكي يحفظ من خلالها الاسم التي قامت عليها الحياة الفكرية والروحية للبشرية فكانت هذه التجربة منذ آدم حتى نوح تمثل المرحلة الأولى لعلاقة الإنسان بالخالق . وكانت المرحلة الثانية تبتدىء بإبراهيم (أبو الأنبياء) وشاء الله لهذه المرحلة أن تبتدىء من أرض الرافدين كذلك . وكانت المرحلة الثالثة التي تمتثل بخاتم الأنبياء محمد (ﷺ) أرسله الله للبشرية لكي يمثل آخر التجارب على الأرض والذي استجمعت رسالته كل القيم والمبادئ التي بُعث عليها الأنبياء . فكانت تتصل بعمق فتشكل الامتداد المنطقي منذ آدم (عليه السلام) حيث تتماسك القصة وتتصل لتعلن بوضوح عن وحدة المصدر لأهم قضية على الأرض وهي التوحيد أو عبادة الخالق الواحد الاحد . وتستوعب المستقبل لتشكل حلأ سماوياً لكل العقبات التي تواجه الإنسان على الأرض حتى قيام الساعة . وشاء الله أن يرتبط محمد (ﷺ) بإبراهيم أبي الأنبياء ومن خلاله ارتبط

محمد (ﷺ) بالعراق والعراقيين القدماء وإن من الأشياء التي تثير التساؤلات أن هذا التراث المتكون من آلاف الرقم الطينية لم يتطرق الى هذه المحاولات التي قام بها الانبياء لانقاذ أقوامهم من سطوة الجاهليات والاهواء والمظالم التي كانت تنوء بها حياتهم ! ان هذه الرقم الطينية لم تتكلم عن آدم وشيت وإدريس وفوح وإبراهيم وغيرهم من الانبياء الكثير . وإن الباحث يصيبه الاحباط وهو يبحث عن الانبياء الذين نكرمهم الله في كتبه التي أنزلها على البشر فلا يجد نكراً لهم . وإنما يجد الوثنية ومسميات الآلهة أنو (Anu) والليل (Enlil) والكي (Enki) ونسمع عن كلكامش وأوتونا بشتم وأترخاسيس وحمورابي . أين القصة الحقيقية وسط هذا الركام من الاساطير ؟ أين الانبياء وسط هذا التمجيد لابطال اسطوريين ؟ لابد أن تكون القضية متكبسة لباساً غير طبيعى أبعدنا عن المصدر الحقيقي . إننا أمام احتمالات وتحليلات لهذه الظاهرة . وهذه التحليلات تؤكد لنا عدة استنتاجات منطقية لعل أهمها : إما أن تكون الاديان التي جاء بها الانبياء أوهام ولم يكن هناك أنبياء وإن اليهودية والنصرانية والاسلام قد وضعتها عقول موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وقد وضعوا تاريخاً مزيفاً وأسماءً مزيفة لخداع أقوامهم والبشرية جمعاء . وإما أن تكون هذه الرقم الطينية أوهام وإن قراءتها وترجمتها غير صحيحة وخدعنا من قال بأنه استطاع أن يحل رموز هذه الرقم وينقل إلينا ما فيها . فإذا لم يكن هذا وذاك فننتقل الى الاحتمال الثالث وهو أن هناك تعميماً على محتويات بعض الرقم الطينية التي فيها من المعلومات ما يميز وينتصر للدين ورموزه وأنبياء التاريخ القديم (قبل اليهودية) . وإننا نتوقع وجود مثل هذه المحاولات خصوصاً من قبل اليهود الذي ليس من مصلحتهم معرفة الحق بالنسبة لغير اليهود . وقد ذكر القرآن الكريم جانباً من محاولاتهم تحريف الحقائق وإخفاء معلومات تاريخية تخص بعثة الرسول (ﷺ) ومنها التواء أنسنتهم لإيهام الناس بأن الكلام الذي يقولونه هو كلام الله ومز الكتاب الذي أنزل وما هو من الكتاب . إنن ليس غريباً على اليهود هذا السلوك وهم لباس الحق بالباطل وكتمان الحق وخلط الأوراق وينقل لنا الدكتور احمد سوسة حالة من حالات تغيير المعلومات التاريخية على ضوء الايديولوجيات السياسية فيقول « ان الخبير الآتاري المعروف (سيتون لويد) الذي كان يعمل خبيراً دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالاً عن اريكو نشر في مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستترب فيه كيف يجرأ كرامر الخبير الآتاري في موضوع (السومريات) ان يصرح في كتاب

الاساطير السومرية) الصادر مؤخراً - ١٩٤٤ - ان معظم أراضي السهل الرسوبي من بلاد ما بين النهرين كان بلا شك يسكنها الساميون عندما نزح السومريون الى العراق من غير أن يخشى العاقبة فيقول ما نصه : (كرامر لم يخش أن يصرح في كتابه (الاساطير السومرية) بأن معظم أراضي ما بين النهرين بحلة والفرات كان بلا شك يسكنها الساميون) .

[in "Sumerian Mythology" published as recently as 1944 Karmar is not afraid to assert at the time of the sumerian invasion much of the land between the Tigris and Euphrates was no doubt inhabited by the Semits].

سومر م ٣ ، العدد (١٩٤٧) القسم الانكليزي ص ٩١ .

ويذكر الدكتور سوسة ان كرامر حذف كلامه فيما بعد من كتابه في الطبقات الجينية سنة ١٩٦١ . ولم يكتف كرامر بذلك بل أصدر كتاباً جديداً لتأكيد اتجاهه الجديد سماه (التاريخ يبدأ في سومر) سنة ١٩٥٩ وعنوانه باللغة الانكليزية (History begins at Sumer)^(١١٠) وبفض النظر عن الهاجس الذي كان يسيطر على د. سوسة والذي رده في كتبه بأن الساميين هم نواة الحضارة وإن وجودهم سابق لغيرهم ومناقشاته حول أصل السومريين . فان هذا لا يعني أننا نؤمن بأن الدين والنبوة فضل من الله يصيب به من يشاء وان الانبياء يختارهم الله جلّت قدرته . ولا علاقة للقضية العرقية ولا الجنس في اختيار الانبياء فكما اختار الله انبياءه من بني اسرائيل اختار أنبياءه من العراقيين القدماء كما اختار محمداً (ﷺ) من العرب واختار منهم هوداً وصالحاً وشعياً كما ورد في صحيح ابن حبان عن ابي نر من حديث طويل في ذكر الانبياء المرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب هود وصالح ، وشعيب ونبيك يا ابا نر »^(١١١) . ولكن هذا لا يعني الغاء أسباب التفضيل ومبررات الاختيار . فان هناك ارتباطاً موضوعياً بين النبي المختار وبين قومه فعا اختار الله سبحانه وتعالى محمداً (ﷺ) دون مناسبة فقد كانت الامة العربية قد وصلت الى النضج والتكامل في الاستعداد لاداء دور حضاري لقيادة العالم فكانت القيم التي يؤمن بها العرب والاخلاق والفضائل تنسجم في معظمها مع الرسالة وكذلك فقد

(٢١٥) انظر سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين / ص ٢٠

(٢١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

وصلت لغتهم الى مرحلة النضج والتكامل لكي تحمل كلام الله وتكون لغة القرآن الذي أنزله الله تعالى منهجاً متكاملًا الى جميع البشر عربيههم وأعجميههم . وقد ذكر الطبري « أن أهل التوراة يزعمون أن لا نكر لمعاد ولا لثمود ولا ليهود ولا صالح في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم وقومه »^(٢١٧) . وهذا يثبت لنا أن اليهود قد مارسوا عملية اخفاء المعلومات حتى عند كتابة التوراة . ويذكر مالوان الباحث الاتاري في مفكراته حادثة تؤكد القضية . حيث يقول « وذات مرة ظن الخبير في النقوش الذي كان يعمل معنا خطأ إنه قرأ اسم ابراهيم على لوح طيني منقوش وتصرعت الى الكتابة الى صديق في انجلترا ونكرت الاكتشاف . وعندما علم بولي أنني فعلت ذلك ويخني بشدة وجملني أبعث ببرقية التمس فيها من صديقي التزام الصمت حتى يحين وقت اعلان الثبا . غير ان ذلك الوقت لم يحن ابداً »^(٢١٨) . وإذا أحسنّا الظن وقلنا بأنه لا يوجد تميم على نتائج الحفريات والآثار فهناك احتمال رابع إما نحن بصدده . وهو ان قراءة الرقم الطينية والتاريخ القديم . لم تكن تقرأ بمقلية تؤمن بالدين حيث ان معظم المستشرقين والآثاريين الغربيين تكونت ثقافتهم نتيجة إفرازات عصر النهضة الذي قام على إنكار الدين وتشكلت عقلياتهم بموجب رد الفعل ضد الكنيسة وما كانت تتبناه من افكار خاطلة تصطبغ بالملم التجريبي ونتائج بحوث العلماء . لذلك جاءت معظم قراءات الآثاريين خاضعة لهذا المفهوم فهم يفسرون الطوفان بأنه حالة فيضان وارتفاع في مناسيب المياه ، مما كان يحدث في بلاد ما بين النهرين باستمرار^(٢١٩) وعندما يجدون الاصنام والتماثيل يفسرونها بأنها انعكاس لمعاناة الانسان في واقعه وبيئته كما ذكر ديورانت « بأن الموت والاحلام التي كان يراها الانسان للموتى كانت سبباً في تجسيم فكرة الارتباط بهؤلاء الاشخاص »^(٢٢٠) وبالجمله فأنهم استبعدوا الغيب والايمان به وجعلوا عقائد

(٢١٧) الطبري / محمد بن جرير / تاريخ الرسل والملوك / ج ١ ص ٢٢٢

(٢١٨) مالوان / ماكس / مفكرات مالوان / ص ٥٨ .

(٢١٩) اقرأ كل ما كتب حول الطوفان فان التفسير المشترك له هو ارتفاع مستوى الماء في بحلة والدرات ، كما قال كوندراثوف وبولي ويوكوكس وكريم وطولول حتى من كتب من العراقيين والعرب تأثر بهذه الآراء انظر كتابات احمد سوسة . ود. فاضل عبدالواحد ود. سامي سعيد الاحمد وغيرهم .

(٢٢٠) انظر ديورانت / بول / قصة الحضارة / المجلد الاول حول نشوء الديانة .

الناس صدى للخوف من الحوادث الطبيعية والموت والرغبة والشهوة . وانه لامر مؤسف حقاً أن تفسر انشطة الانسان الروحية وأنكاره بأنها مرتبطة ارتباطاً لا يتعدى الجسد المادي الذي يشترك فيه الانسان مع الحيوان . وتلقى الروح والعقل ويهمل التراث الضخم الذي سجل فيه الانسان أرقى انتصاراته في ميدان العقائد والنشاط الروحي والعقلي حيث أعلن الانسان من خلالها تفريده واستعلاءه على عالم الحيوان . من خلال الاديان وتكريم عقل الانسان .

والحق الذي نريد ان نقول أنه يبدو أن الامر مشترك بين هذه الاحتمالات مما أدى الى هذا الفهم للتاريخ القديم . واللاهوام والاساطير لم تفتأ ملازمة لحياة الانسان فكانت عملية تلبس الوهم بالحقيقة نائمة الظهور في حياة البشر فالصراع بين التوحيد والوثنية لم يتوقف منذ أن أعلن الله سبحانه وتعالى نبأ استخلاف الانسان فاعلن الشيطان على اثر هذا الاستخلاف الحرب على الانسان وتمهد بفوايته وتلبس الحقائق عليه باللاهوام وبما ان الدين حاجة فطرية مجبول عليها الانسان فما ان يترك التوحيد حتى ينحط الى الوثنية لانه لا يستطيع الحياة بلا دين والذي يعيش بلا دين فانه فاقد للوعي . فكان لابد من دين وإله يوكن اليه الانسان وهنا يُزين الشيطان للانسان طريق الاوثان وقد ذكر ابراهيم هذا المرض النفسي القديم الذي كان يعاني منه الانسان ﴿ واجنبي وبنى أن نعبد الاصنام ﴾ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴿ (٢٢١) ﴾ . وكذلك لابد ان نعتقد بأن هناك عمليات تعميم وهناك عمليات تضخيم لخدمة أهداف غير معلنة تخدع اليهود . وان كان هذا لا يعني بأن الامر محكوم بهذا القانون ومتحكم فيه وفق هذا المفهوم . فأننا ندرك أن هناك معلومات لو نشرت لادى ذلك الى إحداث تغيير في عقائد الناس او تنهار على أثر نشرها مشاريع مخطط لها من قبل اليهود . تماما كما تحجب بعض النول وتائقها ولا تظهرها الا بعد خمسة وعشرين عاماً او خمسين عاماً أو بعض الوثائق لا يمكن كشفها على الاطلاق . وكذلك علينا ان نعلم بأن القراءة القرية للتاريخ القديم معظمها خاضع لمفهوم العلمانية التجريبية التي لا تؤمن بكل شيء لا يدخل المختبرات ولا يخضع للتجربة . ملحمة كلكامش هي الوثيقة العظيمة التي احتفظت لنا بمعلومات مهمة عن الطوفان وهي أروع ما تركه لنا المراقبون القدماء « والتي يصح لنا أن نسميها أوليسية العراق القديم يضمها الباحثون ومؤرخو الالب المحدثون بين الشوامخ من الالب المالمي . ولعلمنا

لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هذه الملحمة لكانت جديرة بأن تتبوأ تلك الحضارة مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة^(٢٢٢). هذه الملحمة الشعرية كتبت على الواح طينية عندما إتنا عشر لوحاً أول من اكتشف أهميتها البريطاني جورج سميث^(٢٢٣) حيث أعلن عام ١٨٧٢ م نبأ اكتشاف خبر الطوفان في محاضرة ألقاها على الجمعية الاثارية للتوارة في لندن فاثارت ضجة وحماساً بالفين في العالم مما حدا بجريدة (ديلي تلغراف) أن تتبرع بألف جنيه لينفقها جورج سميث في مواصلة الحفر في خرائب نينوى وقد نجح فعلاً في العثور على أجزاء أخرى مكملته ونشر بحوثه قبل وفاته المبكرة في عام ١٨٧٦ م وهو في السابعة والثلاثين من عمره^(٢٢٤) ثم استمرت على اثر هذه المحاولة محاولات عديدة استغرقت سنيناً طويلة حتى تم تجميع الواح هذه الملحمة. وبعد نشر جورج سميث ابحاثه، أخذت الابحاث والدراسات تزاد وتعبدت الترجمات لهذه الملحمة العظيمة. ولا تزال الدراسات والابحاث مستمرة عنها الى هذا التاريخ وقد وجدت نسخ عديدة من الملحمة في أماكن متفرقة من العراق والبلاد القريبة^(٢٢٥) فقد وجدت نصوص من الملحمة في موضع (سلطان تبه) في جنوب تركيا قرب حران وفي العاصمة الحثية (حاتوشاش) وجدت بعض الاجزاء تعود الى اللوح الخامس. وفي (مجدو) في فلسطين عثر على كسرة تعود الى الملحمة. مما يؤكد الاتصال المباشر بين العبرانيين وبين المآثر الادبية والدينية في حضارة وادي الرافدين^(٢٢٦) وقد نقلت الينا هذه الملحمة جوانب عديدة مما كان يفكر فيه العراقيون القدماء وكذلك سلطت الضوء على جوانب من المجتمع العراقي وتكوينه وطبيعته وكذلك جانباً من الوضع السياسي وموقع الملوكية في المجتمع العراقي القديم ولعل أهم قضية تعالجها الملحمة هي قضية الموت وكيف حاول كاتب الملحمة ان يعطي قارئه الملحمة نوعاً من الراحة وهو يمنحه العزاء والسلاوى « في مغالبة مصائب الزمان وتكبات الدهر ومنها الموت وملخص الملحمة أنَّ حتى لكلامش الذي اختصته الارباب بالرعاية والحب فلعلته قوة البدن وجمال الشكل وحكمة وافرة وطولاً فارعاً (اثني عشر نراعاً) ونسباً

(٢٢٢) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٠ .

(٢٢٣) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ .

(٢٢٤) باقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٤٠ - ٤٢ .

مرتبطاً بالآلهة حيث كانت أمه (حسب الاسطورة) الربة ننسون وأبوه ملك عظيم لوكلل باندا وبذلك صار ثلثاه الهاً وثلثه انساناً وحصل على ما تطلبه نفسه وتشتهيها من لذات الدنيا حيث لم يترك بنتاً لأبيها أو زوجة لبعملها وهو الذي صرع انكيو الوحش الذي لا يقهر وقتل العفريت الكبير أصل الشر في العالم خومبابا المخيف فحتى هذا البطل السومري العظيم قد توفي فعليك ايها الفرد الاجتماعي ان تتفهم الواقع وترضخ للناموس الكون وتترك القلق على الموت والبكاء على من يرحل^(٢٢٥) تتكون الملحمة من اثني عشر رقياً تشكل مزيجاً غير متجانس في معالجة مواضيع مختلفة ولكن صياغتها الادبية الرائعة وعمق الفكرة الرمزية تمنحها وحدة في الصياغة والاسلوب ففي اللوح الاول يبور حول شخصية كلكامش وكيف كان يتمتع بلا حدود يعكس لنا بأنه كان يمارس شهواته نون أي اعتبار للآخرين وهذا يوحي بأنه ملك جبار امتاز بقوة الجسد ونهاء العقل حيث يسلط على انكيو امرأة عاهرة لكي تفريه وتستدرجه اليه . واللوح الثاني يتابع لقاء انكيو مع كلكامش ويبين لنا اللوح كيف اراد كلكامش الدخول على عروس (قبل زوجها لأنه كان يمثل السيد المطاع) . وكيف بدأ الصراع بين انكيو وكلكامش وفي اللوح الثالث تتحول العلاقة بين انكيو وكلكامش الى علاقة صداقة ويتفكان على القضاء على العفريت خمبابا اساس الشر في العالم وتستمر الاألواح الرابع والخامس والسادس في وصف الرحلة نحو خمبابا للقضاء عليه وفي الاألواح السابع والثامن والتاسع والعاشر تصف مرض انكيو وموته وحزن كلكامش عليه ثم قرار كلكامش بالبحث عن الخلود ثم ناتي الى اللوح الحادي عشر وهو لوح الطوفان وقصة الطوفان حكاها أوتونا بستم الى كلكامش وفي اللوح الثاني عشر وصف لاحوال العالم السفلي وكيف كان انكيو يعيش في العالم السفلي . وكيف قال انكيو لكلكامش « اذا وصفت لك العالم السفلي الذي شاهدت فسوف تجلس وتتحبب » فتاوه كلكامش وألقى بنفسه في التراب^(٢٢٦) لقد كانت ملحمة كلكامش بالنسبة لدارسي حضارة وادي الرافدين « منجماً زاهراً لاستقاء اوجه ومقومات أساسية عن أحوال العراق القديم كمقائد القيم الدينية والتهتم وأرائهم في الحياة والكر. وأحوالهم الاجتماعية وجوانب مثيرة من حياتهم

(٢٢٥) الاحمد / د. سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ١٤ المقمة .

(٢٢٦) انظر الاحمد / سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ٢٨ - ٣٠ بتصرير .

عن المقمة .

المعاطفية»^(٢٢٧) إن الملحمة كتبت بشكلها النهائي وشاعت في زمن يعرف بالمعهد البابلي القديم (الألف الثاني ق. م.) (فقد وجدت نسخ كثيرة لها في حواضر العراق القديم في اوار ازهار الحضارة البابلية^(٢٢٨) . ووجبت آخر نشرة لها كاملة في خزانة كتب الملك الاشوري (آشور بانيبال) الشهيرة وهي من القرن السابع قبل الميلاد والملحمة فيما يبدو لمن تصد عن حالة واحدة بلورت الملحمة ولكن المرجح أنها جمعت من مصادرها وأخذت شكلها النهائي (فهي وإن جاءت إلينا من ناحية الفن القصصي على هيئة وحدة قصصية إلا أنها كانت اقرب ما تكون الى الجمع الابي . أي أنها مؤلفة من عدة قطع واجزاء تنور حول أعمال وحوادث مختلفة »^(٢٢٩) لذلك فإن أصول حوادثها قد جاء من القرائات السومري . كما يقول المرجح د. طه باقر : « فقد ابان البحث الحديث أنها ترجع الى مصادر سومرية »^(٢٣٠) ولكن د. احمد سوسة ينفي اصلها السومري ويقول : « ابان البحث الحديث ان الملحمة ترجع الى مصادر قديمة ثم بدأت تتبلور في عهد سيطرة السلالة الاكدية التي أسسها سرجون الاكدي الشهير في حدود سنة ٢٣٧٠ ق. م. ونوتت كاملة في المعهد البابلي القديم (أي مطلع الألف الثاني ق. م. حتى أصبح متفقاً عليه بين النقاد ان هذه الملحمة بشكلها المستكمل الاكدي تعد نتاجاً ابيياً بابلياً صرفاً . وبما ان جلجامش ارتبط اسمه بسلالة الوركاء الاولى وهو الذي شيد سورها القديم والمقصود هنا زمن الوركاء ما قبل التاريخ قبل ان يكون السومريون قد ظهوروا على مسرح الاحداث ولما كانت آثار الوركاء ومعبد الوركاء قد وجد مثيلها في سورية السامية وهي ترجع الى زمن اقدم من دور الوركاء فيبحث الاستدلال من ذلك ان ملحمة كلكامش ترجع الى اصل سامي ايضاً »^(٢٣١) . ان هذا الكلام ابتعاد عن الحقيقة وتكلف في رد كل انتاج فكري وأدبي الى أصل سامي ومن الصعوبة ان تقنع الآخرين بمقتضى هذه التفسيرات والتاويلات التي تختصر الى الاملة الكافية . فنحن نعلم ان هناك افكاراً وقطعاً موجودة في

(٢٢٧) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٣

(٢٢٨) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٤

(٢٢٩) باقر / د. طه / ن. م. / ص ٢٤

(٢٣٠) باقر / د. طه / ن. م. / ص ٣٥

(٢٣١) سوسة / د. احمد حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات

الانبارية والمصادر التاريخية / ص ٢٠٨

الملحمة وجد ما يقابلها في الأدب السومري « ومن الحقائق المعروفة عن أصول التراث الحضاري وفي وادي الرافدين انه كان للسومريين الفضل الأكبر في ابتداء مقوماته الأساسية ثم جاء من بعدهم الساميون (ابتداءً من العصر البابلي القديم) فقاموا بجمع وتنسيق هذا التراث فتخض عن نتاج جديد في شكله ولكنه قديم في أصوله »^(٢٢٢) وقصة الطوفان السومرية شاهد على ذلك « لقد وصلنا من قصة الطوفان السومرية رقيم واحد فقط كان قد اكتشف في مدينة نمر وبشره لأول مرة الأستاذ بويل عام ١٩١٤ . ولم يصل هذا الرقيم كاملاً إذ لم يبق منه الا ثلثه الأخير فقط وقد وريت إشارات في نصوص سومرية أدبية - دينية تتعلق بالملك اشمي - دكان (Ishmedagan ١٩٥٣ - ١٩٣٥ ق.م.) . وهذه الاشارات تتعلق بالطوفان »^(٢٢٣) . وقد عكست الملحمة العلاقة بين الساميين والسومريين من خلال العلاقة بين جلجامش السومري^(٢٢٤) . والذي مثل السلطة التي كانت تحكم بلاد الرافدين وانكيو السامي الذي مثل رمز البداوة والأقوام التي عاشت على الفطرة حتى لا تعرف التحضر ولا مظاهره (المعطور وأنواع اللبس الفاخرة والوانها الزاهية) وبينت لنا كيف استطاع كلكاش ان يتحد مع انكيو ويشكلاً وحدة لتخليص البلاد من الاشرار وكيف عبر كلكاش عن حبه ووجه للقائمين من الصحراء . وهذا هو سر قوة المراقبين القدماء الذين استطاعوا ان يحققوا توحداً لمزيج غير متجانس من الأقوام فكان الابداع يمثل أروع حالات وحدة الانسانية التي جسدها المراقبون القدماء .

أهم شخصية مرتبطة بالطوفان في الرقم الطينية :

أهم شخصية ترتبط بالطوفان هي شخصية أوتونايشتم في ملحمة كلكاش وهي الشخصية التي تقابل شخصية النبي نوح (عليه السلام) في حادثة الطوفان

(٢٢٢) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٢٠ .

(٢٢٣) علي / د. فاضل عبدالواحد / م.س / ص ٢١ .

(٢٢٤) يحاول الدكتور سوسة على عاداته التشكيك بسومرية كلكاش ويحاول أن يقربه الى الاصل السامي فيقول : « وفي ترجمة الأستاذ كرامر لآيات الملوك السومريين ترد من بعد أسم جلجامش عبارة ابوه كان بدوياً مع علامة الاستفهام . وهنا ما يؤيد ذلك اي ارتباط جلجامش بالصحارى » تاريخ حضارة وادي الرافدين / ص ٢١ . ولكنه لا يستطيع التصريح لان اقدم كتابه ذكرت اسم كلكاش جاءت في الألواح السورية (الكتابة الهيروغليفية بالصور) التي وجدت في شروبياك ويرجع زمنها الى اواخر عصر جمدة نصر .

وتقابل شخصية زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية وتعتبر كذلك عن شخصية اتراخاسيس في قصة الطوفان البابلية « ومن الجدير بالذكر ان الاقدمين أنفسهم طابقوا بين اوتونابشتم وبين زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية حيث وردت الصيغة السومرية Ziu-sud-ra مرادفة للصيغة البابلية Ut-napishtim في أحد النصوص المسمارية^(٢٢٦) ومن المعروف ان زيوسدرا قد ورد ذكره في قصة الطوفان في النسخة السومرية (وقد ذكره المؤرخ البابلي بيروسيس بنفس الصيغة تقريباً (Xisouthros) وخصص له مرحلة حكم خيالية قدرها ٦٤٠٠٠ سنة ولكن هذا الملك لم يذكر في النسخة الرئيسية من قائمة الملوك السومرية . وان هذا لا يهمنا ولكن الذي نحن بصدده هو معنى أسم زيوسدرا . « فان هذا الاسم يتكون من ثلاثة مقاطع سومرية Zi بمعنى (الحياة) و U بمعنى (يوم) و Sud بمعنى (طال او اطال »^(٢٢٧) .

وهذا يعني ان معنى اسمه (الرجل الذي طال عمره او طالت حياته) وبعبارة عن الارتباطات الاسطورية حول هذه الشخصية فان هذا المعنى يتفق مع وصف القرآن لطول حياة النبي نوح (عليه السلام)^(٢٢٨) « فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً »^(٢٢٩) .

وفي قصة الطوفان البابلية وردت الإشارة الى بطل القصة الذي يقابل اوتونابشتم باسم اتراخاسيس Atrahasis « ويتكون هذا الاسم البابلي من مقطعين (Atra) بمعنى كثير ، زائد من الفعل (staru) كثير ، زاد . و basis بمعنى يحس ، أصفى ، فهم^(٢٣٠) وهذا يعني ان اسم اتراخاسيس يحمل معنى الرجل الكثير الاحساس والمحافظة^(٢٣١) أو مفروط الحس مع الحكمة وقد ورد في

(٢٢٥) انظر علي / د فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٣٩ حيث يلاحظ هذه المعلومة من : (Thompson, The Epic of Gilgamesh, P. 83).

(٢٢٦) انظر علي / د فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٣٥ .

(٢٢٧) ذكر النووي في التهذيب « ان نوح أطول الانبياء عمراً » انظر السيوطي / اللغات في علوم القرآن / ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢٢٨) المنكوت / ١٤ .

(٢٢٩) انظر علي / د فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٣٨ .

(٢٤٠) باقر / د طه / مطبعة كلكاف / ص ٢٦ .

المصادر الاسلامية إن (نوح قال الكرمانى معناه بالسريانية : الشاكر . وقال الحاكم في المستدرک إنما سُمي نوحاً لكثرة بكائه على نفسه وأسمه عبدالغفار »^(٢١١)) الذي يتحصل لدينا من خلال هذه المقارنة أن :

(أوتونابشتم / بابلية) = (زيوسدرا / سومرية) = الرجل الذي طال عمره . وأن اتراخاسيس البابلية = المفطر الحس صاحب الحكمة وهذا المعنى يقابل ما ذكرته المصادر الاسلامية من وصف حول نوح (عليه السلام) انه شاكر والشاكر يقابل الذي يحس بالنعمة فَيَشْكُرُ عليها وأن الشكر يأتي من الاحساس بالنعم وكذلك البكاء والنوح والألم صفات يمتلكها الذين يتحسسون بالمسؤولية وقد وصف القرآن الكريم أنبيائه بهذه الصفات عن إبراهيم ﴿ أواه حليم ﴾ وعن نوح ﴿ انه كان عبداً شكوراً ﴾ وعن محمد (ﷺ) ﴿ ولقد نعلم انه يعزتك الذي يقولون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ كل هذا يعزز لنا الحقيقة القرآنية التي حفظتها هذه الرقعة الطينية بأن أوتونابشتم وزيوسدرا واتراخاسيس كلهم شخصية واحدة هي شخصية النبي نوح (عليه السلام) . فما حفظته الرقعة الطينية من أسماء لبطل الطوفان يكاد يتطابق تطابقاً كلياً مع اسم النبي نوح (عليه السلام) ووصفه ولا يضرنا الخلاف حول شخصيات هذه الاسماء فانها حتماً قد أضيف حولها ووضعت ضمن إطار الاسطورة التي تعبر عن أخيلة الكتاب والشعراء والادباء المهم أننا استطعنا ان نمسك بخيط يقودنا الى الحقيقة التي اخفت وسط الاساطير الحقيقة التي لا مراء فيها هي حدوث الطوفان فان ترديد هذا الحدث ضمن الاساطير يؤكد وقوع هذا الطوفان « وانه كان بالاصل حدثاً تاريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد وكان من جسامته التأثير وقدامته انه ترك أثراً بليغاً في عقول الاجيال المختلفة فتناقلته بالروايات الشفوية وشوهت تفاصيله الواقعية »^(٢١٢) وان هذا الطوفان موغل في القدم حتى تحول الى اسطورة سومرية في بدايات الألف الثالث قبل الميلاد « وتاريخ آخر طوفان بجنوب العراق حدث سنة نحو ١٤ ألف قبل الميلاد » كما تذكر المصادر التي تهتم بالدراسات الجيولوجية والاثارية^(٢١٣)

(٢٤١) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ / الاثقان في علوم القرآن / ج ٢ ص ٢٩٨

(٢٤٢) بالقر / د طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٥ - ٢٦

(٢٤٣) احمد / سامي سميد / ملحمة كلكامش / ص ٢٣ . ينقل هذا التاريخ لآخر طوفان عز

دراسة كتبها ورنر نوزل في مجلة سومر العدد ٣١ سنة ١٩٧٥ ص ١٠٩ - ١٠٩

(الانثروبولوجيا) والحقيقة انه لا توجد اى دلالة تشير الى الطوفان الذي نتحدث عنه الكتب المقدسة (القرآن والتوراة) وان ما ذكره مستر وولي حول اكتشافه آثار ترسبات غرينية في اور من دور العبيد (حدود ٤٠٠٠ ق. م .) بلغ ثخنها زهاء (١١) قدماً وقد عثر عليه قريب من المقبرة الملكية ولكنه لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواقع الاخرى مثل اريو القريبة من اور^(٢١١) وقد اختلفت الآراء حول نظرية مستر وولي حول الطوفان . فمنهم من خالفه الرأي كلياً مثل الاستاذ بيك ويتسائل البعض بحق لماذا توجد طبقة من طمي الطوفان من نهاية عصر العبيد في مدينة اور ولا توجد مثل هذه الطبقة في مدينة اريو المجاورة التي لا تبعد عنها سوى ١٥ ميلاً فقط ؟^(٢١٢) قد استبعد مالوان فرضية وولي حول الطوفان قد وقع في عصر العبيد لعدم وجود آثار لمثل هذا الطوفان في مدن أخرى خارج اور ولكنه انتصر لرأي جديد واعطى تفسيراً جديداً للطوفان . ويضع مالوان عصر هذا الطوفان في عصر فجر الصلوات الثاني (حوالي ٢٩٠٠ ق. م .) في كيشي حيث وجدت آثار طوفان^(٢١٣) والسبب الذي دفع مالوان الى ذلك كما يذكر د. فاضل عبدالواحد هو ذكر ملحمة كلكامش للطوفان يؤكد الى ان الطوفان قد حدث في زمن ليس بعيد عن عصر كلكامش . مع الملاحظة ان هذه الفرضيات والتحليلات كلها قائم على أساس ان الطوفان حدث بفعل ارتفاع مناسيب المياه في بحلة والفرات او بسبب زوبان تلوج كلها قائم على استبعاد ربط الطوفان بالقضية الدينية التي هي محور الرقم الطيدية و (الرواية التوراتية والرواية القرآنية . ومن الغريب ان الذين يرجعون حدوث الطوفان الى الامطار كما في رواية التوراة . ان هؤلاء على الرغم من نكرهم لهذه الحقيقة فانهم يذهبون الى الاساطير ويتابعون روايتها ويعتمدون الى تحليلها للوصول الى نتائج علمية حول حقيقة الطوفان حيث يقول د. فاضل عبدالواحد : « والملاحظ عز الطوفان في النصوص المسمارية وفي التوراة ايضاً انه لم يكن ناتجاً عن ارتفاع

(Werner Nutzel: The Formation of the Arabian Gulf From 14000-3500 B.C.).

(٢٤٤) موسسة / د. احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري / ص ٢٠٦
ياخذنا من طه بالقر تاريخ الحضارات .

(٢٤٥) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١٠٥

(٢٤٦) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م. ص / ص ١٠٩

مناسب مياه الانهار بقدر ما كان بسبب هطول الامطار الغزيرة وتدفق مياه العمق أبسو . التي كان مسؤولاً عنها الإله أكي (أيا) وفي الحقيقة لم يكن الفيضان النهري حتى في حساب كاتب قصة الطوفان البابلية بلليل أن سفينة رجل الطوفان أوتونابشتم قطعت مسافة ٥٠ كم وياتجاه معاكس لتيار نهري دجلة والفرات لترسو في شمال القطر وعلى قمة جبل ارتفاعه (٩٠٠٠ قدم) ولهذا فانه من غير المستبعد كما لاحظ بعض الباحثين ان التفاصيل التي يؤنها الكتاب السومريون والبابليون عن الطوفان حدث في عصر فجر الصلوات المبكر انما تعكس في الوقت نفسه رواصب بعيدة في القدم مما علق في ذاكرة البشرية عن الطوفان أو أكثر حدثت في عصر البلايستوسين الذي يتميز بامطار غزيرة في الشرق الأدنى وبانجماد كثيف في اوريا^(٢١٧) أصبح من الواضح الآن إن كل التفسيرات التي نهبت الى وجود آثار لطوفان هائل كلها غير دقيقة ولا يمكن الاعتقاد بها أو الاقتناع بها لافتقارها الى الدلالة وعدم سلامتها من الانتقاض والتناقض وكذلك بالنسبة الى الرقم الطينية فانها تخدمنا في حالة واحدة فقط وهي تأكيد حدوث طوفان هائل في زمن موغل في القدم لا سبيل الى تحديده بواسطة هذه الرقم لغلبة الطابع الاسطوري على معلوماتها وقد كتبت وصيغت هذه الرقم بموجب تأثير البيئة الجديدة في عصر الكتابة فمثلاً أمر بناء السفينة في الرواية البابلية كان على ما يلي : « ابن سفينة كبيرة وليكن بناؤها كلياً بالقصب — »^(٢١٨) والمعروف ان القصب كان وما زال ينمو بغزارة في جنوب القطر الذي نريد ان نقدره ان الرقم الطينية تعبر عن انعكاس مضخم للطوفان صيغ بأسلوب شعري والرقم الحادي عشر في ملحمة كلكامش حرل وصف الطوفان وكيف كان مهولاً لا يستطيع الاخ تمييز اخيه لهول النمار . وكتب أدناه قطعة من ملحمة كلكامش تصف لحظات الطوفان .

ولما حصل الرعب من الإله أند الى عنان السماء
وتحطمت الارض الواسعة مثلما يتحطم الإناء
إستحال كل نور الى ظلمة
وظلت ريح الجنوب يهب يوماً كاملاً

(٢٤٧) علي / د فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١١١ .

(٢٤٨) علي / د فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٧٥ .

وتزايدت سرعتها وهي تهب حتى (غطت جبال)
وفنكت بالناس مثل حرب ضروس
فلم يستطع الا ان يرى أخاه
ولم يكن بالمستطاع تمييز الناس من السماء
حتى ان الالهة نزعوا لهول الطوفان
فأخذوا يتراجعون الى خلف حتى وصلوا الى سماء الاله أنو
وأستكان الالهة وكانهم كلاب ترضى بمحاذاة الجدار^(٢٤٩) .

واستمر الحال على هذا المنوال سبعة أيام وسبع ليالٍ ثم لدرج أدناه قطعة من هذا
الرقيم تصف الحال بعد الطوفان . وهي تعبر عن الكلام أوتونا بشتم لكلكامش :-

« ثم فتحت نافذة (في السفينة) فسقط اللور على وجهي
فسجبت وجلست باكياً
والدموع تجري على وجهي
ثم أخذت أطلع الى سواحل البحر الواسع
فبانأت الارض من مسافة أثني عشر ميلاً مضاعفاً ... »

وفي تلك الاثناء استقرت السفينة على جبل اسمه نيسير (Nisir) ومضت
سنة أيام وجبل نيسير ممسك بالسفينة ولا يدعها تتحرك . على حد قول
أوتونا بشتم . ويتعبير آخر إن السفينة قد بلغت مستقرها الأخير^(٢٥٠) . ويخالف
الدكتور فاضل عبدالواحد المرحوم د. طه باقر حول قراءة نيسير بالصاد نصير أي
(جبل الخلاص) ويقول : هذا في اعتقادنا غير محتمل لصعوبة مثل هذا الاشتقاق
اللغوي في الاكديّة . لان الفعل Naseru غير Nisir في الشكل بالنسبة للكتابة
المسمارية) . وينقل رواية بيروسيوس المؤرخ البابلي الذي يذكر بان سفينة زيوسدرا
رجل الطوفان في القصة السومرية (قد استقرت على جبال Gordyaeen في
أرمينيا^(٢٥١) » في حين يذكر د. طه باقر بان كوربيين الذي يذكره بيروسيوس يعني جبل
الكوربيين أي الكر د . وقد سبق وأن تكلمنا حول هذا الجبل عند الحديث عن النص

(٢٤٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٨٧ .

(٢٥٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٩٤ .

(٢٥١) علي / د. فاضل / م . س / ص ٩٤ .

لفظه جبل الجودي في القرآن . وهذه التخريجات ومع
فإنها تمثل وجهات نظر شخصية .



صورة لرقم طيني الذي يروي قصة الطوفان
وهو اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ومحفو
في المتحف البريطاني
بوستفيلد / نيوكولاس / حضارة المراق وإثارة / ص ١٩

شكل يمثل رقيم الطوفان
مدون في القرن السابع ق . م . محفوظ في المتحف الايطالي



صورة لختم يمثل زورقاً مقدساً لعصر الوركاء
متحف برلين وهو ما يشير الى اثر الطوفان في الفن والاختتام



صورة لختم لمنظر تمبدي
مخطوط في المتحف العراقي موجود عليه أيضاً الزورق المقدس

الفصل الثالث

ابراهيم الكليل (عليه السلام)
ليو الأندلس

المبحث الاول

العصر والملامح (متابعة تاريخية)

ان حركة التاريخ لم تتوقف في القرآن الكريم ولم يكن هناك مفهوم ثابت وانما الحركة هي السمة الاساسية لعمليات التغيير التي أحدثها الانبياء وقالوا أتباعهم اليها . وهذه القضية أشار اليها ابن خلدون في مقدمته « فهو يرى ان الحركة التاريخية لا تنقطع ابداً والانسانية لا تقف ولكن يوجد حد يقف عنده كل مجتمع ومنه يجب أن يستأنف الى السير مجتمع جديد . ولم يسبق ابن خلدون احد الى تلك الفكرة العامة عن السير الابدي للمجتمع لم يتصور أحد حتى عهده او يقرر شيئاً يشبه ذلك القانون الذي نسميه (قانون الاطوار الثلاثة . وان نكاهه الخارق هو الذي استطاع الاستقالة من القسم الذي يجيد معرفته من التاريخ وسنرى انه يخضع القرآن لنظريته ^(١) »

استطاع ابن خلدون وثقافته الاسلامية ان يؤسس مدرسة والمكاراً لفهم التاريخ أودعها في مقدمته ولكنه مع الاسف الشديد لم يطبق أفكاره التي وضعها في مقدمته على التاريخ الذي كتبه ولذلك بقي القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي نون التاريخ بموجب منهجية وبلق متناهية وبقيت هذه المنهجية لم ينتفع منها المؤرخون وهذه

(١) حسين / طه / ابن خلدون ولسلته الاجتماعية / ص ٨٤ .

الحقيقة تدفع المؤرخ المسلم « أن يراجع القرآن لأن مراجع القرآن سوف تبين له ان الوسائل هي الوسائل كذلك والاهداف هي الاهداف وهو الذي يؤكد له فساد مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التي تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الاسلامي والتي زيفت وشوهت التاريخ الاسلامي بما في ذلك تاريخ الرسل والانبياء »^(٢) ومن خلال القرآن الذي يبين لنا ان تاريخ الانسانية هو تاريخ الانبياء وهو تاريخ الملة الموحدة وهو تاريخ دين الاسلام الذي جاء به الانبياء جميعاً من أم الى محمد صلوات الله عليهم . وان هذا التاريخ تحكمه سنن ونواميس خاضعة لارادة الله يتفاعل معها الانسان لتحقيق قدر الله علمي الارض وأن مما يؤسف له ان نجد بعض المؤرخين يتجاهل هذه الحقيقة بل يعلن ان هذه الحقيقة غير أصيلة ولا تستند الى دليل علمي : « ومن الامور المعروفة ان اليهود لم يقدموا لمدينة العالم القديم سوى شيئين أظهرت الالة الحديثة عدم أصالتهما اولهما العهد القديم الذي يتضح ان اكثر ما جاء به مستمد من آداب العراق القديم ومصر والكنعانيين الامر الذي عكس ربما لأول مرة فلسفة للتاريخ تجعل أحداثه مستنيرة من قبل الله والثاني المعتقد اليهودي الذي نعرف الآن عن كونه مزيجاً من معتقدات أديان العراق ومصر وكنعان وقد تأثر بما تأثرت به هذه الأديان نفسها في مسيرتها التاريخية »^(٣) . اننا نتفق مع د. سامي سعيد في كون التوراة ليست كتاباً مقدساً وإنما هي « روايات مضللة وأخبار أسطورية ينقصها الدليل والسند التاريخي »^(٤) « وان هذه التوراة ليست التوراة التي نزلت على موسى »^(٥) . ولكننا لا نعتقد ان الدين وضمونها المعتقد اليهودي قد تطور او جاء نتيجة تطورات وتأثيرات ، لان هذا المنهج يتعارض مع دور الانبياء ومصدر الدين وقد أثبت القرآن حقيقتين من خلال عرض سيرة الانبياء . الحقيقة الاولى : « وحدة دين الله وتصديق هذا الدين لما قبله »^(٦) . والحقيقة الثانية هي دور اليهود في التلاعب وتزوير التاريخ الاسلامي للانبياء . لأن القرآن الكريم عرض وحدة المصدر

(٢) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٤ .

(٣) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٤) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٥) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٦ .

(٦) محمد مسعود / م . ص / ٤٠٩ .

وحدة المنهج . والمصدر لكل الرسالات هو الله سبحانه وتعالى والمنهج كان يمثل الاسلام في عصر النبي المرسل ، وهذه الحقيقة أثبتها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ قل انا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾^(٧) . وهذا يعني ان تاريخ الامة الاسلامية لا يبدأ فقط ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإنما يرجع الى زمن خلق آدم (عليه السلام) مسلماً موحداً^(٨) . وان الانبياء لم يكونوا يمتلكون أنفسهم أو أهدافاً بضرية دفعتهم للإصلاح ولم يكن موسى (عليه السلام) في مفهوم القرآن منلقاً ومصلحاً وزعيماً ولكنه قبل كل شيء كان نبياً رسولاً بعثه الله الى بني اسرائيل . ان الذين كتبوا في التاريخ القديم وتصنوا لمناقشة الاديان والانبياء معظمهم ان لم نقل كلهم قد سيطرت عليهم فكرة ان الدين قد اخترعه البشر وتطور كما تطورت باقي الجوانب في حياة البشر وهذه من أعظم الاخطاء التي وقع فيها هؤلاء المؤرخون وعلى الجانب الآخر كان هناك مؤرخون اعتمدوا على التوراة في بناء نظرتهم الى التاريخ القديم فتكونت عندهم صورة مشوهة مضطربة عن الانبياء والاديان لان المصدر مشوش ومحدرف وزعم هؤلاء « أن ابراهيم ونزريته كانوا يهوداً واعتمدوا في مصادرهم على ما ألفه كُتّاب اليهود قديماً وأسموه بالتوراة ويدخل في ذلك ما يسمى بالمهد القديم والتلمود . وما يسمى بـ (دائرة المعارف الاسلامية) التي ألفها المستشرقون . وقصة الحضارة للبيروانت والحضارات السامية لموسكاتي ، والشرق الخالد لعبد الحميد زيد وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة »^(٩) وغيرها ، ومن المؤسف حقاً كما يقول د. سامي سعيد الاحمد : أن الذين كتبوا عن تاريخ فلسطين القديم (أو تاريخ الانبياء بصورة عامة) قد اعتمدوا اعتماداً كلياً على المهد القديم الذين لا يمكن بآية حال من الاحوال أخذ معظم ما جاء به كحقائق تاريخية « ونأسف نحن كذلك عندما نجد ان الذين يميزون على هذا الطريق من المؤرخين اعتماده على رواية المهد القديم وتاتبوا بها فإن هؤلاء قد ابتعدوا عن الحق كثيراً عندما جعلوا التراث الضخم للاديان

(٧) سورة آل عمران/ ٨٤ .

(٨) محمد مصمود / م . ص / ص ٣٩٩ .

(٩) محمد مصمود / د. جمال عبدالهادي مع د. ولاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في

التاريخ / ص ٤٠٥ .

والأنبياء عبارة عن حالة طبيعية من حالات الوجود الانساني يخضع لمفهوم المادية والاسباب الطبيعية التي أدت الى ظهور الانبياء كحاجة غريزية تعبر عن استجابة الانسان لحالات الضعف التي تميزه إذ ينكر د. سامي سميد : « ولم تكن عبادة الأشجار بالأمر الغريب على الشرق الأدنى القديم فقد تمس الفينيقيون الأشجار وقرنوا بعضاً منها كالصنوبر والياس والدخل بآربابهم مثل عشتروت . ويرتبط وجود الرب كذلك بالصخور المقدسة (المازيا) التي استخدمت كمذابح وظلت تمثل وجود الرب للمبرانيين الأوائل حتى إصلاحات الملك جوزايا وكذلك نرى ارتباط المعتقد المبري بالطوطمية واضحاً في تنقيصهم للحوانات على الرغم من تحذير الوصايا العشر وقد نجد أن بعض بطون القبائل العبرية تنسب الى حيوانات مثل الأوربيين (Arodites) أي عشيرة الحمار والتولاتيين (Tolaites) أي عشيرة الدود والكلبين (Calbites) أي عشيرة الكلب وربما تكون هذه بقايا لنظم ومعتقدات طوطمية سابقة »^(١٠) وعن موسى يقول : « ولكن من هو موسى الذي يقوله الكثيرون بتأسيس الدين اليهودي ؟ هناك حقيقة مهمة هي أنه ليس لدينا حالياً أية وثائق تاريخية عن موسى معاصرة له يمكن أن ترسم له شخصية تاريخية »^(١١) إن هذا المنهج في تحليل المعلومات التاريخية لم يقتصر على مؤرخ واحد أو مفكر واحد ولكنها نجده عاماً لم يتخلف عنه كل الذين كتبوا في مقارنة الانبياء وتاريخها فلنا نجد في كتاب علي الشوك الذي هو متابعة لكتاب (الاساطير العبرية) لروبرت غريغز وروفايل باتاي . فقام علي الشوك بالتعقيب على هذا الكتاب ونشره تحت اسم (الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة) وهذا الكتاب نموذج يصلح أن يكون صورة مشحونة بالتحليلات وربط الحوادث المعترية عن العقائد بالاساطير والغاء تام للايمان بالله والأنبياء وعزاً أساس المعتقدات الى حالات من التفاعل بين الانسان والظواهر الكونية . وهذا النموذج لما جاء في هذا الكتاب : (نقرأ في كلام غريغز وباتاتي مؤلفاً (الاساطير العبرية) : « وكانت الفريان مكروهة محبوبة عند المبرانيين على حد سواء وفي سفر أيوب (٢٨ : ٤١) والمزامير (١٤٧ : ٩) نجدها موضع عطف الرب لكنها في سفر التثنية (١٤ : ١٤) تصنف مع الطيور الذميمة ومن المحتمل أن الفراب وليس حاماً ، استحبال لونه الى السواد عقاباً

(١٠) الاحمد / د. سامي سميد / تاريخ للطين القديم / ص ٣ .

(١١) الاحمد / د. سامي سميد / م . ص / ص ١٧ .

له «^(١٢)» ويعقب علي الشوك على هذا النص في كتابه فيقول : « على ان الغراب كان في الاساطير اليونانية طائراً نبوياً يُزعم انه كان يسكن روح الملك المقدس بعد التضحية به . ولابد ان الحمامة كانت طوطماً عند بعض القبائل السامية . وكذلك الغراب ويمكن أستنتاج ذلك من أسم القبيلة العربية بني حمامة وذلك على غرار قبيلة اصد وكلب وضبيان وأوس وثور وعقاب وقضاة وغيرها مما يعني ان هذه الحيوانات ربما كانت طوطماً للقبائل التي تسفت بأسمها وفي دراسة للمؤرخ الهولندي جي فلكن (Wilken) عن المجتمع الاموني عند العرب . ونقلها الى العربية بنجلي جوزي جاء ما يأتي : (ان الحمامة كانت تُعد آلهة الكمبة ومثلها الطيبي وبهما تسمت بنو حمام وينو طيبي »^(١٣) . هذه المدرسة التحليلية التي سلطت العقل الغربي في عصر النهضة أو عصر التثوير كما يسمونه ومن روادها دارون ، وفرويد الذي أوغل فيها وفسر التاريخ تفسيراً جنسياً حيث جعل العين والسلوك الاجتماعي الاخلاقي للمجتمع البشري ضمن (مضامين عدوانية - لجنسية) تكمن في داخل النفس وتعود الى فاعليتها في وقت لاحق . ويصرح بذلك عندما يتحدث عن أصل الدين : « لقد قلت بهذه الاطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن في عام ١٩١٢ في كتابي (الطوطم والتابو) . ففي الازمنة البدائية كان بنو الانسان يحبون على شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة وليس في مستطاعنا تحديد ذلك الزعم بدقة يبدو هذا التاريخ ، بالطريقة التي نسرده فيها ، في منتهى التكثيف »^(١٤) ويمضي فرويد في وصف طبيعة كيفية تكوين المجتمع البدائي . وكيف كان فيه دور الاب وسلطانم الذي لا حدود له وكيف أعقبت هذه الحالة مرحلة جديدة من التنظيم الاجتماعي يقوم فيه الاولاد الكبار الذين يطربهم الاب بتكوين جماعات صغيرة يقومون خلالها بقتل الاب ثم يحدث صراع على من يخلف الاب ومن ثم يدرك هؤلاء خطورة هذا الصراع فيقودهم هذا التفكير الى نوع من التفاهم والى نوع من عقد اجتماعي وتُجم عن تلك الشكل الاول من التنظيم الاجتماعي يقوم على نكران الغراء وعلى القبول بالتزامات متباعدة . والاعلان عن محرمات (وزينة القول نجم عن ذلك ابتداء الاخلاق والقيم - وقد تخلى كل امرئ عن الحلم في أن يحتل مكان والده أو ا

(١٢) الشوك / علي / التفسير عند السكتات النفسية ونظيره / ص ١٠٢ -

(١٣) الشوك / علي / التفسير عند السكتات النفسية ونظيره / ص ١٦ -

(١٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٢ -

يملك أمه أو أخته ، وهكذا جرى تنظيم حب المحارم . وسُنَّ قانون الزواج الخارجي وأنقل قسم لا بأس به من السلطة المطلقة عند موت الأب الى النساء وبذلك قام نظام الامومة . ولبثت نكزى الأب ثابتة راسخة ووقع الاختيار على حيوان مغمم قوة ، كان هو الآخر على الأرجح مهاب الجانب في سالف الأزمان . وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازواجية المواطن التي يوحى بها الأب فكان الطوطم روحاً حامية للمشيرة ولكنه كان يلاقي مصيراً مشابهاً لذاك الذي لاقاه الأب . فيجتمع أبناء المشيرة وينفنون فيه حكم الموت ويأكلونه (الوليمة الطوطمية على حد تعبير روبرتسون) . لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه أنسة (Humanisation) الكائن المعبود . فقد حلت محل الحيوان آلهة إنسانية لا يخفى علينا أصلها الطوطمي وحافظ الإله على شكله الحيواني أو في الأقل على رأس حيوان «^(١٥)» ويمضي فرويد في نسج فرضياته عن تطور الدين والصراع بين المجتمع الامومي وعونة نظام الابوة وكيف يعمد المجتمع الى نظام الأب الواحد ولكنه يقرر « بأنه لا مندوحة من التسليم بأن هذه اللمحة التاريخية مليئة بالتفردات تحفها الريب والشكوك في أكثر من ناحية ومع ذلك لا يسع أحداً أن ينمت طريقتنا في فهم التاريخ البدائي وتصوره بأنها تشط في الخيال الا اذا استهان عظيم الاستهانة بغنى المادة التي تستند اليها وبقوتها على الاقتناع »^(١٦) لقد أغرى فرويد بالاسترسال في هذه الافتراضات وجود تشابه في وقائع وحواث في صورتها وهو ما يعطي انطباعاً بتشابه الاصل بين الفرضية والواقع ونراه يحدثنا عن هذا التشابه : « إن بعض الوقائع وجدت وقائع مطابقة لها شبه حرفية . فقد أبدى أكثر من مؤلف نهشته من التشابه القائم بين طقس تناول القران المقدس لدى المسيحيين - وبه يتمثل المؤمن رمزياً جسد الهه ودمه - وبين الوليمة الطوطمية التي لها دلالة مماثلة . كذلك تشتمل الخرافات والحكايات الشعبية على عدد لا حصر له من بقايا العصر البدائي المنسي ومخلفاته »^(١٧) . لقد أراد فرويد من خلال حشد هذه الظواهر التي تعبر عن ربط لا يخلو من الحذاقة والصناعة أن يلقي مبدأ الايمان بالدين والروح والحكمة من الخلق بجعل هذه التصرفات خاضعة لمفهوم الاستجابة

(١٥) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٦

(١٦) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧

(١٧) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧ .

الطبيعية لتطور الحياة الانسانية من خلال نشاطها الاجتماعي الذي يعبر الدين عن أرقى أوجهه . ان التطور بموجب البرنامج الذي صاغه فرويد من الطوطم الى المجتمع الابوي ثم المجتمع الامومي ثم الانقلاب والموت الى المجتمع الابوي ثم الاب الواحد ثم الرب الواحد « التوحيد » هذا البرنامج يعبر عن خداع وتضليل وتهديم الاديان وهو يربط بين المسيحية والطوطمية ويقول : ان لكل واحد من واضعي الاناجيل الاربعة حيوانه المفضل ^(١٨) . انه يهدم الاساس الرياني للدين الذي جاء به عيسى (عليه السلام) وينسف اليهودية كذلك ^(١٩) عندما يجعل موسى مصرياً وزعيماً انضم اليه الموحدون أتباع أخناتون ويقايا بني اسرائيل ومجاميع من المستضعفين وقاد عملية التغيير . ان اليهود يريدون تهديم الاديان فإذا وصلوا الى زرع هذه العقيدة في نفوس العالم حتى من خلال تهديم اليهودية فإنهم يكونون قد حققوا غايتهم وهدفهم في عزل العالم غير اليهودي (الامميين) عن الحقيقة وبذلك يتمكنون من بسط نفوذهم وهيمنتهم على العالم .

إن نقل القضية الى ساحات غير ساحتها وصناعة الاوهام لعقول الناس تجعل هذه الاساليب التي سادت الغرب وتبناها علماءه عملاً مضلاً وتؤدي الى جمود العقل وتبطل الحس وتنكس بها تطلعات الانسانية وتؤدي هذه النظرة الى الايمان بالمادية والتسليم بنتائج محتومة وان فرويد عندما يفترض (ان الله خرافة ثم يحاول أن يفسر سبب ايمان الناس بهذه الخرافة وهو لا يورد اي نكر للحجج المؤيدة او المناقضة لوجود الله ويلهج دارون نهجاً مشابهاً لهذا . ففي كتابه (أصل الانسان) (The Descent of Man) نراه لا يناقش مسألة الله او عدم وجوده بل يقصر حديثه على الايمان بالله وبالخلود ثم يرمج بالغيب الطريقة التي يمكن فيها ظهور هذه المعتقدات بوصفها نتيجة (ثقافة متقدمة المهد) وهذه اجراءات طبيعية ومنطقية إذا افترضنا أن لا حقيقة الا في حقيقة المادة ^(٢٠) . إن تفسير السلوك على اساس

(١٨) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٩

(١٩) اذ يقول : لقد كانت اليهودية ديانة الاب ففكت المسيحية ديانة الابن وانحطت مكانة الإله

القديم الإله الاب الى المرتبة الثانية ، انظر موسى والتوحيد / ص ١٢٢

(٢٠) أغروس / روبرت ج. وجورج ن. ستانيسلو / العلم في منظوره الجديد ترجمة د. كمال

الخلايلي / الجديد / ص ١٢٥

عملية استرجاع للخبرة المتراكمة في الشعور ليس تفسيراً^(٢١) وإنما وصف لأن السلوك يرتبط بالشعور وهذا الشعور شيء غير مادي وفي هذا الصدد ينكر (أكلس) النظرة الجديدة عن التفكير فيقول : « تعلمت بالتجربة الثابتة إنني بالتفكير والارادة أستطيع ان اتحكم بأفعالي إذا شئت ذلك وليس في وصفي أن أفسر تفسيراً علمياً كيف يستطيع التفكير أن يؤدي الى الفعل . ولكن هذا العجز يأتي مصداقاً لكون علوم الفيزياء والفسولوجيا في وضعها الراهن بدائية للغاية . وحين يؤدي التفكير الى الفعل أجدي مضطراً كعالم متخصص في الاعصاب الى افتراض أن تفكيري يغير ببطيئة تستعصي على فهمي تماماً النماط النشاط العصبي التي تؤثر في دماغي »^(٢٢) وهكذا نجد ان العلم الحديث قد نقض الافكار التي كانت سائدة في القرن الماضي ولقرنين من الزمان أو ثلاثة . إن الغاية والحكمة للوجود في كل مظاهره والجمال والاحساس والنوق والاخلاق والاحلام والروى والسحر وما وراء الطبيعة^(٢٣) والاحساس عن بعد (التليثاتي) والدين وما يفرضه العقل من قناعات منطقية مثل وجود العلاقة الزوجية بين انواع الحياة المختلفة كل هذا يدفع الى الايمان بقدرة الخالق وعظمته .

لقد اضطررنا الكلام عن منهجية القرآن في عرض الواقعة التاريخية الاستشهاد بأراء الذين تابعوا مناهج أخرى في متابعة الحدث التاريخي وقد رأينا انه من المفيد ان نسلط الضوء على هذه المذاهب لتأكيد أهمية القرآن ودراسته من قبل دارس التاريخ من أجل تكامل المعرفة وبناء منهج يفسر التاريخ يعتمد كلياً على النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ولابد ان نؤكد التعامل مباشرة مع النص القرآني ضمن قواعد فهم النصوص اللغوية والشرعية ونبذ ما تعلق بالنصوص من مفاهيم وتصورات بنيت أساساً على الاسرائيليات وثقافات اصطبغت بصبغة العصر الذي أفرز تلك الفهم من النص القرآني ، ومن المعلوم ان التطور الذي حصل في مجالات العلوم والثقافة أتاح لقارئ النص فهماً جديداً يختلف عن الفهم الذي بونت فيه آراء

(٢١) انظر جعفر / د. نوري / الفكر طبيعته وتطوره / الكتاب كله مكرس لهذا المعنى .

(٢٢) أغريوس / روبرت / العلم في مظهره الجديد ص ٣٩ .

(٢٣) انظر ولسن / كولين الانسان وقواه الخفية دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر / ترجمة سامي خشبة . والكتاب يؤكد عبوة الحياة الانسانية الى القوة الروحية والايمان بها وذلك لمعجز المادية .

المفسرين القدامى . ونحن نتلقى النص القرآني لفهم التاريخ لابد ان نقرر أيضاً ان الاسلام لا يلقي المصادر الاخرى ولا سيما الكتب المعقسة التوراة والانجيل ولكن يتعامل معها بحذر وتحيص ، ونحاول ان نستمين بهذه المصادر لتسليط الضوء على المداخلات التي تنكس الحدث التاريخي الذي يعرضه القرآن الكريم ويغفل هذه المداخلات على ان تكون هذه المعلومات التي تضيفها هذه المصادر غير متعارضة مع جوهر الهدف القرآني وغير متقاطعة مع العقل والعلم . ولذلك فإننا لا نسلم بان التوراة قد أخذت وتأثرت كلياً بالحضارات السابقة لتتويناها وتلت معلوماتها منها إن القرآن الكريم أكد إن التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون وقد اعترف القرآن الكريم ضمناً بالكتب المعقسة التي سبقتة وقد ذكر القرآن الكريم صحفاً غير التوراة والانجيل مثل ﴿ ان هذا نفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ﴾ منذ عهد ابراهيم (عليه السلام) إذ ظهرت على سطح الارض مظاهر الحضارة والكتابة وأنزل الله صحفاً وكذلك قوله تعالى ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ و ﴿ اتينا داود زبوراً ﴾ لقد شكلت هذه الكتب والمصحف الاساس للانسانية في علاقاتها مع السماء من خلال الانبياء الذين أنزلت عليهم هذه الكتب . وكذلك نحن نقر بان تفاعلاً قد حصل أثناء تدوين هذه الكتب مما جعل احتمالية التأثر بالحضارات المعاصرة لتدوين هذه الكتب ممكنة وبخاصة إن تدوين هذه الكتب قد حصل بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) الذي بلغها او بعد غيابه عن الارض بمئات السنين الامر الذي جعل عملية التدوين تخضع لاهواء شخصية وظروف خاصة لازمت عملية تدوين هذه الكتب . ولكن هذا لا يعني عندما نتحدث التوراة عن طوفان نوح او عن آدم وأيوب أو أي حادثة تاريخية يمكن ان يجدها في الرقم الطينية ، إن التوراة قد أخذت هذه المعلومات من البابليين أو الكنعانيين أو الفراعنة . ونحن ننظر الى القضية من اتجاه آخر إذ يؤكد لنا تطابق المعلومات بين الرقم الطينية والرواية التوراتية مع الرواية القرآنية بان لهذه الحادثة أصلاً حقيقياً يتيح للباحث التمسك بتاريخ حقيقي يمثل جوهر الحدث وتترك التفاصيل التي تلبست رواية الرقم الطينية والتوراتية والتي افترتها عقول البشر في عصر تدوين هذه النصوص ونلجأ الى النص القرآني لناخذ منه التفاصيل ونتابع الرواية القرآنية ونستلم منها تجربة من سبقنا من البشر . وبذلك يوضع التاريخ في الموقع الفعال والايجابي لخدمة حاضر الانسان ومستقبله من دون اللجوء الى الفرضيات والنظريات التي نتحدث عن إمكان إعادة التاريخ وقياسه بالعلوم الطبيعية والنظريات

المعارضة لها التي تؤكد استحالة تكرار الواقعة التاريخية وبين تلك آراء وآراء^(٢٤) ولا بد أن تؤكد منهجية القرآن من خلال استعراضنا السابق للآراء وثبتت هذه المنهجية ضمن النقاط الآتية :

١ - ارتباط كل واقعة تاريخية يعرضها القرآن الكريم ارتباط وجود بالخالق الذي أوجدها ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختل فخور^(٢٥) .

إن ربط الحدث بالمُخْبِت والوجود بالموْجِد يعني أن كُلَّ فعلٍ وحدث قد جاء متوافقاً مع إرادة الله حتى الفعل الذي يباشره الانسان فإن حقيقته مرتبطة بالله ﴿ وما رميت إلا رميت ولكن الله رمى ﴾ وهذه المقيدة لا تعني سلب الانسان حريته وإرادته الخاصة ولكن وجود هذا الشعور يولد قلقاً في نفس الانسان قبل الحدث وهذا القلق يدفعه نحو مباشرة السبب واستجماع كامل الطاقة فيتولد الابداع وقد أبدع الدكتور عبدالعزيز الدوري في وصفه لأسباب ملازمة المجتمع المكي للتغيير عند ظهور الاسلام حين قال : « ومن ناحية ثانية ظهرت بوادر قلق اجتماعي في بعض المجتمعات المستقرة مثل مكة نتيجة التحول من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري . وعرفت مكة بحكم مركزها وفعاليتها القلق والتنبه في أن واحد . وفي هذا الوعي القلق لا في جفاف الجزيرة كما ظن البعض تكمن بوادر الحيوية^(٢٦) . وهذا القلق ليس القلق الذي تحدث عنه نبيروانت وجعل زوال علامة على بداية الابداع فذاك قلق موضوعي ضمن إطار اليأس وهذا قلق مفتوح باتجاه آفاق التغيير والامل . فالقلق الذي يتولد عن الظلم لا يمكن أن يغير او يكون سبباً في التغيير اما القلق الذي يتولد في أجواء بعيدة عن الكبت والظلم وعلى أساس الوعي والبحث عن الحقيقة هو الذي يوصل الى نتائج ايجابية . وكذلك ان الشعور الذي يصاحب الحدث ويخلقه عندما يكون هذا الشعور الذي يخلف الحدث يمثل عقيدة في نفس الانسان ، بأن ما حدث لم يكن تقاديه مكنأً عندها

(٢٤) انظر بيور / كارل / بيوس التاريخية ترجمة سامر المطليبي .

(٢٥) سورة الحديد / ٢٢ - ٢٣ .

(٢٦) البيوي / د. عبدالعزيز / مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي / ص ١١ - ١٢

يتجاوز الانسان كل الآثار السلبية لهذا الحدث على ألا يستخدم هذا الشعور لتبرير المواقف السلبية في الحياة قبل حدوث الحدث . هذه عقيدة الايمان بالقضاء والقدر عند المسلمين تكمن في روح التاريخ .

٢ - ان حركة التاريخ في النصوص القرآنية تتبع حركة المجتمع وان التغيير الذي يضعه القرآن الكريم هدفاً للنبوات والانبياء هو تغيير المجتمع وتحويله الى مجتمع ينسجم مع نبوة عصره ، ولذلك لم نجد في نصوص القرآن الكريم التي تعرضت لمحاولات الانبياء في التغيير أنها وضعت برنامجاً مباشراً لتغيير السلطة التي تعاصر النبي وإنما كان الحوار بين السلطة والنبي يقوم على أساس السماح للنبي بالعمل على إحداث التغيير من دون التعرض له . وقد أدركت مؤسسات السلطة التي واجهت الانبياء خطورة هذا الأسلوب وان مآله في النهاية تغييرها وإزالتها من مراكزها التي كانت تحكم عليها بقبضة من حديد . فبدأ الصراع . وقد شكلت الهجرة مع الجماعة المؤمنة أحد المعالم الاساسية لمسيرة الانبياء وقد تابعتنا الهجرة كحدث اكتسب أهمية في حياة الانبياء ونكرنا إن الهجرة يمكن ملاحظتها في عصر آدم (عليه السلام) بالخروج من الجنة إذ تمثلت الهجرة العكسية والفريق ان الهجرة كانت إحدى معالم الحياة الانسانية قبل نشوء الحضارات ومن المعلوم ان الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة باتجاه وادي الرافدين وأرض الشام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى إعانة وتثبيت . وكانت الهجرة في عصر نوح (عليه السلام) تتمثل بالخروج مع المؤمنين على ظهر السفينة . أما في عصر إبراهيم (عليه السلام) فإن الهجرة قد تمثلت بأبعائها ومعالمها الواضحة ﴿ قد كنت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والنين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبنا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٢٧) .

عصر إبراهيم (عليه السلام) :

تابعنا أحداث التاريخ منذ عصر آدم (عليه السلام) مروراً بعصر نوح (عليه السلام) ونتوقف الآن عند عصر إبراهيم (عليه السلام) ومن خلال هذه المتابعة تشكلت لدينا نظرة عن هذه المسيرة التاريخية لعل أهم ملاحظتها حدث تكرر مع هؤلاء الأنبياء هذا الحدث هو (الهجرة) وهذه الهجرة ليست هي نفسها التي تحدث عنها الذين تابعوا التاريخ القديم وتكلموا عن هجرات الاقوام من شبه الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة (أراضي الهلال الخصيب) وأطلقوا عليها هجرات الاقوام السامية وتحذثوا عن جنود حضارات وادي الرافدين والنيل وأرض الكنعانيين والشام . وهذه الهجرة من نوع آخر يمكن أن نسميها الهجرة الدينية التي منعت وعبرت عن سلوك ديني مرتبط بأمر السماء ويمكن أن نرصدها في عصر آدم (عليه السلام) من خلال خروجه من الجنة التي تحدثنا عنها وقتلنا ان العلماء منهم اسلاميون ومنهم لاهوتيون أو مستشرقون هؤلاء جميعاً قالوا أن جنة آدم على الارض وحسروا مكانها في وادي الرافدين وهم على خلاف في تحديد دقيق لمكان جنة عدن (بين أعالي الفرات الى جنوب العراق عند التقاء دجلة والفرات) ومنهم من قال ان هذه الجنة هي بلمون التي تتحدث عنها الرقعة الطينية ومكانها في البحرين وآخرون قالوا ان الخليج العربي في حقبة من الحقب كان منسحباً نحو الجنوب الغربي وكانت الاراضي التي يفمرها الماء الآن اراضي يابسة وكانت حدود العراق ممتدة الى البحرين .

وقال آخرون ان الخليج العربي كان متقدماً نحو الشمال ومنذ العراق القديمة أور وغيرها كانت على سواحه . وهذا الخلاف لا يمكن حسمه لانه قائم على فرضيات وتوقعات لا تستند الى أدلة قوية .

وتحدثنا بأن آدم (عليه السلام) قد استقر في مكة بعد خروجه من الجنة وقد خرجنا أحاديث نبوية تشير الى ان الله أمر آدم بأن يبني بيتاً لعبادة الله وهو مكة . ثم بعد آدم يمكننا رصد هذه الهجرة في عصر نوح من خلال مسيرة السفينة التي كان عليها نوح (عليه السلام) ومن آمن معه حيث وردت روايات اسلامية تقول ان نوح (عليه السلام) قد مات ودفن في مكة . وفي عصر إبراهيم شكلت رحلته الى مكة أحد المعالم المهمة في الرواية الاسلامية وان كانت هجرته الاولى من العراق باتجاه حران ثم فلسطين . وهذه الهجرة التي حدثت في حياة هؤلاء الأنبياء هي التي

رجحت لدينا احتمال إن أصل أقوام هؤلاء الأنبياء من العراق ثم هاجروا من وادي الرافدين الى شبه الجزيرة على وفق السياق والاسباب التي نكرناها ثم كانت هذه الهجرة هي الاساس للهجرات الطبيعية التي حدثت فيما بعد . وخرجت المجموعة البشرية التي تكاثرت بعد الأنبياء آم ونوح خرجت مجموعات بشرية من شبه الجزيرة منتشرة حول أحواض الانهار في بلاد ما بين النهرين والشام وحوض النيل . وهذا الذي ذهبنا اليه يتفق مع ما ذهب اليه « فون كريمر » العالم الالماني حيث ذهب الى ان اقليم (بابل) هو موطن الساميين الاول . وذلك لوجود الفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة ^(٢٨) وقد إتبع (فون كريمر) في نظريته أسلوب دراسة المفردات اللغوية ومقارنتها ولا سيما أسماء الحيوانات . والنباتات . وقد قال بمثل قول كريمر هذا عالم آخر وهو (كودي) وكذلك : « (هومل) وهو من العلماء الالمان الحائزين في الدراسات اللغوية . فقد ذهب الاول الى ان موطن الساميين هو شمال العراق ثم عاد فقرر ان اقليم بابل هو الوطن الاصل وذهب ايضاً الى ان قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية . وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين ^(٢٩) وقد وجهت انتقادات الى هذه النظرية منها ما ذكره نولدك بان بناء نظرية مهمة كهذه على نتائج مقارنة تشابه كلمات وإجراء موازنات بين الفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق . يُعدُّ هذا العمل مجازفة ولا يخلو من الخطأ . وكذلك انتقدت هذه النظرية من خلال ان القول بهذه النظرية يستدعي تصور حدوث هجرات من أرض خصبة ذات مياه الى بواد مقفرة وأراض صحراوية جرداء وابدال حياة منعمة زراعية بحياة بلوية خشنة . ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية ^(٣٠) على أننا نكرنا في بداية كلامنا ان الهجرة الاساسية التي أنتقل بموجبها الأنبياء وأقوامهم من العراق الى جزيرة العرب اما كان استجابة لاسباب دينية وليس لحاجة بشرية طبيعية وكذلك الاختلافات اللغوية فان أصول الجماعات التي نتحدث عنها وإرجاعها الى الاصل السامي غير مسلم به الا ان هذا المصطلح ايضاً واجه معارضة وانتقادات كثيرة . وقد

(٢٨) علي / د. جواد / فصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / ج١ ص ٢٢٩ .

(٢٩) المصدر السابق نفسه ص ٢٣١ .

(٣٠) المصدر السابق نفسه .

تراجع الاستاذ جواد علي وتخلّى عن فكرته في اطلاق مصطلح عربي على (الاقوام السامية) وقال : « لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية أصطلح عليها اصطلاحاً والمروية وحدة ثقافية وجنسية ويوابع لموية ، وبين المفهومين فرق كبير »^(٢١) وقد نهب الدكتور محمد عزة دروزة الى جمل الساميين عرباً وعدّ القماء منهم في نور المروية غير الصريحة ثم انتقلوا الى نور المروية الصريحة حيث اكد انتماء النازحين الى العراق منذ آلاف السنين الى الجنس « العربي نون الاسم الحديث (الساميين) ، لانهم اشتروا مع اشقائهم الذين بقوا في جزيرة العرب وتطورت عرويتهم غير الصريحة الى العروية الصريحة »^(٢٢) . غير ان الرواية الاسلامية تخالف ما نهب اليه هؤلاء في الأسلوب والنتيجة فقد نكر حديث نبوي شريف من حديث ابي نر وهو حديث طويل يرويّه ابن حيان في صحيحه نكر فيه الانبياء والمرسلين قال فيه « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح وشعيب ونبيك يا ابا نر »^(٢٣) وقد استبعدت هذه الرواية إبراهيم وإسماعيل وأنبياء بني اسرائيل بمعنى آخر حصرت المروية في أرض جزيرة العرب والفت اعتبار السامية من العربية . وهذا أمر طبيعي وتحديد يتسم بالواقعية والعلمية لأن اعتماد الجنس وانحدار هذه الشعوب من أب واحد هو سام بن نوح إغراق في الخيال وسمي وراء وهم سيطر على عقول كثير من الباحثين أوجده اليهود وفي حديث نبوي استوعب المروية وأعطاه معنى إنساني وأبعدها عن المعنى المروقي العصبي . ففي الحديث : « من تكلم العربية فهو عربي » وبذلك تحولت المروية الى حالة تكتسب بالتفاعل والتعايش وقد أكدنا فيما سبق ان اللغة هي ارقى حالات التفاعل وأقوى وسيلة لنقل المعلومات واكتساب الخبرات ولذلك أكتت بعض المرويات هذه الحقيقة « انما العربية للسان فمن تكلم العربية فهو عربي » . وقد حاول بعض الباحثين أن يجد بديلاً لهذه المصطلحات وقد أدرك ضعف الآراء السابقة وافتقارها الى ألة قوية تحسم القضية فأطلق مصطلح « الجزيريين » وهم الاقوام الذين كانت جزيرة العرب موطنهم الاول وهاجروا منها الى الهلال

(٢١) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب / ج-١ ص ٨ .

(٢٢) دروزة / محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي ووليتها وسانتها في العراق قبل المروية

الصريحة / ج-٢ ص ٦ .

(٢٣) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

الخصيب ووادي الرافدين^(٢٤) .

ولكننا نمود الى تحديد جزيرة العرب التي تحددت حسب الرواية الاسلامية بانها مهد العروبة وأصلها . نسأل أين موقع الاقوام الذين خرجوا من الجزيرة في عهد سابق للعروبة الصريحة ؟ ونحن نعلم ان الاسلاميين يقسمون العرب الى قسمين : الاول « العرب العاربة » ويضمنهم العرب البائدة والثاني العرب المستعربة وهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وكان إسماعيل (عليه السلام) أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرحهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم^(٢٥) فالعروبة حالة ممتدة حية مكتسبة لا تتوقف عند عرق أو جنس وقد ارتبطت بالدين الذي ارتضاه الله للبشر وأرسل انبياءه ارتباطاً عميقاً منذ الخطوات الاولى لتاريخ الانسان الواعي على الارض .

وقد ذكر ابن كثير « ويقال ان هود (عليه السلام) اول من تكلم بالعربية وزعم وهب ابن منبه ان أباه أول من تكلم بها . وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الاشبه^(٢٦) » يعني (وهو الاشبه) الاقرب الى القبول . لقد أطلق القرآن الكريم تسمية تختلف عن التسميات السابقة على الامة التي كانت تتفاعل مع الرسالات هذه الامة هي (الامة الاسلامية) . منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) تبلورت هذه الامة وهيات لاستقبال رسالة النبي محمد (ﷺ) . وقد دخل هذه الامة كل النماء التي كانت تشكل الشعوب التي كانت تعيش على هذه الارض (جزيرة العرب والهلل الخصيب ووادي النيل) وقد حددت نصوص القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ ان أولى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين^(٢٧) وفي جزء من من آية في سورة الحج ﴿ لله أبوكم إبراهيم ﴾ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على

(٢٤) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٠ - ٦٠ حيث يذكر

ان د . طه باقر ود . سامي سعيد الأحمد يفهمون إطلاق هذه التسمية كبديل عن الساميين .

(٢٥) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص / ٩٥ ويجمعهم البعض ثلاثة اقسام (١)

العرب البائدة (٢) العرب العاربة . وكلاهما من طبقة واحدة . (٣) العرب المستعربة -

(٢٦) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / م . ص / ص ٩٤ .

(٢٧) سورة آل عمران / ٦٧ - ٦٨

الناس^(٢٨) إن الذين يحاولون تفسير ظهور الحضارات في وادي الرافدين على أساس السامية ينلون استنتاجاتهم على أساس إلغاء الدين ونور الأنبياء كما يقول الدكتور ويلفونسون في كتابه تاريخ اللغات السامية : « اقم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة وقد أسست تلك الجموع ملكاً عظيماً في بقعة الغرات كان لها من الحول والطول حظ وافر في عصور شتى »^(٢٩) وكذلك ينقل لنا احمد سوسة قول ديورانت « ان مهد المجلس السامي ومرياه جزيرة العرب حيث ينمو الانسان شديداً عنيفاً . تدفقت موجة اثر موجة في الهجرات متتابعة من خلايق اقوياء شديدي الباس لا يهابون الردى بعد ان وجئوا الصحراء والواحات لا تكفيهم فكان لابد ان يفتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً يعولهم ويقوم بإيوائهم . وأما من بقي في بلادهم فقد وجدوا حضارة العرب البدو وأنشأوا الاسرة الابوية »^(٣٠) .

وهذه التفسيرات كلها تستبعد الدين والأنبياء والروح الذي كان يسري في الامة التي تستجيب للرسالة . ثم يخلص الدكتور سوسة الى القول « وتأييداً لهذه النظرية يقول الدكتور جين وجرجي - وجبور « ان معظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة ان بلاد العرب هي مهد الجنس السامي »^(٣١) . ونحن نؤكد ما أكده القرآن الكريم بانه لا سامية وان الذين يتابعون السامية انما يتابعون وهماً . ونؤكد كذلك ان العراق كان مهد الامة التي تفاعلت مع الرسالات وعلى أرضه التي أنشئت الامة الاولى التي انجبت الأنبياء (نوح أبو البشرية الثاني وإبراهيم أبو الأنبياء) فان العمران وتطور الحياة لم يات نتيجة انبثاق من فراغ ولكن ارتباط الانسان بالوحي والرسالات وضع هذا الانسان على خطا التطور البشري بمجالاته المادية والروحية . وإذا كان اليهود يعلمون ناشلتهم ثقافة ينشرونها بين الناس عن تاريخهم المزيّف الذي يقولون عنه ان الشعب اليهودي نزع الى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الالف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عندهم آنذاك يتجاوز اربعة آلاف شخص »^(٣٢) فنحن لابد ان نعلم الناس ما أكده القرآن والتاريخ والحق بان الامة

(٢٨) سورة الحج / ٧٨ .

(٢٩) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤٠) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤١) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٦٠ .

(٤٢) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٤ هذا الكلام عن سلوط في

المسلمة هاجرت من العراق الى فلسطين وجزيرة العرب لكي تهيء الطريق امام
الابنتاثة الكبرى للامة الاسلامية العربية من جزيرة العرب بقيادة النبي محمد
(ﷺ) . واذا كان اليهود يصرحون ويثبتون العقيدة التي تسميها خيط المنكبوت التي
تجعل السامية تعني اليهودية وتعني الشعب الذي اختاره الله ويحبه وأعطاه وعده .
حتى زيفوا التاريخ وحرفوا الكتب السماوية واقتتلوا الاحداث لنصرة عقيدتهم وادعوا
« ان تاريخهم في فلسطين يرجع الى خمسة آلاف عام وان العرب لم يدخلوها الا بعد
الفتح الاسلامي ويقول المقاد عن هذا الموضوع « ومن أقوال اليهود أن العرب فتحوا
فلسطين بعد قيام الدعوة الاسلامية فانهم لم يكن لهم وجود فيها قبل النبي محمد
(ﷺ) » وقد نجح دعاة الصهيونية في الترويج لهذه الخرافة حتى صدقها الكثيرون من
الاوربيين والامريكان . بل نجحوا فيها حتى صدقهم أناس من العرب ايضاً فسمعنا
من يقول منهم أن شأن اليهود في فلسطين كشأن الهنود الحمر في القارة
الامريكية «^(١٢) . فاذا كان اليهود قد غيروا قناعات العالم بتبنيهم عقيدة مزيفة
فلماذا لا نعلن العقيدة التي جاء بها القرآن التي تؤكد ان (الحنفية الابراهيمية
تعني العربية) ؟ وهذه الامة العربية شكلت نواة الامة الاسلامية امة حية لا عصبية فيه
وانما تضع القومية في مفهومها العالمي الانساني وبذلك نتجاوز إشكاليات المجتمع
السومري والحضارة الفرعونية والمجموعة الفلسطينية التي هاجرت الى أرض
الكنعانيين وكل الاقوام التي لم تكن دماؤها عربية الجنود وانما تفاعلت مع الرسائل
واكتسبت وتعلمت من النبوات كل المفاهيم الحضارية والتشريعات التي تنظ
المجتمع الانساني والتي تؤكد وحدة الانسانية . وهذا المفهوم الذي تفاعل مع ارض
العرب وكان العرب القدماء الذين انقروا وسفاهم العلماء العرب العاربة هؤلاء كانوا
الامة الاولى التي كانت تتفاعل مع الرسائل ومن قبل هؤلاء (العرب العاربة وهم عا
ثمود وجهرم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وجاسم وقحطان وبنو يقطن
وغيرهم «^(١٣) كان قبلهم اقوام كانت هذه القبائل جزءاً منهم أو بعدهم ومن المحتمل

→ كتابه (كيف لما شعب اليهود) .

Aradocai. I. Soloff «How the Jewish people grew up. 7».

(٤٣) سورة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ ينقل عن كتاب المقاد
(الصهيونية وقصة فلسطين) / ص ١٢٣

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٥ .

أن يكون هؤلاء هم أنفسهم الذين شكلوا الهجرات من الجزيرة الى الهلال الخصيب ويصمهم العلماء المسلمون بأسماء الانساب إذ أن كل قبيلة تنتسب الى جنبها الاعلى ولكن من تتابع مسيرة الانبياء ومن خلال متابعتنا لهذه المسيرة تبلورت لدينا بعض الافكار التي يمكن ان تشكل فهماً جديداً للتاريخ من خلال النصوص القرآنية . فان القرآن الكريم بعد الطوفان يتوقف عن المتابعة للمجموعة المؤمنة وكيف قضت حياتها ولكن ينقلنا النص القرآني الى مساحة جديدة يسلط الضوء من خلالها على نبي ارسله الله الى قومه بعد نوح (عليه السلام) هذه الجماعة (قوم هود عليه السلام) ويسكت القرآن عن وادي الرافدين وعن المجتمعات التي تجمعت على أرضه بعد الطوفان . ولكن النص القرآني ينقلنا الى الاحقاف . « وهي جبال الرمل . وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر وأسم وانبيهم (مفيث) »^(١١) وقد حدثنا القرآن الكريم أن الله قد بعث هوداً (عليه السلام) بعد نوح ونكر هود قومه بقوم نوح ﴿ والذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾^(١٢) .

ان تنكير هود لقومه بقوم نوح يرجع ان الطوفان لم يكن شاملاً لكل الارض اذ لا يعقل ان يكون قوم هود هم قوم نوح (عليه السلام) بليل ان هود (عليه السلام) نكرهم بانهم قد جعلوا خلفاء من بعد قوم نوح ولم يقل لهم بانهم من نرية أتباع نوح الناجين من الطوفان . والخلفاء تعني أنهم جاءوا بعدهم وهم غيرهم وبيل ذلك ايضاً انتقال خبر الطوفان وما حل بقوم نوح الى الاقوام الآخرين ويمكن ان الناجين من قوم نوح نقلوا ما حل بقومهم الى الاقوام الأخرى . ولو كان قوم هود من نرية قوم نوح لكان الخطاب اليهم كما كان خطاب مؤمن آل فرعون الى قومه عندما بعث الله موسى (عليه السلام) فاراد ان ينكرهم مؤمن آل فرعون بيوسف الذي كان يعيش معهم كما نكر ذلك تعالى في قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما ركن في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾^(١٣) والخطاب هنا لنزيتهم الذين جاءوا بعد موت يوسف بمئات السنين ومثل هذا في القرآن وارد كما في قوله تعالى مخاطباً بني اسرائيل في

(٤٥) ابن كثير / ابو الفداء / م . ص / ص ٦٤

(٤٦) سورة الاعراف / ٦٩

(٤٧) سورة غافر / ٣٤ .

زمن النبي محمد (ﷺ) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكُمْ الْبَحْرَ فَاتَّبِعْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ
 تَنْظُرُونَ ﴾^(١٨) . فمنذما بعث الله موسى في القوم المنقسم الذين بعث فيهم يوسف من
 قبل . خاطبهم برسالته ونُكِّرهم بآثَره (أي يوسف عليه السلام) ولما لم يَنْكُرهم هود
 بنوح (عليه السلام) دل على أن الارتباط لم يكن ارتباطاً ثرية حقيقة وإنما ارتباط
 معنوي وارتباط كرامة وتحفيز لهم لكي يكونوا كالذين نجوا مع نوح ويحقق تواصلًا من
 خلال ارتباط التذكير هذا وكذلك عيسى بن مريم لما بعثه الله إلى بني إسرائيل نُكِّرهم
 بموسى ورسالته ولم يقل لهم انكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم موسى . وإنما قال
 لهم ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَلِّيًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾^(١٩) فكان الله سبحانه
 وتعالى يختار الرسل وفق حكمه وقد يسلط القرآن الكريم الضوء على رسالة نبي أو
 رسول ويكون هناك من يماصره من نبي آخر بعثه الله تعالى إلى قومه ولكن القرآن
 الكريم لم يتحدث عنه وقد يتحدث القرآن الكريم عن الرسول (ﷺ) وعن معاصرة
 النبي كما تحدث عن إبراهيم وعن لوط (عليهم السلام) . وكذلك عن عيسى ويحيى
 (عليهم السلام) . وبعد أن سلط القرآن الكريم الضوء على هود وقومه ينقلنا إلى
 مكان آخر ويسلط الضوء عليه . ويحدثنا عن نبي بعثه الله إلى قومه في جزيرة العرب
 أيضاً ذلك هو صالح (عليه السلام) الذي بعثه الله تعالى إلى ثمود وكانوا
 « يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله (ﷺ) وهو ذاهب
 إلى تبوك بمن معه من المسلمين »^(٢٠) وقد نُكِّرهم بنبيهم بقوم عاد فقال لهم
 ﴿ وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادَ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَكُونُونَ مِنْ سَهْلٍ أَوْ قَبْرٍ
 وَتَكُونُونَ الْجِبَالُ يَوْمَ تَأْتُوا مَأْذِكُمْ لَا تَكُونُونَ فِي الْأَرْضِ مُمْسِكِينَ ﴾^(٢١) وهذه
 الخلافة التي يتحدث عنها القرآن والتي نُكِّر بها الأنبياء هود وصالح وقومهما إنما هي
 خلافة التمكين والنعمة وهذه القضية تربطنا بالمفهوم الذي نُكرناه بأن التقسم
 الحضاري والعمراني كان بسبب تفاعل المجتمعات مع الأنبياء والنبوات . إذ إن

(٤٨) صورة البقرة / ٥٠ قال السيوطي : « العرب تخاطب بمثل هذه وتمني الجد الأعلى والاب
 الابد » انظر جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ / الاكليل في استنباط التلخيص /
 ص ٣٩ .

(٤٩) سورة الصف / ٦ .

(٥٠) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١١٢

(٥١) سورة الاعراف / ٧٤ .

هؤلاء الأنبياء دعوا أقوامهم الى مباشرة الاسباب للارتقاء نحو الامن والاستقرار ولو تابعنا الاقوام الذين ارتبطوا مع الأنبياء بدءاً من قوم نوح حيث المجتمع الزراعي ومروراً بقوم هود حيث كانوا يعيشون في الخيام نوات الاعمة الضخام ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات المصاد ﴾^(٥٢) و ﴿٥٣﴾ . وقد أكد القرآن الكريم إن الله ينشئ أقواماً أخرى بعد القوم الذين يهلكهم كما قال تعالى عن قوم هود بعد ذكر قوم نوح في سورة (المؤمنون) : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم لقماً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منكم أن أعبدوا ما لكم من اله غيره ألا تتقون ﴾^(٥٤) وكانوا يتخذون المصانع وهي البروج والبناء العالي وقال قتادة هي مأخذ الماء^(٥٥) .

أما نوح فقد وصف القرآن الكريم معيشتها في معرض تذكير صالح (عليه السلام) لهم في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبواكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتتحتون الجبال بيوتاً ﴾^(٥٦) . والملاحظ ان هود وصالح ذكرا العيون ضمن البيئة التي كانت تعيشها أقوامهم ونجد ان نوح (عليه السلام) ذكر الانهار لانه كان قريباً منها في وادي الرافدين . فقال نوح ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾^(٥٧) وقال هود : ﴿ واتقوا الذي أمركم بما تعلمون • أمركم بأنعام وينين وجنات وعيون ﴾^(٥٨) . وقال صالح : ﴿ أتركون في ما ها هنا أمين • في جنات وعيون • وزروع ونخل طلعها هضيم وتتحتون من الجبال بيوتاً فارحين ﴾^(٥٩) فدل على ان الجزيرة لم تكن فيها أنهار وأنما عيون ووديان وجبال . وبلت النصوص التي تعرضت لنوح وهود وصالح عليهم صلوات الله . بان المجتمعات البشرية كانت تتطور مادياً وفكرياً وان الانحراف كان يصيب المجتمعات فتعرض للهلاك وان

(٥٢) سورة الفجر / ٦ - ٧ .

(٥٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ . وقد تكون اعمة البناء وليست اعمة خيام لانه تعالى ذكر في موضع آخر حكاية عن نبيهم « يتلون بكل ربع آية تمتنون » الحمراء /

١٢٩ .

(٥٤) سورة المؤمنون / ٣١ - ٣٢ .

(٥٥) ابن كثير / أبو الغداء / تفسير القرآن الكريم / ج-٣ ص ٢٤١ .

(٥٦) سورة الاعراف / ٧٤ .

(٥٧) سورة نوح / ١٢ .

(٥٨) سورة الحمراء / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥٩) سورة الحمراء / ١٤٦ - ١٤٩ .

الناجين من المجتمعات التي تتعرض للمقوية كانت تتواصل في نشاطها وترتبط مع المجتمعات الأخرى وتلق خبراتها الى المجتمعات اللاحقة ويفهم ضمناً بأن الاقوام الذين كانوا يملفون الرسالة كان يعيش معهم على الارض أقوام آخرون ولكن يبدو ايضاً ان القوم الذين يبعث اليهم النبي يكونون على مستوى من الرقي والاستعداد أكثر من الاقوام الأخرى فيكون اختيارهم لحكمة يعلمها الله بأنهم يملكون الاستعداد للتفاعل مع الرسالة ويوجد فيهم من الذين يعلمهم الله بعلمه الغيب من يملك الاستعداد لتحمل المسؤولية اتباع النبي والمضي في طريق دعوة الحق حتى النهاية . لكي تبقى هذه المجموعة الشاهد على الرسالة وعلى المجتمعات الأخرى التي كانت تراقب ما يحدث لقوم النبي . فتواصل مسيرة الأنبياء على الارض من خلال المجموعات المؤمنة .

وعن أخبار عاد وثمود في الدراسات التاريخية الحديثة ومناهج الاثاريين ومقارنة أخبار التوراة مع الحفريات نجد إشارات مقتضبة عن هاتين القريتين « وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الاقوام المولفة لهذه الطبقة (يعني العرب البائدة) فعلمنا بعضهم من الاقوام الخرافية التي ابتدعتها خيلة الرواة . وقد اتضح الآن ان في هذه الاحكام شيئاً من التسرع . اذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الاقوام . ومن حل رموز بعض الكتابات اليهودية »^(٦٠) . وسبق أن أشرنا الى رواية الطبري عن انكار اليهود لوجود عاد وثمود (وهود وصالح الانبياء) . الا ان الحفريات أكتت الرواية القرآنية ولكن تحديد عصر عاد وثمود ومكانهما حصل فيه اختلافات كثيرة بين علماء الآثار الذين كانوا يقارنون الكتابات الشمودية ونحن نعلم من خلال منهجية عرض القرآن لآخبار الاقوام ان قوم نوح كان نكرهم يأتي ابتداء مما يؤكد ان عصر نوح اقدم المصور بالنسبة للرسول وجاء بعده هود ثم جاء بعد هود صالح . ونحن نخالف الدكتور جواد علي الذي جعل « بعض هذه الاقوام أو أكثرها قد شاعوا بعد المسيح (عليه السلام) ولم يكونوا معنيين في القدم على نحو ما تصور الرواة »^(٦١) ومما دفعه الى هذا الاعتقاد هو انكار التوراة لهم فكان هذا السبب في رأيي « لان هذه الاقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة »^(٦٢) ولكنه ينكر

(٦٠) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب / ص ٢٩٨ .

(٦١) علي / د. جواد / م . ص / ص ٢٩٩ .

(٦٢) علي / د. جواد / م . ص / ص ٣٠٠ .

رأياً لبعض أهل الاخبار (ينقل هذا الرأي عن جرجي زيدان عن الهلال) . وهذا الرأي يؤكد ان التوراة فيها إشارة الى عاد وهي (هندوارم)^(٦٣) وقد ورد نكر عاد في القرآن الكريم ﴿ وَرِمَ ثَمَتِ الْعَصَادِ ﴾ وتذكرها المصادر العربية بـ (عادارم) و (هادارم) قريبة من (عادارم) . وإذا كان نكر بعض الآثار لهذه الاقوام في كتابات يرجع تاريخها الى عصور متأخرة قبل الاسلام بقليل وبعد المسيح . جمل الدكتور جواد علي يذهب الى الاعتقاد بتأخر عصورهم . فكيف نفسر وجود أصنام قوم نوح في الجزيرة ويقاعها الى قبل الاسلام ؟ بل ان الدكتور جواد علي ينقل عن فلهايزن ترجمة لكتابات ثمودية تذكر ان اسم صنم من أصنام ثمود ورد في كتاباتهم هو الصنم (ود) . وهو من الالهة القديمة عند العرب^(٦٤) فان بقاء بعض التأثيرات لقرى قديمة امر وارد . فلا يستبعد ان ينكر عاد وثمود في الكتابات الثمودية التي فسرت على انها وجدت في عصور متأخرة من الممكن أن يكون انعكاس لآثار هذه القرى في ذاكرة القبائل القريبة ولا سيما اذا علمنا ان الاسلاميين من المفسرين واخباريين قد قسموا عاداً الى طهقتين . عاد الاولى ، وعاد الثانية ، استناداً الى آية في القرآن الكريم ﴿ وَاتَّهَ أَهْلُكَ عَاداً الْاُولَى وَثَمُودَ هَمَّا أَبْقَى ﴾^(٦٥) وقد فسر جرجي زيدان إشارة التوراة الى ان (هندوارم) من نسل قحطان . (وهذا التفسير للنسل لا يستقيم مع الروايات) بقوله « ولعل كاتب سفر الخليقة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن . فقال أنها من نسل قحطان ، لان مقام عاد في الاحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هندوارم أو هادارم ومقر نسله ولم يهتدوا الى شيء عنه مع انهم اهتموا الى اماكن أكثر أبناء قحطان وكلها بجوار الاحقاف . فعاد هي هندوارم في التوراة وأما ان يكون كاتب سفر الخليقة اراد تبيان القبائل التي سكنت اليمن وكلها ينتسب الى قحطان فرأى عادارم في جعلتها فجعله من اولاد قحطان وأما أن يكن بالحقيقة من نسل قحطان وهم العرب في نسبة الى آرام^(٦٦) أما بالنسبة لثمود فقد نكرنا ان القرآن الكريم قد حدد تتابع عصورهم بعد عصر عاد أما

(٦٣) التكوين / الاصحاح السادس / الآية لخبار الايام الاولى .

(٦٤) علي / د. جواد / م . ص / ص ٣٣١ .

(٦٥) سورة النجم / ٥٠ .

(٦٦) علي / د. جواد / م . ص / ص ٣٠٠ ينقل عن جرجي زيدان / الهلال الجزء الثالث

والمشرقون / السعة السادسة ١٨٩٠ م ص ٨٩٠ .

ما نكره الدكتور جواد علي من تقديم وتأخير في ذكر (عاد وثمود واصحاب الرس)^(٦٧) في معرض حديث القرآن عن هذه الاقوام فلا يعني شيئاً بالنسبة للتاريخ ، لان الآيات القرآنية صريحة في ترتيب عصورهم فقد ذكر هود لقومه ان الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح ونكر صالح قومه بأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم هود . وقد استشهدنا بالآيات سابقاً . وان الله سبحانه وتعالى عندما كان يقص علينا أبناء هؤلاء الانبياء وأقوامهم لم يكن هذا يعني بأن البشرية تمثلت في هذه المجموعة من البشر وقد أكدنا هذه الحقيقة وهي واضحة ضمن منهجية القرآن لكل متأمل ومتابع فان من آمن مع نوح كانوا قلة فكيف يتصور ان البشرية بعد كل عقوبة ذكرها القرآن قد فليت ثم تستعيد نشاطها من خلال القلة الباقية فهذا غير معقول وكذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن عقوبات الاقوام الاخرى وضع النص أن الإهلاك كان تاماً وشاملاً ولم يذكر اتباع الانبياء ونجاتهم كما في قوله تعالى ﴿ ولله اهلك عاداً الاولى وثمود فما ابقي ﴾^(٦٨) . فان هذه النصوص القرآنية تؤكد ان القرآن الكريم كان يعرض للقارىء حالة محدودة وبسكت عن النشاط البشري على الارض وإن هذا العرض لا يستلزم أن يكون كل مجموعة هي بقية الناجين من القوم الهالكين وإنه لا يوجد على الارض غيرهم فهذا تصور محدود يضيق المعاني التي يحويها النص القرآني . فقد بعث الله نوحاً في العراق وأعقبه يهود في اليمن وأعقبهم صالحاً في المدائن شمالي الجزيرة . فلا يشترط ان تكون هناك رابطة اجتماعية بين الانبياء في دعوتهم . فكما بعث الله عيسى في بني اسرائيل بعث الله تعالى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم جميعاً في العرب . وإن فكرة ارتباط الانبياء اجتماعياً او عرقياً واختصاصهم بقوم معينين فكرة يهودية حاولت ان تحصر الانبياء في بني اسرائيل فلما بُعث النبي محمد (ﷺ) الى العرب كفر اليهود وأنكروا بعثه وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ وكفوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾^(٦٩) . لذلك كان الله يبعث الانبياء من أقوامهم وكان هؤلاء الانبياء كثير وما قصه علينا القرآن قليل فكانت المجتمعات البشرية فيها انبياءها فما من أمة الا وفيها نبي يملأها الخير ويلنّزها سوء العاقبة . فعندما ننقل الى ثمود فان

(٦٧) علي / د. جواد / م . س / ج ١ ص ٢٢٢ .

(٦٨) سورة النجم / ٥٠ وما بعدها .

(٦٩) سورة البقرة / ٨٩ .

هذا لا يعني ان البشرية كانت ثمود فقط وانما انتقل القرآن الكريم ليتابع ويعرض لقارله أهم نبوة وأعظمها في العصر الذي يتحدث عنه القرآن . اذ من غير المعقول ان يترك القرآن الكريم نبوة او رسالة اعظم ويتحدث عن التي أقل شأناً منها . ونعود الى متابعة ما نذكره المستشرقون عن ثمود : فقد وجدوا اسم ثمود في النصوص الاشورية : وجده في نص من نصوص (سرجون الثاني) مع أسماء شعوب أخرى . وقد دعوا بـ (Tamudi) و (Thamudi)^(٧٠) . وكما ذكرنا فان ذكر ثمود في عصر سرجون الثاني لا يشترط ان يكون عصرهم او معاصرتهم لسرجون الثاني . فان هؤلاء الذين ورد ذكرهم بأنهم حاربوا سرجون الثاني قد يكون من نسل قبيلة اسمها ثمود وهم حتماً غير ثمود الاولى المذكورة في القرآن الكريم وقد أكد هذا د. جواد علي بقوله : « ولم يكن اولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة . بل لا بد ان يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم بعد قرون »^(٧١) .

المهم نحن تأكدنا من وجود اسم لقبيلة ثمود ولا نكفينا تحليلات المستشرقين لان القرآن الكريم قد أغنانا . وكفى بكتاب الله مصراً .

وقد ذكر الدكتور جواد علي نهاية ثمود وقد أخذنا من المستشرق (برو Brau) حيث يرى « أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة من ثوران البراكين أو هزات أرضية بدليل ورود كلمة (رجفة) وكلمة (صيحة) في القرآن الكريم وذلك محتمل جداً لان البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرارة »^(٧٢) وهذه القضية أود أن أقف عندها فان علماءنا تابعوا تحليلات المستشرقين وهذا امر مؤسف ، لان المستشرقين لا يمكن ان يفهموا تاريخنا كما نفهمه نحن ولو أراونا أن يفسروا لنا وقائع التاريخ فأنهم يفسرونها بمقالية غريبة عن تاريخنا وعقيدتنا حتى ولو كانوا صادقين او ملصفين . فان قضية العقوبات التي حلت بالاقوام التي عارضت الانبياء خاضعة لمفهوم ديني عقائدي وقد تحدثت عن هذا المفهوم عند التعرض للطوفان . وان ربط العقوبة وتفسيرها بموجب جيولوجية أو تحليلات خاضعة للعلم المادي يفقدها التأثير الذي أراده الله لكي تتأمل الاقوام والشعوب التي تأتي بعد الهالكين بالعقوبات فتعتبر وتتجنب المصير الذي أحاط بأولئك المكذبين ، لذا سنحاول أن نعمق هذا الشعور من

(٧٠) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / ج١ ص ٣٢٤ .

(٧١) علي / د. جواد / م . ص / ص ٣٢٦ .

(٧٢) علي / د. جواد / م . ص / ج١ ص ٣٣٢ .

خلال دراسة آثار وخرائب القرى الهالكة وشيء عظيم أن يتوصل علماء الآثار والجيولوجي الى تطابق في المعلومات عن مصير هذه القرى بين نتائج الدراسات والرواية القرآنية . ويذكر د. جواد علي كذلك قرى لوط التي كان مصيرها يشبه مصير عاد وثمود . وهي قرى « سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم التي تقع - على رأي كثير من علماء التوراة - في جنوب البحر الميت فقد لاقت هذه المدن وهي خمسة على سهل (دائرة الاربن) المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود »^(٧٣) . وقبل الانتقال من جزيرة العرب ونبواتها لابد أن نذكر رواية أوردها الدكتور جواد علي عن الأزرقي يقول فيها : « زعم الاخباريون أن هوداً (عليه السلام) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته وأنه ذهب مع من آمن به الى مكة . فقد ذهبوا الى أن عاش فيها أمداً ثم مات هناك فلقبره بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الانبياء »^(٧٤) . وهذا الخبر يؤكد لنا أن مكة كانت المكان الآمن ونقطة العودة بالنسبة للأنبياء بعد انتهاء مهمة النبي^(٧٥) . وهذا يتفق مع أهميتها كمركز ورمز للتوحيد الذي جاء به الانبياء جميعاً . وبعد هود وصالح يتوقف القرآن عن متابعة النبوات في جزيرة العرب وينقلنا الى مكان استعاد دوره وتركزت فيه الحركة والنشاط البشري حيث بدأ واضحاً ظهور دولة المدن وبدأ التاريخ يورثه الفعلية حيث مظاهر العمران والحضارة والكتابة ومفاهيم متطورة عن تنظيم المجتمع والدولة والعلاقات المختلفة لأوجه نشاط الإنسان على الأرض . ذلك المكان كان وادي الرافدين والعصر عصر إبراهيم (عليه السلام) . حيث شكلت الهجرات عاملاً مهماً في عوامل بناء مظاهر ذلك العصر . وهذه الهجرات هي هجرات متعاقبة خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب واستقرت هذه الحركة آلاف السنين في عملية تفاعل بين شعوب المنطقة . وكان العصر الذي سبق عصر الاستقرار والمنن عصرأ مطبوعاً بطابع الهجرة وممتلئاً

(٧٣) علي / د. جواد / م . س / ج ١ ص ٣٣٢ .

(٧٤) علي / د. جواد / م . س / ج ١ ص ٣١٣ باختصار من الأزرقي / اخبار مكة / ج ١ / ٣٠ وما بعدها طبعة بأرض .

(٧٥) في رواية عن النبي محمد (ﷺ) أنه قال : ما من نبي هرب من قومه الا هرب الى الكعبة يمد الله فيها حتى يموت . وقال (ﷺ) ان قبر هود وشعيب وصالح فيما بين زمزم والمقام وأن الكعبة قبر ثلثمائة نبي وما بين الركن الثاني الى الركن الاسود قبر سبعين نبياً . اظهر حول هذه الروايات : الهذلي / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعروف بابن الطائي / مختصر كتاب البلدان / ص ١٧

بالحركة وهو المفهوم الذي عرضه ابن خلدون في رسمه لمعامل تكوين الحضارات والدول فقد جعل البداوة والحركة قبل تكوين الدولة والاستقرار . وكانت هذه الهجرات نواة لتشكيل المجتمعات الحضرية المتطورة التي استقرت في الحواضر والمدن التي نشأت في الهلال الخصيب والدليل . والمعروف عن الاقوام التي بقيت في جزيرة العرب كانت ترتبط بالنسب فيما بينها وبقيت الانساب تلعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية في جزيرة العرب بينما ضعف تأثير النسب في المدن والحواضر ولذلك نجد ان القبائل العربية بقيت محافظة على نسبها الى ظهور الاسلام والبيعة النبوية الشريفة وبقي العرب المسلمون محافظين على شجرات الانساب اقتداءً بسنة المحافظة وحفظ شجرة نسب النبي محمد (ﷺ) ويذكر د. رضوان السيد أبياتاً شعرية للشاعر التقلبي الاخضر بن شهاب الذي توفي نحو ٥٥٠ م . تعبد وثيقة مهمة نقتطع بعضاً منها :

ويكز لها ظهر العراق وان تشا
يُخلّ بونها من اليمامة حاجب
ومصارت تميم بين قفٍّ ورملة
لها من حبال منقاي ومذاهب
وكلب لها خبث فرملة عالج
الى الحيرة الرجلاء حيث تحارب
وغارت أباد في السواد وبونها
برازق عُجم تبثلي من تغارب
ولخم ملوك الناس يُجيب إليهم
إذا قال منهم قائل فهو واجب^(٣٦)

وفي هذه الابيات صورة للواقع المعاصر للشاعر فيه حالة العرب وقبائلهم ونفوذهم في الاماكن التي ذكرها النص الشعري . وهذا يؤكد بقاء سطوة القبائل حتى القرن السادس الميلادي وقد ذكرنا ان احد الاهداف الرئيسية لكل نبي هو بناء أمة تقيم شعائر التوحيد وتخضع لسلطان الله ولكن بناء هذه الامة لا يتعارض مع الواقع

(٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ١٩ يأخذ هذه الابيات من المخطوطات ص ٢٠٢-٢٠٦ والحمامة ١ / ٢٥٨-٢٦٢ .

الاجتماعي فالديني لا يلغي الوضع الاجتماعي وانما يضعه في إطار خدمة اهداف دعوته . وقد قرأ القرآن الكريم هذه الحقيقة في نص يعترف فيه بوجود اختلافات في البناء الاجتماعي ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ ان اكرمكم عند الله اتقاكم^(٧٧) وفي رواية منسوبة الى سيدنا عمر بن الخطاب : ان الشعوب الشعاب والقبائل العرب^(٧٨) .

الشعوب في المفهوم الاسلامي تعني الاقوام خارج جزيرة العرب او كل من لا يرتبط بالانساب والقبائل لان القبائل تعني العرب وقد بقي العرب كما تعرفنا من خلال الوثيقة الشعرية بقي هؤلاء يرتبطون بالانساب . حتى اولئك الذين خرجوا من الجزيرة واستقروا في بلاد الرافدين ووادي النيل وأرض الشام . وبقيت هذه الاقوام تتفاعل هجرة وحركة في اتجاهات عديدة وشكلت نواة النشاط البشري ومركزه وكانت هذه المساحة مسرح الانيان الثلاثة الكبرى على ارضها كانت النبوات والحضارات . ويقول د. سوسة عن هذا المفهوم : (وكان وادي الرافدين امتداداً لجزيرة العرب . بل كان جزءاً لا يتجزأ منها فكان الموئل الرئيس الذي أسست على ضفافه المستوطنات الزراعية . فأسس الأكديون والعموريون والبابليون والآراميون وكلهم اصلهم من جزيرة العرب أولى مستوطناتهم فيه . ومن الامثال المعروفة في بادية العراق قولهم (نجد أم والعراق داية) والمقصود ارتباط نجد بوادي الرافدين . وكان النظام القبلي الذي يستند الى العادات والعرف والتقاليد المتوارثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد . اذ كانت تمتد سلطة رؤساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وافخاذها اينما وجدت . ويؤكد الاستاذ موسكاتي ذلك فيقول : (ان المناطق الثلاث الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين كلها تكون وحدة جغرافية مترابطة الاجزاء كانت في تلك الازمان مسرحاً رئيساً للنشاط البشري^(٧٩) . والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفة امام اهل الجزيرة العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغل في جميع انحاءها من جميع الجهات وهكذا فقد انصببت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش^(٨٠) .

(٧٧) سورة الحجرات / ١٣ .

(٧٨) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ٢٧ .

(٧٩) سورة / د. احمد / ملخص العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٢١ ياخذ من

ويكاد المؤرخون المحدثون المستشرقون والقريبون والعرب المعاصرون يجمعون على تقسيم أربع هجرات رئيسية قلمت من جزيرة العرب نحو بلاد الرافدين على مدى تقريبي يقدر بالفي عام وهذه الهجرات نضعها بحسب قدمها في التاريخ وكما يأتي^(٨٠) :-

١ الاكديون : وهم أقدم من هاجر من الجزيرة الى بلاد الرافدين وقد سبقتهم اقوام أخرى هاجرت الى فلسطين وسوريا والارن ولكن بالنسبة للاكديين كانوا اول من وطىء بلاد وادي الرافدين بحدود الالف الرابع ق . م . وقد أسس الاكديون أقدم إمبراطورية وأعظمها في تاريخ الحضارة الانسانية التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين ق . م . ذكرت اسطورة بأن ولادة سرجون الاكدي قد حدثت وسط ظروف غير اعتيادية وأنه قد ولد نتيجة طقس للزواج وامه كاهنة وتشير الاسطورة الى ان التعاليم تفرض ان الطفل الذي يولد من هذا الزواج يرتفع الى مرتبة الآلهة وان الملك الذي كان موجوداً سوف يقتل هذا الطفل فتلقيه امه في الفرات ويلتقطه الساقى (اقي) . وهذه الاسطورة تذكرنا بقصة موسى (عليه السلام) . وفيما يبدو ان الذي ألف هذه الاسطورة لابد انه قد أخذها من اليهود وكهنتهم الذين كانوا موجودين في بلاد وادي الرافدين بعد السبي البابلي ولا سيما إذا علمنا أن نص هذه الاسطورة من النصوص التي « أعيد استنساخها في غضون العصر الاشوري الحديث في حدود القرن السابع قبل الميلاد . وتم استنساخ هذا النص من بين النصوص الاكديّة الكثيرة »^(٨١) التي أعيدت كتابتها وصياغتها وهذا يؤكد تأثر وتفاعل حضارات وادي الرافدين مع النصوص التوراتية وقد أخذ كل منهما من الآخر .

٢ - الكنعانيون : وهم أقدم الاقوام الذين استقروا في فلسطين وسوريا في حدود الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد وبضمنهم الفينيقيون الذين استوطنوا المناطق الساحلية . ويشمل الكنعانيون كذلك الاموريين الذين استوطنوا

→ Moscati, «Ancient Semitic Civilization» London 1957 pp 13,21,108

(٨٠) انظر علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٩ - ٦٠ . انظر

كذلك سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٠١ - ٢٤٤

(٨١) رشيد / د . فوزي / سرجون الاكدي أول امبراطور في العالم / ص ١٧ وما بعدها .

المناطق الشرقية من بلاد الشام ووادي الرافدين وقد ورد إسم الاموريين في النصوص السومرية بصيغة « مارتو » والنصوص البابلية بصيغة (أمورو) وتعلي الصيغتان السومرية والبابلية (الغرب)^(٨١) وهذا يعني انهم بالنسبة للمراقبين جاءوا من الغرب . وقد تمكن الاموريون من تأسيس سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق.م .) واستطاعوا مع الاكديين فيما بعد إقامة سلالات حكمت مناطق عديدة في بلاد وادي الرافدين .

٣ - الاراميون : استوطن هؤلاء الهلال الخصيب في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد وأقاموا دويلات عديدة في شمال سوريا وفي مناطق الجزيرة في (ما بين النهرين) ومن هؤلاء الكلدانيون الذين أقاموا دولة قوية في العراق أسسها نبوخذ نصر في عام ٦٢٦ ق.م . استمرت حتى عام (٥٣٩ ق.م .) .

٤ - المجموعات الاخيرة من القبائل التي خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب وأسسوا دول المانثرة والفساسنة في العراق وسوريا : وقد ورنه أخبار عنهم في كتابات الملوك الاشوريين واستمرت عملية تدفق المجموعات البشرية وتفاعلها بين الهلال الخصيب وجزيرة العرب . وان حركة الهجرة هذه لم تكن مقتصرة على جزيرة العرب والخروج منها باتجاه الهلال الخصيب . بل ان الاختراقات والمداهمات التي كانت تحدث بين بلاد وادي الرافدين وفلسطين وبين من كان موجوداً على ارض فلسطين ومصر كثيرة فقد سجلت لنا الواح الطين وكتابات البردي عمليات كز وفز وبناء أسوار وسيطرة وتغيير أوضاع وسلب ونهب وأحداث كثيرة كانت تموج بها المنطقة التي كانت مرشحة لان تلعب اعظم ادوار التاريخ مع الانبياء . ولذلك نحن نرفض جعل الفتح الاسلامي وتحرير العراق وبلاد الشام ووادي النيل امتداداً لعمليات الهجرة التي كانت تحدث^(٨٢) . لان الفتح الاسلامي كان يعبر عن قيم رسالية واعتبارات دينية وليس البحث عن عيش وارزاق أو اراض خصبه وأنهار عذبة

(٨٢) رشيد / د. فوري / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / ص ١٠ وما بعدها .

(٨٣) لقد وقع في هذا التفسير الخاطئ مع الاسف الشديد كل الذين استرسلوا في الحديث عن الهجرات القديمة والحلوا بها عملية الفتح الاسلامي . وهذا من الاخطاء المنهجية والاختلافات الجوهرية بين النظرة الاسلامية للتاريخ والنظرة المتأثرة بالكتابات الغربية .

وبساتين وأرفة ولم يخرج العرب المسلمون من جزيرتهم بسبب الجوع والحاجة وإنما لتحرير الانسان ونشر التوحيد . وقد اكدت لنا وثيقة تاريخية هذه الحقيقة عندما حاور رستم اعضاء الوفد الاسلامي قبيل المواجهة العسكرية فقد سأل رستم المغيرة بن شعبة عن سبب خروجهم من الجزيرة هل كان بسبب الجوع ؟ فاجاب المغيرة بن شعبة : لا لقد كان هذا من قبل . أما الآن فان الله قد أمرنا بالخروج لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله الواحد الاحد^(٨٤) .

والملاحظ على الهجرات التي خرجت من ارض الجزيرة في العصور القديمة أنها تخلت عن ارتباطاتها الصحراوية وحياتها القبلية وأنشأت مجتمعات ومستقرات مدنية أنتسبت اليها هذه القبائل فجدت تسميات قبائل العرب البائدة والعاربة مثل طسم وجديس واميم وجرهم وقحطان ومعد وعدنان . ونجد ان هذه التسميات قد اختفت وحل محلها الانتساب الى المدن والاماكن التي استقر فيها هؤلاء القادمون وأنشأوا عليها حواضرهم . فظهرت اسماء مرتبطة بمناطق السكن لهذه القبائل مثل : البابليون والاكثيون والاشوريون والاموريون التي تعني القادمين من الغرب . وهؤلاء كلهم يربطون بجنور لغوية تعود الى أصول لغة واحدة والتي تفرعت الى لغات هؤلاء الاقوام ثم تقاربت فيما بعد لتشكل اللغة العربية الصريحة او بالاحرى يمكن القول بان العربية التي بقيت في الجزيرة قد زحفت وقضت على اللغات الاخرى التي تهبط معها في الاصول .

لقد اكدنا في الصفحات السابقة ان تسمية السامية تسمية غير علمية ومبينة على أساس اسطوري لم يأت اي دليل على وجوده في التاريخ الا من التوراة وقد حاول اليهود لتأصيل هذه النظرية وهي (السامية) وجندوا لنصرتها وتبنيها كل وسائلهم وحاربوا كل من يمس هذه العقيدة وعاش المفكرون في اوروبا في العصر الحديث نوعاً من الارهاب الفكري عندما يحللون او يحاولون ان يطرحوا آراء تدعو الى التخلي عن هذا الوهم السامي ويحاول اليهود ان يعبروا من خلال هذه النظرية عن قضيتين هما أساس وجودهم في فلسطين وبها تين القضيتين اقنعوا العالم الغربي واضطروه للتسليم بمقيدة التوراة وشعب الله المختار . وهاتان القضيتان :

(٨٤) انظر العمري / د . اكرم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / ج ١ ص ٢٤ / مكتبة الطبع

والحكم / المدينة المنورة / ١٩٩٢ م .

١ - ان الشعب الوحيد الذي ينتمي الى الشعوب السامية المرتبطة بـ (سام بن نوح) ويحمل الدم النقي والعرق الذي لا تشوبه شائبة الاختلاط بين شعوب المنطقة هم اليهود .

٢ - اللغة الوحيدة التي حفظت ولم تتدرس من اللغات السامية هي اللغة العبرية . على اعتبار ان العربية الفصحى لغة مفترضة . ولذلك لابد من تشجيع العامية وان تكون (اللغة المكتوبة هي المملوطة)^(٨٥) .

ومن الحقائق المعروفة اليوم بان وجود العراق النقي وهماً من الاوهام « وفيما يتعلق بالاغراض الاجتماعية العلمية ليس (العراق) ظاهرة بيولوجية بقدر ما هو اسطورة اجتماعية . وقد ولدت اسطورة (العراق) هذه قدراً كبيراً من الاضرار الانسانية والاجتماعية »^(٨٦) .

اما بالنسبة للغة فنحن نعلم محاولات عديدة قام بها علماء في الانثروبولوجي والفيلولوجي وعلماء من الآثار والتاريخ القديم حاول هؤلاء الخروج من هذه التسمية (السامية) ولكنهم لم يفلحوا وتراجعت محاولاتهم وبقيت السامية هي التسمية الطاغية على كل المحاولات . ويبدو ان الباحثين العرب قد استحسنوا هذه التسمية . وهذا الاستحسان قائم على اساس نفسي غير دقيق وغير علمي وجبراً وراء التيار الذي اوجده اليهود . فها هو الدكتور رمضان عبدالقواب وهو رجل عالم معروف لا نشك في سلامة نيته ولكنه وجد نفسه مقتنعاً ومستسهلاً هذه التسمية وذلك في قوله : « وهذه التسمية مختصرة ومناسبة » وكما هو الواجب من التسميات الاصطلاحية »^(٨٧) ولكن اذا كانت التسمية المختصرة تستقبل لاغراض غير علمية فلا بد من الاعراض عنها واستبدالها بتسمية تبتعد عن هذه الاغراض . وقد طرح بعض العلماء المعاصرين مصطلح (الجزيريين) كبديل عن الساميين^(٨٨) ولكن هذا المصطلح لم يكتب له الشيعر وبقي محدود الانتشار . والمعروف ان اول من اطلق

(٨٥) صبحي / صبحي القوين / ملاحج الشخصية العربية في التيار الفكري المعاصر للامة العربية / ص (ج) الصفحة .

(٨٦) سولتاني / القديري / المصنعي العلمي للخطوة الفكرية العراقية ترجمة للمقدم حسن احمد بهنام / ص ٢٢٢ .

(٨٧) عبدالقواب // د . دكتور // الفصل في لغة العربية // ص ٧٥ =

(٨٨) القادر علي / د . طائفل عطاولاوند / مع الولوج سحر الى التاريخ / ص ٥٠ وما بعدها .

(السامية) هو العالم الالمانى شلوتسر « وقد اخذها من جدول تقسيم الشبيب الموجود في التوراة . ذلك الجدول الذي يرجع كل الشعوب التي عمرت الارض بعد طوفان نوح الى اولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافت »^(٨٩) ولكننا عرضنا تسمية ترتبط بتاريخ المنطقة ولها جنور حقيقية اقراها القرآن الكريم وتتفق مع جوانب مما في التوراة . هذه التسمية هي « الابراهيمية » نسبة الى ابراهيم (عليه السلام) ونحن ندرس عصره ونتعرف على ملامح هذا العصر اذ برزت في المنطقة بدايات الحضارات والدول وتأسست قواعد الحضارات الانسانية وقيم وأخلاق وعقائد تكرم الانسان وتفوقه على الوجود غير البشري على الارض من حيواني ونباتي وغيرهما . ان اطلاق الابراهيمية بدل السامية تكرم لنكرى النبي الكريم (ابو الانبياء) وتكرم للامة التي ارتبطت به وهي الامة الاسلامية التي كان العرب نواتها . ولنا من الاسباب التي تجعلنا نؤمن بهذه التسمية ودعوى الى تعميمها وتاصيلها وتشبيتها . ومن هذه الاسباب :

١ - قوله تعالى ﴿ ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾^(٩٠) . ان التاريخ بدأ بإبراهيم وهذه البداية تقابل البداية التي يضمها علماء التاريخ القديم للتاريخ الذي بدأ بالكتابة . وان الله سبحانه وتعالى نكر في القرآن الكريم انه أنزل صحفاً على ابراهيم وهذه الصحف تعني ان الكتابة كانت معروفة وموجودة في عصره . قال تعالى ﴿ ان هذا لفي الصحف الاولى صحف ابراهيم وموسى ﴾^(٩١) . لذلك لا بد أن نجعل انتماء هذه الامة الى البداية الكريمة المعروفة لا الى بداية ملتحلة ليس هناك دليل على صحتها وقد ربط القرآن الكريم هذه الامة ونبيها بإبراهيم ليجعل لهذه الامة الشهيدة على الامم بداية واضحة المعالم كريمة الاصول أبوها أبو الانبياء .

٢ - ربط النبي محمد (ﷺ) هذه الامة بإبراهيم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : كان رسول الله (ﷺ) يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ إسماعيل وإسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان

(٨٩) انظر عبدالنواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية / ص ٢٥ .

(٩٠) سورة آل عمران / ٦٨ .

(٩١) سورة الاعلى / ١٨ - ١٩ .

وهامة ومن كل عين لامة»^(٩٢) وفي البخاري ايضاً عن ابي هريرة موقوفاً فيما يذكره عن هاجر المصرية ويذكر خبر محاولة فرعون الاعتداء على سارة فلما منعه الله منها أعادها الى زوجها إبراهيم وأخضعها هاجر . فقال ابو هريرة رضي الله عنه عن هاجر : فتلك أمكم يا بني ماء السماء»^(٩٣) وهذه إشارة الى أن أهل مصر أخرجهم الحديث من العرب وجعل العراقيين من العرب لأن إبراهيم ابا العرب كان عراقياً . فاذا كانت هاجر المصرية ام العرب فيحق لنا أن نقول : إن (إبراهيم العراقي ابو العرب) . وقد ذكر رسول الله (ﷺ) هذه الرحم للمصريين عندما قال « اذا استفتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فاني لهم صهراً »^(٩٤) وفي رواية « أن لهم رحم » . إشارة الى مارية القبطية . ان تصورنا اللغة بحسب المفهوم الديني بدأ بـ (أم) وفي عصر أم كانت اللغة بدائية تتوأم مع البيئة والحاجة وهذا التحديد لعصر اللغة يستند الى قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ وبذلك أوجد الله في أم القابلية والاستعداد على تعلم اللغات كلها وما يمكن ان تتطور اليه . وان اصل اللغة يتحد بموجب الآية السابقة توقيفي اي ان الله تعالى قد خلق في الانسان امكانية النطق وغرز فيه الاستعداد وبدأت عند أم (عليه السلام) عندما نطق بأسماء الاشياء أمام الملائكة . ولكن هذه اللغات البدائية التي بدأت عند أم سارت في خطوط تطويرية تطورت فيها اللغة الام الى لغات أساسية قسمها العلماء على ثلاثة أقسام « وأشهر نظرية قسمت اللغات على فصائل هي نظرية ماكس مولر (Max Muller) الذي يجعل اللغات كلها ثلاث فصائل : الهندية الاوربية ، والسامية الحامية ، والطورانية . وقد انتهى علماء اللغة الى القول بضرورة توافر شروط معينة يمكن القول بين لغتين تنتميان الى فصيلة لغوية ما »^(٩٥) « وقد حدد الدكتور سميح هذه الشروط الثلاثة وهي على نحو الآتي :

-
- (٩٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٥
(٩٣) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٧ . وقد تكون هذه العبارة حديث نبوي شريف ولكن الرواية موقوفة على ابي هريرة .
(٩٤) الهذلي / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعريف بإبن الفقيه / مختصر كتاب البلدان / ص ٩٥ .
(٩٥) أبو مفلي / د . سمح / في فقه اللغة وقضايا عربية / ص ٢٢٠

١ - التشابه بين النظم الصوتية .

٢ - التشابه بين النظم الصرفية .

٣ - خضوع الاختلافات بين النظم الصوتية والصرفية لقواعد مطردة .

وقد قال بتطور اللغات علماء اللغة المسلمون الأوائل مثل ابن جني الذي يقول في الخصائص عن أصل اللغة : « باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح : هذا موضع محوج الى فضل تأمل . غير ان أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي (وتوقيف) الا ان أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ أَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة وهذا رأي ابي الحسن . على انه لم يمنع قول من قال : انها تواضع منه (أي آدم) على انه قد فسر هذا بأن قيل : ان الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات وعلق كل منهم بلفظ من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحلت عنه ما سواها لبعد عهدهم بها »^(٩٦) . ويذكر ابن جني بانه « متردد بين التوقيف والتواضع »^(٩٧) بعد عصر آدم حيث كانت الهجرة والانتقال طابع عصور ما قبل التاريخ وكان التفاعل بين الجنس البشري يتصاعد فيطور قابليات البشر ويحسن ظروف عيشه . وقد اتسمت هذه العصور بصفتين أساسيتين وهما : الانعزال ويحدث الانعزال بعد تجمع المجتمع واستقراره وذلك بسبب صعوبة المواصلات . والصفة الثانية التحول وقد ذكر ذلك أشيلي حيث ذكر « إن الانسان قد تطور على وفق الخطوط الآتية : جماعات منعزلة نسبياً تتمايز بصورة مبكرة وتتحوّل تكيفاً مع بيئتها الى اعراق جغرافية واضحة المعالم يلي ذلك فيما بعد تزاوج (تهجين) ينشأ عنه اتحاد الجسيمات الوراثية (المورثات) اتحاداً جديداً بصور كثيرة جداً »^(٩٨) وقد كان العراق مهداً لتكوين مجموعات بشرية منذ القدم ومع بداية ظهور الانسان العاقل بل ان العراق كان مقراً او موئلاً او احد المستقرات المهمة لانسان نياندرتال لان الظروف كانت مناسبة لتكوين تاريخ ثقافي للمجتمع العراقي

(٩٦) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / ج ١ ص ٤١ - ٤٢ .

(٩٧) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / ج ١ ص ٤٨ .

(٩٨) مونتاغيو / اشيلي / الحضي العلمي لاسطورة التلوق المرق / ص ٣٠ .

القديم وهذا التاريخ لتطور عملية الانسان هو التفسير الملائم لوجود ارض حضارة على الارض كانت على ارض العراق وكان التفاعل بين القادمين الى العراق والمستقرين على ارضه قبلهم يولد حالة « امتصاص للعرق » وهو « اندماج جماعة سلالية في جماعة سلالية أخرى بشكل يجعل الجماعة المندمجة تختفي من بون ان تحدث اي تبديلات جسمية ملحوظة في مظهر الجماعة السلالية التي اندمجت فيها . ومن الامثلة على اول نوع من الانطفاء الذي نملك عنه شواهد ذات دلالة . نوبان الجماعات السلالية في عصور ما قبل التاريخ الذي يعتقد بعض العلماء انه حدث في الشرق الأدنى مثلاً . ولا تزال عملية النوبان هذه مستمرة حتى في عصرنا الحاضر الى جانب عملية الامتصاص . ويبدو ان امتصاص اناس من نمطنا نحن لانسان نياندرتال هو حقيقة حدثت فعلاً^(٩٩) ولذلك في عصر نوح حيث بدايات تكون المجتمعات القروية ثم ظهور السومريين في العراق وقيام الاكديين وما بعد هذه الاحداث يمكن ان توضع تحت هذا العنوان ، فقد حدثت عمليات تنويع وامتصاص وتفاعل لغوي ادى الى اختفاء السومريين ولغتهم وظهور الاكديين ولغتهم وحدث الامر نفسه مع البابليين وظهورهم في العراق وتفاعلهم مع الاكديين الذي ينتمون معهم الى سلالة واحدة ويشاركون معهم في اصول لغوية متقاربة . وتبلور في الالف الثاني قبل الميلاد هيكل متكامل حضارياً ولغوياً واجتماعياً تمثل في أنظمة الحكم لعصر فجر السلالات وتمثل في شرائع عبرت عن مستوى راقٍ لواقع اجتماعي متطور يخضع لضوابط القانون والتزاماته وفي قمة هذا العصر وتطوره ظهر ابو الانبياء (ابراهيم عليه السلام) . ظهر لكي يوضح معالم الطريق التي بدأها آدم وتواصل معها نوح عليهم السلام . وعن شخصيته ومعالمها توقف القرآن كثيراً ولذلك سنتوقف مع شخصية هذا النبي الكريم من خلال نصوص القرآن الكريم .

المبحث الثاني

إبراهيم (عليه السلام) في نصوص القرآن الكريم والآحاديث النبوية

لقد امتاز النص القرآني عن غيره في حديثه عن الواقعة التاريخية وتصديه للحدث التاريخي . ان النص القرآني يجرد الحديث من الملابسات المكانية والزمانية والشخصية ويتحدث عن الفعل المجرد ويمنح الفعل حركة وفاعلية تتجاوز الزمان والمكان والاشخاص . وقد أكدنا هذه الحقيقة في حديثنا عن المعالجات التي تعرضنا لها في محاولة لربط النص القرآني بالتاريخ . وتبدو هذه القضية اكثر وضوحاً عند حديثنا عن شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

ولادته ونشأته :

لم يتحدث القرآن الكريم عن ولادة إبراهيم (عليه السلام) ولكن اول نص يطالعنا حول حوار حصل بين إبراهيم وأبيه يخبره بأنه قد أوحى اليه وأنه اختير نبياً ويحذر أباه من عبادة الاصنام واتباع الشيطان ويبدو ان هذا النص يعبر عن بداية

الوحي لإبراهيم^(١٠٠) وفي نصوص أخرى تصدت لهذا الحوار الذي وقع بين إبراهيم وأبيه ففي سورة الانعام نجد في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَتَعْبَدُ أَصْنَامًا إِلَّا هُوَ ۚ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ ﴾^(١٠١) وقد يكون هذا حوار آخر حصل بين إبراهيم وأبيه لأن الأسلوب الذي اتبعه إبراهيم هنا يختلف حيث تبدو المواجهة قد وقعت وإن إبراهيم (عليه السلام) قد استبدل أسلوب الود والمواذعة بأسلوب التعديف والتسفيه لمقائد القوم وأبيه . ولكن هناك مسألة أثارت جدلاً بين المؤرخين والمفسرين الاسلاميين . فالنص القرآني يحدد اسم ابي إبراهيم بـ (أزد) وقد ذكر ابن كثير « أن جمهور أهل النسب منهم ابن عباس على أن اسم ابيه (تارح) وأهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقليل ان لُقّب بصلم كان يعبد اسم ابيه أزد . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه أزد ولملّ له اسمان علما او احدهما لقب والآخر علم . وهذا الذي قاله محتمل والله اعلم »^(١٠٢) وينكر العقاد تفسيراً لهذه الحال فيقول : « فإذا نُسب إبراهيم الى آشور فمن الجائز جداً ان يكون تارح وأزد لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم علماً على رجل أم على الجد القديم الذي تنتسب اليه أمة آشور وكثيراً ما انتسب القوم الى اسم جد قديم كما يقال في التسمية الى عدنان وقحطان . ونظرة واحدة في كتابة اسم آشور ونطقها الى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة . فقد كتبت آشور تارة أزر وتارة آشور وتارة آشور بالسين . ولا يخفى ان اللغات السامية لم تكن تكتب لها حروف علة الى زمن قريب . وان الاغريق الذين اطلقوا اسم (آشورية) على وطن إبراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ولهذا تنطق سيرية بالياء في اللغات الاوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية ولا يخفى كذلك ان كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالخاء . فانا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويل آشور وأتير الى تيرأ وتيرح ومركى هذا انه (أزد) هي النطق الصحيح الذي عرفه به اسم لسور القديم ولئن تيرا وتيرح هي نطق الذين

(١٠٠) انظر الآيات ٤٦-٤٨ من سورة مريم وهي تسجل هذا الحوار .

(١٠١) سورة الانعام / ٧٤ -

(١٠٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٢ .

يكتبونها اتيرة واتيرج وينطقونه بكلمة آشور بين الواو والياء «^(١٠٢)». ومن خلال عرض القرآن الكريم لمراحل دعوة إبراهيم (عليه السلام) تؤكد النصوص إنه عرض دعوته في بيئتين البيئة الاولى عندما دعا آباءه الى التخلص من عبادة الاصنام وهذا يعني انها بيئة تعبد الاصنام وقد تفتشت فيها هذه العبادة حتى دخلت البيوت والمعابد وعمد الناس الى هذه الاصنام عاكفين على عبادتها . وهذه البيئة هي البيئة الاولى التي نشأ فيها إبراهيم وترعرع . والبيئة الثانية كانت فيها عبادة الكواكب . وقد عرض القرآن الكريم في نص أسلوباً مارسه إبراهيم (عليه السلام) في تنفيذ عقيدة عبادة الكواكب وبطريقة غير مباشرة وهذه من تعليم الله له فقد آتاه الله حجة على قومه في البيئة الاولى عندما عمد الى الاصنام فكسرها ووضع الفأس بيد كبيرها وعندما سأل قومه قال لهم اسألوا اكابرهم ان كانوا ينطقون ؟! فنكس القوم وأضحوا . وهنا يتمرض الى عقيدة عبادة الكواكب فيقول لقومه انه سوف يعبد هذا النجم البازغ « وقيل هو الزهرة ثم ترقى الى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حصلها ثم ترقى الى الشمس التي هي أضوأ الاجرام المُشَاهَذَة ضياءً وحسناً فبين إنها مسخرة مسخرة مقننة مربية . ولهذا قال ﴿ فلما رأى الشمس بازغة . قال هذا ربي هذا اكبر فلما أظلت قال يا قوم اتبعوني برأيي مما تشركون ﴾ اتى وجهه وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً . وما أنا من المشركين وحاجته قومه قال اتعاجوني في الله وقد هان ولاخلاف ما تشركون به إلا لن يشاة ربي شيئا ﴾^(١٠٣) والظاهر ان موعظته هذه في الكواكب لاهل حوران . فانهم كانوا يعبدونها وقد ذكر ابن اسحاق وغيره ان هذا كان حين خرج من السرب لما كان صغيراً . وهو مستند الى اخبار اسرائيلية لا يؤتق بها . أما اهل بابل فكانوا يعبدون الاصنام . وهم الذين ناهضهم في عبادتهم وكسرها عليهم «^(١٠٤)» .

وفي بابل كانت المواجهة الاولى وكانت اكثر قصوة وضراوة حيث كانت بابل اقدم مدن العالم وذات تاريخ عريق وفيها نظام سياسي مركزي يقف على رأسه الملك الذي تحدى إبراهيم . وينكر النص القرآني ان هذا الملك جاء يحاجج إبراهيم بعد ان فند إبراهيم (عليه السلام) عقائد القوم وملك الحجة على قومه في إبطال عقيدة عبادة

(١٠٣) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٠٤) سورة الانعام / ٧٨ - ٨٠ .

(١٠٥) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٣ .

الاصنام وزيفها . هذه العبادة الوثنية التي صانت العالم في تلك الحضر وعصور قبله فبعت الله إبراهيم لتحطيم هذه القاعدة التي بناها الشيطان ليُضِلَّ الانسان على الارض . ولكن هذه القاعدة التي كان الكهنة يديرونها ويثبثون ضلالاتها على العالم كانت معهم سلطة سياسية التقت مصالحها مع الكهنة فكان حلفاً استراتيجياً بين الكهنة والملوك . حتى صوّر الكهنة إن هذا النظام الملكي قد هبط من السماء ليحكم الناس^(١٠٦) . وقد مدحت الالهة الملوك حقاً في التحكم في مصائر العباد . ولذلك لكر النص القرآني ان الملك الذي حاج إبراهيم (عليه السلام) قد (اتاه الله الملك) أي مكن له وانعم عليه بأن جعله ملكاً من خلال تسخير الامور وجريان المقادير لكي يتسلم هذا الانسان الملوكية . ولكن هذا الانسان نسي هذه الحقيقة فاعلن بجبروته بعد ان نكره إبراهيم (عليه السلام) بقدرة الله على الاحياء والاياد من العدم والاماتة . هذه الحقيقة التي لو تأملها هذا الملك لاستعاد وعيه وعرف قدره ولكنه قال بصلف وغرور : ﴿ انا احيي وأميت ﴾^(١٠٧) فقال له إبراهيم فإن الله يفتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر • والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾^(١٠٨) وهذه الحقيقة التي اوجدها الله في النظام الكوني وهي خروج الشمس من المشرق هي التي حطمت عقيدة الملوكية التي هبطت من السماء عندما عجز الملك ان يغير هذا الناموس ونهت الذي كفر . في هذه المناظرة أعلن إبراهيم عن حقيقة نعوته وعن موقفه من الملك ويبدو ان المعركة مع الوثنية قد اشتدت وأعلن إبراهيم (عليه السلام) عداوته للملك والكهنة والوثنية وأعلن إبراهيم عن هذه العداوة في نصوص قرآنية منها قوله تعالى عن حكاية عنه ﴿ اهلأيت ما كنتم تعملون • انتم وأهلأولكم الألفيمون • فاتهم عنو لي الا رب العالمين ﴾^(١٠٩) . وفي هذا النص يكشف إبراهيم عن حقيقة تاريخية وهي ان عبادة الاصنام عميقة في التاريخ فقد كان الآباء الاقزامون اي الاجيال القديمة ، كانت تعبد هذه الاصنام لذلك نجد ان حفريات المراق في الطبقات الاولى منها وأقنمها لم تكن تخلو من أصنام من الطين

(١٠٦) اظهر مصادر التاريخ القديم حيث اجمعت ان عقيدة المراقبين القدماء (ان الملوكية

هبطت من السماء) .

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٨) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٩) سورة الشعراء / ٧٥ - ٧٧ .

وقد عثر في طبقات مختلفة على أصنام هائلة في حفريات العراق^(١١٠) . ونص قرآني آخر يعبر عن عداء إبراهيم (عليه السلام) لهذه الاصنام بقوله تعالى ﴿ وَتَالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾^(١١١) « وكان لهم عيد يذهبون اليه في كل عام مرة الى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم كما قال الله تعالى ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم ﴾^(١١٢) . عرض لهم في الكلام حتى توصل الى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق . ويطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام التي تستحق ان تكسر وان تهان غاية الإهانة »^(١١٣) . فكانت حادثة تكسير الاصنام تعبر عن تفاهة هذه الالهة وكانت طريقة ذكية في تمهيد قدسية هذه الاصنام في نفوس القوم . ولكنهم ارتكسوا ونكسوا على رؤوسهم وأعللوا حربهم ضد إبراهيم وبيته و ﴿ قالوا حرلوه واتصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فلنا يا ناز كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ﴿^(١١٤) .

فكانت حادثة تحريق إبراهيم علامة بارزة في تاريخ البشرية عبرت عن كفر القوم وحقدتهم على التوحيد والدين الذي جاء به إبراهيم وقد كان قرار حرق إبراهيم (عليه السلام) من الكهنة وفننه الملك من خلال تنسيق وتهئية شعبية قام بها عندما استنقوا القوم والشعب على إبراهيم بقولهم (انصروا آلهتكم) وتمت العملية باقامة بناء كما في قوله تعالى ﴿ قالوا ابتوا له بيتاً فاتقوه في الجحيم ﴾ فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴿^(١١٥) هذا البناء الضخم الذي وضعوا به الحطب الكثير كما قال ابن كثير « ان المرأة منهم إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا الى حوية (حاوية) عظيمة فوضعوا فيها تلك الحطب وأطلقوا فيه النار . فاضطرب وتأججت والتهبت وعلا شرار فيها لم يُر مثله قط »^(١١٦) بعد ان

(١١٠) انظر مالون / ماكس / مذكرات مالون / يذكر عن التنقيبات في مواقع عديدة وعثوره مع

مستر ويلي على اعداد هائلة من الاصنام .

(١١١) سورة الانبياء / ٥٧ .

(١١٢) سورة الصافات / ٨٨ - ٨٩ .

(١١٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٦

(١١٤) سورة الانبياء / ٦٨ - ٧٠ .

(١١٥) سورة الصافات / ٩٧ - ٩٨ .

(١١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٩ . انظر فقرة الشرائع القديمة فيما يأتي وكيف

نجّاه الله من خلال المعجزة التي تحدث عنها القرآن وهي ابطال خاصية الحريق في النار وجعلها (برداً وسلاماً) وهو برد لا يؤذي ، سالم من الاذى رأى إبراهيم ان لا مقام له في العراق بعد ان وصلت الامور الى ما وصلت اليه فقرّر الهجرة فهاجر هو ومن آمن معه وكان معه من المؤمنين به ابن اخيه لوط (عليه السلام) الذي بعثه الله نبياً الى سدوم والقرى القريبة منها في فلسطين وكان على اتصال مستمر بإبراهيم (عليه السلام) كما اشارت الايات الى ذلك بعد الهجرة والاستقرار في فلسطين . هذه المرحلة الاولى من حياة إبراهيم (عليه السلام) وهي تمثل بداية تكوين امة التوحيد التي ارسى قواعدها إبراهيم (عليه السلام) ولا يمكن ان نطلق على هذه البداية عربية ولكنها سابقة للعربية الصريحة وهي تمثل جنور امة العرب التي كان ابوها إبراهيم فهو ابو العرب . لذلك كانت المراقية حالة تمثل جنور العروبة واننا اذا اطلقنا عليها العروبة فاننا سنقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه اليهود الذين قالوا ان إبراهيم كان يهودياً . وكانت هناك محطة استقر فيها إبراهيم (عليه السلام) مؤقتاً وقد تعرضت نصوص في القرآن الكريم لهذه المرحلة من حياة إبراهيم وهو يتصدى لعقيدة هؤلاء القوم الباطلة حيث كانوا يعبدون الكواكب . وقال علماء التاريخ ان هذه المنطقة التي قصدها إبراهيم (عليه السلام) عند خروجه من بابل وبابل كانت تعني العراق القديم ، هي حران التي كانت مركزاً عالمياً لعبادة الكواكب وهي مدينة قديمة واقعة في مفرق طرق بين تركيا وسوريا والعراق . وقد تحدثنا عن النصوص التي نكرت الحجة التي آتاها الله إبراهيم في تفنيد عقيدة عبادة الكواكب عندما قارن بين الكواكب ويوفلها وأوصلهم الى نتيجة واحدة هي عبادة الله الذي يُسيّر هذه الكواكب ويبقي اثره لا يافى ولا يغيى . بعدها يخرج إبراهيم (عليه السلام) من حران مع قومه واتباعه ومعه زوجته سارة وهي بنت عمه لا كما يقول اهل التوراة بانها ابنة اخيه وهي اخت لوط^(١١٧) . وهذا افتراء على هذا النبي العظيم خليل الرحمن بأنهم جعلوه يتزوج المحارم وهذا شأن اليهود في تحطيم القيم والاخلاق وتدمير اثر الانبياء والافتداء بهم . بعد خروجه من حران استقر في فلسطين وحدثت مجاعة اضطرته الى أن يهاجر الى مصر لانه لم يستطع العودة الى العراق لانه كان مطارداً من قبل

→ توضح ارتباط عقوبة التحريق بالواقع والمصر الذي كان يعيش فيه إبراهيم (عليه السلام)

(١١٧) وفي المهد القديم انها اخته من أبيه من غير امة النظر تكوين / ٢٠ .

الملك والكهنة في العراق وهجرتهم الى مصر تذكرها النصوص الاسلامية في حديث نبوي شريف صحيح . رواه البخاري في جزء من حديث الكنابات : « بينما هو ذات يوم وسارة اذ أتى عليه جبار من الجبابرة فقبل له : ان هاهنا رجلاً معه امرأة من احسن الناس . فارسل اليه وسأله عنها : فقال : من هذه ؟ قال : اختي ، فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيري وغيرك . وان هذا سألني فأخبرتته انك اختي . فلا تكنيني . فارسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فاخذ . فقال : اسعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فاطلقها ثم تناولها الثانية مثلها او اشد . فقال اسعي الله لي ولا أضرك . فدعت فاطلق . فدعا بعض حبيته فقال : انكم لم تاتوني بإنسان وإنما أنتموني بشيطان . فأخدمها هاجر . فأتته وهو قائم يصلي فأومأ بيده مهيم ؟ فقالت : رد الله كيد الكافر - او الفاجر - في نحره . وأخدم هاجر . قال ابو هريرة : فترككم أمكم يا بني ماء السماء »^(١١٨) وقال العلماء انه قال : لا يوجد على الارض مؤمن غيري وغيرك « يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك . ويتعين حملُهُ على هذا لان لوطاً كان معهم وكان نبي (عليه السلام)^(١١٩) . ثم رجع بعدها الى فلسطين ومعهم انعام وعبيد ومال جزيل وصحبته هاجر القبطية المصرية . وبعد عودته الى فلسطين صاحب لوطاً الى ارض الغور المعروف بغور زغر (ويسمى صوغر) فنزل بمدينة سدوم (على شاطئ البحر الميت) وهي أم تلك البلاد في تلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً . ويسكت القرآن الكريم عن اوضاع لوط وعلاقته بإبراهيم (عليه السلام) ولكن روايات اهل الكتاب تذكر ان لوطاً تسلط عليه قوم من الجبارين فأسروه واخذوا أمواله فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار اليهم في ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً (عليه السلام) واسترجع أمواله . فقتل من اعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل الى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزه . واهن مقام إبراهيم لما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل ، والله اعلم »^(١٢٠) ورجع الى بيت المقدس .

(١١٨) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٤٧ . ووجدت في الآثار المصرية نقوش لصور تمبر عن عائلة بدوية تنتمي برحلة الى مصر وتكلم الهنايا الى فرعون مصر ولعلها تمبر عن رجلا ابراهيم (عليه السلام) . انظر سوسة / د . احمد / فضل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٩٤ .

(١١٩) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٩ .

(١٢٠) ابن كثير / م . ص / ص ١٥١ .

ولادة إسماعيل والذهاب الى مكة :

لم يذكر نص في القرآن الكريم انه ولد لإبراهيم إسماعيل ولكن نصوصاً كثيرة تكلمت عن مراحل لاحقة عن حياة إسماعيل وهي تصف إسماعيل وإبراهيم (عليهم السلام) بينان البيت الحرام وهذا السبب كان وراء الخلاف بين العلماء عن شخصية النبي فقد تأثر بعض العلماء المسلمين برواية أهل الكتاب (اليهود) التي تنص على أن النبي إسحاق ولما نظر المسلمون الى النصوص التي تحدثت عن النبي وجدها تتحمل أن يكون إسحاق هو النبي ولكن معظم العلماء المسلمين رجحوا واكتوا أن النبي هو إسماعيل (عليه السلام) وكشفوا الدوافع الحقيقية التي دفعت اليهود الى إنكار أن يكون النبي هو إسماعيل وجعلوه إسحاق . وهذه الظاهرة تكشف لنا حقيقة كبرى اتصفت بها المصادر الاسلامية وهي عدم تمسبها وعدم خضوعها لاهواء البشر بل انها تمثل ريانة المصدر . فان الله تعالى لم يكن يحابي او يفضل على امس عرقية او يضع مجموعة من البشر فوق الآخرين . وانما وضع اسما دعا اليها الانبياء ووضعوها معالم للمجتمع البشري ﴿ وقالت اليهود واتصاري نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بنوكم بل اتمم بشر ممن خلق ﴾ (١٢١) ولذلك نجد علماء الاسلام او القرآن الكريم او المصادر الاسلامية عندما تتكلم عن إسحاق تصفه بالصق والنبوة والعبد الصالح بل ان القرآن الكريم ركز على ارتباط إسحاق بإبراهيم وركز في أكثر من موضع بالبشارة لإبراهيم بإسحاق وهذا يؤكد إن الانبياء الاسلامية في المصادر لا تميز بينهم وان المسلم يؤمن بجميع الانبياء من نون تفريق او إنقاص لقيمة واحد منهم . وهذه الظاهرة تؤكد ان المصادر الاسلامية مستقلة في وجودها وعدم تأثرها بالشرائع التي قبلها وان كتاب المسلمين (القرآن الكريم) لم يأخذه النبي محمد (ﷺ) من الكتب التي سبقت على عكس ذلك نجد ان القرآن الكريم لم يحو الاخطاء او الاختلافات الموجودة في الكتب السابقة بسبب تدخل البشر . ولما انزل الله تعالى القرآن الكريم مصدقاً للنبوة الانبياء الذين سبقوا النبي محمداً (ﷺ) ومهيماً على الكتب السابقة ولا يرقى اليه شك او تحوطه شبهة . وبذلك كانت خصوصية الرواية القرآنية تؤكد استقلالية القرآن الكريم ورواية أهل

الكتاب تؤكد هذه الحقيقة . وكما يذكر الاستاذ العقاد حول اختلاف اسم ابي ابراهيم في القرآن الكريم (آزر) وفي التوراة (تارح) فيقول : « وتفيد هذه الملاحظة فائدة جلية في معرض آخر من معارض سيرة الخليل . فلم يكن تاريخ ابراهيم في الاسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المشرعين من رواة الاخبار الدينية غير الاسلامية وإلا لما كان ايسر من تسمية إبيه تارحاً أو تيرحاً أو تيره وما شابه هذه التصحيفات . ولما كان هناك سبب قطلتسميته بأزر على أي توجيه . وإنما هذه بينه من بينات شتى على أن دعوة ابراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود »^(١٢٢) . النص القرآني الذي ذكر بشاره إسماعيل لم يصرح بإسم إسماعيل ولكن علماء التفسير مطبقين على أنه إسماعيل لأن سياق الآيات يدل على ذلك . فقد جاء في القرآن الكريم على لسان ابراهيم ويشانه ﴿ وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين • رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم • فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى • قال يا ابيت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين • فلما اسلما وتله للجبين وناديناه ان يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا • انا كذلك نجزي المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين • وفديناه ببلع عظيم • وتركتنا عليه في الآخرين • سلام على ابراهيم • كذلك نجزي المحسنين • اتته من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبياً ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾^(١٢٣) في هذه الآيات بشارتان . البشارة الاولى (الغلام الحليم) وهو إسماعيل والبشارة الثانية (اسحق النبي) . وقوله تعالى ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ لا بد انها تعني إسماعيل وإسحاق . لان النص ذكر التثنية وهي اقرب في المعنى الى إسماعيل وإسحاق من ان الآية تعني ابراهيم واسحق (عليهم السلام) اذ ان ابراهيم هو الاصل وإسحاق من ذريته ولو كان المعني ابراهيم وإسحاق لقال ومن ذريته محسن وظالم لنفسه مبين . لان القرآن كان يجمع الفرع في مقام الاصل كما في قوله تعالى ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلما اعتزلهما وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً ﴾^(١٢٤) . والمعروف ان يعقوب هو ابن إسحاق . ولكن الله كان يمتن بيعقوب

(١٢٢) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٧

(١٢٣) سورة الصافات / ٩٦ - ١١٣

(١٢٤) سورة مريم / ٤٩ .

على إبراهيم ويسوق البشارة اليه فجعل الفرع كالأصل فكان الخطاب واحداً . ولكن عندما يختلف الضمير فيترجح ان النص في الآية ﴿ ومن ذريعتها ﴾ يعني (ومن نرية إسماعيل وإسحاق) . لان الضمير اختلف وعاد على شخصين مختلفين في حين كان الضمير في الكلام المشتغل على (إسحاق ويعقوب) يعود على إبراهيم ونلك في قوله تعالى ﴿ بشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فالضمير في بشرناه يعود على إبراهيم وكذلك في قوله تعالى ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ الضمير في له يعود على إبراهيم وكذلك لو كان الكلام يعني إبراهيم وإسحاق في قوله تعالى (ومن ذريتهما) لاقتضى ان يفرد الضمير . ولما جاء بصيغة المثنى ترجح ان يكون المقصود فرعين مختلفين تفرعا من الأصل وهو إبراهيم (عليه السلام) . والآيات في سورة الصافات التي حملت البشارتين تؤكد ان الذبيح كان إسماعيل لانه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ وقد ذكر ابن كثير : إن من ذهب - أن الذبيح إسحاق - من المسلمين فقد استند الى الاسرائيليات . وقد ذكر انه في التوراة ان الله أمر إبراهيم ان يذبح ابنه وحيدة وفي نسخة بقراءة إسحاق^(١٢٥) فلغة إسحاق ها هنا مقحمة مكنوية مقترأة الى ان قال « وانما حملهم على هذا حمد العرب . فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز وملهم رسول الله (ﷺ) وإسحاق والد يعقوب - وهو إسرائيل - الذي ينتسبون اليه فارادوا ان يجزوا هذا الشرف اليهم فحرفوا كلام الله وزاوا فيه وهم قوم بهت لم يقروا بان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »^(١٢٦) فكانت بشارة إسماعيل هي بشارة محمد صلى الله عليه وسلم وكان الاقدار قد رُسمت من أجل النبي محمد (ﷺ) كل الخطوط التي امتدت في التاريخ قد تلاشت . الاقوام والامم والممالك واللغات وتنامى خط محمد (ﷺ) منذ أم (عليه السلام) ونوح الى إبراهيم كان الله قد بعث هؤلاء الانبياء والرسل ليمهدوا لرسو الله (ﷺ) ولكي يحفروا في التاريخ معالم المسيرة التي تقود الى خاتمتهم محمد (ﷺ) . وكان إبراهيم (عليه السلام) أمة قانتاً لله حكيماً حليماً . فعندما بشره الله بإمامته تذكر نريته . قال تعالى واذا ابلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن • قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي • قال لا ينال عهدي

(١٢٥) انظر التكوين / ٢٢ : (خذ ابنتك وحبيبتك اسحاق الذي تحبه وانطلق الى ارض المريا وكنهه محرقة) .

(١٢٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٦٢

الظالمين ﴿١٢٧﴾ ومع هذه البشارة التي تلقاها الخليل وضع الرب جلّت قدرته قاعدة وأساساً للتعامل مع الخالق وأوضح المنهج الذي طالما أكتته آيات القرآن الكريم وهي أن هذا العهد لا يشمل الظالمين مهما كانوا حتى لو كانوا من نرية إبراهيم وتحت هذه القاعدة يمكن أن يوضع بنو اسرائيل وكل الامم على الارض فمن استجاب الى دين الله وارتبط بالتوحيد فهو الذي يستحق تكريم الله وتمكينه والكرامة في الدنيا والاخرة ومن أعرض وكان من الظالمين فعليه غضب الله ولعنته الى يوم الدين . وعندما ارتبط العرب بإسماعيل لم يكن هذا من صنمهم ومن نسج خيالهم ولكن التوراة تفكر تلك والتاريخ يذكره . وكان الله تعالى قد وضع إسماعيل في تلك المكان البعيد عن العالم والمدنية والحضارات في تلك الوادي المقفر حيث لا ماء ولا شجر في تلك الجبال الجرداء ويتوقف التاريخ عند إسماعيل وبناء البيت وتهيته للامة الموحدة ويعدّها بآلاف السنين من التوقف والانطواء والعالم مشغول بجلبه المدن وضجيجها يشرق على الارض نور النبي محمد (ﷺ) وكان التاريخ صامتاً في تلك البقعة والليل يخيم على أرجائها وكان هذا الصمت يتوافق مع سكوت الصحراء والعالم من حول هذه البقعة يعيش صراعاً امتد عمقه وطال أمده هذا الصراع الذي قاده الانبياء الذين بعثهم الله بعد إبراهيم وتفرعوا والحدروا من إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى والاسباط وأنبياء كثيرون منهم من قص علينا القرآن ومنهم من لم يقصص . وكانت جزيرة العرب تعيش فترة وتوقف حتى اختار الله حبيبه محمداً (ﷺ) . ولم تكن العرب أمة تترك أن القدر قد خبأ لها دوراً عظيماً يتجاوز الملامح الظاهرة لهذه الامة وما تنوسه في نفسها . وهذه الامة التي توافق اختيارها وتهياتها مع نبيها محمد (ص) كانت في ذاكرة ابنيها إبراهيم وهو يبني البيت على قلب ارضها وعلى مركز الارض وأشرف البقاع . بل ان الامر كان في ذاكرة إبراهيم ابعد من هذا التاريخ عندما ترك زوجته هاجر وابنها الرضيع على تلك الاحجار وتحركت فيه عاطفته وانسانيته ولكنه وهو إمام المتوكلين العارف بربه لا يمكن أن يتباطأ في تنفيذ ما يأمره الله به فكان الدعاء يمثل خلجات نفسه وأمنية استقرت في قلبه ان يهدي الله قوماً لكي يستقروا مع هذه المرأة الوحيدة في تلك الصحراء المترامية . ﴿ ولا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبي وبني ان نعبد الاصنام ﴾ واستمر إبراهيم في دعائه ورجائه لربه ﴿ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم

ربنا ليقموا الصلاة فاجعل الجنة من الناس تهوي إليهم ولرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون (١٢٨) لم يكن هؤلاء الاعراب الذين يبحثون عن الماء في تلك الصحراء يعلمون أنهم على موعد مع قدرهم الذي اختاره الله لهم واختارهم له . والعرب لم يكتبوا التاريخ ليصنعوا لهم مجداً مزيفاً ولكنهم كانوا يتحركون بالتاريخ من بون علم منهم بأنهم يتحركون على أكرم مسار لحركة الانسان على الارض وهو مسار الانبياء . ولو كانوا يعلمون او كانوا يبحثون عن مجد التاريخ لما اختار إيراكهم القاصر ان يكونوا أولاد جارية مصرية . (ولو أراد العرب ان يفتخروا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية وتخص غيرهم بالانتماء الى السيدة المصغرة . ولو كان بوسع اليهود ان يحتكروا النسب الى إبراهيم لما نكروا شيئاً عن نسبة غيرهم اليه . فالانتساب الى إبراهيم لم يكن مسألة اختراع واختبار (١٢٩) .

بناء الكعبة :

أول بيت وضع للناس يربطهم بخالقهم وينكّرهم بحقيقة وجودهم . بيت وبناء وأرض شرفها الله واختارها من بين المساحة الهائلة لهذه الارض اختار الله بقعة مباركة على وفق حكمته وعلمه في موقع لا يفري الآخرين ولا يدعو للمنافسة ولا يحسد ساكنه على وفق مقاييس الارض وأهل الارض . وقد جاء هذا الاختيار ليؤكد اختلاف مقاييس السماء عن مقاييس الارض وليؤكد ان المسار الذي يرتبط بالسماء لا يتحرك على وفق الظواهر المادية وان كانت هذه الظواهر هي نواميس ايضاً وضعها الذي أوجد الحياة وبشرها للانسان لكي يسير بمقتضاها فجاء اختيار البيت ليجمع بين الايمان بالاسباب ومسبباتها فكانت المنهجية القرآنية هي الجمع بين الحقيقتين بين الروح والمادة . كل المدن كانت مواقعها تمنحها وجوداً وجمالاً كانت هذه المدن تلبس شرايينها بمياه الانهار وتنفس عبير الاشجار وظلال الجبال والغابات وعذوبة الهواء . ولكن مكة كان جمالها من نوع آخر . حيث لا ماء ولا انهار ولا اشجار ولا عذوبة الهواء . كان النور النازل من السماء يلامس جبالها ووديانها وينعكس على قلوب الطائفين والقائمين والركع السجود . وكانت قوافل الحجيج

(١٢٨) سورة ابراهيم / ٣٥ - ٣٧ .

(١٢٩) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٤٣ .

تخترق الفجاج العميقة وما ان تدخل بقعة النور حتى تحس بالامان والراحة فتنسى كل مقاييس الدنيا وجمال الدنيا ومتاعها وتطلع من هناك على انوار العالم الآخر فتبدي ظلمات الران المتبلدة على القلوب المتعبة . وكأن الله تعالى قال كلمة عظيمة عندما اختار مكان بيته الحرام . كان الله تعالى يقول انه قادر على اخراج الحي من الميت والقوة من الضعف والجمال من القسوة فكانت مكة . لقد ارتبط البيت بإبراهيم ﴿ ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ ١٢٠ ﴾ .

لم يرد ذكر للبيت او لمكة في القرآن الكريم مع الانبياء السابقين لإبراهيم (عليهم السلام) . منذ آدم ونوح وهود وصالح هؤلاء الانبياء لم يرتبط ذكر مكة معهم وانما بعثوا لاقوامهم . وقد وردت روايات حديثة عن ارتباط هؤلاء الانبياء بمكة منذ آدم إذ وردت أحاديث تقول : ان الله أمره ببناء لعبادته على الارض كالبيت الذي في السماء . ونوح وردت روايات عن سفينة التي طافت حول البيت . وانه مات ودفن بالمسجد الحرام . وهود وصالح جاءوا الى مكة بعد هلاك قومهم وماتوا ودفنوا هناك . على ان هذه الروايات لا سبيل الى توثيقها او الجزم بصحتها لانها وردت من طرق لا تخلو من مقال . اما النص القرآني فيتحدث بتفصيل عن بناء إبراهيم للبيت قال تعالى ﴿ وإذ يؤتى إبراهيم الملائكة بالبيت الا تشرك به شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ (١٢١) . وقال تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١٢٢) وقال ابن كثير : « لم يحيى في خبر صحيح عن معصوم ان البيت كان مبنياً قبل إبراهيم الخليل (عليه السلام) . وقد ذكرنا ان آدم نصب عليه قبة وان الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت وان السفينة طافت به اربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الاخبار عن بني إسرائيل وقد قرروا انها لا تصق ولا تكتب فلا يحتج بها » (١٢٣) ولكن القرآن الكريم يذكر ان إبراهيم (عليه السلام) قبل ان يبني البيت وعندما ترك هاجر وإسماعيل ذكر البيت كما في قوله تعالى ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

(١٢٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٢١) سورة الحج / ٢٦ .

(١٢٢) سورة البقرة / ١٢٧ .

(١٢٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٠ .

الصلاة ﴿ ان هذا النص يدل على ان البيت كان موجوداً وأنه مكان معد لإقامة الصلاة . ولكن إبراهيم قد يكون هدم القديم وجند ببناءه او انه كان متهدماً ويقايا بناء قديم أرشده الله اليه وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ وقد جاء عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وغيره : « انه أُرْشِدَ إليه بوحى من الله عزوجل »^(١٢١) وقد روى الأزرقى « عن وهب بن منبه انه قال : لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت ومات آدم (عليه السلام) فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح (عليه السلام) فنسفه الفرق وغير مكانه حتى بوى إبراهيم (عليه السلام)^(١٢٢) . وروى عن مجاهد انه قال : كان موضع الكعبة قد خفي ودرس في زمن الفرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال : وكان موضعه أكمة حمراء مدره لا تملوها السيول غير ان الناس يعلمون ان موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه (يعني من غير تعيين محله) وكان يأتيه المظلوم والمتموّد من أقطار الأرض ويبعو عنده المكروب فقال من دعا هنالك إلا استجيب له وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم (عليه السلام) لما أراد من عمارة بيته وإظهار بينه وشرائعه فلم يزل منذ اهبط الله آدم (عليه السلام) الى الأرض معظماً محرماً بيته تتناسخه الأمم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة قال : « وقد كانت الملائكة تحججه قبل آدم (عليه السلام) »^(١٢٣) ان هذه الروايات تؤكد حقيقة وهي ان مكة حرسها الله لم تنزل لها أهمية منذ آدم وكانت مرتبطة مع الانسان تعبر عن قضيته وترمز الى ارتباطه بالسماء . وكانت مكة تتنير في وجودها على الأرض غرابة وغموضاً . وكأنها تعبر عن غربة الانسان على الأرض وان وجوده هنا مؤقت بزمان قصير يرتحل عنه فيما بعد الى دار القرار والخلود . وأن تكون مكة في قلب صحراء العرب أمر يثير تساؤلات ولا يخلو من الغرابة كذلك وكان الله أراد ان يضع فيها سرّاً وقوة ذاتية تتحصن بها خلف الرمال فلا يستطيع جبار من جبابرة

(١٢٤) ابن كثير / قصص القرآن / ص ١٦٩ .

(١٢٥) الأزرقى / ابو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما جاء فيها من

الآثار ج ١ ص ٥١ تحقيق رشدي صالح ملخص مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة / ط ٢

سنة ١٩٦٥

(١٢٦) الأزرقى / اخبار مكة / ج ١ ص ٥٢ .

الارض ان يجازف او ان يفكر في احتلالها او تدميرها . ولم ينكر لنا التاريخ ان مكة تعرضت لغزو من خارج ارض العرب إلا محاولة يائسة من إبرة الحبشي وكانت نهايته معروفة « ويروي عن عبدالله بن الزبير : سمي البيت العتيق لانه عتق من الجبابرة ان يسطوا عليه »^(١٣٧) . وفي المصور القديمة قبل إبراهيم (عليه السلام) لم تكن الحضارات قد قامت وكان المجتمع البشري يخطو خطواته الاولى على الارض ولكن في زمن إبراهيم كانت البشرية قد وصلت الى مرحلة النضج الحضاري او المدني فقد ظهرت على الارض المدن والنول والكتابة والصناعة والزراعة وعبر الانسان عن أوج نشاطه وقابلياته في جميع الاتجاهات الثقافية والاجتماعية والروحية والمادية . في هذا العصر كان لا بد من ان يتطور وضع البيت ليلانم العصر . عصر المدن وعصر الفخار ولابد من ان يشيد البيت بالبناء وان تتشكل نواة مدينة حوله فكان زمزم الماء مصدر الحياة وكانت مكة نواة المدينة المقدسة . « وكان إسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ويناولها الى إبراهيم (عليهما السلام) والشيخ ييني فلما ارتفع البناء شق على الشيخ إبراهيم تناوله ف قرب اليه إسماعيل هذا الحجر - يمني المقام - فكان يقوم عليه وييني ويحوله في نواحي البيت ، يقول ابن عباس : فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه »^(١٣٨) وقد روى كذلك : « الكعبة وهي مكعبة على خلقه الكعب فلذلك سميت الكعبة قال : ولم يكن إبراهيم سقّف الكعبة ولا بناها بمصر وانما رضعها رضعاً »^(١٣٩) ان الحجر الذي وقف عليه الخليل وهو ييني البيت آية من آيات الله حيث حفرت أقدام الخليل وتركت أثراً على الحجر وبقي هذا الاثر على الحجر الى اليوم ويبقى حتى قيام الساعة « وكان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة - على ما كان عليه في قديم الزمان - الى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخذه قليلاً لللا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت وقد كان الله قد استجاب لدعوة عمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى »^(١٤٠) .

ان حياة إسماعيل (عليه السلام) في مكة تلقي ضوءاً على عصره وعصر إبراهيم (عليه السلام) فانه لم يعيش وحده مع أمه في مكة ولكن الروايات التاريخية

(١٣٧) الازدي / اخبار مكة / ج١ ص ٨٩ .

(١٣٨) الازدي / اخبار مكة / ص ٥٩ .

(١٣٩) الازدي / اخبار مكة / ص ٦٦ .

(١٤٠) رضا / فؤاد علي / ام القرى مكة المكرمة / ١٠٧ .

تؤكد ان قبيلة كانت تنتقل في جزيرة العرب تبحث عن الماء والكلأ وهي متجهة من الجنوب شمالاً حيث الانهار يورد المنيح هراً من قسوة الصحراء وحراً وجنبها وعندما مرّوا على وادي مكة لاحظوا آثار تل على الماء حيث الطيور تجمعت والاشجار نبتت . فطاب لهم النزول هناك عند هاجر واسماعيل . وشب بينهم إسماعيل وامتزج بهم وتكلم لغتهم وتزوج منهم وهؤلاء هم جدهم وهم من العرب البائدة ويعد إسماعيل ولزيته كانت العرب المستعربة وينسبون الى نابت او نبات احد اولاد إسماعيل . وهذه الحقيقة تؤكد ان اصل العربية لم يتطور من اللغة اليمنية « وإنما جاء التطور من العربية القديمة الى الاشورية الى الآرامية الى النبطية الى القرشية . فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل وكان التقارب بينهما في الزمان او في درجات التطور ولم يكن تقارباً يلاص بالفراخ والاميال هذه هي البيئة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين او النباطيين أبناء إسماعيل . ولهذا قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط «^(١١١) وكانت النبط تفرض ثقافتها ولغتها على أرض الجزيرة وشمالها وبلاد وادي الرافدين وهذا أيضاً يبرز قناعتنا بان أصل العرب وجنود تكوينهم كانت من بلاد الرافدين ولم تكن الجنود من اليمن ، لان اليمن تطورت بيئتها الاجتماعية وقبائلها بصورة متوازية مع جميع بلاد العرب بينما كانت ارض الرافدين تشهد ولادة المجتمعات الاولى والنبوات الاولى منذ آدم ونوح (عليهم السلام) . ولم يسجل التاريخ لنا نبوة في ارض اليمن قبل هود عليه السلام . وهود جاء بعد نوح كما هو ثابت في القرآن الكريم .

لقد ارتبطت حياة إبراهيم بمكة من خلال إسماعيل . وان هذه العلاقة لم تكن مخفية او دعوى ادعاها العرب ولكن التوراة تذكرها فقد جاء في سفر التكوين « فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : (ما الذي يزعجك يا هاجر ؟ لا تخافي لان الله قد سمع بكاء الصبي من حيث هو ملقى . قومي واحملي الصبي وتشبثي به لانني ساجعله امة عظيمة) ثم فتحت عينها فابصرت بئر ماء فنهبت وملاّت القرية وسقت الصبي وكان الله مع الصبي فكبر وسكن في صحراء فاران ويرع في رمي القوس واتخذت له أمه زوجة من مصر «^(١١٢) . لقد صيغت هذه الرواية بطريقة مفتملة وأضيفت عليها معلومات تشويش وخلط إذ كيف يتسنى لهاجر ان تنهب الى

(١٤١) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٨

(١٤٢) تكوين / ٢١ / ١٧ - ٢١ .

مصريوتاتي بمصرية لتزوجه من إسماعيل ؟ وما هي فاران ؟ ولماذا هذا التخفيف والموود العابر ؟ ومن هذه الامة العظيمة التي بشر بها الرب ستكون من نرية إسماعيل ؟ أغير العرب ؟ كل هذا يؤكد ان هذه النصوص تحوي في طياتها معاني كاملة ليست مما يحب اليهود إشاعته أو نشره فحنفوا وحرقوا وشوشوا . وعلى ما في هذه الرواية من نقاط ضعف واضطراب فانها تؤكد علاقة إبراهيم بمكة التي هي فاران عن طريق إسماعيل . النص القرآني الذي ذكر إسماعيل وارتباطه بإبراهيم صراحة كان من خلال مكة والحديث عن بقاء هاجر وإسماعيل في الوادي وعندما تركهما إبراهيم (عليه السلام) ودعا لهما بأن يجمع معهم أمة من الناس تزيل عنهما وحشة الوحدة بعدما توجه إبراهيم الى ربه بالتناء والحمد على النعم الكثيرة ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ (١١٢) لقد ذكر إبراهيم (عليه السلام) إسماعيل قبل إسحاق وهذا يدل على ان إسماعيل اكبر من إسحاق . وان كانت نصوص القرآن والتوراة تؤكد هذه الحقيقة ولكن هنا تخصيص وترتيباً وتسمية ولكن في مواضع أخرى تذكر هذه الحقيقة بصورة غير مباشرة والنص الآخر الذي ذكر فيه إسماعيل مع إبراهيم كان أيضاً من خلال مكة وأثناء عملية بناء البيت حيث جاء النص ﴿ وإذا رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وألنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١١٣) وفي النص يتضح ارتباط إبراهيم وإسماعيل بمكة وبمحمد (ﷺ) وبأمة العرب والاسلام .

عاش إسماعيل مع أمه هاجر في مكة وتزوج من جره من زوجتين الاولى طلّتها بأمر أبيه إبراهيم وتزوج الثانية منهم كما وردت بذلك أحاديث نبوية وأبقى الثانية بأمر أبيه كذلك (١١٤) وهذه الروايات تدل على بقاء اتصال إبراهيم بإسماعيل وزيارته له وقد ماتت هاجر ودفنت في مكة عند المسجد الحرام . وتوفي بعدها إسماعيل ودفن قرب أمه في مكان يسمى حجر إسماعيل . وهكذا انتهت حياة النبي الكريم إسماعيل وقد

(١٤٣) سورة ابراهيم / ٣٩ .

(١٤٤) سورة البقرة / ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(١٤٥) ابن كثير / لمص الانبياء / ص ١٥٦ - ١٥٧ .

عكست لنا ملابسات هذه الحياة كيف تكونت أمة العرب وكيف تتحد العوامل لتتلمها
الامة وكيف حدث التمازج بين إسماعيل وقبيلة كانت تعيش الحياة مثله وهكذا كان
العالم وهكذا تكونت الامم .

إسحاق (عليه السلام) :

نصوص كثيرة في القرآن الكريم تحدثت عن إسحاق (عليه السلام) منها :
﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين وبركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريعتهما
معصن وظالم تلوه ميمن ﴾^(١١٦) ومنها أيضاً : - ﴿ وإمرأته قائمة فضحكت فبشرناها
بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتي أأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن
هذا لشيء عجيب ﴾ قالوا أتمجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه
حميد مجيد ﴿^(١١٧) قال العلماء في قوله تعالى ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء
إسحاق يعقوب ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحاق ثم من بعده بولد
ولده يعقوب أي بولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرئت بولده . ولو لم يرد هذا لم
يكن للذكر يعقوب وتخصيص التلخيص عليه من دون سائر نسل إسحاق
فائدة^(١١٨) ومع إسحاق ويعقوب يُذكر بناء المسجد الأقصى وكأنها مقابلة بين
إبراهيم وإسماعيل وبناء المسجد الحرام وهذا المقياس للفضل جعله الله ليتعلم
الناس فضل المسجد الحرام وإبراهيم وإسماعيل ومحمد (ﷺ) وفضل المسجد
الأقصى وإسحاق ويعقوب عليهم جميعاً (صلوات ربي وسلامه) . ففي الحديث
الحديث المروي في الصحيحين « عن أبي هريرة قال : قلت : يا رسول الله - أي مسجد
وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت :
كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » قلت : ثم أي ؟ قال : « حيث أبركت الصلاة فصل
فكلها مسجد »^(١١٩) . وفي روايات أهل الكتاب أن الذي بنى المسجد الأقصى هو

(١٤٦) سورة الصافات / ١١٢ - ١١٣ .

(١٤٧) سورة هود / ٧١ - ٧٢ .

(١٤٨) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٦٧ .

(١٤٩) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٦ .

يعقوب (عليه السلام) وهو مسجد ايليا ببيت المقدس شرفه الله وأعانه الى المسلمين .

وقد نسج اليهود عن شخصية إسحاق ويعقوب وخَوَّث توراتهم من الاباطيل في حق هؤلاء الانبياء وابيهم عندهم صلوات الله الكثير . وقد حاول اليهود الارتباط بإبراهيم عن طريق يعقوب وإسحاق وجعلوا من إبراهيم أباً لليهود ونبي التوراة وجاء في المهد القديم « انقاذ لوط من الاسر . وجاء أحد الناجين الى إبراهيم العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا اخي اشكول وعانر حلفاء ابرام »^(١٠٠) . وصورت التوراة سارة امرأة تقتلها الغيرة وتظلم وتطرد هاجر وقد جاء في سفر التكوين : « ورأت سارة ان ابن هاجر المصرية الذي انجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إسحاق . فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها . فان ابن الجارية لن يرث مع ابني إسحاق . فقال الله له : (لا يسوء في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريته واسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لانه بإسحاق يدعى لك نسل . وسأقيم من ابن الجارية أمة ايضاً لانه من نريثك »^(١٠١) . موازنة بسيطة بين نصوص القرآن وهذه النصوص ونظرة القرآن الكريم الى الانبياء النظرة التي تستعلي على الاهواء والمؤثرات القائمة على أسس من التعصب وعقد التاريخ والاحساس بالتمتعش للخروج من الكبت والذل والحرمان النظرة القائمة على اصطفاء انبياء البشر وانتفاء هؤلاء الى الانسانية المكرمة الخاضعة لسنن الله في مسيرتها على الارض . ويفندنا عن الكلام التامل في النص القرآني التالي ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هنيئاً ونوحاً هنيئاً من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴾ وكرها ويعقوب ويعيسى وإلياس كل من الصالحين ﴾ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلأ فضلاً على العالمين ﴾ ومن لهنهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ﴿^(١٠٢) وتحدث القرآن عن الصراع بين الاديان عن شخصية إبراهيم (عليه السلام) ونلك في قوله تعالى : ﴿ يا اهل الكتاب لم تعاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والآنجيل الا من بعده أفلا تفعلون ﴾ ها أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تعاجون فيما ليس لكم به علم والله

(١٠٠) سفر التكوين / ١٤ - ١٣ - ١٦

(١٠١) سفر التكوين / ٢١ - ٩ - ١٤

(١٠٢) سورة الانعام / ٨٤ - ٨٧ .

يعلم وأنتم لا تعلمون • ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين • إن أولي الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿١٥٣﴾ وقال تعالى ﴿ لم تحولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هوداً ولا نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون • تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبت ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ﴿١٥٤﴾ وهذه الآيات القرآنية واضحة في ربطها على اليهود وعلى أهل الكتاب الذين ربطوا تاريخهم بإبراهيم (عليه السلام) وقد وضع القرآن الكريم الأساس والمناهج الذي يوصل بإبراهيم وهو طريق الانبياء جميعاً والخط الواصل من آدم الى محمد (ﷺ) جميعاً ذلك هو دين الاسلام دين الفطرة بين التوحيد بين الحديفة الصراط المستقيم الذي يجمع الانسانية برياط واحد ويود أهلها الى الاصل الذي انحدر منه البشر (نكروا نشي) ولا فضل لإنسان على إنسان ولا مجتمع على مجتمع ولا شعب على شعب . انما التفاضل للسبق بهذا الدين . والآيات تدل على ان الاديان التي جاءت بعد إبراهيم اليهودية والنصرانية انما جاءت محدودة الى اقوام الانبياء الذين هموا فيهم . ولكن إبراهيم لم يكن مرتبطاً بقوم في دعوته وانما انتقل من بلد الى بلد ودعا كل من عاش معهم الى التوحيد والى دين الاسلام ﴿١٥٥﴾ . فكانت عالمية دعوة إبراهيم مرتبطة بدعوة النبي محمد (ﷺ) ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن أولي الناس بإبراهيم الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وهذا النبي تعني محمداً (ﷺ) . ولا حاجة للاستطراد لاثبات إن عصر إبراهيم غير عصر اليهود وإن عصره كان عربياً ﴿١٥٦﴾ . وإن كان القرآن الكريم قد ربط بين عصر إبراهيم

(١٥٣) سورة آل عمران / ٦٥ - ٦٨ .

(١٥٤) سورة البقرة / ١٢٩ - ١٤١ .

(١٥٥) وهذه المساحة الجغرافية التي تحرك عليها إبراهيم تؤكد اشتراك أصل هؤلاء الاقوام الذين يتكلمون على هذه المساحة . وقد اكدت الابحاث اللغوية اشتراك الجماعات التي كانت متواجدة على بلاد الرافدين والعمام وشبه الجزيرة العربية ويادي الدليل في عصر ابراهيم في اللغة وان هذه اللغة وان كانت تختلف في لهجاتها ببعض صيغها ولكن أهلها يستطيعون التفاهم بينهم ولذلك اترحنا تسميتها بالابراهيمية لانها اوتق من الصامية . (١٥٦) انظر سورة / د . احمد / مطلع العرب واليهود في التاريخ وكذلك حداد / د . مهنا يوسف / الرقة العربية لليهودية وكذلك سعدالدين / د . لولي حسن / مثل الذين حملوا

←

(عليه السلام) وشخصيته وبين محمد (ﷺ) الذي ظهر في أمة العرب وجزيرتهم ولكن القرآن الكريم لم يربط رباطاً عرقياً وهذه إحدى الافكار الخرافية التي تبنتها التوراة . كما تبني اليهود اسطورة السامية التي توغل في القدم قبل عصر إبراهيم بعد نوح (عليه السلام) والتي لا دليل عليها . لقد كان النص القرآني واضحاً في ابراز الارتباط العقائدي الذي يربط بين المؤمنين عبر الزمان والمكان . لقد بعث الله الانبياء والرسول الى مختلف الشعوب والاقوام وكل شعب كان فيه المؤمنون والكافرون . وكانت العقيدة واحدة وهي الايمان بالاله الواحد الذي خلق السموات والارض وخلق الانسان وهذه هي العقيدة الاسلامية اما الشريعة فكانت تعبر عن العصر الذي يبعث فيه النبي وعن تنظيم الحياة بمقتضى الواقعة والعصرية المحددة بحدود الزمان والمكان . فكانت هذه الشريعة تتغير في احكامها مراعاة لطبيعة الواقع حتى بعث محمد (ﷺ) فكانت الشريعة والعقيدة قد صيغت صياغة معجزة لتتلاءم مع كل المصور منذ البعثة حتى قيام الساعة . وبموجب الواقعة التي اتسمت بها رسالة محمد (ﷺ) فقد مثل العرب مانتها وأول من تفاعل معها وأذل الكتاب بلغتهم لذلك كان لابد من أن يمتلكوا خصوصية طبيعية نتيجة لارتباط الرسول والرسالة بهم . على ان العرب المسلمين الذين وضعوا ضمن هذا الاطار الرسالي والوطني المهمة الاولى لنشر الرسالة عالمياً لم يضعوا أنفسهم موضعاً طبقياً او نظروا نظرة استعلاء على الامم الاخرى وهذا هو أثر القرآن الذي نزل من السماء وجاء ليمبر عن علاقة الانسان بالله . وجاء النص القرآني معبراً عن وحدة المشاعر ووحدة العقيدة ووحدة المصدر . ولعل آيات القرآن الكريم اعظم تأثيراً وأوضح تمييزاً من كل الكلمات فللتأمل قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اسطغينه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين • ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اسطغى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون • أم كنتم شهاباً إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل إبراهيم ونحن لك مسلمون • تلك أمة قد خلت لهما ما كبست ولكم ما كبست • ولا تعجلون عما كانوا

→ التوراة لم يهتموا . هذه الكتب كلها نظرت الى القضية من خلال هذه الزاوية وهي تتبرك جانباً من الحق ولكن القرآن الكريم هو الفصل وقد حدد ملامح وطبيعة النظرة من خلال

يعملون • وقالوا كونوا هوداً لو نصارى تهتوا قل بل بملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين • قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما لوّتى موسى وعيسى وما لوّتى التبيان من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون^(١٥٧) ان النص واضح في تحديد طبيعة العلاقة التاريخية بين الانبياء وكيف ان اتباع هؤلاء الانبياء قد انحرفوا وطالبهم القرآن الكريم بتصحيح عقائدهم والايمان بما أنزل على آخر الانبياء محمد (ﷺ) لانه يمثل الامتداد الطبيعي لأولئك الانبياء وان رسالته جاءت لتؤكد النبوات وتصحيح الانحرافات التي طرأت عبر التاريخ على العقائد والشرائع التي بلغها اولئك الانبياء ولذلك نحن لا نؤيد الفكرة القائلة « ان شرائع التوراة هي نفسها هي الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم ادخلوها في كتبهم المقدسة »^(١٥٨) ان تعميم هذه الفكرة لا يخلو من المفاهيم الخاطئة التي سيطرت على دارسي التاريخ القديم^(١٥٩) . فقد قادتهم الاخطاء التاريخية التي نكرتها التوراة الى هذه القناعة فانكروا كل ما في التوراة ونسبوا ما فيها الى تأثير الحضارات القديمة وسملوا بعد ذلك بما وجدوه على الرقم الطينية من الاساطير والعقائد الوثنية على اساس قدمها التاريخي وانها اقرب الى التصديق كمصدر الى فهم التاريخ القديم من التوراة . فلا هذه ولا تلك تسلم من النقد وتخلو من الخطأ . ان المبدأ الاسلامي واضح في تحذيره من معلومات التوراة (بعدم تصديق اليهود وعدم تكذيبهم) (ولا بأس في التحديث عن بني اسرائيل) وهذه المفاهيم لتوجيهات النبي محمد (ﷺ) لاتباعه وهم يتعاملون مع معلومات أهل الكتاب الاول وقد سبق الكلام عنها . ولذلك لا بد للدراسة التي تتبع المنهجية

(١٥٧) سورة البقرة / ١٣٠ - ١٣٧ .

(١٥٨) سورة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٨٤ .

(١٥٩) يقول المقاد حول هذه الظاهرة : « ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلامة ل يظهر لها نفي في غير الاسم العربية . وقد ختمت بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسل و جاءت دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم متممة لها فلا تلهم واحدة منها منفصل عن سائرهما بترتيب كل منهما في زمانها وعلاقة كل منها بمكانها فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب النبوة » . المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء ' ص ٢١٨ .

الاسلامية ان تمزج الروى وتقارن الدراسات وتبحث عن الحقائق في كل المصادر سواء أكانت الكتب المقدسة أم الحفريات والرقم الطينية . وموازنتها مع نصوص القرآن الكريم الذي لا ياتي الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسجد ان القرآن قد نطق بالحق . ويمكن رسم مخطط يوضح العلاقة التي وضعها القرآن الكريم بين الانبياء منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) حتى محمد (ﷺ) ويمثل هذا المخطط النظرة الاسلامية للانبياء وبذلك نستطيع ان نضع القواعد والاسس التي عنها القرآن الكريم في تكوين نظرة المؤمنين للانبياء^(١١٠) وقد صاغ القرآن الكريم عقيدة المسلم بالنسبة للانبياء وأتباعهم وكما يأتي :-

- ١ - المسلم تحكمه نظرة واحدة الى الانبياء في المحبة والتبجيل والتعظيم قال تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفر الله ربنا وإليه المصير ﴾^(١١١) . فالانبياء سواء في التقدير الا ما ثبت « بالتواتر عنه (ﷺ) من انه سيد ولد آدم يوم القيامة كما في رواية مسلم من حديث أبي بن كعب (رضي الله عنه) بقوله (ﷺ) : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . وقد جاء عنه من باب التواضع انه قال : (لا تفضلوني على الانبياء) وقال (ﷺ) : (لا تفضلوني على موسى فان الناس يصعدون يوم القيامة فاكون أول من يهبط فاجد موسى باطشاً بقوائم المرفى فلا أدري أفاق قبلي أم جوري بصعقة الطور ؟ وقد روى البخاري : حديث (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »^(١١٢) وهذا من تعليمه (ﷺ) للمسلمين لكي يحبوا هؤلاء الانبياء ويذكروهم بخير .
- ٢ - عقيدة المسلم ان كل اتباع الانبياء في عصر نبينهم مؤمنون مسلمون فاتباع موسى (عليه السلام) في عصره وما بعده ما لم يأت نبي ينسخ دعوة النبي الذي قبله فان هؤلاء الاتباع هم المؤمنون الموحدون وكذلك اتباع عيسى (عليه السلام) ولذلك قال الله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا

(١٦٠) انظر صورة المخطط في نهاية الفصل .

(١٦١) سورة البقرة / ٢٨٥ .

(١٦٢) ابن كثير / قسم الانبياء / ص ١٨٢ - ١٨٣ .

والصالحون وانتصاري من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٦٣﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾. وهذا يؤكد أن الأنبياء لم يكونوا يدعون لأنفسهم ولا لمعشيرتهم ولا لأبائهم ولكن دعوتهم كانت واحدة لتوحيد الله في العبودية والإيمان باليوم الآخر وتغيير سلوك الإنسان وضبطه بالعمل الصالح. ولذلك قد يعاصر نبياً آخر كما عاصر إبراهيم لوط وعاصره أولاده إسماعيل وإسحاق وجاء يعقوب في حياة إبراهيم (عليهم السلام). وكما عاصر موسى هارون وعاصر عيسى زكريا ويحيى عليهم صلوات ربي وسلامه. ولا يشترط أن تكون المعاصرة في مكان واحد وكذلك لا يوجد نص يدل على أن شرط الالتقاء بين النبيين أو الأنبياء المتعاصرين وكذلك لم يرد نص يثبت وجود علم النبي بمعاصريه من الأنبياء. إذ قد يبعث الله تعالى أنبياء عبيدين في أماكن مختلفة ولا يُفْلِمُ اللَّهُ بعضهم لبعض وهذا العلم كله من اختصاص الله تعالى. ولذلك تقسم الأنوار التي مرت بها دنيا اليهود يخالف عقيدة القرآن التي أثبتناها في الآيات السابقة وأن هذا التقسيم يعبر عن عقيدة تطور الدين والدين لا بتطور وعقيدة تطور الأنبياء التي قال بها فرويد^(١٦٥) وسبقه علماء الأنثروبولوجي الغربيون الذين بحثوا تحت القرباب ونسجوا قصة تطور الأنبياء التي قال بها المؤرخون الغربيون وتابعهم مع الأسف الشديد بعض المسلمين. ولذلك نرى أثر هذه العقيدة على الذين ذهبوا لنقض عقائد اليهود وتفنيد مزاعمهم فوقعوا تحت تأثير هذه العقيدة التي مهد لها اليهود لتتميز الصورة بالكامل وضياح الحقيقة بالنسبة لغير اليهود ويحتكرون الحقيقة لأنفسهم وفيما بينهم. ونحن عندما نجد أثر هذه العقيدة في كتابات المسلمين والباحثين العرب الذين يدافعون عن القضية الفلسطينية من خلال تقويض دعائم التاريخ اليهودي فإنه أمر مؤسف ألا ينتبهوا لهذه الحقيقة فلو أخذنا كمتال على ذلك ما ذكره أحمد سوسة

(١٦٣) سورة المائدة / ٦٩ .

(١٦٤) سورة البقرة / ٦٢ .

(١٦٥) انظر فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد .

عندما قسم الانوار التاريخية نجده يذكر ثلاثة أوار :

أ - نور إبراهيم وإسحاق ويعقوب وترجع حوائذ الى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد وهو نور مستقل بذاته ليس له أي صلة بنور النبي موسى أو اليهود^(١٦٦) ونحن نتفق مع الدكتور سوسة بتمييز العصر وتحديده ولكن كل الانبياء متصلون من حيث اصل الرسالة ومبدأ الدعوة الواحدة بحسب تحديد القرآن لهذه الحقيقة .

ب - نور موسى ويسميه نور حملة النبي موسى المصرية على فلسطين . وهذا خلط واضح اذ ليست هناك في النصوص القرآنية والروايات الاسلامية حملة مصرية على فلسطين وكذلك يسميهم بالموسوية او الموسويين وهذا لا يتفق مع منهجية القرآن التي نكرناها فلم يرتبط موسى ببني إسرائيل بشخصه ولم توجد موسوية وهي تسمية تحريفية غير صحيحة .

ج - النور الثالث ويسميه نور اليهود وينبغي ان القرآن الكريم قد منّ بين هذين النور وسماه نور اليهود وفصله عن بني إسرائيل والاسرائيليين فهناك فرق بين اليهود والاسرائيليين ويستند الى قوله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ ويقول : لم يرد هنا اسم إسرائيل المرتبط بمصر إبراهيم الخليل . ويستشهد على خلط اليهود لهذه الانوار واختراع الإله (يهوه) برأي فرويد الذي يقول فيه : « لقد تحرى الكهنة في سرهم ان يوجدوا استمراراً بين عصرهم . وعصر موسى وأرانوا ان ينفوا ما يمثل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي واعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمان . ثغرة شئت في البداية بعبادة يهوه ثم تم التخلص منها فيما بعد رويداً رويداً وعلى مهل ولقد كانت رواية الكهنة تخضع للميل المحرف والمتشوه نفسه الذي جعل من الإله الجديد (يهوه) اله الاباء الاوائل » . وإنني أسأل كيف يقوِّض فرويد اليهود دعائم الدين اليهودي ؟

إنَّ الاستشهاد بالآية الكريمة على ان اليهود غير اسرائيليين استشهاد غريب

(١٦٦) سوسة / د. احمد / مفصل الرب واليهود في التاريخ / ص ٣٤٥ وما بعدها .

ولم يميز القرآن الكريم هذا التمييز للدلالة على هذا الاستنتاج وفي سورة البقرة التي عالجت في معظم آياتها أوضاع بني إسرائيل وانحرافاتهم كان الخطاب لبني إسرائيل وعلى عكس ما نهب اليه الاستنتاج نجد ان القرآن الكريم عد اليهود في عصر موسى والى حد ما قبل المسيح (عليه السلام) كانوا يمثلون المؤمنين وهذا هو تقسيم القرآن الكريم الذي هانوا أتباع موسى (عليه السلام) وأتباع أنبياء بني إسرائيل بعد موسى (عليهم السلام) مثلوا المؤمنين الذي لا يحل لكل إنسان ان يسمع بدعوتهم ويمشوا عصرهم ان يخالفهم وبعد المسيح (عليه السلام) كان أتباعه النصارى هم المؤمنين وعلى اليهود ان يتبعوا المسيح (عليه السلام) لانه بُعث اليهم ومصلحاً لما بين يديه من التوراة، وبعد النبي محمد (ﷺ) الذي بعثه الله رحمة للعالمين لابد لليهود والنصارى وكل من يسمع بدعوته الى يوم القيامة لابد لهم من الايمان به واتباعه ولن يقبل الله شيئاً غير دينه وهذا هو الذي تعنيه الآية ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ اي ان اليهود أتباع موسى الذي جاء بعد إبراهيم والنصارى أتباع عيسى الذي جاء بعد إبراهيم فان هذه التسميات اصطلاحية باتباع هؤلاء الانبياء فلا يمكن ان يكون السابق من ضمن هؤلاء الاتباع . ولكنه كان يحمل عقيدة الانبياء جميعاً الاسلام .

المبحث الثالث

إبراهيم (عليه السلام) دراسة وفكره في المصادر فهر الإسلامية والعطرية

ان دراسة التاريخ من خلال الرواية الإسلامية فقط - (القرآن والسنة) - لا يؤدي الى تكوين صورة متكاملة بتفاصيلها الدقيقة للواقعة التاريخية لان القرآن ليس كتاب تاريخ انه يعطي جوهر الواقعة ويمطي العبرة منها وهذه تحلق الهدف الذي جاء به القرآن وهو هداية البشر . لذلك أصبحت دراسة المصادر الاخرى مع الرواية الإسلامية ضرورة تعين الباحث المتخصص لكي تتكامل عنده صورة الواقعة التاريخية . ومما يؤسف له ان هذه المصادر لم تعالج معالجة إسلامية لكي تعزج مع المصادر الإسلامية وعلى عكس ذلك نجد ان المصادر القديمة (الاسرائيلية) قد أثرت تأثيراً سلبياً على دراسة التاريخ عند المسلمين فلا تكاد تجد مصدراً إسلامياً تحدث عن تاريخ قبل الاسلام الا واعتمد كلياً على الاسرائيليات وتكاد هذه الظاهرة تلغي اثر الدراسات الإسلامية القديمة لتاريخ قبل الاسلام . ان ظهور علم الآثار والعلوم الاخرى مثل الانثروبولوجي وعلوم الاحاث والنميات والدراسات اللغوية وتحليل الكتابات القديمة وفك رموزها اذى الى احداث انقلاب في مفاهيم التاريخ القديمة وزعزع الاعتماد على التوراة كمصدر أساس من مصادر التاريخ القديم وكشف النقاب عن أحداث واقوام ومدن وضحت للباحثين جوانب كثيرة من التاريخ القديم

كانت قد اسدل عليها الستار وطواها اللسيان . لقد سنحت الفرصة الان اكثر من اي وقت مضى لكي تقارن معطيات القزاة ورواياتها مع الكشوفات الاترية وتحليل النتائج لتعزيز الدراسات التاريخية وذلك نجد ان مقارنة النص القرآني مع هذه النتائج والدراسات يؤدي الى تثبيت الحقائق التاريخية واعطاء صورة واضحة وصافية عن الواقعة التاريخية . فقد اذى الاعتماد على الاسرائيليات في رواية التاريخ الى تثبيت الاساطير والخرافة والايهام وساعدت هذه الصورة الميتافيزيقية التي تشكلت عند دراسة التاريخ القديم (تاريخ ما قبل الاسلام) من المؤرخين المسلمين على بلورة فهم خاطيء لرواية القرآن الكريم وأنت الى تبني فهم احادي مستند الى الرهبة الى الاسرائيليات فاصبحت قراءة النص القرآني تتم من خلال عين شكلتها ثقافة اليهود والروايات الاسرائيلية .

ونجد ان القرآن الكريم يحفز العقل للاستنتاج من خلال سلسلة عمليات منطقية تؤدي الى نتيجة لا يختلف عليها العقلاء . ويؤكد المقاد على هذه الحقيقة لدراسة التاريخ فيقول : « واحسب لو أننا بدأنا بدراسة التواريخ الدينية منذ بداية النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفي والانكار تارة والفهاة وسوء الفهم تارة اخرى بل كان من الميسور لهم ان يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة وان يملأوا فراغ التاريخ بما يسد بدلاً من خلق الفراغ من لا فراغ ان بعض الفلكيين قد عرفوا مكان الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبرة . لانهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المنارات والاحجام . ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان إبراهيم لم يوجد - بل لقاتوا : هنا مكان إبراهيم لابد ان يشغل واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وأشور وبين المقدس وجاشان والبقراء ومكة لانها نسل واحد يدل الاخير منه على الاول فكلمها دعوات لابد فيها من شخص للرسول ولابد فيها من عنصر الحاضرة والبيادة . او لعلنا نصل الى النتيجة من طريق قريب إننا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يمارسها الواقع والعقل فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب . وما علينا إلا أن نجد ان نصتنا حاتمة تاريخية ، او سلسلة من الحوادث التاريخية الا ان نسال أنفسنا كيف ينبغي ان تحدث ؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع فلذلك هو

الامتحان الصالح وما تستخلصه منه هو الصواب ، اذا كانت دعوات النبوة متصلة بعدان القوافل فليس اولى من بلاد النهرين في العصر القديم ان تبدأ منها الدعوى الاولى ثم تتلوه المدن الاخرى بحسب مكانتها ومكانها من حيث النظر الى طريق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة فالنول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة باسم نظام (حكومات المدائن) لانه يقوم على مدن أربع او خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التي تزرع مرعاها او ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على بحسب مراحلها ويجوز ان تغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن الى مدة قصيرة كما يجوز ان تتفرق وان تنفرد كل منهما بحكومتها ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه في الازمنة القديمة وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادي النهرين وفي العالم كله . يبدأ من مدينة أور في الجنوب وينتهي الى مدينة آشور شمالاً ثم يتجه غرباً وجنوباً الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز . فمدينة أور أهم هذه المدائن ، لانها تتلقى التجارة من البر ومن البحر ويليهها مدينة آشور لانها تأخذ من الجنوب وتوزع الى ما حولها (١٣٧) لقد اقتبسنا هذه المعلومات لانها مهمة في توضيح بعض الإشكاليات في ربط معلومات الكشوفات الاثرية بالتاريخ الديني . وإننا لو تابعنا هذه الضوابط وطبقناها على المكتشفات الاثرية في بلاد الرافدين لتوصلنا الى نتيجة واحدة هي ان الحضارة على الارض بدأت في وادي الرافدين وضبقت تكوينها على هذه الارض اي بقعة اخرى وهذا يؤكد ان بداية التاريخ الديني كانت على ارض الرافدين كذلك ويؤكد لنا ان اول الدعوات التي سبقت إبراهيم الخليل كانت على ارض الرافدين لان الدين لم ينفصل عن حياة الانسان العاقل وهذه حقيقة لا يمكن اغفالها او إنكارها ان التاريخ يعلمنا السلسلة المنطقية للاحداث . ولقد حاول شبلنجر ان يطبق هذا المفهوم على التاريخ الغربي وحاول ان يرسم صورة التاريخ والمستقبل من خلال المعاناة في الاحداث والمقارنة واطلق على هذه العملية « تكوين الموقف التقويمي التاريخي (Chronological-position) . ويمكن تمثل هذه المحاولة من خلال التلقيط بين الكلمتين التاليتين تلقيطاً مزدوجاً متوازياً : الاغريق = الرومان وهذا يحدث لنا

ايضاً الآن ويمكن ملاحظة التطور عندما نلصق بين ما تم وبين ما هو آت (١٦٨) ومن خلال تطبيق التقويم التاريخي للاحداث نجد ان ارض الرافدين تشمل بداية التقويم التاريخي للانسان الواعي . وقد تابعنا منذ البداية تكرار الارتباط الديني للانسان فما انك الانسان عن الدين وقد منعت ابعاد انواع الحياة البشرية السلوك الديني للانسان وما التوتيميو والاساطير واللاهوت الا حلول مقترحة لنفس المشكلة التي تساور الضمير الانساني كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الاشياء وغايتها النهائية . لماذا يلح الضمير فيمنا وراء هياكل كهنة وجود من خلقها ؟ وتردد المشكلة الغيبية - وهكذا بانتظام - على الضمير الانساني في جميع مراحل تطوره هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الانسان بأنه في أصله (حيوان ديني) . فهناك نظريتان رئيسيتان متضادتان بصدد المشكلة التي تعرضها عليها الظاهرة الدينية . وليس التناقض بينهما قائماً بين الدين والعلم على غرار ما يوحي بعضهم اذ ان العلم لم يبرهن على عدم وجود الله او وجوده - كما نسلم بذلك مبدئياً - بل النزاع هنا بين الدينيين . بين الالهية والمادية بين الدين الذي يسلم بوجود الله وذلك الذي افترض المادية (١٦٩) وكل هذا يؤكد ان الاصل الديني والاصل الاجتماعي والثقافي كان قد نشأ على ارض الرافدين حيث بدأت الحركة خروجاً وعودة وتشكلت الجماعات البشرية في المنطقة بالامتزاج مع القضية الدينية وظهور النبوات والانبياء في منطقة الشرق الانسي . وهذه الحقيقة تؤكد كذلك ان الانبياء قد مثّلوا حقيقة تاريخية مرتبطة بالسماء وان مبدأ التماثل الذي استخدمه شبلنجر تلغفنا في دراسة ظاهرة الانبياء والنبوات لان التكرار في الحالة تؤكد أصلها « فمذ إبراهيم (عليه السلام) تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم جاءوا يخاطبون الناس باسم (حقيقة مطلقة) يقولون انهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي ويقول هؤلاء الرجال انهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته الى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء ان يسمعوها مباشرة . ولنا ان نلاحظ اولاً وقبل كل شيء ان بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً بحيث يكون غريباً نادراً . بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ إبراهيم

(١٦٨) هيلنجر / اسوالد / تهذيب الغرب / ج١ ص ٧٨ .

(١٦٩) ابن دبي / مالك / الظاهرة القرآنية / ص ٧٦ - ٧٨ يتصرف .

(عليه السلام) الى النبي محمد (ﷺ) واستمرار ظاهرة تتكرر بنفس الكيفية تُعدّ شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتكرير مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتتفة مع العقل ومع طبيعة المبدأ . وعلى الرغم مما يبدو في القضية من تمرد . فإني اعتقد أن مفتاحها موجود في قوله تعالى ﴿ قل ما كنت بهما من الرسل ﴾ وما أخري ما يفعل بي ولاهم ﴿ إن تبع إلا ما يوحى الي ﴾ . فهذه الآية تحمل أولاً : إشارة خفية الى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته (الحدث الذي يتكرر في نفس الظروف مع نفس النتائج) يمتدّ عن الظاهرة . وهي تحمل في منلوها ثانياً : ربطاً واضحاً بين الرسل والرسالات خلال المصور « (١٧٠) . وقد مثل إبراهيم (عليه السلام) بداية واضحة المعالم مستفيدة الشواهد والادلة هذه الظاهرة . وهي ظاهرة النبوات وظهور الانبياء ولقد كانت الحالات السابقة لإبراهيم (عليه السلام) موعلة في القدم تميّز تمييزاً بدالياً وبسيطاً عن الدين وقد حُظفت لنا الرقمة الطينية الكتابية الاولى بمض ملامحها ممثلة في الطوفان وبعض القصص الديني المشوب بالأسطورة التي أضافتها عقول البشر في الازمنة اللاحقة للنبوات . وقد عثر على نقش سومري يمتدّ عن قصة آدم وحواء رسم عليه صورة رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد لبنت شجرة بينهما تغيب شجرة النخل تلي عنق من التمر من طرفيها ويشاهد الرجل ماناً يده اليمنى نحو العلق أمامها ليقطف من ثمرة . كما تشاهد المرأة وهي مائة يدها اليسرى نحو العلق الذي أمامها لتقطف من ثمرة ايضاً ثم تشاهد الحية وهي منتصبه على لنبها خلف المرأة تقربها في الاكل من هذا الثمر المحرم عليهما اكله . وهذا دليل على أن شجرة النخيل وجدت على تربة جذوب العراق منذ اقدم الازمنة وأن شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة النخل بالنسبة للسومريين (١٧١) انظر الشكل (آدم وحواء) في الفصل الاول . وقد شكلت التوراة مع الرقمة الطينية مصدراً مهماً مضافاً إليها وقد حوت التوراة معلومات كثيرة إلا أنها أصابها ما أصاب الرقمة الطينية من تضخيم اسطوري وتشويه للحقائق وإيراد معلومات مخالفة للحقيقة والعقل والمنطق وقد حدثت عملية تفاعل وتمازج بين تراث الحضارات القديمة والتوراة قام بها منولو

(١٧٠) ابن دني / ملك / الظاهرة القرلدية / ص ٦٦ - يتصرف .

(١٧١) سوسة / د . احمد / فصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤٢٨ / يلخ عن ا-

H. Warad. «The Seal cylinders of Western Asia» 1910.

التوراة متآثرين بتراث الحضارات القديمة فقاموا بأنهم عملية تزيف والقتراء وإدعاء بأن هذه المصطلحات المنونة في التوراة هي معلومات أوحاها الله تعالى الى نبيه موسى . ولكن هذا التزيف والتحريف لم يطمس معالم الحقيقة التي جاء بها القرآن وأكبتها آياته وبخاصة بعد الاستكشافات الأثرية والمقارنة بين التوراة والالواح الطينية المكتوبة بالمصمارية القديمة . ومطابقة الرواية القرآنية لجوهر الحدث التاريخي مع خلو النص القرآني من الاساطير والخرافات وكل ما يخالف العقل والمنهج العلمي الحقيقي .

إن دراسة الرقم الطينية ومحتوياتها الكتابية التي عثر عليها في ارض الرافدين أكدت لنا حقيقة وهي ان التوراة قد اقتبست وبشكل حرفي وفي بعض الاحيان روايات الاحداث حتى عصر إبراهيم (عليه السلام) . اما روايات التوراة لما بعد عصر إبراهيم فقد امتازت بالتحريف والانتحال والتلفير وقد صيغت بما يتناسب مع تطلعات الشعب اليهودي وبطريقة تزعم في نفوسهم رغبة جامعة لتحقيق عقيدة التوراة التي صاغها أحبار اليهود في بابل بعد السبي البابلي وقد طبعت صياغتها بطابع الكبت والقهر والاحساس بالرغبة في الانتقام من الاميين وهم الشعوب الاخرى غير اليهود . لقد عبر القرآن الكريم عن الحقيقة من خلال متابعة الانبياء وظهورهم وأقوامهم ولذلك لا قيمة للتفسيرات المستندة الى الرقم الطينية والتوراة لم ترتبط بالنص القرآني . لقد ظهر إبراهيم الخليل في العصر الكتابي وفي اقرب التقديرات الى الواقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقد نكر القرآن الكريم انه أنزلت عليه صحف وجعل القرآن الكريم أول الصحف هي صحف إبراهيم وربطها مع صحف موسى على أساس انها تعبر عن المرحلة الاولى للنبوات والمرحلة الثانية تم التعبير عنها من خلال المسيح (عليه السلام) والانجيل الذي أكد تعاليم التوراة والمرحلة الثالثة عبر عنها النبي محمد (ﷺ) الذي أنزل عليه آخر كتاب الى آخر الزمان وجاء القرآن معجزة مستمرة بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) بخلاف معجزات الانبياء السابقين الذين كانت معجزاتهم لا تتجاوز عصر النبي وحياته وينتهي دورها بعد انتهاء حياة النبي على الارض ولذلك كان لا بد للقرآن ان يكون معجزاً في كل اوجه عرضه للحقائق وفي نظمه وصياغته في كل ما حواه بين سورة وآية . بينما التوراة والانجيل لم تكن كتباً معجزة إعجاز القرآن بقدر ما كانت تحوي وصايا وتعاليم

لم يتعهد الله بحفظها وإنما أوكّل حفظها إلى الأحرار والرهبان . وهؤلاء بشر يصيبهم ما يصيب البشر من أوهام ونقص وتمصّب لذلك كانت نتيجة طبيعية ان نجد في التوراة تحريفات وأخطاء لا يمكن تبريرها . ان ارتباط التوراة بإبراهيم (عليه السلام) ارتباطاً لا يمكن ان نجد له سنداً في التاريخ لان التوراة كتاب اليهود وهي التي أزلها الله على نبي بني إسرائيل الأول موسى (عليه السلام) ولا توجد علاقة بين الأديان اليهودية وإبراهيم الا من حيث ارتبط الأنبياء بمصدر واحد . اما ان يرتبط اليهود بإبراهيم من خلال قضية او نسب فهذا امر بعيد عن الواقع واختلاقه واضح لا سبيل إلى قبوله . وقد أكدنا ان المنهجية التي ثبتها القرآن الكريم وهي ارتباط المؤمنين والأنبياء من خلال التوحيد والمقيدة التي جاء بها الأنبياء ولكن القرآن والتاريخ يقص علينا ان اليهود شعب لم يعرف التوحيد ويؤمن به كمقيدة الا في مدد قصيرة وتاريخ اليهود منذ عصر موسى وعبادتهم للمجلد **﴿** وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخلفتم العجل من بعده واتمم ظالمون **﴾** ^(١٧٢) ويعقب القرآن بعدها **﴿** وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذناكم بالصاعقة واتمم تظفرون **﴾** ^(١٧٣) . وهكذا كشف لنا القرآن الكريم صفحات سوداً من تاريخ هذا الشعب المعاند الذي سيطرت عليه المانية والاهواء وبعد موسى وعلاقتهم بأنبيائهم **﴿** كلما جاءهم بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون **﴾** ^(١٧٤) ان هذا التاريخ وفق المنهجية والعدل الإلهي لا يمكن ان يكون له نصيب في عهد الله وتمكينه ولذلك عندما ذكر القرآن الكريم امامة إبراهيم بقوله تعالى **﴿** إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين **﴾** لقد أثبت القرآن ان الدين واحد مع إبراهيم والأنبياء جميعاً ، لذلك آمن المسلمون بما نزل على الأنبياء من كتب ولكن أقوام الأنبياء كانوا يحرفون بعد أنبيائهم كانوا بعد أنبيائهم ولذلك اثبت القرآن ان التوراة الحقيقية لا تتعارض مع القرآن الكريم من حيث الجوهر . « وفي القرآن ما يفيد ان نسخه كانت متداولة في أيدي اليهود في زمن النبي (ﷺ) وفي قوله تعالى **﴿** كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فاتوا بالتوراة فاتوها

(١٧٢) سورة البقرة / ٥١ .

(١٧٣) سورة البقرة / ٥٥ .

(١٧٤) سورة المائدة / ٧٠ .

ان كنتم صانعين (١٧٧) . وقوله تعالى ﴿ وكيف يعصونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾ (١٧٨) . وفي القرآن قرأتان عديدة أخرى على انه كان في أيدي اليهود قراطيس ومذونات في صدد الاحداث والاسماء التي ورتت في سطر التكوين ثم في صدد الاحداث التي ورتت في الاسفار الاربعة التالية له قد فقدت . ففي القرآن قصص عديدة عن إبراهيم وقومه ونريته والقائه في النار ومحاورته مع الملك لم ترد في سفر التكوين مع أخباره (١٧٩) لذلك ان ما نجده في التوراة من أخبار واحداث وتواريخ إذا ما وجد ما يلائمه من نقوش حجرية ويتطابق مع الرواية القرآنية فإننا نعتقد بوجود أساس صحيح لهذه الرواية . فان احداث موسى وما بعده قد ثبتت في طريق مقارنة لحدوثها وان كانت قد اعيد تدوينها لسبب من الاسباب ويصح ان تكون محل اعتبار مع التحفظ بسبب ما في الاسفار من غلو ومناقضات ومفارقات كثيرة . وان ما نكرته هذه الاسفار الملامح واسماء وجزيئات لا يعقل ان يكون من نسج الخيال . وكل ما يكون ان تداول الروايات شفويا ربحا من الزمن والخيال والتهصب وظروف التدوين قد كان ذا تأثير قوي فادى ذلك الى مناقضات ومفارقات وغلو . وهذا ينطبق على ما احتواه سفر التكوين ولا سيما من عهد إبراهيم وتاريخه وتاريخ نريته وما كان من احداث والاملاح في شرق الارض وغربه لا يخلو من حقيقة وأن الاحداث والاعلام والجزئيات لا يعقل ان تكون من نسج الخيال (١٨٠)

محاولة لتحديد عهد إبراهيم عليه السلام

لقد نكح لينا ان التوراة قد تنظمت في تنظيم بعض الملامح بالنسبة لتفسير إبراهيم (عليه السلام) وأصوله جدا مقارنة مع التكوين والكتابات التي عثر عليها في حفريات بلاد ما بين النهرين وتفسير هذه التوراة تتناقض في روايتها عن إبراهيم واسحاق ويعقوب فلا بد من تحليلها ومقارنتها مع الكتابات القديمة التي عثر عليها في الحفريات للوصول الى نتائج معقولة عن أصل إبراهيم وعصره . فلما جاء

- (١٧٥) : بشرة آل خبراني / ٩٢ . ميلاد .
 (١٧٦) : سيرة الملاح / ٤٢ .
 (١٧٧) : نريته / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل عن اساطير / ص ٤٠ - ٤١ .
 (١٧٨) : نريته / محمد عزة / ص ٢٥ .

في سفر التكوين / الإصحاح ١١ / ٣٠ (وكانت ساري عاقراً ليس لها ولد . وأخذ تارح ابنه ابرام وحفيده لوطاً وساري كنته زوجة ابنه ابرام وارتحل بهم من أور الكلدانيين لينهبوا الى ارض كنعان لكنهم وصلوا الى حران واستقروا فيها وهناك مات تارح وله من العمر مئتان وخمسة سنين » . ان الحديث عن أور الكلدانيين في عصر إبراهيم يبدو انه من خلط كُتِّبَ التوراة وأخطائهم . لأن « الكلدانيين لم يظهروا الا بعد سقوط نينوى في سنة ٦١٢ ق . م . »^(١٣) وهذا الخطأ مما كشفت لنا الدراسات الآتية وقد يكون ان تسميه أور قد اشتهرت في عصر تدوين الرواية التوراتية بإسم أور الكلدانيين . ومن التناقضات الأخرى عن أصل إبراهيم في التوراة انه ورد في الإصحاح / ١٢ (اترك ارضك وعشيرتك وبيت ابيك وانهب الى الارض التي اوريك — / ٤ : فارتحل إبراهيم كما أمره الرب ورافقه لوط وكان ابرام في الخامسة والسمعين من عمره فلما غادر حاران « وفي الإصحاح / ١٥ / ٧ : انا هو الرب الذي اتى بك من اور الكلدانيين لاعطيك هذه الارض ميراثاً » هذه النصوص تجعل اصل إبراهيم واهله اور الكلدانيين مرة أخرى حران أرضه وارض عشيرته وبيت أبيه . وهذا الاختلاف أدى الى توجه بعض الباحثين ان جعل اصل إبراهيم من اور الكلدانيين غير صحيح وان بدايته ونشأته كانت في حران . ولكن اور كمدينة ومركز حضاري اقدم واشهر من حران ولا سيما اننا أضلنا المعلومة التي تحدث عنها القرآن الكريم ولم تذكرها التوراة وهي حادثة الحوار مع ملك في عصر إبراهيم وان الصراع قد بدأ بينه وبين السلطة الدينية الكهنوتية وسنة الاصنام (وان حران كانت مركز عبادة الكواكب) والسلطة السياسية المتمثلة بالملوكية وطفليانها وتلكها وهذه الملامح ترجح ان يكون اصل إبراهيم من اور او بابل على ان يكون من حران . وان حران مثلت مرحلة من مراحل حركة إبراهيم في هجرته ودعوته . اما اصل إبراهيم فقد تحدثت نصوص التوراة عن اصل إبراهيم في نصوص تعكس اضطراباً ومفارقة ايضاً . فقد ورد في الإصحاح / ٢٦ سفر التثنية / من ضمن وصايا الرب لبني إسرائيل في عصر موسى (عليه السلام) / ٢٦ / تقديم ابكار الفلات / ٥ / : ثم يعلن صاحب التقدمة قائلاً أمام الرب الهكم : كان ابي اراميا تالهاً ثم انحدر الى مصر وتقرّب هناك . ومعه نفر قليل ولكنه اصبح هناك أمة عظيمة » . وهذا يؤكد ما كان يمتلكه اليهود بان اصلهم آرامي . وجاء في سفر التكوين الإصحاح / ١٤ / ٧ : استقروا

(كثر لمومر ملك عيلام وحلفاؤه) حتى اقبلوا على عين مشفاط التي هي قاش
فهزموا بلاد العمالة كلها والاموريين الساكنين في حصور تامار ، ١٣ / : وجاء احد
الناجين الى ابرام العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا اخي اشكول
وعانر حلفاء ابرام وابلقه بما جرى « وجاء في سفر التكوين / ١٥ / ١٥ : (اما
انت فستمتد بسلام وتدفن بشيية صالحة - ١٦ / : اما هم فسيجمعون بعد أربع
أجيال الى هنا لان اثم الاموريين لم يكتمل بعد » . هذه النصوص تشير الى ان
إبراهيم قد سكن مع الاموريين ونزع اليهم وهذا يرجح « ان فكرة النزوح الى هذه البلاد
جاءت اليه من كونها مساكن القبيلة التي هو منها . وان النصوص التي نكرت اصل
إبراهيم الارامي متأخرة ومتأثرة بالواقع حين تكوين الاحداث في القرن الثالث عشر
وما بعده لان الاراميين كانوا هم أصحاب السلطان وكان طابعهم هو الشامل لجميع
بلاد الشام الوسطى والشمالية بل كان يمتد الى العراق الجنوبي في هذا الظرف » (١٨٠)
والمعروف ان هجرة الاموريين وانتشارهم في بلاد وادي الرافدين والشام كانت اقدم
من هجرة الاراميين وان الموجة الارامية (قد أخذت تطراً على بلاد الشام في القرن
العشرين قبل الميلاد . وتسربت جماعات منها الى العراق غير انها لم تكن قد استقرت
وتحضرت في الظرف الذي تخمن فيه نزوح إبراهيم الى ارض كنعان كما لم يذكر أحد
من الباحثين ان جماعات منها تسربت الى شرق الارض وغربه - ارض كنعان - قبل
القرن الثاني عشر « (١٨١) وهذا كله يرجح ان أصل إبراهيم كان أمورياً « لان هذه
الموجة أخذت تطراً على بلاد الشام قبل الاراميين وتنتشر في أنحاء وان جماعات
منها تنفقت الى جزيرة الفرات ثم الى العراق الجنوبي وسيطرت عليه وأنشأت فيه
مملكة بابل الاولى « (١٨٢) وبذلك نتقدم ترجيحات امورية إبراهيم على أراميته
وكلدانيته ومن خلال إبراهيم (عليه السلام) نتصل بأقدم موجة أمورية متنت
الجنس الذي سيطر على شبه الجزيرة العربية وما بين النهرين وبلاد الشام من خلال
النبوات والانبياء في مرحلة قبل العروبة الصريحة لذلك نحن مع الدكتور برونز في

(١٨٠) برونز / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم / ص ٣٠ يأخذ من : أدري هيد /
تاريخ كلده والحدود / ومن طه باقر / مقنمة في تاريخ الحضارات القديمة / القسم الاول من
جورجي زيدان / تاريخ العرب قبل الاسلام .

(١٨١) برونز / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٢٩ .

(١٨٢) باقر / د. طه / مقنمة في تاريخ الحضارات القديمة / ١٣ ص ١٣٩ - ١٥٦

تحديد ملامح اصل إبراهيم عندما قال : وعلى كل حال ان إبراهيم من الجنس العربي الذين يسميهم المستشرقون ومن يتابعهم من كتاب العرب خطأ الجنس الصامي^(١٨٢) وعلى المنهجية القرآنية التي تنسب الاقوام الى الشخص الذي يمتاز بالصفات الكريمة كما بدأ القرآن بإطلاق انتساب البشر الى (آدم) فجعلهم بني آدم تكريماً وجعل نوح أبا البشرية الثاني تكريماً وجعل إبراهيم أبا الامة الاسلامية تكريماً ﴿ مله أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ لذلك نؤكد على ضرورة استبدال السامية لانها تسمية وهمية لا أساس لها في التاريخ ولا الكتب المقدسة . وان إطلاق الابراهيمية اكثر اقتراباً من الواقع وانطباقاً مع المنهجية القرآنية . اما عن عصر إبراهيم فقد عرفنا من خلال دراسة سيرة إبراهيم (عليه السلام) في النصوص الاسلامية انه عاش مع ابنه إسحاق وعاصر حفيده يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وهذه التسمية كانت شائعة في عصر إبراهيم (عليه السلام) وهي مرتبطة بالرب وما يقرب اليه وان اسم ايل يعني الله في اللغة القديمة وهي من الالفاظ التي استعملها القرآن عندما سمى يعقوب بإسرائيل وقد وردت أسماء جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في روايات حديثة وفي القرآن الكريم (جبريل وميكال) أسماء الملائكة والغريب ان اسم جد العرب جاء مرتبطاً بالإله (ايل) وهو اسماعيل وقد تعني (اسمع ايل) اسمع ايها الإله ايل او قد تكون اصلها سموئيل (صموئيل) المنذور الى الإله ايل . بينما نجد ان اسم ابي يعقوب هو (إسحاق) وقد كثر استخدام هذه التسميات بعد إسرائيل وبين أهل الكتاب يكثر اسم ميخائيل (اي ليحامي الإله ايل ميخا) وكذلك الخليل مشتق من (خل) و (ايل) اي حبيب الإله (ايل) كما ورد في القرآن الكريم ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾^(١٨٣) ولذلك نجد ان تسمية بابل قد جاءت من هذا التأثير وبسبب ارتباط الحياة العراقية القديمة بالله الواحد الذي اطلق عليه العراقيون القدماء (ايل) فان هذه التسمية لبابل - حفظت لنا معلماً من معالم آثار اللبوات في ارض الرافدين فكانت اول مدينة غطت وشهرةً وقدماً على الارض هي بابل وهذا يؤكد ان انشاء هذه المدينة قد أسس على أساس ديني مرتبط بالتوحيد ودعوة إبراهيم فكانت بابل تعني باب ايل اي باب الإله ايل وهذا اقرب الى القبول من تفسير النوراة الاسطوري الذي يقول : أن الله قد بلبل الالسة في بابل وتفرق اللغات في تلك

(١٨٢) دروزه / محمد عزة / م . س / ص ٣٠ .

(١٨٤) سوسة / د . احمد / مفصل تاريخ العرب واليهود / ص ٩٣ .

المدينة^(١٨٥) كما يؤكد تأثيرات النبوات في حضارة وادي الرافدين بأن ترتبط اعظم مدينة في حضارة وادي الرافدين بمقيدة التوحيد التي جاء بها الانبياء جميعاً . ويبدو اثر حضارة وادي الرافدين واضحاً على المنطقة من خلال تسميات المدن فان تسمية القدس بـ (اورشليم) يؤكد اثر حضارة وادي الرافدين على المنطقة لان العراقيين كانوا يسمون مدنهم بتسميات مقاربة واقدم مدينة عراقية هي اور وان (اورشليم) تعني مدينة السلام . اما اسم اسرائيل فقد ورد نكره في (قصيدة منقوشة على جدران الكارناك سجلت فيها انتصارات مرتبناح احد ملوك الاسرة التاسعة عشرة الذين كان حكمهم نحو ١٢٢٥ - ١٢١٥ ق . م . وعبارة القصيدة تقول : (ان إسرائيل خربت ولم يبق لها بنر) . وقد نكر بعض المؤرخين استناداً الى الدراسات الاثرية ان قبيلة من بني اسرائيل هربت من مصر الى فلسطين قبل حكم هذا الملك فرارا من الاضطهاد الذي وقع عليها في عهد ابيه رعمسيس وانها هي التي نكل بها مرتبناح لانها تعمدت على الحكم المصري في فلسطين . حيث يكون في هذا توفيق بين وجود جماعة من بني إسرائيل في فلسطين قبل خروج بني إسرائيل الجماعي مع موسى^(١٨٦) اي ان مرتبناح نكل بهم في فلسطين وقضى عليهم وكان ابوه رعمسيس الثاني نكل بهم عندما كانوا في مصر او كان جزء منهم في مصر . وفي القرآن الكريم إشارات الى وجود لاصول قبائل إبراهيمية او متحالفة مع قبيلة إبراهيم في مصر ففي الآيات التي تحدثت عن يوسف في سورة يوسف على عادة المصريين في تسمية ملوكهم بالفراعنة ولكن القرآن كان يسمي رأس النظام بالملك ﴿ وقال الملك أتوني به استخلصه نفسي ﴾ وهذا الاستعمال القرآني للفظه ملك سلط الضوء على حقبة حصل فيها تغيير سياسي في نظام الحكم وسقوط مصر بأيدي الهكسوس (الملوك الرعاة) كما يسميهم التاريخ القديم . والهكسوس « شكلوا كما تذكر كتب التاريخ القديم ثلاث أسر الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (١٦٨١ - ١٥٨٠ ق . م .) وكان من أسماء ملوكهم (يعقوب

(١٨٥) « بابل تعني (باب المي) اي باب الله ولفظة بيل بالعبرانية تعني البليدة والتشويش ولما ارايت القنطرة التحدث عن بابل اعرضت عن معناها الاصلي وتحدثت عن بليلة الالسة فمسخت المعنى الذي اراده البابليون « انظر متي / سليم ملحم / مهل الشرائع / ص ٩٢ .

(١٨٦) بروزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٣٦ .

(حر) (اي يعقوب ات) . والهكسوس كلمة مصرية وهي تحريف للقب (حقا خاست) اي حاكم البلاد الاجنبية وكان لقب يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التي كانت تعيش في شرق مصر يؤيد ذلك العثور على هذا اللقب مكتوباً فوق مظاهر البنو الساميين القادمين الى مصر في مقابر بني حسن «^(١٨٧) هذه المعلومات ترجح بان الهكسوس هم القبائل البدوية التي كانت تسكن في فلسطين وكانوا قرييين من إبراهيم وقبيلته وهناك علاقة بينهم وفي سورة يوسف ايضاً يذكر القرآن الكريم وصفاً لمن كان يسكن فلسطين وفي قوله تعالى حكاية عن يوسف ﴿ ٥٠٠٠ وقال يا ابي هذا تلويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد احسن بي الا اخرجني من السجن وجاء بكم من البنو ٥٠٠٠ ﴾^(١٨٨) لقد وصف يوسف طبيعة حياة أهله بالبدواة وهذا يدل على ان فلسطين كانت تحكمها القبائل وكانت في مرحلة انتقالية بين البدواة والحضارة ولم يكن هناك نظام سياسي واحد يحكمها وإنما مناطق نفوذ لسلطان القبائل وقد يكون الهكسوس جماعة من المبرانيين لان المبرانيين كانوا يمشون حياة التنقل والبدواة وهؤلاء العبريون لا علاقة لهم باليهود « وقد استخدمت كلمة عبري من قبل طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام حتى صارت كلمة (العبري) مرادفة لابن الصحراء او ابن الغادية بوجه عام . وبهذا المعنى وردت كلمة (الابري) و (الهيري) و (الخبيرو) و (العبيرو) في المصادر المسمارية والفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين «^(١٨٩) وبذلك تتفق تسمية القرآن الكريم لطبيعة الحياة في فلسطين بأنها حياة بدوية ولغة العبري المذكورة في المنونات والرقم الطينية ووثائق تل العمارنة والرقم المسمارية التي تل على المقاتلين الاشداء والرعاة . وإذا كانت أحداث عصر يوسف في « الفترة الثانية من أسر هكسوس »^(١٩٠) كما يفترض علماء التاريخ القديم لمصر . وهذا يعني أنها كانت بحدود ١٦٥٠ اي القرن السابع عشر قبل الميلاد . وكان إبراهيم قد توفي في هذه المدة ولم تكن وفاته قديمة جداً لانه (عليه السلام) أترك

(١٨٧) عبدالهادي / د. جمال مع د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ - نرية

ابراهيم / ص ١٣٢

(١٨٨) سورة يوسف / ١٠٠

(١٨٩) سورة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤٩٥ .

(١٩٠) د. جمال عبدالهادي / اخطاء يجب ان تصحح م . ص / ص ١٣٣

مقبوب وفي ضوء هذه الحقيقة بإمكاننا ان نضع عصر إبراهيم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وإذا وضعنا بالاعتبار طبيعة الاعمار التي كانت اكثر قليلاً من المعدلات للعصور المتأخرة فقد يصل التقدير الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

البحث عن إبراهيم (عليه السلام) في غير الكتب الدينية :

ان الذي يدرس تاريخ إبراهيم (عليه السلام) يحتاج بان هذا النبي العظيم لم تتحدث عنه غير الكتب المقدسة ، وعشرات الالاف من الرقم والالواح الطينية سكنت عنه

إن الباحث يأخذ هذا الصمت المطبق ، إذ لم يترك القدماء موضوعاً يمس حياة الانسان الا وتحدثوا عنه . تحدثوا عن الكون والخلق والتاريخ والعلوم والمدارس والتعليم والمقائد والالهة والملوك وحروبهم وأعمالهم وعن القضاة والقوانين وعن الزراعة والطب والحكمة . أين إبراهيم ؟ أين جهوده وآثاره ؟ أبو الانبياء أول المراحل الواضحة المعالم في مسيرة الانبياء . عندما تسأل المتخصصين في التاريخ القديم عن إبراهيم (عليه السلام) . الكل يجيب لا يوجد اي دليل آثاري يذكر إبراهيم وبوره في تاريخ الانبياء ! ولكن الحقيقة ان هذا السؤال يتجاهل أساس القضية فنحن نعلم ان التاريخ القديم لم يبحث عن إبراهيم وأن الذين درسوا التاريخ القديم على الطرف الآخر بالنسبة للتاريخ الديني وإبراهيم بخاصة . لذلك نحاول أن نجتمع من القطع المتناثرة القليلة أجزاء ترتبط بهذا النبي وشخصيته وان نرسم صورة تقرب إلينا الحقيقة الضائعة وان نفرز بين الركام الهائل من الممنونات المكتوبة على الالواح الطينية على مدى آلاف السنين . لعلنا نجد اسماً او نكرأ لحدث او اثرأ يربطنا بهذا الانسان العظيم الذي ارتبط بالانسانية من خلال جهوده في اعادة الانسان الى عقيدة التوحيد وعلى مساحة العالم القديم الذي كان يشغله الانسان في عصره فقد انتقل خليل الرحمن من العراق الى فلسطين وإلى مصر والحجاز وشكل مساراً للقضية من أهم قضايا الانسان وهي ارتباطه بالعقيدة التي بلغ بها ودعى إليها الانبياء جميعاً منذ آدم ونوح ، وقد ترجع لدينا ان اليهود لعبوا دوراً في صياغة تاريخ الانبياء وحاولوا ربط الاحداث بتاريخهم وبخاصة شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، فقد جاء في سفر دانيال (ان نبوخذ نصر صنع تمثالاً من ذهب وأمر

الناس بالسجود له ورفض ثلاثة يهود السجود للصنم وهم (شدرخ وميشخ وعبد نفو) فأمر نبوخذ نصر بتحريقهم في أتون النار . وقد جاء في سفر دانيال ٣ : كلام نبوخذ نصر للثلاثة : والآن ان كنتم مستعدين لدى سماع صوت الآلات المرسالية المختلفة ان تحلوا وتسجدوا للتمثال الذي صنعته اعطو عنكم ولكن ان ابستم السجود تطرحون في تلك الساعة في أتون النار المتقدة ، وأي إله يقدر أن يخلصكم عندئذ من يدي ؟ فاجابه شدرخ وميشخ وعبد نفو : لا داعي لأن نجنيك عن هذا الشأن لأن إلهنا الذي نعبد قاهر أن ينجينا من أتون النار المتقدة يخلصنا من يدك أيها الملك وحتى ان لم يخلصنا فاعلم يقينا أيها الملك اننا لا نعبد الهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته فاستشاط نبوخذ نصر حنقاً ... وأمر ان يضرعوا الآتون سبعة أضعاف عما كانت عليه العادة ... حينئذ أوثق الرجال بما عليهم من ثياب وسراويل وأقمصة وأربطة وطرحوا في وسط أتون النار المتقدة ... وان لهيب النار احرق الرجال الذين حملوا شدرخ وميشخ وعبد نفو وطرحوهم في النار فسقط هؤلاء الرجال الثلاثة موتقين وسط أتون النار المتقدة وما لبثت الحيرة ان اعترت نبوخذ نصر فذهب بسرعة وقال الى مشيريه : ألم نطرح ثلاثة رجال موتقين في وسط النار ؟ فاجابوا : صحيح ايها الملك فقال : اني أرى أربعة رجال طليقين يتمشون في وسط النار لم يزلهم أذى ومنظر الرابع شبيه بإبن الالهة ... ثم ينادي عليهم نبوخذ نصر فيخرجون من وسط النار واحاط علماء الدولة بهم فوجدوا ان النار لم تؤذ أجسادهم ولم تحرق شعرة من رؤوسهم ولم تشط ثيابهم ولم تعلق بهم رائحة النار فقال نبوخذ نصر : ببارك اله شدرخ وميشخ وعبد نفو الذي أرسل ملاكه وانقذ عبيده الذين اتكلوا عليه وخالفوا امر الملك وبنلوا أجسادهم كيلا يعبثوا او يسجدوا لإله غير الههم . لهذا قد صر مني أمر ان أي شعب او أية أمة او أي قوم من أي لسان يذمون اله شدرخ وميشخ وعبد نفو يمزقون إرباً إرباً وتصبح بيوتهم أنقاضاً اذ ليس هناك اله آخر يقدر ان ينجي مثله « (١٩١) . ان هذه التفاصيل تؤكد ان احداثها تشبه حادثة تحريق إبراهيم وقد ذكر العقاد : « ان الشبه بين هذه القصة وقصة إبراهيم ظاهر » (١٩٢) وقد حاول بعض شراح التوراة الترميزية وتحريف الحقائق عندما وجدوا في ترجمة يوناثان بن عزبيل للتوراة من السريانية او الآرامية بأن إبراهيم قد نجى من نار الكلدانيين وقالوا ان أور الكلدانية

(١٩١) سفر دانيال ٣ : ١٠ - ٣٠ .

(١٩٢) العقاد / عباس محمود / إبراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ .

تعني النار وبالعبرية تعني النور فالتبس عليه الامر فترجم النور بالنار « ولكن هؤلاء الشراح يدسون ان القصة قديمة وريت في باب النصيحات من القسم الثاني من المصنفا وانها اطول أصولاً وفروعاً من أن تبني على خطأ في ترجمة كلمة . ولا بد ان يلاحظ كذلك ان الكنيسة السريانية التي يعيش اتباعها في بلاد الكلدانيين القديمة بين سوريا والعراق والتي اشتهر آبائها بدراسة السريانية - وهي الآرامية بعينها - لا تعد ان القصة ناشئة من غلط في الترجمة (اي نجاة ابراهيم عليه السلام) وتقيم لنجاة ابراهيم من النار حفلاً سنوياً في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني^(١٩٢) . وهذا يؤكد لنا ان القصة اي قصة حرق الثلاثة مأخوذة من التراث البابلي وضمها اليهود واقتبسوها اثناء السبي وغنّوها معالمها لخدمة العقيدة اليهودية وتعتظيم ديانتهم وربطوا أحداث القصة بتاريخهم وجعلوها معجزة لا يبطالهم . وهذا يفسر لنا اختفاء ملامح القصة من الرقم الطليدية إذ قد يبدو ان عملية طمس متعمد لمعالم القصة قد حدثت فعلاً .

لقد حاولنا سابقاً ان نحدد عصر ابراهيم بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد وقلنا قد يصل عصره الى ابعد من هذا التقدير فيصل الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهذا يتفق مع تقديرات بعض العلماء الى « ان ابراهيم (عليه السلام) كان يعيش في المدة (من ١٩٤٠ الى ١٧٦٥) ق . م . »^(١٩٣) وقد نقل المقاد عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس عن ابراهيم (عليه السلام) « ويذكر المؤرخ بروسوس^(١٩٤) أبانا ابراهيم ولا يسميه حيث يقول انه من الجيل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صنق متبحر في العلوم السماوية وزاد المؤرخ هكتاسوس^(١٩٥) على

-
- (١٩٣) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ - ٥٠ .
 (١٩٤) مهراڤ / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ج ٣ ص ١٢٢ .
 (١٩٥) بروسوس : كاهن في معبد الإله مرموخ في مدينة بابل عاصر الاسكندر المقدوني وألف كتاباً الى الملك البطولميس الاول (٢٨٠ - ٢٦١ ق . م .) عن تاريخ بابل ضمنه مطبوعات عن الطوفان البابلي غير ان هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق منه سوى مقتبسات في كتب بعض المؤلفين الاغريق انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان ص ٣٠ الهامش وانظر كذلك الاحمد / د. سامي سميد / ملحمة كلكامش / حيث يقول عنه : المؤرخ اليوناني المشهور يروخوسا (بروسوس الذي استوطن بابل في القرن ٣ ق . م .) .
 (١٩٦) عاش في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .

نك انه الف كتاباً عنه وقال ثيقولا النمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه ان ابراميس (حسب الكتابة الاغريقية) حكم في نمشق وكان مفيراً قتم من ارض بابل من البلاد التي تسمى الكلدانيون ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى ارض كلعان - وتسمى اليوم يهوذا - وفيها نريته او لا يزال اسم ابرام مشهوراً في اقليم نمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام ^(١١٧) . هذه المعلومات نكرها يوسيفوس في تاريخه ينقلها عن مؤرخين قبل الميلاد وهؤلاء نقلوا عن مصادرهم وان كانت هذه المعلومات لا ترقى الى الصحة والتصديق ولا تخلو من صياغات مشكوك فيها الا انها تعطينا فكرة عن شهرة شخصية ابراهيم عند المؤرخين القدماء وتثير تساؤلات عن سر توقف النقل عن هذه الشخصية وان هذا التوقف او الاختفاء لشخصية ابراهيم (عليه السلام) في الملونات القديمة . يبعث الحيرة ويلقي ظلالاً من الشك عن طبيعة مسار المعلومات او التشويش عليها او التشكيك فيها وقد سبق ان أشرنا الى محاولة مستر ويلي في نفي حادثة وجود اسم ابراهيم في حفريات اور . اننا لا نزال نأمل ان تملن بعض المعلومات مما يلقي الضوء على شخصية ابراهيم من خلال الحفريات ومن الجدير بالملاحظة ان احداً من المتخصصين بالاثار لم يلف شخصية ابراهيم او يحزم بعزم وجوبها لشدة ظهور اثر هذه الشخصية على التاريخ وتاريخ أبيان التوحيد الثلاثة الكبرى الاسلام والمسيحية واليهودية وكذلك لم تظهر لحد الان معلومات توضح معالم شخصية الخليل من خلال نتائج الحفريات او مدونات الألواح الطينية التي كانت شائعة في عصر ابراهيم (عليه السلام) . ان عصر ابراهيم يمكن ان يوضع في موازاة عصر حمورابي على وجه التقريب « وهو الملك البابلي المشهور الذي اعتلى منصة الحكم في سنة ١٧٩٢ ق م . واستمر لمدة اربعة واربعين عام حتى عام (١٧٤٩ ق م .) حيث خلفه ابنه سمو ايلونا » ^(١١٨) . على اننا ونحن نتعامل مع الحفريات لابد ان تؤكد حقيقة هامة وهي ان هذه الحفريات لا تعطينا توضيحاً وتفصيلاً دقيقاً لاحداث التاريخ القديم « وعلى كثرة الاحافير لا نجد بينها خبراً يمين لنا التاريخ في حاث من حواث تعيين الجزم واليقين ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب وبعد الموازنة والترجيح . ومن الامثلة الكثيرة على هذا ان المنقبين كانوا يمينون سنة

(١٩٧) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٢٠

(١٩٨) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / ص ٩٦ .

١٩٤٠ ق م . لحكم حمورابي تم انكشفت أحافير (ماري) لاندري بارت فقدموها قرناً كاملاً الى نحو ١٨٤٠ لانهم وجدوا ملوكاً معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين^(١٩٩) لكن الشيء الاكيد والوحيد الذي تقدمه لنا هذه الحفريات هو انها تمثل العصر الذي تنتمي اليه وتتطابق مع سنوات هذا العصر وهذه ايضاً قد تتعرض للتزوير كما يفكر د. طه باقر بان « اغرب ما وجد المنقبون حديثاً في الموضع الاتري المعروف باسم (سلطان تبه) في جنوبي تركيا بالقرب من حران - أجزاء من الملحمة ورسالة عجيبة زورها كاتب قديم (عاش في الالف الثاني قبل الميلاد . فقد جاءت تلك الرسالة على لسان البطل جلجامش معنونة الى أحد الملوك القدماء يطلب منه جلجامش ارسال احجار كريمة ليصنع منها تعويذة لصاحبه انكيو^(٢٠٠) . ان احتمالية الخطأ في الحكم على الحدث التاريخي من خلال الحفريات كبيرة بل ان هذه الحفريات قد تقود الى أوهام وأخطاء تغلب الحقائق لاسباب عديدة منها ان اللغة التي كتبت بها اندرست ولذلك جاءت الترجمات لهذه النصوص غير دقيقة وقابلة للتغيير والتعديل . ومن أسباب كثرة الاخطاء في قراءة التاريخ القديم ان المنونات عجزت عن ابطال وملوك وجبايرة وضعوا ضمن ميثولوجيا كانت تعبر عن تمجيد وتضخيم يتسم بالمبالغة الممزوجة برؤيا دينية جاءت لتسند وتغذي الحاجة الدينية لدى الانسان في تلك العصور وعجزت كذلك عن السلطة السياسية وعن الوثنية وثقافتها لذلك كانت الألواح مشحونة بالاساطير والتمجيد والتضخيم ولا تعبر عن الواقع الا في حدود ضيقة مثل عقود البيع والشراء والمعاملات التجارية وبعض المجالات البعيدة عن الدين والملك وان كان هناك « انطباع لدى بعض الباحثين ان التأليف الادبية السومرية كلها كانت ذات صيغة دينية وقد جرى تأليفها على يد كهنة لاستعمالها في الطقوس الخاصة بالمعبد . ويبدو ان مثل هذا الانطباع جاء نتيجة وجود أعداد غير قليلة من الألواح المنونة بموضوعات ذات طابع ديني كالادعية والصلوات والترانيم والاساطير^(٢٠١) ان دراسة التاريخ من خلال نقوش الحفريات لا بد ان تتسم بالحذر والتحليل العميق الذي يعتمد على المقارنة والفطنة لكي يصل الباحث الى نتيجة مقبولة تصمد أمام احتمالات النقد الكثيرة المحتملة بسبب تجدد

(١٩٩) المقاد / عباسي محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٥٥ - ١٥٦

(٢٠٠) باقر / د. طه ملحمة كلكامش / ص ٢٥

(٢٠١) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٤٩ .

واستمرار البحث والتفتيق وتحليل المعلومات . لذلك اذا جاز لنا ان نضع عصر إبراهيم (عليه السلام) مع عصر حمورابي فان هذا يعني ان عصره في اصطلاح علماء البابليات ضمن العصر البابلي القديم . وقد سجل هذا العصر تقديراً أساسياً في تكوين شخصية الانسان وقد سجلت النقوش وعياً امتاز به الفرد في ذلك العصر « واذا كان الانسان من قبل قد شعر بالضعف وعدم القدرة او العجز امام الاشباح التي جلبت له الازى والمرض فقد نقل إدراكه لامكانياته المتنامية والمسؤولية الكبيرة الان الى إله خاص الإله الحامي »^(٢٠٢) وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل لانها عبرت عن متابعة لبقية في بناء شخصية الانسان والتفتير الجنري الذي حصل عنده وهو الذي عبر عنه ائب العصر البابلي القديم بربط الانسان بفكرة الحياة بعد الموت والتأمل في ظاهرة الموت « وهكذا صار البحث عن الخلود في الحياة موضوعاً مهماً في الادب (motive) ونجد في ملحمة كلكامش في الرواية البابلية القديمة للملحمة في موضوعها يتسلم كلكامش النصيحة : « كلكامش الى أين أنت ذاهب ؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجدها اذ حين خلقت الالهة الانسانية قررت للانسان الموت واحتفظت لنفسها بالحياة . اذاً فأملأ يا كلكامش بطنك : كن فرحاً ... والطريف ان النصيحة هنا تعطى بالذات من اجل الاستمتاع بالحياة وتذيق هذا الاشارة الى محاولة ارضاء الالهة بالتقنين وبهذا ربما يمكن الوصول الى المشاركة بالخلود »^(٢٠٣) هذا التحريك في وعي الانسان لم يأت نتيجة تطور في عقل الانسان اذ ان هذه الافكار لا يمكن تحصيلها بالتجربة او الفكر المجرد ولكنها عبرت عن اصداء وانعكاس على مدى ازمان طويلة الامد لاثار أولئك الاشخاص (وهم الانبياء) الذين جاؤوا ليربطوا الانسان بالحقيقة ويوضحوا له الالفاظ والمعضلات التي كان عقله يصجز عن تفسيرها وهي الموت وما بعد الموت والقدر والحياة لذلك نجد ان مستوى هذه الاعمال يتردد بين الاسطورة والحقيقة فنعلمنا تتحدث النصوص عن مصير الانسان تكون هذه النصوص تعبير عن الوعي والقلق ولكنها من جانب آخر تدفع نحو البحث عن الخلود والتشبه بالإله وهذه الظاهرة وهي المزج بين الاسطورة والواقع كانت أكثر وضوحاً في مجال المعتقدات المراقية القديمة « وإن الاساطير السومرية والبابلية الخاصة بالكون والالهة تشغل حيزاً كبيراً في مجمل الناتج الادبي الراقديني وعلى الرغم من

(٢٠٢) كلنل / د هورست / حمورابي ملك بابل وعصره ترجمة د غازي فريد / ص ٨٤ .

(٢٠٣) كلنل / د هورست / م . س / ص ٨٥ .

ان كثيراً من القضايا التي عالجوها في تلك الاساطير مبنية على أساس منطق الفكر الميثوبي (أي الفكر الاسطوري (Logic of mythic thought) الا انهم خلصوا الى افكار ومعتقدات لا تبدو بعيدة عن منطق العلم احياناً فقصص الخليقة في وادي الرافدين تؤكد على ان الكون في البدء كان كتلة واحدة لكن الالهة انليل (اومريوخ) شطرها الى قسمين خلق منهما السموات والارض ثم ان كثيراً من المعتقدات السومرية والبابلية تركت بصمات واضحة في معتقدات اقوام عديدة اخرى وعلى وجه الخصوص في معتقدات المبرانيين (مثل عملية خلق الانسان والكون وقصة الفريوس المفقود وقصة الطوفان كما ان موضوعات توراتية اخرى مثل قصة ايوب ونشيد الاناشيد لسليمان والافكار الخاصة بالموت والعالم الاسفل هي الاخرى ذات جنور رافيدونية) ومن المعروف لدى الباحثين ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) كان واحداً من المبادئ الاساسية التي اتصفت بها المعتقدات الدينية عند سكان وادي الرافدين اذ انهم شبهوا الالهتهم بالبشر تماماً وقد ترفع الحجب بين الالهة والانسان احياناً ... فلجد ان الالهة تتحدث وتتعامل مع الانسان الذي يكون في مثل هذه الحالة أحد الحكماء ... او الاتقياء او احد الملوك ومع ذلك فان الالهة تتصف بالسمو والرفعة والقدسية وقبل هذا بالخلود الذي استأثرت به منذ بداية الخليقة^(٢٠٤) لقد اربنا ان يؤكد من خلال استشهدنا برأي الدكتور فاضل عبدالواحد وهو العالم البصير بالسومريات والبابليات وقد أكد الحقيقة التي نكرناها في البداية ان هذه المعتقدات عبرت عن حقيقة وخيال فالحقيقة مثلت آثار النبوات والانبياء . والخيال هو الذي أنتج عقل البشر بعد النبوات والتحريرات . وان تتطابق الحقيقة المذكورة في الألواح السومرية والبابلية مع الحقيقة المذكورة في التوراة مع الحقيقة التي ثبتها القرآن الكريم ولم يستطع العلم الحديث تفنيد واثبات خطأها . كل هذا يؤكد وحدة المصدر وهو الله جلت قدرته وانه قد اوحى هذه العقائد الى الانبياء الذين أرسلهم الى أقوامهم وتناقلت أقوامهم هذه العقائد وأضاف وحرفت فكانت الصورة النهائية الاسطورية التي تحمل بين طياتها اثر الحقيقة والوحي السماوي .

ومن بين القضايا التي تخضع لهذا المفهوم من تفاعل مع الواقع وتأثير البيئة بالظروف هي قضايا الشرائع والقوانين القديمة فالمعروف ان المجتمع البدائي لا

يحتاج الى قوانين تنظم علاقاته بقدر المجتمع المتطور ولذلك كانت القوانين والحاجة الى الحرية والعدالة الاجتماعية وبقية المتطلبات الانسانية لا تبرز بصورة ملحة الا من مجتمعات بلغت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي»^(٢٠٥) وكذلك هذه الشرائع لم يعرف لحد الان أساسها وجنورها ولكنها وجدت هكذا على الرقم الطينية وهي تقاچننا بتنظيمها ونقته وتفاصيلها كما فاجتتنا حضارة وادي الرافدين في شموليتها ولذلك سنتوقف قليلاً عندها لمقارنتها بالشرائع الدينية التي أوحاها الله الى أنبيائه ١ .

الشرائع القديمة :

من المعروف لدى الباحثين المتخصصين في تاريخ الاديان ومقارنتها والاسلاميين منهم بخاصة ان هذه الاديان عبرت عن عقيدة واحدة وهي عبادة الإله الواحد الاحد ، وقد أرسل الله الانبياء جميعاً ليبلغوا هذه العقيدة الى أقوامهم . قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكل الرسل جاءوا بالدعوة الى هذه العقيدة وكل الكتب الإلهية نزلت لبيانها وبيان ما يبطلها او يناقضها او ينقصها وكل المكلفين من الخلق أمروا بها »^(٢٠٦) . أما الجانب الآخر الذي يبعث به الانبياء فكان مجموعة ارشادات وتوجيهات ونصائح يحملها النبي الى قومه وهذه المجموعة من التوجيهات تتناسب مع الواقع والمصر وليست ثابتة بل تتغير في بعض جوانبها من نبي الى آخر وتتطور بحسب تطور المجتمع وعصره وله يرسل الله نبيا الا بهاتين الحقيقتين عقيدة توحيد الإله وشرعية تنظم علاقات المجتمع فيما بينهم قد تحدثت هذه الوظيفة للانسان منذ آدم (عليه السلام) يقول تعالى ﴿ فلما لهبطوا منها جميعاً إلهما يتبينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكنبوا بلآياتنا لؤنك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾^(٢٠٧) . وتحدثت في رسالة نوح (عليه السلام) بقوله تعالى ﴿ ان اعبدوا

(٢٠٥) زهير / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٤ .

(٢٠٦) الطوان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / ص ٦ .

(٢٠٧) سورة البقرة / ٢٨ - ٣٩ .

الله واتقوه واطيعوه»^(٢٠٨). وفي عصر إبراهيم تطورت الحياة وأشكالها وتعمقت العلاقات الاجتماعية وتبلورت علاقات ونظم احتاجت الى تحديد أوسع ومتابعة أكثر تفصيلاً من توجيه النبي وطاقته فقط كما في عصر نوح (عليه السلام). فانزل الله صحفاً سميت في القرآن الكريم بـ (صحف إبراهيم) كما في قوله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ والآخرة خير وأبقى ان هذا ففي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى^(٢٠٩) وما بين آدم ونوح وإبراهيم كان هناك أنبياء انزل الله عليهم شرائع ووحياً « وكانت لابرئ (بعد آدم وقبل نوح عليه السلام) مواعظ وآداب . فقد دعا الى بين الله وعبادة الخالق والعمل الصالح وحث على الزهد في الدنيا الفانية الزائلة ومن حكمه (الصبر مع الايمان يورد الطبري »^(٢١٠) ولإبراهيم تراث مبثوث في الانبياء الثلاثة الكبرى ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحدثنا عن حكمه إبراهيم وحلمه وفي التوراة والانجيل كذلك . وفي انجيل برنابا^(٢١١) صورة من صور العذاب للالغايا الذين لا يتصدقون « ومات الغني ايضاً احتملته الشياطين الى نراعي إبليس حيث عانى اشد العذاب . فرفع عينه ورأى العازر من بعيد على نراعي إبراهيم فصرخ حينئذ يا أبتاه إبراهيم ارحمني وابعث العازر ليحمل لي على اطراف بنائه قطرة ماء تبرد لسان الذي يحذب من هذا اللهب . فاجاب إبراهيم : يا بني انكر بانك استوفيت طيباتك في حياتك وللعازر البلاء . فصرخ الغني ايضاً (يا أبتاه إن لي في بيت أبي ثلاثة اخوة فارسل عازر ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا الى هنا . فاجاب إبراهيم : عندهم موسى وإبراهيم فليسمعوا منهم . اجاب الغني : كلا يا أبتاه إبراهيم

(٢٠٨) سورة نوح / ٢ .

(٢٠٩) سورة الاعلى / ١٦ - ١٩ .

(٢١٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٦ .

(٢١١) برنابا : هو حوارني من لنصار المسيح الذين يلتقيهم رجال الكنيسة بالرسول صاحبه بولس زماً (اي لبرنابا) بل كان هو الذي عرف التلاميذ ببولس ورجع الى اورشليم لان تلاميذ المسيح ما كانوا يلتقوا بإيمان بولس بعد ما كان من مدة عداوته لهم لولا برنابا الذي عرفه أولاً ثم وثقه بهم . والانجيل برنابا لا تعترف به الكنيسة ويقولون انه من وضع بعض المسلمين ويختلفون من واضمه ؟ وبعد الانجيل برنابا وثيقة تاريخية مهمة لدراسة كتاب التاريخ المقدس والانجيل الآريمة انظر مقدمة محمد رشيد رضا (الناشر) على انجيل برنابا ص (٣ - ٥) وانظر الى انجيل برنابا / ص ٣٦ وما بعدها برنابا الانجيل ، ترجمة من الانكليزية سقادة / د خليل .

بل إذا قام واحد من الاموات يصنقون . فاجاب إبراهيم : ان من لا يصلق موسى وإبراهيم لا يصلق الاموات ولو قاموا » . برنابا - الفصل الرابع والعشرون . وفي برنابا ايضاً : اجاب ابراهيم : انأ يا ابني ليس للآله نفس فكيف يهبون الانفاس ؟ ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطوا إذا الحياة ؟ فمن المؤكد يا أبتي إن هؤلاء ليسو هم الله) لقد كانت لتعاليم إبراهيم آثار عظيمة على الانسانية في تاريخها الطويل . « ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضلُه وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم دعوتهم وجهانهم والى أصحابهم وتابعيهم بإحسان ومازال العالم ولا يزال يمشى في ضلولهم ويميش في البناء المحكم الذي بذوه «^(٢١٢) ولعل اهم الآثار تلك الشرائع التي نظمت حياة الناس وحددت لهم الحدود وبيّنت لهم المحرمات وبعثتهم الى القيم والاخلاق والعمل ولم تنفك هذه الشرائع عن تلبسها بالدين فكل قانون وشرعة مهما كانت لابد ان يكون روحها الدين ومن المعلوم ان مصادر كل قوانين البشر مستمدة من الدين والعرف والعادة والمبادئ العدالة وسوابق القضاء «^(٢١٣) . لقد حاول الملوك والقادة في التاريخ القديم ان يحققوا العدالة « وقد بنى ملوك العصر البابلي القديم جهداً مستمراً لتأخذ العدالة مجراها واصدروا القوانين لحماية الارامل واليتامى والضعفاء والمساكين وأكثروا على ذلك في مخطوطاتهم «^(٢١٤) وكان هؤلاء الملوك يصوغون تشريعاتهم في إطار ديني لكي تكتسب هذه التشريعات اثر الالتزام وتفرض شعوراً بالخوف من مخالفتها ومثال ذلك في اقدم الشرائع (شريعة اورنمو) (٢١١١ ق . م .) استخدم النهر كوسيلة من وسائل التحقيق في إثبات الجريمة « والنهر في العراق القديم كان مقدساً حتى انه اصبح آلهة في العهد البابلي القديم كما هو واضح في شريعة حمورابي . فالمتهم الذي لا وجود لآلته واضحة تؤيد التهمة يلقي في النهر الحكم فاذا خرج سالماً فهو بريء وان غلبه النهر فهو مذنب وان النهر في الواقع لا يستطيع ان يميز بين المذنب والبريء ولكن الذي يظهر الحقيقة هو المتهم نفسه لانه ان كان بريئاً فسوف يسبح

(٢١٢) الندوي / ابو الحسن علي الحسيني / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ٢١ .

(٢١٣) مصطفى / د عبدالله / اصول القانون / ص ٢٣١ .

(٢١٤) كلنفل / د. هورست / حمورابي وعصره ترجمة د. غازي هريف / ص ٨٧ .

بكل ثقة ويبرهن على براعته وان كان منذباً فرهبت اتجاه النهر المقدس تركه وتظهر ادانته . ومن أدلة تأثير هذه العقيدة على النطوس اليوم هو ما يفعله البعض عندما يستمعون من يتهمون لليمين بحضرة إمام كبير كالعباس (عليه السلام) ليقسم بحضرة إنه بريء من التهمة الموجهة ضده وكثيراً ما يحدث أن تنهار عزيمة المذنب ولا يجرؤ على أن يقسم كذباً في حضرته المقدسة^(٢١٥) . لقد وجدت في أرض العراق أقدم الشرائع التي عرفت البشرية وهذه لم تات من فراغ وإنما هي اثر من آثار قدم الوجود الانساني على أرض العراق هذا الوجود الذي ارتبط بالسماء من خلال الانبياء ومع تطور الحياة تطورت هذه الشرائع لتلائم طبيعة الحياة وقد تفاعلت هذه التشريعات بين الاقتباس من القديم والبحث عن التمجيد من قبل الملوك وآثار النبوات المستمرة على المجتمع وعبرت عن السلطة السياسية والدينية وتأثير المجتمع والاقتصاد والحاجات في المجتمع فكانت صياغتها انعكاساً لهذه الآثار^(٢١٦) . لقد كانت شريعة حمورابي أكثر هذه الشرائع تأثيراً ودراسة ونضجاً وان كانت قد سبقتها شريعة اورنمو ٢١١١ ق . م . وشريعة لبت عشقار ١٩٣٤ ق . م . وشريعة اشلونا (غير محدّد تاريخها ولكنها سبقت شريعة حمورابي بنحو نصف قرن او أكثر)^(٢١٧) . وهذه الشرائع تكاد تتشابه في كثير من مواهبها ومتأثرة ببعضها في بعض الجوانب وصنّت عند شريعة حمورابي وتدرس تأثيرها بالنبوات وعلاقتها بالرسالات والشرائع التي سبقتها لانها في عصر قريب من عصر إبراهيم (عليه السلام) .

شريعة حمورابي :

ينتمي حمورابي الى الاموريين الذين أسسوا سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٤ ق . م .) هذه السلالة التي استطاعت ان تغلب على منافسيها (سلالة آيسن ولارسا) وفي عهد سانس ملوكها المدعو حمورابي قضت

(٢١٥) رشيد / د . فوزي / الفرائع العراقية القديمة / ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢١٦) انهر كلنفل / د . هورست / م ص / ص ٦٨ - ٨٨ .

(٢١٧) رشيد / د . فوزي / الفرائع العراقية القديمة / ص ٥٩ .

على المنافس الوحيد القوي لها سلالة لارسا واستطاع حمورابي بعدها توحيد البلاد بعد ان كانت مجزأة الى دويلات مدن وفي السنة الثلاثين من حكمه اصدر حمورابي شريعته المشهورة التي عدّها المؤرخون من اعظم اعماله فقد بولها على الحجر وارسلها الى المدن البابلية كي يطلع عليها الناس ويعملوا بها ويحكم بها القضاة لتحقيق العدل بين الناس وهذه الشريعة كما يبنو من موادها عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها إذ أن حمورابي قد حنّف من مواد الشريعة ما كان لا يتلق وطبيعة العصر وأضاف مواد اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك وحاجة المجتمع ولا سيما القوانين الصارمة والقصاص^(٢١٨) وحمورابي الاموري يذكرنا بما رجحناه من ان إبراهيم (عليه السلام) كان امورياً كذلك وان عصر إبراهيم (عليه السلام) بموجب تقديرات المؤرخين هو عصر حمورابي وان إبراهيم (عليه السلام) بملقضى المفهوم الديني وهو النبي في عصره يعدّ صاحب شريعة وكتب انزلت عليه من السماء وبداية حياة إبراهيم ودعوته كانت في العراق وهو المكان الذي كانت له السلطة السياسية فيه بيد ملوك سلالة بابل الاولى والذي توحد سياسياً في عهد حمورابي وقد سجل القرآن الكريم حواراً بين إبراهيم (عليه السلام) والملك انتهى هذا الحوار بانتصار إبراهيم منطقياً وعقلياً وفكرياً ثم بدأت بعدها معركة عقائدية بين إبراهيم (عليه السلام) وقومه وسلطتهم السياسية والدينية . كل هذه الاحتكاك يرجع لدينا ان ثمة علاقة بين حمورابي وإبراهيم وقد نكرت التوراة اسم لآحد الملوك الذين حاربوا ضد إبراهيم وهاجموا بلاد الكنعانيين فلسطين وحاربهم هذا الملك وتسميه التوراة (امرافيل) « وترجع تعليقات هالي الجيبية (The pocket Bible Handbook) ان امرافيل هو حمورابي اشهر ملوك البابليين ، ويرجح كلارك اعتماداً على الآراء الحديثة ان عصر حمورابي متخلف عن عصر الوقائع التي تنسب الى امرافيل بمئة سنة وان امرافيل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد وقد وضع الاطلس التاريخي عصر ابراهيم بين ٢٠٠٠ و ١٧٠٠ ق.م . ووضع عصر حمورابي في ختام هذه المدة اما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر فهي توافق المراجع الحديثة كذلك في تقريب زمان الآباء وتقرر ان وحدة اسم حمورابي واسم امرافيل محل اعتراض ومناقشة في المباحث الاخيرة . وان الحاق ايل بإسم امرافيل

(٢١٨) رهيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٨٠ بتصرف وكذلك كلنل / د

هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ص ٨٨ .

مشكلة تستوقف انظار الباحثين المتأخرين وتقول الموسوعة ان شريعة حمورابي المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سلف الخروج من التوراة وان اسلوب المواد يتشابه في ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولا سيما عقوبات اللصوص وقالت ، ويمعد ان تكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبري عند تدوين أحكامه ولكن المحتمل ان الشريعتين ترجعان الى أصل واحد (سامي قديم)^(٢١٩) الذي أردنا ان نذكره من خلال ايراد هذه المعلومات انه لا يوجد تحديد تحديد دقيق لقضايا التاريخ وتحديدها ، بناء على الاختلافات الكثيرة في تقديرها استناداً الى الحفريات . وإن امراهل وارتباط الاسم بالإله (ايل) يدفعنا الى الاعتقاد بوجود شخصية بهذا الاسم وأنه لم يات من الخيال ، وهذا ما أكتته موسوعة وست منستر^(٢٢٠) وأردنا ان نقرب بين الواقع وكشوفات الحفريات وما ذكرته التوراة من مصميات لكي نقرب من تمييز القناعات وتأكيد الحق الغريب الذي طال السكوت عنه وهو التصريح وتداول اسم إبراهيم وأثار دعوته في اجواء البحث التاريخي المشحون بالتحسس تجاه شخصية هذا النبي العظيم (عليه السلام) وأردنا كذلك ان نصل الى النتيجة التي ذكرناها. هي ان شريعة حمورابي ليست بدءاً او ليس لها سابقة في حياة العراقيين القدماء الذي كانوا يتوارثون اللبوات لحد إبراهيم (عليه السلام) وليس غريباً ان توجد مثل هذه الشريعة في هذا البلد في ذلك العصر . وان التوراة وما فيها من شرائع لم تتأثر بشريعة حمورابي كما ان شريعة حمورابي لم تتأثر بالتوراة لانها سابقة لها كما ذكرت موسوعة (وست منستر) ولكن شريعة حمورابي والتوراة تؤكد وحدة المصدر . وان اصلق ما في التوراة ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها التبويون الذين أسلموا للذين هادوا والريائيون والاحبار بما استعظفوا من كتاب الله وكفوا عليه شهادة فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بهابتي لمنأ قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون • وكتبنا عليهم فيها ان اتقوا بالنفس والعين بالعين والآن بالآن والآن بالنفس بالنفس والجروح لخاص • فمن تصلى به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون •^(٢٢١) ومبدأ القصاص الذي جاءت به شريعة حمورابي لم يكن يمثل عن

(٢١٩) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٧٦ - ٨٠ بتصرف .

(٢٢٠) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٨٨ .

(٢٢١) سورة المائدة / ٤٤ - ٤٥ .

اتجاه جديد في التشريعات يختلف عن الاتجاه السومري الذي آمن بمبدأ التمويض والغرامة ولا علاقة للسامية بمبدأ القصاص ولا للسومرية بمبدأ التمويض والغرامة كما ينهب الى تلك بعض المؤرخين^(٢٢٢) ان مبدأ القصاص تشريع رباني ذكره الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢٢٣) وأكد هذا التشريع في القرآن والتوراة والكتب التي أزلها . والقصاص كمبدأ تشريعي أثبت فاعليته على مر العصور وكلما ازداد الوعي وتطور الفكر رجع الابتعاد عن ممارسة الجريمة بسبب ابراك هذا الانسان لقوة الردع في العقوبة ومع الايمان بالآخرة الذي أكد عليه الانبياء يصل المجتمع الانساني الى حالة الانضباط بمقتضى المصلحة العامة والخير العام والابتعاد عن الظلم . فإذا وجدنا في شريعة حمورابي المواد الآتية :

المادة ١٩٦ إذا فلق رجل عين ابن رجل (آخر) فعليهم ان يفلقوا عينه^(٢٢٤) .

المادة : ١٩٧ : إذا كسر رجل عظم رجل آخر فعليهم ان يكسروا عظمه . هذه المواد أكد القرآن الكريم وجوبها في التوراة ونكرتها التوراة الحالية . وهذه تؤكد ان شريعة حمورابي لا بد ان تكون مقتبسة في بعض مواضعها من مصدر واحد ولا يمكن ان يكون هذا المصدر الا شريعة نبي من أنبياء الله ومن المرجح ان يكون إبراهيم (عليه السلام) .

ولئن اشتمال شريعة حمورابي على عقوبة التحريق (كما ورد في المادة ١١٠ منها التي تنص على حرق الكاهنة التي تدخل الحانة لشرب الخمرة . وكذلك نصت المادة ١٥٧ من الشريعة على حرق الولد الذي يزني بزوجة أبيه وتحرق معه إذا وافقته)^(٢٢٥) .

ان شيوخ عقوبة التحريق وتكرارها في شريعة حمورابي يدل على تمازف

(٢٢٢) انظر راسد / د. فوكي / الفرائع العراقية القديمة / ص ٨١ وكذلك متي / سليم ملحم /

منهل الفرائع / ص ٥١ - ٥٢ .

(٢٢٣) سورة البقرة / ١٧٩ .

(٢٢٤) راسد / د. فوكي / الفرائع العراقية القديمة / ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢٢٥) راسد / د. فوكي / الفرائع العراقية القديمة / ص ١٠٧ و ١١٧ .

المجتمع وتداوله لمفهوم هذه العقوبة وإنها تطبق بحق كل الذين يمارسون عملاً يستنكره المجتمع أو يُصوّر هذا العمل من البشاعة بحيث يطالب المجتمع بتطبيق هذه العقوبة بحق من صُوِّر بهذه الصورة الخارجة على العرف الاجتماعي والديني . ويؤكد هذا الامر كذلك ارتباط هذه الشريعة بالعقوبة التي واجهها إبراهيم (عليه السلام) كما قال تعالى ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (٢٢٦) ومما يؤكد شيوع عقوبة التحريق في عصر إبراهيم لجوء المجتمع والسلطة اليها كما ذكرت الآية السابقة وتكرارها في شريعة حمورابي . وقد وجد في مقدمة شريعة حمورابي ذكراً لموقع ارتبط بإسم إبراهيم الخليل في التاريخ الديني وهو الموقع الذي أوقدت فيه النار لإحراق إبراهيم ، وأنه تم إقامة بديان لهذا الفرض كما وضع القرآن الكريم . فقد جاء في مقدمة شريعة حمورابي وهو يمجّد نفسه :-

« الذي جعل كوشاً قوية الشان

الذي قدم كل شيء لميس لام

انه الثور الهالج لطح الاعداء

محبوب توتو مطرح مدينة بارسيا » (٢٢٧) .

وبارسيا هذه هي نفسها بئرس نمرود وقد تم الكشف عن هذه المدينة التي تبعد عدة أميال عن بابل « وتقع جنوبي بابل وتعرف خرائيها بإسم بئرس نمرود وقد نقيت فيها بقعة المائبة سنة ١٩٠٢ » (٢٢٨) وقد كتب نيكولاس بوستقيت عن بئرس نمرود : « وتميز البرج الآخر وسمي بئرس نمرود بوجود كتل غير عادية من الاجر المزجج حول اسفل البرج وكان شاهداً على استعمال حرارة هائلة القوة يصعب تفسيرها الى اليوم » (٢٢٩) وكان يعتقد بأن هذا البرج هو برج بابل الذي تعرض لانتقام إلهي ودمرته نيران السماء . وقد جاء هذا الوصف لهذا الحريق من قبل المؤرخين الكلاسيكيين مثل هيرودوتس وسترابو وبعد الكشف عن برج بابل اتضح بأن ذلك كان خطأ ولكن مؤرخ

(٢٢٦) سورة الانبياء / ٦٨ .

(٢٢٧) زهير / د. نوحي / الفرائع العراقية القديمة / ص ٨٧ .

(٢٢٨) انظر جورج كوتيتلو / الحياة اليومية في بلاد بابل وقصور ترجمة سليم طه التكريتي / ص ١٦٩ .

(٢٢٩) بوستقيت / نيكولاس / حضارة العراق وتاريخ مصر . ترجمة سمير عبدالرحيم / ص ٣٦ .

الكلبي اسم ج. س. بكنفهام زار خرائب بابل عام ١٨١٦ م استطاع ان يثبت بأن بابل المدينة امتدت عدة أميال الى التل الكبيرة وان البرج في بيرس نمرود (العائد لمعبد نابو في بورسسيا) كان حقاً (برج بيلوس) الذي وصفه الكتاب الكلاسيكيون^(٢٢٠) وأنه كان من ضمن مدينة بابل القديمة . وهذه المعلومات غير دقيقة ولكنها تؤكد وجود آثار دار هائلة في بيرس نمرود في بارسيا وهذه المدينة ذكرت في مقدمة شريعة حمورابي . فهل تكون آثار الحريق في بيرس نمرود هي آثار الحريق المنكور في قصة إبراهيم ؟ ولماذا سمي البرج بإسم (بيرس نمرود) ؟ هل لهذه الشخصية علاقة بالاسم الذي ترده المصادر الدينية حول الملك الذي واجه وعاقب إبراهيم (عليه السلام) ؟ والذي تطلق عليه المصادر الاسلامية اسم نمرود وقد قيل بأن النمرود هو صفة للملك الطاغية وملوك العراق القدماء يطلق عليهم النمرادة كما يطلق على ملوك مصر الفراعنة .

ولا توجد هناك معلومات عن تحريق إبراهيم (عليه السلام) عند الآتاريين وشرح العهد القديم ، لا سيما إذا علمنا أن رواية تحريق إبراهيم لم ترد عند أهل التوراة^(٢٢١) ولذلك نجد هذا الاضطراب الحاصل عند الآتاريين الذين يحاولون ان يوظفوا الكشوفات الآتارية لخدمة العهد القديم فانهم لم يقرأوا عن تحريق إبراهيم ولا يستطيعون ان يربطوا بين ما يكتشف من حفريات وآثار ويشير الى حدوث حريق هائل وبين عصر إبراهيم وأن أهم أحداث عصره هو معجزة التحريق . وما زالت نتائج الحفريات لا تتناسب مع دور إبراهيم (عليه السلام) وفقيرة بالمعلومات والبحوث التي تكشف عن حقيقة هذه الشخصية العظيمة ولكننا واثقون بأننا نقترب رويداً نحو تحقيق تطابق بين معلومات الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم ورواية الحفريات ونتائج الكشوفات المستخلصة من نتائج الحفريات والآثار . وإننا مطمئنون كذلك الى انه لم ولن يستطيع المنكرون لهذه الحقيقة ان يأتوا بليل يثبتون فيه بأن إبراهيم

(٢٢٠) پوستليت / م . س / ص ٣٦ .

(٢٢١) انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٨ ؛ ولها « ولم تذكر في التوراة ان ابراهيم التي في النار وإنما ورد في سفر دانيال من حيار بابل ان نبوخذ نصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لانهم لم يسجدوا لصنم من لهب » كما بينا ذلك . والقصّة تشبه قصة تحريق ابراهيم ونجاة ابراهيم وكانها اخفها او سمعها دانيال في بابل ونسبت الى الثلاثة .

كان وهماً ! لانه حقيقة لا يمكن حجبها او الفاء تأثيرها . فكما ان الشمس تأتي من
المشرق كذلك التاريخ يبدأ بإبراهيم (عليه السلام) لانه أبو الانبياء ، والانبياء هم
التاريخ وغيرهم هم السراب الذي زال تأثيره عن الوجود بعد رحيلهم حتى ولو كانوا
ملوكاً . فالذين والانبياء هم الحقيقة !!

المبحث الرابع

النباء ارتبطوا بإبراهيم (عليه السلام) وبمصره

لوط (عليه السلام) :

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذا النبي الكريم ونكرته آيات عديدة ، أخبرنا فيها عنه وعن سيرته في تومعه وسعوته لهم . وأكد القرآن الكريم وجود علاقة بين لوط وإبراهيم (عليهما السلام) وقد أشارت الآيات أن لوطاً من أوائل المؤمنين بدعوة إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى ﴿ هَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۖ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٢٣﴾ . وهذا يدل على أن إيمان لوط (عليه السلام) قبل الهجرة من العراق وفي قوله تعالى ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ۝١٢٤﴾ . ولوط على الأرجح هو ابن أخي إبراهيم وهو (لوط بن هاران بن تارح - وهو آزر - لإبراهيم وهاران وناخور أخوة ويقال أن هاران هذا هو الذي بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب »^(١٢٤) هذه الآيات التي استشهدنا بها تؤكد أن لوطاً خرج مع عمه إبراهيم (عليه السلام) من العراق مهاجرين وكان استقرارهم النهائي في فلسطين وقد هاجر لوط وإبراهيم ومن معهم إلى مصر طلباً للطعام لا على سبيل الاستقرار كما نكر ابن كثير « أنه كان جوع أي

(٢٢٢) سورة المتكيت / ٢٦ .

(٢٢٣) سورة الانبياء / ٧١ .

(٢٢٤) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٩٢ .

قحط وشدة وغلاء فارتحلوا الى مصر» (١٢٥) وقد أكتت آيات القرآن الكريم الرابطة القوية بين إبراهيم ولوط (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية • ان أهلها كانوا ظالمين • قال ان فيها لوطا • قالوا نحن أعلم بمن فيها • تنجينه وأهله الا إمرأته كانت من الظالمين ﴾ (١٢٦) وفي آيات أخرى ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط • إن إبراهيم لأعلم لوأه منيب ﴾ (١٢٧) هذه العلاقة بين الرسول الكريم وابن أخيه تؤكد لنا ان علاقتهم دعوية رسالية وليست علاقة بنوية على عكس ما تذكره التوراة عن هذه العلاقة فقد جاء في سفر التكوين / المتراق إبراهيم ولوط : فقال ابرام للوط : لا يكن نزاع بيني وبينك ولا بين رعائتي ورعائك لاننا نحن اخوان . أليست الارض كلها أمامك ؟ فاعتزل علي . ان اتجهت شمالاً اتجه أنت يميناً وان تحولت يميناً اتحول شمالاً • تكوين / ١٣ لم ينكر القرآن الكريم سبب افتراق لوط عن إبراهيم ولا يمكن ان تكون كما تذكر التوراة ولكن الانبياء يجب ان يكون احساسهم بالمسؤولية تجاه تبليغ الدعوى أقصى ما يمكن ولا بد ان تتضائل أمامه كل مؤثرات الدنيا وخيراتها ولذلك لا بد ان يكون لوط قد استجاب الى نصيحة عمه ورسوله الذي آمن به بان يتجه الى قرية وأن يباشر مع الدعوة الى الله فكانت عمورة وسديم وهما من القرى التي غضب الله عليها وأمرها الله بالحجارة ورزقها . وقد ذكر القرآن الكريم قصة قوم لوط في مواضع عدة منها قوله تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين • إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء • هل أنتم قوم مسرفون • وما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوهم من قريبتكم انهم قاتلون • ونجيناه وأهله الا إمرأته كانت من الظالمين • ولمطرنا عليهم مطراً • فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ (١٢٨) .

وفي آيات أخرى تؤكد طبيعة نفوس أهل هذه القرية الخبيثة والانحراف والضلوك الذي كان قد تفشى فيهم وتؤكد الايات ان الذين آمنوا بلوط كانوا قلة ﴿ فلما

(٢٢٥) ابن كثير / م . ص / ص ١٤٦ .

(٢٢٦) سورة المتكوت / ٢٢ - ٢٣ .

(٢٢٧) سورة هود / ٧٤ - ٧٥ .

(٢٢٨) سورة الاعراف / ٨٠ - ٨٤ .

وجندنا فيها غير بيت من المسلمين» (٢٣٩) وقد أكدت آيات القرآن الكريم غربة لوط المراقي في قومه ونلك عندهما هجم قومه على داره يريدون الملائكة للفاحشة أخزاهم الله قال لوط ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد ﴾ (٢٤٠) لنلك ورد في الحديث عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحمة الله على لوط أن كان يأوي إلى ركن شديد . يعني الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه « (٢٤١) وهذا يؤكد أن خروج إبراهيم ولوط من العراق لم يكن بسبب فساد قومهم في العراق وإنما لحكمة أرادها الله لأن فساد أهل سدوم وعمورة وقرى صوغر التي يقول الناس : غور زغو « (٢٤٢) لم يكن له نظير على الأرض في وقته ولكن الله أراد أن يظهر الأرض من هؤلاء ويجعلها عبرة للآخرين ولنلك قال الله تعالى ﴿ وإنكم لتصرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (٢٤٣) وقال تعالى ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ (٢٤٤) . وقال تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ (٢٤٥) وهذه الايات أكدت الاعتبار بما حل بالاقوام التي استقرت في شهوتها وانحرافاتاها . ولا يعني أن أهل العراق في عصر إبراهيم كانوا صالحين ولكنها جاهلية كانت تعم الأرض وإن هذا لا يعني أيضاً الانبياء كانوا يهاجرون إلى أقوام خير من أقوامهم ولكنه طريق رسمه الله واحكم خطواته ليبتلي أقواماً ويكرم آخرين فطوبى لاتباع الانبياء ايضاً كانوا وحيثما وجئوا . ولا نريد أن نتحدث عن البحوث التي تطرقت إلى حفريات قوم لوط والقرى التي عاقبها الله لاننا تحدثنا عنها فيما سبق .

(٢٣٩) سورة الذاريات / ٥ .

(٢٤٠) سورة هود / ٨٠ .

(٢٤١) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ص ٢٠٠

(٢٤٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ص ٢٠١ .

(٢٤٣) سورة الصافات / ١٣٧ - ١٣٨

(٢٤٤) سورة الذاريات / ٣٧ .

(٢٤٥) سورة الحجر / ٧٥ - ٧٧ .

أيوب (عليه السلام) .

تحدث القرآن عن أيوب (عليه السلام) وتحدثت عنه التوراة ووجدت رقم والأواح طينية تحدثت عن مأساة إنسان ربطها علماء الآثار بشخصية النبي أيوب (عليه السلام) وقصة أيوب ملفنة لنظر الباحثين وقد درست قصة أيوب في العهد القديم والحفريات . ولم يربط بين القصتين وما ذكره القرآن الكريم لان الباحثين الغربيين يعتقدون ان القرآن الكريم يأخذ من التوراة في القصص التي تتطابق او تكاد بين الروايتين وهذا أمر مألوف بالنسبة للباحثين الذين تأثروا بثقافة التوراة (العهد القديم) ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين قرأوا القرآن واطلموا على نقة رواياته كيف يكررون ما قاله الغربيون ؟ والعلماء مختلفون في عصر أيوب وأصله . « إن الرحالة برترام توماس صاحب كتاب (مخترعات وكشوفات في بلاد العرب (Alarms and Exploration in Arabia) يحسبه من أهل عمان وغيره يحسبه من أهل نجد وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة »^(١١٦) وفي القرآن الكريم ومنهجيته في تجاوز الزمان والمكان وردت قصة أيوب لتعطي نموذجاً للصابرين ومثالاً للمؤمنين في كل زمان لكي يصبروا على بلاء الدنيا ومصائبها وفي سور عديدة تضمنت نكراً لأيوب (عليه السلام) ولكن في الانبياء وسورة (ص) أكثر تفصيلاً . قال تعالى في سورة الانبياء ﴿ ولأيوب إذ نادى ربه أني متني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ واستجبت له فكشفنا ما به من ضر وثينا أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴿^(١١٧) . وقال تعالى في سورة (ص) ﴿ واذكر عبنا أيوب إذ نادى ربه أني متني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مفتتل بريد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ، وخذ بيملك ضغثاً فأضرب به ولا تحسبنا إننا وجبناه صابراً نعم العبد انه أواب ﴿^(١١٨) . ويشير القرآن الكريم الى ان أيوب إنما هو من نرية إبراهيم (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴿^(١١٩) ومن ثم

(٢٤٦) الملقب / عباس محمود / فيزيه أبو الانبياء / ص ١٩٤

(٢٤٧) سورة الانبياء / ٨٢ - ٨٤ .

(٢٤٨) سورة ص / ٤٦ - ٤٤ .

(٢٤٩) سورة الانعام / ٨٤ .

محب جمهور العلماء الى انه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم^(٢٠٠) والخلاف في شخصية أيوب وعصره ومكانه واسع بين العلماء وبين شراح التوراة وعلماء الحفريات فمن المفسرين وعلماء المسلمين من يخالف أعلاه « حيث قال ابن إسحاق : انه كان رجلاً من الروم . ومنهم من أخبر أن (أبو أيوب (عليه السلام) إنما كان ممن آمن بإبراهيم (عليه السلام) وهاجر معه الى فلسطين) . ورواية تقول إن أيوب من بني إسرائيل »^(٢٠١) ونكر العقاد عن هالس صلح (بعد المقارنات عن روايات قصة أيوب تجعل تاريخ أيوب قريباً من سنة ٢٣٠٠ ق . م . »^(٢٠٢) ويميل بعض الباحثين المعاصرين ومنهم العقاد ومهران في كتابهما أعلاه الى احتمال ان يكون أيوب مصرياً حيث ذكر د . مهران : « ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى ان أيوب (عليه السلام) كان مصرياً وذلك ببطلان الاثر الثقافي المصري الذي يطل علينا من ثنايا هذا السفر في مواضع كثيرة فسفر أيوب في الواقع ما هو الا صورة صادقة لقصة المتشائم المصري القديم (اليانس من الحياة) هذا فضلاً عن ذكره للآهرام والمقابر التي يدينها الملوك لانفسهم وأخيراً نكره للثواب والمقاب والحياة بعد الموت وعدم ضياع الناس في متاهات (شمول) كما آمن بفلك الاولون والمعروف ان العبرانيين طبقاً لما جاء في كتبهم المتداولة اليوم وليس كما جاء بها أنبياء الله قد عرفوا عقيدة الحياة بعد الموت في حقبة متأخرة من تاريخهم ربما في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الامر الذي سبقهم اليه المصريون بألاف السنين »^(٢٠٣) وهذا الكلام لا يخلو من ضعف وابتعاد عن الحقائق لانه لا يشترط في تشابه مفردات القصة ان تكون القصة مقتبسة وان ذكر الآهرام في قصة أيوب لا يشترط ان يكون أيوب مصرياً إذ قد يكون قد اقتبسها كنية التوراة وأخبار بني اسرائيل من البيئة المصرية ونكروها في قصة أيوب التوراتية ولا يشترط لظهور مفهوم الآخرة في قصة أيوب ان يكون اليهود اخذوها من المصريين الذين سبقوا اليهود في قضية الايمان باليوم الآخر . لان التوراة كتاب سماوي وقد

(٢٥٠) مهران / د محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج٣ ص ٢١٠ .

(٢٥١) المصدر السابق نفسه .

(٢٥٢) العقاد / عباس محمود / إبراهيم ابو الاتبياء / ص ١٩٥

(٢٥٣) انظر مهران / د محمد بيومي / م . ص / ج٣ ص ٢٢٦ وكذلك العقاد / عباس محمود / إبراهيم ابو الاتبياء / ص ١٩٦ .

حرف اليهود كثيراً من آياته وقد تكون قصة أيوب وما فيها من إيمان باليوم الآخر هو من بقايا التوراة الحقيقية وهذا هو الأرجح من فكرة التباس هذه القصة من المصريين . وقد نهب الابيب الفرنسي فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) الى (ان أيوب وسفره أقدم من التوراة وان المصريين قد أخذوه عن العرب وترجموه الى لغتهم ويستدل على ذلك بأدلة منها ورد ذكر الشيطان وهي كلمة ليست عبرية بل كلدانية وذكر الجمال عند الحديث عن ثروة أيوب بين ثرواتهم وان لحوم الابل محرمة على اليهود »^(٢٠١) . وقد عثر على الواح طينية في وادي الرافدين تتحدث عن قصة شبيهة بقصة أيوب » وهي قصيدة بابلية معروفة بين المختصين بالمسماريات بقصيدة العدالة الالهية تتألف من سبعة وعشرين بيتاً ويحتوي كل بيت منها على احد عشر بيتاً ومن المحتمل ان زمن تكوين هذه القصيدة يعود الى نهاية العصر الكاشي ربما الى حدود (١٠٠٠ ق . م . وهي حوار بين المعذب وصديقه الحكيم الذي ينصح المعذب بعدم اليأس من الحياة »^(٢٠٢) وعثر على قصيدة بابلية أخرى اسمها (لأمجدن رب الحكمة) » وهذه القصيدة ربما بولت بالأصل على أربعة رقم بحالة جيدة من الحفظ وتضم ما يقرب من ٤٥٠ بيتاً ضاعت منها أجزاء قليلة بسبب تهمش النص وبولت القصيدة مثل سابقتها (العدالة الالهية) في العصر الكاشي وهي تصور حول رجل اسمه شيشي - مشري - سكان ويظهر واضحاً ان هذا الرجل كان تقياً يخشى الآلهة ويؤدي الطقوس ويحسن الى الناس كما كانت له ثروة طائلة ولكنه على حين غرة نجده وقد ساءت به الاحوال وتذكر له الدهر وأصابه اليأس والقنوط »^(٢٠٣) وقصيدة (لأمجدن رب الحكمة) اكثر وضوحاً في دلالتها على قصة أيوب التوراتية من قصيدة (العدالة الالهية) وقد جاء في هذه القصيدة :

تفتكت عظامي وهي لا يكسوها سوى جلدي

التهبت انسجتي وأصابها المرض

انني الازم سرير العبيوية ، فالخروج عذاب !

لقد صار بيتي سجنني

(٢٥٤) مهراڤ / د. محمد بيومي / م . ص / ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٢٥٥) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٣٧٧ .

(٢٥٦) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٢٨٠ انظر عبدالواحد / د. فاضل /

سومر اسطورة وملحة / فصل ابيب الحكمة ص ٢٤٦ .

شلل يدي يفل بدني

عرج قلمي يقيديني

امتكت اطرافي وتمثرت

ابيت في مريضى مثلما يبيت الثعلب

واتمرغ في برازي مثلما تتمرغ الشاة

لا الهى يقدم العون فيأخذ بيدي

ولا ألهتي ترحمني بالسير الى جانبي

لقد انتهت المناحة علي قيل ان اموت «(٢٠٧)» .

ان وجود هذه المؤثرات والقصائد في الالب العراقي القديم تؤكد :-

١ - ان (العدالة الإلهية) مسألة أعارها السومريون والبابليون أهمية واضحة في حياتهم اليومية وناقشوها وأبدوا فيها وجهات نظر وتفسيرات تبدو مختلفة بعض الشيء أحياناً .

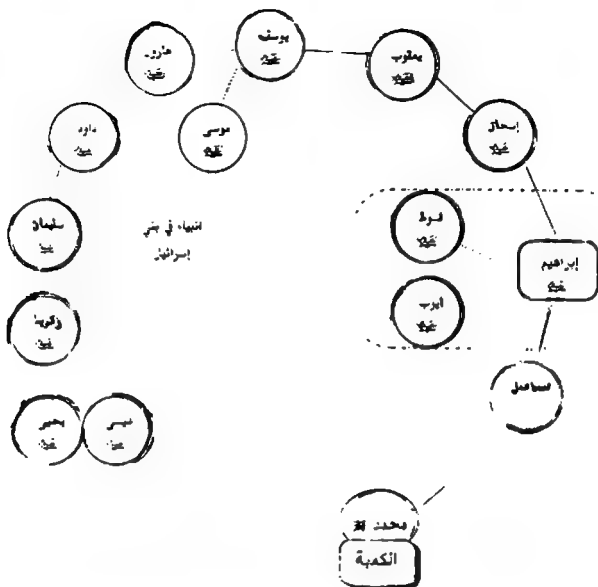
٢ - هناك نقاط تشابه بين قصة الرجل المعذب البابلي شبش - مشري - سكان ، وقصة أيوب التوراتية لعل أهمها وجود اشتراك في التقوى والورع والثروة الكبيرة ومفاجئة النكبات للشخصين . والمرض العضال والصبر والتأكيد عليه وان الابتلاء في القصتين لم يكن مصدره السلطة او الملك وانما القدرة الإلهية والنهائية المشتركة بانفراج الشدة وعودة الامور الى مجاريها الطبيعية «(٢٠٨)» .

ولذا نحن نرجح على غير ان أيوب الذي هو شخصية قرآنية اشتركت التوراة والرقم الطينية في نكر قصته وان هذا الاشتراك يؤكد حقيقة القصة وان عصره بعد إبراهيم (عليه السلام) وقد يكون أبوه فعلاً من أتباع إبراهيم (عليه السلام) لان القرآن الكريم نكر انه من نرية إبراهيم (عليه السلام) اي بعده . وان نكره في الرقم الطينية والتعرض لتفاصيل دقيقة عن قصة تؤكد ان له أثراً في المجتمع العراقي اكثر من احتمال مصريته او انه في فلسطين او نجد . لان هذا الذكر في الرقم الطينية يؤكد وجود اثر للقصة في المجتمع العراقي وتأكيد التوراة لها يؤكد وقوعها ووجودها بفرض النظر عن التفاصيل التوراتية التي قد تكون من التحريفات . فالتوراة اذاً لم تقتبس

(٢٥٧) من الواح سومر / ص ٢٨٤

(٢٥٨) عبدالواحد / د. فاضل / من الواح سومر / ص ٢٨٩ .

القصة من الادب المصري ولا من الادب العراقي وانما القصة الحقيقية نكروها القرآن الكريم وشخصية أيوب (عليه السلام) حقيقة وليست وهمية . ولكن تفاصيل القصة التوراتية قد اعترأها بعض التحريف والزيادة والنقصان نتيجة طبيعية لتدخل البشر في صياغة التوراة وتكوينها . وما كان اليهود ليدونوا قصة أيوب في توراتهم وهو ليس من أنبيائهم لو لم تتضمن التوراة الاصلية نكراً لقصته « ولم يكن من عادة بني إسرائيل ان يجمعوا في التوراة كتباً لغير انبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميمانهم ولكنهم جمعوا هذا السفر من الاسفار المشهور . ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام - (وحتى في العراق) - وقال توماس كارليل عنه ان واحداً من اجل الاشياء التي وعثها الكتابة وانه اقم الماثورات عن تلك القضية التي لاتنتهي قضية الانسان والقدّر والاساليب الإلهية معه على كل هذه الارض ولا احسب ان شياً كتب يضارعه في قيمته الادبية . وقال فكتور هيجو : (انه ربما كان اعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان) وقال شاف (Keffau) انه يرتفع كالهرم في تاريخ الادب بلا سابقة وبغير نظير «^(٢٩) ولا بد ان نذكر هنا ان الادب العراقي القديم قد سبق التوراة في التصدي لهذه المأساة والمعاناة الانسانية التي تدفع البائسين نحو اليأس ولا ينقذهم الا الصبر والتأسي والايقان . وان الادب العراقي لم يقتبس القصة من تأثير خارجي وانما يعبر عن تراث حقيقي تحول الى قصيدة شعرية يربدها الشعراء ويتسلى مع معانيها المعذبون وهذه القصائد التي كتبها العراقيون القدماء على ألواح الطين تحكي لنا بتفاصيل دقيقة للاعتبار والصبر على البلاء تماما كما هو هدف القصة في التوراة التي مجدت أول مرة وصايا ومواقف إنسان ليس من بني إسرائيل . وتقترب القصيدة في بعض ملامحها والصورة التي تعرضها من القصة القرآنية من حيث اعتبار الواقعة وعلى أساس ابتعاد القرآن الكريم عن المستوى البشري الذي لا يخلو من الضعف والخطأ في احسن أحواله ويبقى النص القرآني خالياً من الاضطراب والانكسارات المشوشة في مسار القصة ومنحنياتها . ان وجود القصة في التراث العراقي القديم يدفعنا الى القول باحتمال ان يكون أيوب (عليه السلام) عراقياً وان أحداث قصته كانت على ارض الرافدين .



شكل يوضح علاقة الانبياء بعضهم ببعض يبدأ بإبراهيم
(عليهم الصلاة والسلام)

الخط المتصل يعني الارتباط النسبي المباشر (ذرية مباشرة) ، والنقاط
الواصلة تعني الارتباط غير المباشر (ذرية غير مباشرة) وهذا يوضح لنا ان
كثيراً من الانبياء لم يكن ارتباطهم مباشراً (نسبياً) وإنما كان ارتباطاً عقائدياً
روحياً ، وعندما يطلق القرآن الكريم كلمة ذرية على الانبياء يعني ارتباط الكرامة
ونسب الكريم ..



خريطة ٣
إبراهيم واسحاق ويعقوب

ولد أخذ إبراهيم معه أسرته وأغنامه ومواشيه ... وراح ينتقل من مكان الى آخر ،
في ربيع كتمان بسهولها وجبالها ، الى ان انتهى به المطاف قرب حبرون . لما
حفيده يعقوب فقد عاش آخر أيامه في مصر ، مع يوسف ابنه المفضل .
(تكوين ٢٧ - ٤٦)
كانت رحلة بطولية ، تلك التي قام بها إبراهيم حين خرج من مدينة أور في بابل ،
لتصداً حفران ، ومن حاران بعد ذلك ذهب الى كنعان كما قاله في أيام الجوع ذهب
الى مصر . (تكوين ١١ : ٣١ - ١٣ : ١٨)



٢ - بئرس نمرود : كما تصورها سير روبرت كيريوتر وزُست في العقد الرابع من القرن التاسع عشر عندما كان يعتقد على نطاق واسع انه برج بابل (المكتبة البريطانية)

عن بوستفيت / نيكولاس حضارة العراق وآثاره / تاريخ مصور
ترجمة سمير عبدالرحيم الجليبي / ص ٣٥



أسرة سامية عربية مهاجرة الى وادي النيل على نقش مصري قديم يرجع الى
نحو ٢٠٠٠ ق.م.

عن سوسة / د. احمد / ملصق العرب واليهود في التاريخ / ص ١٩٤
وص ١٩٨



التصوير رقم (٤٢)
الملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية الشهيرة
واشهر ملوك الامبراطورية البابلية القديمة
(١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق. م.)

الفصل الرابع

النبي يونس (عليه السلام)

المبحث الاول

يونس (عليه السلام) في الرواية الاسلامية

تبدو شخصية نبي الله يونس (عليه السلام) واضحة المعالم بين الانبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم . وان كانت المواقف التي عرضها القرآن الكريم لجوانب دعوته ومعالم شخصيته قليلة ومقتضية موازنة مع بعض الانبياء ولكنها تضع في ذهن القارئ صورة تستوفي العبرة وتعمق الايمان بقدرة الخالق العظيم . في أربع سور من القرآن الكريم تحدثت عن يونس (عليه السلام) وهي سورة يونس والانبياء والصفات والقلم . في هذه السور وقفات واضاءات عن الشخصية والدعوة والقوم والقرية يرسمها القرآن الكريم من خلال آيات معدودات تختزل الزمان والحدث والمكان لتقدمه الى الانسان وهو يطالع القرآن الكتاب الخالد الى آخر الزمان . ومؤذره سريماً في معرض الكلام عن الانبياء في سور أخرى ولقد ارتبط اسمه بالحادثة المعجزة التي امتازت بها قصته وهي ابتلاع الحوت له وبقائه في بطن الحوت مدة من الزمن . ولذلك جاءت تسميته في القرآن الكريم في بعض المواضع بـ (صاحب الحوت) و (ذا النون) في مواضع أخرى . قال تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضياً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجينااه من الغم . وكذلك نجى المؤمنين ﴿ ^(١) وقال تعالى

(١) سورة الانبياء / ٧٨ - ٨٨ .

عن جوهر القصة فتحدثت عن أعظم حادثة في حياة النبي يونس (عليه السلام) وهي التقام الحوت له . وتحدثت عن قريته وعندهم . فكانت معلومات وافية تفني عن الحاجة الى المصادر الاخرى غير القرآن الكريم والتي تحدثت عن هذا النبي الكريم .

تحدث القرآن الكريم عن يونس (عليه السلام) ولم ينسب اليه أب وسماء (صاحب الدوت) و (ذا النون) والنون تعني السمكة في اللغة و « يقول الرازي في التفسير الكبير : انه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس (عليه السلام) لان النون هو السمكة وان الاسم اذا دار بين أن يكون لقباً محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى خصوصاً إذا عُلِّمت الغالدة التي يصلح لها ذلك الوصف »^(٥) . ولكن هل القرية التي تحدثت عنها القرآن هي نينوى ؟ أكثر المفسرين يعتقدون انها نينوى وفي التفسير الكبير للفخر الرازي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) « أنه قال : كان يونس (عليه السلام) وقومه يسكنون فلسطين »^(٦) لكن هنالك شبه إجماع بين المؤرخين القدماء والمحدثين على أنه كان في نينوى . وهذه المدينة القديمة « اتخذها الآشوريون عاصمة لهم سنة ١٠٨٠ ق . م وحضنوها فأقاموا حولها القلاع »^(٧) ونينوى تشمل الجانب الشرقي على بحلة على قبالة الموصل المدينة القديمة وقد وصفت « بأنها مدينة أرثية قبالة الموصل وبينهما بحلة »^(٨) وقد وصفها المقدسي : إقليم الجزيرة الذي يشمل نينوى والموصل وجزيرة ابن عمر التي سميت جزيرة الموصل وكذلك الجزيرة الفراتية : « بأنها إقليم نفيس ثم له فضل ، لان به مشاهد الانبياء ومنزل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودي وبه سكن أهلها وبنوا مدينة ثمانين وبه تاب الله على قوم يونس وأخرج منه العيين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين . وبه كانت عجائب جرجيس دانياناه وفيه أدبت الله تعالى ليونس البقطينة ومنه خرج نهر العلة المباركة بحلة ، أليس به مسجد يونس بتل

(٥) مهراڤ / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية / ج ٤ ص ١٦٧ عن تفسير الطبر الرازي / ٢١٢ ٢٢ .

(٦) مهراڤ / د. محمد بيومي / م . س . ج ٤ ص ١٧٨ عن الطبر الرازي في تفسيره / ٢٢ / ٢١٢ وعن روح المعاني للآلوسي ٨٢/١٧ .

(٧) السلطان / عبدالموجود احمد / الموصل في المهندسين / ص ٢٤ عن البيهقي - الموصل في احمد الاتابكي / ص ٤ .

(٨) السلطان / عبدالموجود احمد / م . س . ص ١٤١ عن مجهول / عجائب البلاد والجبال والاحجار / ص ٨١ .

التوبة ؟ يقولون سبع زورات له يعلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفصائل جمعة ^(٩) هذه المعلومات التي لا تخلو من المبالغة في تعظيم المدينة ولكنها تبين لنا بما لا يقبل الشك بأن نينوى بالذات أقدم مدينة في الجزيرة بل إنها من القمم مما يصعب تحديد بدايات تكونها وظهورها عاصمة للآشوريين وقد أجريت تنقيبات عديدة من أجل البحث عن المدينة التاريخية نينوى وكان من أوائل المنقبين وكيل القنصل الفرنسي في الموصل (المسيو بوتا) « وشجعه على أن ينقب في مواقع عدة للوصول الى المدينة المسيو (موهل) سكرتير الجمعية الفرنسية الآسيوية . وبدأ بوتا بالتنقيب في آذار ١٨٤٢ م . وبعد عدة محاولات سبقت هذا التاريخ كان بوتا محظوظاً هذه المرة في اختياره نقطة البداية لانه في اليوم الاول من أعمال الحفر وصل الى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الآشوريات وقد كان بوتا يمتدح بأنه قد عثر على موقع مدينة نينوى التاريخية ولكنه في الواقع قد عثر على موقع قصر نينوى . ولكن بوتا كان متمجلاً فتحلى عن العمل في الموقع وسرعان ما تقدمت بريطانيا بطلب للسماح بالتنقيبات وحصلت على الاذن واستلمت الموقع وحالما شرع البريطانيون بالتنقيب حتى كشفوا عن قصر نينوى الذي كان يقع على عمق بوصات قليلة تحت المستوى الذي توقف عنده بوتا . وعندما كان بوتا وروولنسون - الخبير البريطاني الذي نقل الكتابات المسمارية على حجر بهستون - خارج المنطقة قام هرمز رسام (مسيحي من الموصل له علاقة مع القنصلية البريطانية في الموصل في مجال التنقيبات - بأعمال حفر في إحدى الليالي في الجزء المخصص من المنطقة لفرنسا ووصل مباشرة الى أغنى قسم من الخرائب وهو قصر آشور بانيبال ومكتبته التي يعدها المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسية . وعالج رولنسون الموقف بأن قدم الى فرنسا جملة من نماذج ثمانية جميلة لقطع تم اكتشافها في التنقيبات البريطانية . وبعد الفرنسيين والبريطانيين قامت البعثة الأمريكية بفتح الاماكن التي نقب فيها بوتا قبلاً ، واستعملت مخططاته وعثرت على المنحوتات التي أعاد بنائها بوتا غير ان معظمها كان قد تعرض للتلف نتيجة تعرضها للهواء لفترة وجيزة عام ١٨٤٢ م ^(١٠) .

(٩) السلطان / عبدالموجود احمد / م . ص / ص ٢٠ عن المقدسي / احسن التقاسيم في

معرفة الاقاليم / لندن سنة ١٩٠٩ ص ١٣٦

(١٠) كونتيلو / جورج / الحياة البوذية في بلاد بال وأشير ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد

نينوى المدينة التاريخية هي مدينة يونس بن متى (عليه السلام) وقد وريت رواية في السيرة عن النبي (ﷺ) تؤكد ارتباط نينوى بيونس (عليه السلام) . وكان نك عندما نهب النبي (ﷺ) الى الطائف يدعوهم الى الاسلام . فرفضوا بعوته ووقفوا موقفاً خسيساً ه وقالوا له : اخرج من بلدنا وحرشوا عليه الصبيان والرعاع يرمونه بالحجارة مما اضطره الى دخول بستان لعنتية وشيبة ابنا ربيعة ثم دعا بدعائه المشهور . وتأثرت قلوب ابني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يدعى (عداسا) وقالوا له : خذ قطعاً من العذب وانهب به الى الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله (ﷺ) مد يده اليه قائلاً : باسم الله . ثم أكل . فقال (عداس) ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أي البلاد أنت ؟ قال : أنا نصراني من (نينوى) فقال الرسول (ﷺ) : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال الرسول (ﷺ) : ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على يدي رسول الله (ﷺ) ورجليه يقبلها ه ^(١١) إن هذه الرواية تؤكد ارتباط نينوى بيونس (عليه السلام) ولكن رواية السهيلي في الهامش أدناه توضح لنا ان نينوى في عصر البعثة النبوية الشريفة لم يكن ذكر يونس (عليه السلام) مشهوراً فيها . كما أخبر بذلك عداس واستدل على نبوة محمد (ﷺ) بأنه قد أخبره بأمر كان قد اندرس أثره واختفت معالمه في نينوى قرية يونس (عليه السلام) . فكان إخباره (ﷺ) دليلاً على انه كان يأتيه الخبر من السماء . ولذلك ذكرت كتب السيرة ان عداساً آمن برسول الله (ﷺ) ورفض ان يحارب في بدر مع قريش عندما طلب من سيده ان يخرج معهم الى بدر ه فقال لهما : أقتال ذلك الرجل الذي رأيته بحائنطكما تريدان ، والله ما تقوم له الجبال . فقالا له : ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه ه ^(١٢) ولقد ذكر القرآن الكريم حقيقة تثير التساؤلات عن قرية يونس (عليه

→ التكملة / يتصرف ص ١٨٩ - ١٩٣

(١١) القصة مروية في كتب السيرة . انظر سيرة ابن هشام ج ٢ / الروض الالاف للسهيلي شرح سيرة ابن هشام ج ٢ / ص ١٧٩ وفي الروض الالاف : ان (عداسا) حين سمعه ينكر يونس بن متى قال له : والله لقد خرجت منها يعني (نينوى) وما فيها عشرة يعرفون ما متى ؟ فمن اين عرفت انت متى ؟ وانت امي ومن امة امية فقال (ﷺ) : هو أخي كان نبياً وأنا نبي .

(١٢) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن ابي الحسن الخثعمي ت ٥٨١ هـ / الروض الالاف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / ج ٢ ص ١٧٩

(السلام) وعدد أهل هذه القرية فقد ذكرت سورة الصافات ﴿ وأرسلناه الى مئة ألف او يزيدون ﴾ وقد جاء في التفسير عن ابن عباس عن هذا الرقم : « قال ابن عباس : بل يزيدون وكانوا مائة ألف وثلاثين ألف وعنه مائة ألف وبضعة وثلاثين ألف وعنه مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا . والله اعلم اي المراد ليس النقص من تلك بل ازيد »^(١٢) المهم ان نكر هذا الرقم وضع لنا حقيقة مهمة وهي ان قرية يونس كانت قرية عظيمة او مدينة كبيرة وان القرآن الكريم يطلق القرية على المدينة او الدولة عندما كانت تولى المدن (City State) إحدى معالم الحضارات والمدن القديمة . اذ ان تعداد مائة ألف يعبر عن تجمع سكاني عظيم ويؤشر لنا علامة على ملامح العصر الذي وجد فيه يونس (عليه السلام) . ولقد كانت تعبيرات القرآن الكريم لحد عصر ابراهيم ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) تدل على ملامح أطوار انتقالية بين الريف والمدينة وبين البداوة والمدينة كما عبّر يوسف (عليه السلام) ﴿ إذ جاء بك من هن البلو ﴾ . لذلك يستفاد من دلالة الرقم على ما يأتي :

١ - ان القرية كانت مدينة كبيرة والنس يدل على عراقا المدينة وقدمها مما يرجح انها نينوى .

٢ - ان عصر النبي يونس (عليه السلام) كان في زمن نشوء المدينة الكبيرة . وقد ذكر الطبري ان « يونس بن متي من أهل قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الاصنام فبعث الله اليهم يونس بالذي عن عبادتها »^(١٣) ويتفق ابن كثير مع الطبري بأن يونس بن متي كان في عصر ملوك الطوائف مع أصحاب الكهف والرسالة الثلاثة في سورة (يس) الذين أرسلوا الى انطاكية وهو عصر متأخر يبدو من سياق الاحداث ان احداثه كانت في القرن الاول للميلاد^(١٤) .

وهذا التقدير لا يتناسب مع طبيعة رسالة يونس (عليه السلام) والامام التي

(١٢) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٢٢ . ويبدو ان هذه الرواية متأتية بالاسراويليات لان القصة تذكر العدد مائة وعشرين ألفا وهذا الرقم ليس بمئة المائة ألف كما سنعلم .

(١٤) الطبري / ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ تاريخ الطبري / ج ٢ ص ١١ .
(١٥) انظر ابن كثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني ت ٦٣٠ هـ /

الكامل في التاريخ - ج ١ ص ٢٠٨ وما بعدها حول يونس (عليه السلام) .

عرضتها آيات القرآن الكريم ويَئنها المفسرون . وقد وضعت آيات سورة الصافات
يونس (عليه السلام) بعد إلياس ولوط . وإن لوطاً (عليه السلام) عاصر إبراهيم
فذكره لا يدل على ترتيب زمني لأن القرآن الكريم قد فصل معاصرتهم لإبراهيم في سورة
أخرى ولكن ترتيب ذكر الأنبياء في الصافات يشعر بترتيب زمني باستثناء لوط
(عليه السلام) . تبدأ السورة بنوح ثم إبراهيم ثم قصة اسماعيل الذبيح ثم اسحاق
ثم موسى وهارون ثم إلياس وإن إلياس ذكر مع الصلم الذي كان يعبد قومه وهو
(بعل) وهو الإله الذي كشفت حفريات رأس الشمرأ أوغاريت بأنه كان أحد آلهة هذه
المدينة التي تشمل حالياً لبنان وأجزاء من سوريا وأن بعلبك لا تزال تشير إلى الإله
(بعل) من اسمها وإلياس عند أهل الكتاب إيلياء^(١٦) والبعل إله قديم عبده
الكنعانيون والفينيقيون « وهو بعل بن داجون وداجون إله الحبوط وشطيح القوت وله
أي (لبعل) كرس الأوغاريتيون هيكلهم العظيم وكان له هيكل في أشدود إحدى
المدن الفلسطينية الخمس^(١٧) » ويبدو البعل من خلال ملحمة شابا وسيما
شجاعاً مقداماً يحب النظام ويكره الفوضى يعمل للحياة ويكره الموت يحمل بيده
عصا ترمز إلى الخضرة وبيده صاعقة ترمز إلى أنه ربّ البرق والرعد وبالتالي المطر
ولا يزال اسمه حياً في لبنان وذلك بتسمية الخضراوات والفاكهة التي لا تروى صيفاً
(بعلية) والأرض التي لا تسقى تسمى أيضاً (أرض بعل)^(١٨) . وهكذا كان بعل
أحد الآلهة المهمة في أوغاريت التي أفل نجمها بعد حريق التهمها في القرن الثالث
عشر قبل الميلاد « وأعيد بناءها بعدها ثم أصيبت برززال عقبته موجة بحر عارمة
خربت المدينة وطمس ذكرها . وقد كان على موقعها في العهد الآشوري نحو
٧٠٠ ق . م . بلدة صغيرة ظلت مأهولة بالسكان حتى العهد الإغريقي . فقد وجد في
خرابها نقود مقدونية^(١٩) » والذي نريد أن نصل إليه من خلال متابعة عبادة بعل
أنها كانت منتشرة في أوغاريت بحدود القرن الثالث عشر إلى القرن الثامن قبل
الميلاد ثم تعرضت بعدها إلى زلزال وغرق ويبدو أنها عقوبة لأن القرآن الكريم ذكر عن
استجابة قوم إلياس لدعوته وإنهم كذبوه وقال تعالى ﴿ فكلبوه فاتهم

(١٦) انظر قطب / سيد / في هلال القرآن / ج ٤ ص ٧٩٢ .

(١٧) فريجه / انيس / ملاحم وإساطير أوغاريت رأس الصمرأ / ص ٤٣ .

(١٨) فريجه / انيس / م . ص . / ص ٢٢ وما بعدها .

(١٩) فريجه / انيس / م . ص . / ص ٣٢ وما بعدها .

لمحظرون (٢٠٠). وتذكر سورة الصافات لوطاً (عليه السلام) وبعده يونس (عليه السلام). وهذا يعني أن التابع الزمني ليونس بعد إلياس إذا اعتبرنا الزوال الذي ضرب أوغاريت عقوبة ربابية وقد كانت سنة ٧٠٠ ق.م. (٢١) قد طمست معالم أوغاريت وأقيمت على أنقاضها بلدة صغيرة هذا يعني أن الزوال قد ضربها قبل هذا التاريخ بأكثر من قرن أو قرنين على الأقل. وبذلك نستطيع أن نقدر عصر يونس (عليه السلام) بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد.

القرن الثامن قبل الميلاد كان عصراً آشورياً وإن مملكة آشور ظهرت قوة عالمية امتد نفوذها من العراق حتى شمل فلسطين والشام وسيطرت على أجزاء من مصر حيث بدأ نجم آشور بالظهور منذ اعتلاء « تجلات فيلاسر الثالث الحكم (٧٤٥ - ٧٢٧ ق.م.) الذي وطّد سيطرة بولته على بلاد الشام ومن جملتها بولتي اليهود على ما تفيد الماثورات التي تؤيدها نصوص سفر الملوك الثاني. وقد قرىء في نقش له أنه أخضع لسلطانه اثنتين وأربعين شعباً ومن جملتهم فلسطين وسوريا وفينيقييا وبلاد العرب وخلف هذا على عرش آشور شلمنصر الثالث (٧٢٧ - ٧٢٢ ق.م.) وحدّثت معارك بينه وبين إسرائيل وبقيت المعارك حتى جاء خليفته سرجون (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) الذي قضى على دولة إسرائيل وسبى من أهلها (٢٧٢٨٠) إلى بلاده وأرسل مكانهم خلقاً من مملكته وأقام على البلاد واليا آشورياً وقد ذكر هذا في أحد نقوشه وبعد سرجون جاء سنحاريب ابن سرجون (٧٠٥ - ٦٨٥ ق.م.) ثم خلفه ابنه أسرحدون (٦٨٥ - ٦٦٧ ق.م.) ثم خلف أسرحدون ابنه آشور بانيبال (٦٦٧ - ٦٢٧ ق.م.) الذي تمكن من توطيد سيطرته على بلاد الشام ومن جملتها دولة يهوذا ثم على مصر أيضاً مع بقاء دولة إسرائيل الزائلة تحت حكم والي آشوري وبعد هذا ألم بالدولة الآشورية ارتباك ثم تحالف عليها البابليون والماديون ففسفوها وتقا سموها وقامت على أنقاضها في بابل دولة جديدة (٦٠٨ - ٥٣٨ ق.م.) كان نجمها اللمع نيوخذ نصر « (٢٢) ويذهب بعض الباحثين أن يونان (يونس) إنما كان يعيش في المدة (٧٨٥ - ٧٤٥ ق.م.)

(٢٠) سورة الصافات / ١٢٧ .

(٢١) لريحه / النيس / أوغاريت / ص ٢٢ .

(٢٢) نبوة / محمد عزة / تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم / ص ٢٠٦ - ٢٠٩ . بتصرف .

وانه كان نبياً قومياً من أنبياء بني اسرائيل على أيام ملك إسرائيل يريعام الثاني (٧٨٦ - ق. م.) (٧٦٥ - ٧٥٩ ق. م.) (٧٧١ - ٧٥٤ ق. م.) وقد جاء في سفر يونان بأنه كان نبياً قومياً وعبرانياً^(٢٣) وهذه المعلومات غير دقيقة يقدمها شراح أسفار العهد القديم الذين جعلوا يونس (عليه السلام) من بني اسرائيل ولا يوجد دليل على ذلك سوى ما ذكره العهد القديم والاسرائيليات ولكننا نستطيع ان نفهم من النص القرآني حول طبيعة الحياة السياسية في قرية يونس أنها لم تكن محكومة بسلطة قوية تواجهه او تقف أمام دعوة النبي (عليه السلام) لان القرآن الكريم تحدث عن المجتمع وموقفه وأعطى صورة طيبة عن قوم يونس تحكي أنهم كان عندهم حكماء ومجتمع متوازن رجع الى الله تعالى وتاب ونبيه غالب عنه . ولم يُبرز لنا القرآن الكريم أنه كانت هناك سلطة سياسية كانت تحول بون التزام المجتمع وتسلط عليه او كانت هناك سلطة كهنوتية تحاول ان تقف أمام دعوة النبي وقد جعل موقف أهل نينوى مثلاً للمجتمع التائب الذي صُرف عنه العذاب بتوبة الجميع وقبول الله تعالى توبتهم ، فقد قال الله تعالى ﴿ فلولا كانت قرية أمّنت فلفظها ليعتاقها ، إلا لوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم غلب الغي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾^(٢٤) . وقوله تعالى ﴿ فآمنوا بالمتعناهم الى حين ﴾^(٢٥) . وهذا يرجح ان يونس (عليه السلام) لم يكن من بني اسرائيل وقد مال الاستاذ محمد عزة دروزه الى ان « سفر يونان هو رسالة نبوية خاصة لاهل نينوى ولا يبدو ان له صلة بتاريخ بني اسرائيل »^(٢٦) ويرجح لنا كذلك ان عصر يونس (عليه السلام) كان أقدم من ظهور قوة الدولة الاشورية ولا علاقة لرسالة يونس (عليه السلام) بالحروب التي كانت بين آشور وبولتي إسرائيل ويهوذا في فلسطين ولكن شراح العهد القديم الذين تعرضوا لدراسة عصر يونس (عليه السلام) ربطوا بين قرية يونس نينوى وأشور الدولة وعلاقتها ببولتي اليهود في فلسطين وتأثروا بما حواه سفر يونان في العهد القديم من معلومات فحصل خلط بين المعلومات وتداخلت الاحداث والسنين . ولكن

(٢٣) مهراڤ / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٩

(٢٤) سورة يونس / ٩٨ .

(٢٥) سورة الصافات / ١٤٨ .

(٢٦) نبوة / محمد عزة / م. س / ص ٢٤٧ .

القرآن الكريم يخلصنا من هذا الاريك من خلال نص واضح له دلالة غير معقدة كل ذلك يرجع لدينا أن عصر يونس (عليه السلام) كان حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ومكانه كان مدينة نينوى القديمة ولا علاقة له ببني اسرائيل ولكن بني اسرائيل لما رأوا تسلط الاشوريين عليهم أرادوا ان يجعلوا لهم فضلاً عليهم بان نسبوا يونس (عليه السلام) اليهم وان الله اختار نبياً الى - قرية لا علاقة لها ببني اسرائيل - من بني اسرائيل . وهذا إقحام واضح ومتعمد لا دلالة له سوى إحساس اليهود بالحقد على الاشوريين وعلى نينوى حيث جاء في سفر ناحوم « خطايا نينوى : ويل للمدينة سافكة الدماء الممتلئة كذباً . المكتظة بالفنالم التي لا تخلو أبداً من الضحايا - يقول الرب القدير فاكشف عارك لأطلع الامم على عورتك والممالك على خزيك والوثك بالالساخ وأحرقك وأجملك عبدة وكل من يراك يُعرض عنك قائلاً : قد خربت نينوى فمن ينوح عليها ؟ أين أجد لها ممزين »^(٢٧) وهكذا يُفسر لنا نوافع كاتب سفر يونان في المهد القديم الذي « لم يعرف حتى الان من الذي كتبه في روايته الحالية . كما جاءت في المهد القديم وان كان العلماء ينعيبون الى أنه كُتب ربما نحو (٣٥٠ ق . م .)) وليس هناك أي دليل يثبت ان يونان هو كاتب هذا السفر الذي يحمل اسمه من بين أسفار المهد القديم »^(٢٨) وثمة قضية أود الوقوف عندها وأوجدها تحملني على التأمل فيها وهي غريبة فعلاً حيث وجدت في منكرات مالوان عندما تعرض لتنقيبات نمرود في الموصل يذكر بعض التفاصيل عن التصورات الموجودة عند علماء الآثار للكثافة السكانية في المدينة وعدد نفوسها وقد وجدت توافقاً عجيباً وغريباً بين تخمينات علماء الآثار ودارسي خطط المدينة القديمة وبين ما نكره القرآن الكريم من عدد لسكان قرية النبي يونس (عليه السلام) وقومه حيث قال تعالى ﴿ وأرسلناه الى مائة ألف او يزيدون ﴾^(٢٩) . وقد تقدم ذكر آراء المفسرين لهذا النص القرآني .

وقد نكر مالوان حول هذه القضية بأنه كان في بعثة للتنقيب في آثار نمرود عام ١٩٤٩ وقد اكتشف مسلة من الحجر بهيئة نصب يزيد ارتفاعه على اربعة اقدام أقامها المؤسس آشور ناصريال ونقش من الامام والخلف بمائة واربعة وخمسين

(٢٧) سفر ناحوم / ٣٠٧ .

(٢٨) مهراڤ / د . محمد بهيمي / دراسات تاريخية / م . س . ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢٩) سورة القصص / ١٤٧ .

سجلاً تسجل إكمال تشييد المدينة في السنة الخامسة من حكمه أي في عام (٨٩٧ ق م .) وكانت في هذا النص معلومات إحصائية حول سكان المدينة وقد حاول ديفيد أوتس الذي كان مع البعثة تقدير عدد السكان الذي يتوقع أن تضمهم منطقة كالح - نمرود اعتماداً على مواردها . وقد توصل إلى الاستنتاج المدهش والمقبول أن عدد السكان المحليين الذين كان بالإمكان إطعامهم من موارد كالح نفسها لا يزيد عن ٢٥ ألف شخص (وينبغي أيضاً أن نستنتج من مخطط المباني من المساحة المتيسرة بين الأسوار التي ضمت الحصن والمدينة الخارجية ومن حوليات الملوك الآشوريين الذين حكموا فيما بعد ومن التقارير عن جيوشهم أن عدد السكان المدنيين والعسكريين في نمرود كان أحياناً أعلى بكثير من ٢٥ ألف ونستطيع في رأيي أن نستنتج أن عدد السكان وصل أحياناً إلى ما لا يقل عن ١٠٠ ألف نسمة) وفي الواقع عثرنا في قلعة شملنصر على لوح ورد فيه فحوص ٣٦٢٤٢ رسماً ويعني ذلك أن قوة الجيش كانت ضعف ذلك العدد على الأقل ، إن مثل هذه الحسابات تتسم بأهمية جوهرية لفهم تطور التاريخ الآشوري (٢٠) لقد اقتبسنا مادة كثيرة من مذكرات مالوان لأهمية هذه الحقائق التي نذكرها بصفته عالم آثار متمرس وقام بالتنقيب في المواقع العراقية مع أشهر عالم آثار بريطاني نقب في اور الكلدانيين وكتب أعماله في تسع مجلدات بالانكليزية سماها تنقيبات اور (Ure excavation) وله مؤلفات وبحوث حول آثار ومدن العراق القديمة ذلك هو المستر ليوناردو وولي . وعمل مالوان في التنقيبات في بداية القرن العشرين ولحد منتصفه في مواقع عديدة في جنوب العراق وشماله ومواقع في بلاد الشام . نقب في (اور وبنينوى والأرجية وفي وادي الخابور وشكر بازار وفي تل براق وفي وادي بليغ ونمرود (٢١) أن أهم حقيقة نذكرها مالوان هي تطابق رقم عدد سكان نمرود الذي توقع أنها كانت متصلة ببنينوى في فترة ما مع الرقم الذي نكره القرآن الكريم لعدد سكان قرية يونس (عليه السلام) . أنه شيء مثير حقاً أن تتطابق أرقام دراسة لملء الآثار غربيين لم يسموا بما نكره القرآن الكريم وتأتي النتائج والحقائق متطابقة إلى هذا الحد وهذا اعجاز قرآني جديد أن يتعرض القرآن الكريم لنذكر رقم إحصائية سكان قرية يونس (عليه السلام) وأعطى ملامح طبيعة الحياة والعصر التي يعتمد عليها

(٢٠) مالوان / ماكس مالوان / ص ٢٧٠ - ٢٨٢ .

(٢١) انظر مذكرات مالوان ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبلي / بتصرف .

علماء الآثار اليعيم لمعرفة تطور المدينة وتاريخ الآشوريين . ومن القضايا المهمة التي طرحها القرآن الكريم حول قصة النبي يونس (عليه السلام) هي قصة ابتلاع الحوت للنبي يونس (عليه السلام) وهي قضية تستوجب التوقف عندها أيضاً وهي قصة تطابقت في نكر جوهرها الرواية القرآنية مع رواية العهد القديم في سفر يونان . واختلفت الروايتان فيما بعض النقاط ايضاً وسنأتي على مقارنة بين الروايتين فيما بعد . إلا اننا نريد ان نمالج القضية من خلال مفهوم اسلامي لكي نتفهم طبيعة وحقيقة القصة فاثرت ان نتكلم بايجاز عن معجزات الانبياء وموقعها في العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامي المستمد من المصادر الاسلامية والسنة .

المبحث الثاني

المعجزات التي أجراها الله تعالى لأبيه

ان المعجزة تعني اعجاز المقابل من ان يقوم بعمل ما يجريه الله لأبنائه ويغير الله بمقتضاه سذن التخليق المطردة في الحياة ويحدث التفسير حقيقة لا خيالاً وحساً لا معنى ويتوقف العقل الذي ألف عمل النواميس والسنن عندما ينظر الى هذه السذن وقد تعطلت وقد عرف العلماء المعجزة « بأنها الامر الخارق للعادة الذي يجريه الله على يدي نبي مرسل ليقوم به الليل القاطع على صدق نبوته »^(٢٢) وما من نبي الا واتاه الله من المعجزات او معجزة بحسب طبيعة العصر والناس وحكمه يعلمها الله وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة (رضي الله عنه) ان النبي (ﷺ) قال : ما من الانبياء نبي الا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ان المعجزات التي أجراها الله لأبنائه كانت مرتبطة بحياتهم وأشخاصهم وعصرهم والزمن الذي حدثت فيه المعجزة ولذلك بعد موت الانبياء تنتهي معجزاتهم ويتوقف تأثيرها على البشرية . ولذلك لم نثر على عصا موسى . وحتى لو وجدت فانها لم تعد تمثل شيئاً بالنسبة للنين لان زمنها انقضى وان الله تعالى لا يبقى الاشياء المادية التي أجرى معجزاته بها كالعصا او الحصى الذي سبج بين يدي رسول الله (ﷺ) او ناقة صالح . لان المعجزة يجريها الله تعالى فهي مرتبطة بقدرة الله وليس بالنبي او بالعصا او بالناقة او الحصى فان هذه الاشياء لا تملك التأثير ولا القوة ولكن امر الله

(٢٢) سابق / سيد / المفائد الاسلامية / ص ٨٠ في دار الكتاب العربي بيروت - د . ت .

هو النافذ ولذلك كانت منهجية الدين عدم تقديس الأشياء المادية مهما كان مصدرها ولا حتى الانبياء الذين اصطفاهم الله تعالى وفضلهم على خلقه ولكن ينبغي الا يتجاوز المسلم في نظرتة اليهم أكثر من بشريتهم وتبليغهم الرسالة وأداء الامانة التي حملهم الله والمحبة والايامن بهم ونبواتهم وعندما أراد الله تعالى لرسالة محمد (ﷺ) البقاء اختار لها آية ومعجزة باقية وهي الوحي كتاب الله تعالى وهنا يجب ان نعلم « انه لا يمكن ان تخلد معجزة على الارض الا اذا كانت على هيئة كتاب يتلى لا يقف اعجازه عند عصر معين ولا يحد من ثقافته بالذات » (٣٣) ولذلك ابتمد القرآن الكريم عن الاساطير والخرافات ووضع قواعد الايمان بالعقل وبقدرته وقيمته التي أراها الله تعالى من خلال اكرام العلماء والعقل الذي يحمله العقلاء . وحث الانسان في آيات عديدة على أعمال العقل واستخدام التفكير لتعميق الايمان بالله وحقائق الدين عندما كانت البشرية في مراحلها الاولى وعندما كان الله تعالى يرسل الانبياء كان لابد ان يتحفز العقل بمحفزات تحدث على أثرها صدمة شعورية في داخل الانا (Ego) ونتيجة الاستجابة بتأثير استرجاع الصدمة (Feed back) يحدث شعور بالمعجز ويؤول الكبر والفرور ويكتشف الانسان ضعفه وبذلك يحدث انحياز الى جانب الانبياء ممن يتفاعل مع المعجزة وهي احدى الوسائل التي يلجأ اليها الانبياء لتجميع الاتباع في أثناء عملية التدوير وهي ما يعبر عنه بالمعجزات ولكن البشرية لم تكن تستجيب لهذه الصدمة والخرق للاسياب كما ينبغي لها . لان تأثير هذه الصدمة مؤقت وقصير وبعد زواله ينسى الانسان الحدث لشدة تداخل الاسباب ومسبباتها في حياة الانسان ولذلك لم يكن اتباع الانبياء بالكثرة مقارنة مع الذين يقفون على الجانب الآخر في الصراع . وان القرآن الكريم نكر هذه الحقيقة وهي تكرار التكنيب بالآيات (المعجزات) من قبل أقوام الانبياء وإن الاستجابة عادة لا تكون كما يتوقع العقلاء الذين ينظرون الى إصرار أكثر الناس على الموقف الخاطيء مع ظهور المعجزات على ايدي الانبياء الذين ارسلهم الله . ولذلك قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون ﴾ وآتيناهم النافذة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات الا تهويلنا ﴿ (٣٤) ولذلك عندما كانت معجزة محمد (ﷺ) حياً يرجو ان

(٣٣) الفندي / د. محمد جمال الدين / الله والكون / ص ٤٥٢ / الهيئة المصرية للكتاب سنة

١٩٧٦ .

(٣٤) سورة الاسراء / ٥٩ .

يكون أكثر الانبياء تابعاً . أي ان اتباعه سيفوق عندهم عدد اتباع الانبياء الآخرين يوم القيامة . وعن هذا المعنى ينكر عالم الاجتماع تيريز : « ويُصَوِّرُ الله في الاسلام على أساس انه على مسافة بعيدة وانه المطلق الذي يتكلم مع الناس عن طريق وسطاء مثل الانبياء والملائكة وقد امكن تصور علاقة السيطرة مع فاعل إلهي بعيد على أساس مصطلحات السيد والعبد . وكلام الله تحقق (objectified) في القرآن ذاته وطالما كان الاسلام يرفض توسط رجال الدين فقد اصبح حديثه متاحاً مباشرة لكل البشر وعلى أساس متساوٍ والاسلام في التطبيق يختلف نوعاً ما في الواقع عن هذه الصورة المثالية في عدد من النقاط الهامة . فكما يقول لنا القرآن ان الله هو السيد ﴿ الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ولكن معظم عبيد هذا الرب المعلم كانوا من غير المتملمين وعليه فالاسلام على الرغم من انه نظرياً دين المساواة الا انه كان يقوم على تدرج اجتماعي في ضوء صفوة أقلية حضرية متملمة وأكثرية قبلية غير متملمة وكما لاحظ ارنست جيلنر فان الذخبة الحضرية لا تحتاج الى وسطاء حيث بإمكانها ان تقرأ النص مباشرة الا ان القبلين العامة (الاميين) يحتاجون الى خدمات وسطاء بشر يقدمون لهم الوحي في صورة غير لفظية وفي المناطق القبلية البعيدة عن المدن يجد المرء الدين الشعبي حيث تتجسد في الولي علامات الله وتظهر قواهم الدينية في الانفعال السحري وأعمال (المعجزات والتنبؤ) وبذلك فقد تطور داخل الاسلام تناقض حاد ومستمر بين طرازين من السلوك الديني يحوي انماطاً مختلفة من النشاطات الدينية . فالمتملم الحضري من العرب يقابل الله على اساس انه إله بعيد ذا قوة مطلقة ويتصل به من خلال القرآن والشريعة اما في التراث الديني الشعبي فان الفاعلين البشر يحتاجون خدمات اشخاص متدينين يحاولون ان يحولوا حقيقة الله الاجتماعية غير المباشرة الى تجربة مباشرة « (٢٥) هذا الكلام يؤكد ان البشرية في بداليتها تحتاج الى المعجزات والى كثرة في الانبياء وبما ان دعوة النبي محمد (ﷺ) هي خاتمة الدعوات وانها جاءت والبشرية في مرحلة لنسوجها ولذلك توقفت النبوءات عند محمد (ﷺ) واكتفت الرسالة بمعجزة واحدة باقية وهي

(٢٥) تيريز / براين / علم الاجتماع والاسلام دراسة لقدمية ماكس فيبر ترجمة ابو بكر احمد باقادر / ص ٨٤ / دار العلم بيروت ط ١ سنة ١٩٨٧ . ان هذا الكلام يعبر عن فهم غربي للاسلام غير متحفظ ولكنه لا يخلو بعض جوانبه من الحقيقة . وقد استشهدنا به لاثبات حاجة المجتمعات البدائية الطائفة التي تحاكي المظلة اكثر من الملل .

القرآن . ان النبوة بحد ذاتها هي معجزة وهي خرق للمألوف من حياة البشر وان الانبياء كانوا في ارقى المستويات الاخلاقية في مجتمعاتهم وكانوا يحظون بالقبول في مجتمعاتهم قبل النبوة ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ (٢٦) وكانت قريش تدعو النبي محمداً (ﷺ) بالصالح الامين قبل البعثة . لذلك عندما يعلن هؤلاء الانبياء نبوتهم على المجتمع فان هذا الحدث اعظم من أي معجزة أخرى تحصل لديهم ولهذا السبب كان القرآن اعظم من أية معجزة لانه بقي دائما يقول للناس ان محمداً (ﷺ) رسول الله . وقد اعلن هذه الحقيقة وهي ان الوحي اعظم معجزة صاحب محمد (ﷺ) ابو بكر عندما قالت له قريش : ان صاحبك يزعم انه أسري به ليلة أمس الى المسجد الأقصى . قال لهم ابو بكر : إن قالها صئق . فإني أصدقه بأعظم من ذلك أصدقه بخبر السماء (٢٧) . لذلك فإن المعجزة خروج عن المسببات المادية ومألوف الحياة من حركة وانتقال واعراض الوجود الأخرى « وان النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً اتعى النبوة وبلت المعجزة على صدقه ، فأيات الانبياء وبراهينهم لا توجد الا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ومدعي النبوة اما صالح واما كاتب ، والكذب يناقض النبوة فلا يجوز مع المناقض لها مثل ما يوجد معها فالكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة . فالمعجزة تغيير جنس الى جنس ومما يختص الرب بالقدرة عليه وملائكته لذلك كان الانتقال من مكان الى آخر ليس معجزة لان هذا تفعله الطيور والانس والجن بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الاصابع من غير ان يزداد فهذا لا يقدر عليه انسي ولا جنى » (٢٨) وقد كان الوحي عند جميع الانبياء اعظم المعجزات والايات الدالة على النبوة قل تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك الا رجالاً يوحى اليهم فاسألوا اهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ (٢٩) وكان الناس يقولون امام النبوة بين المصلح والمكذب والمهين الذي لا يدري حقيقة الامر وقد نهل ، وعبر القرآن الكريم عن هذه الحالة وهي التعجب من اعلان النبوة ﴿ اكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل

(٢٦) سورة هود / ٦٢ .

(٢٧) انظر لمصطفى د. محمد رؤاس / قراءة جديدة للصورة النبوية / ص ١١١ وكتب السيرة

كذلك ، ابن هشام / ج ١ ص ٣٩٨ .

(٢٨) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس محمد ت ٧٢٨هـ / النبوات / ص ١٠ .

(٢٩) سورة الزمر / ١٦ .

منهم أن أنكر الناس ﴿١٠٠﴾ . وقد أثار القرآن الكريم ظاهرة النبوات لكي يقنع الناس بنبوة محمد (ﷺ) فقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بنحاً من الرسل ﴾ ﴿١٠١﴾ وقوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ ﴿١٠٢﴾ « بين أن هذا الجنس من الناس معروف وقد تقدم له نظراء وأمثال وهو سبحانه أمر أن يُسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من أمور الانبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد أو هو مخالف له ليتبين بأخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الانبياء » ﴿١٠٣﴾ ولهذا كان الناس إذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى : ﴿ إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم يسحره فلما تأمرون ﴾ ﴿١٠٤﴾ . وإذا نسبوه الى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح : ﴿ مجنون وازدجر ﴾ ﴿١٠٥﴾ . فإذا اتى مدعي النبوة بالامر الخارق للمادة الذي لا يكون الا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلاً على نبوته ﴿١٠٦﴾ وأن وجود الجن والملائكة معروف في الامم السابقة مما يؤكد ارتباط الانسان بالقضايا الروحية وعمق الدين في حياة البشر وأن هذا الدين يؤثر ارتباط الانسان روحياً بالقضايا الغيبية التي لا سبيل الى ادراكها وقد فشل الفريسيون في محاولاتهم لتحديد الدين والتعرف على حقيقته بسبب خضوعهم لمحدودية العقل وانكار الغيب والميتافيزيك « فقد فشل فيور في تزويدنا بتعريف للدين فهو يدعي انه : ليس من الممكن في مستهل الدراسة أن نعرف ما هو الدين » وجاء دوركايم بمحاولة لتعريف الدين فقال عنه : « نسق موحد من المعتقدات والممارسات المرتبط بالاشياء والمعتقدات والممارسات التي تتحد في تجمع اخلاقي واحد يسمى الكنيسة (المعبد) وكل اولئك الذين يؤمنون بها . وتايلور في كتابه (الثقافة الابتدائية) يقترح ان الحد الأدنى لتعريف

(٤٠) سورة يونس / ٢ .

(٤١) سورة الاحقاف / ٩ .

(٤٢) سورة آل عمران / ١٤٤ .

(٤٣) ابن تيمية / شيخ الاسلام / النبوات / ص ٢٥ .

(٤٤) سورة الشعراء / ٣٥ .

(٤٥) سورة القمر / ٩ .

(٤٦) انظر ابن تيمية / م . ص . / ص ٣٦ - ٣٣ .

الدين يجب ان يشمل على اشارة رئيسة الى الاعتقاد (في الكائنات الروحية)^(٤٧) وهكذا نجد ان الانسان يتناسب مع الدين والحياة ويقرب في التنكر للدين وكل انسان مقترن اقترانا فطرياً بالروح والايمان وان « فرعون وان كان مظهرأ لجحد الصانع فانه ما قال : ﴿ هلولا القى عليه أسورة من ذهب او جاء معه الملائكة مقترنين ﴾^(٤٨) الا وقد سمع بنكر الملائكة اما معترفا بهم واما منكراً لهم فنكر الملائكة والجن عام في الامم وليس في الامم أمة تنكر لك انكاراً عاماً . وانما يوجد انكار لك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا العلم بالعدم^(٤٩) . لقد جاء الانبياء بالحق وجاعوا ليهودا البشرية الضالة . فكانوا باعلانهم انهم يتلقون الوحي من السماء يربطون الانسان ربطاً مباشراً بالخالق على ان في الكون آيات ودلالات اذا تأمل فيها الانسان توصل الى الايمان بالله فالكون والذجوم والحياة والماء وكل شيء في الوجود يربط الانسان بالله . فالانبياء جاعوا لتوثيق العلاقة وتجديد الدين الكامن في الفطرة واللبى باعلانه النبوة يعلن ان الله معه والتاريخ الذي يعلمه معاصروه من ممن سبقهم ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾^(٥٠) . لقد جاء الانبياء ليربطوا الناس بالإله الواحد وكانت معجزاتهم تؤثر على الناس لتحملهم على الايمان بهذا الإله ويقدرته واذا أمنا بالله فإننا نتجاوز كل الاشكاليات التي تعترض طريق الايمان والتي ترد على العقل فلا حيرة ولا ضياع وانما اطمئنان وايمان . « وفي احدى لدوات (الهلال) عند يوليو ١٩٦٠ - وجه الى ثلاثة من رجال العلم والادب هذا السؤال . لماذا تؤمن بالله ؟ قال الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : نحن نستطيع ان نرى بأعيننا ان الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة لان الانسان غير المؤمن انسان (غير طبيعي) فيما نحسه من حيرته واضطرابه وبأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه . وفي رأينا ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعي قبل كل شيء . فالانسان له وعي يقين بالموجود الاعظم وقال الدكتور جمال الدين اللخدي : اننا اثناء دراسة الاشياء للنفس من الابداع والانتقان ما يجعلنا نجزم بان وراء ذلك خالقاً مديراً . وقال الدكتور محمد

(٤٧) تيزل / برلين / علم الاجتماع والاسلام ص ٧٢ .

(٤٨) سورة الزخرف / ٥٣ .

(٤٩) ابن تيمية / شيخ الاسلام / النبوات ص ٣٥ .

(٥٠) سورة الرعد / ٤٣ .

شكري عباد ، كنت طفلاً في السابعة وكان معلم الديانة يعزفنا بالله فقال انه هو الذي خلقنا وخلق كل شيء ولمله أطال في تلك شيئاً ما فقد تلجلج في خاطري سؤال همست به لجاري ، ومن الذي خلق الله ؟ وسارع جاري من تون تبدر يسأل الاستاذ وكان يريد ان يثبت حسن اصفائه للدرس : ومن الذي خلق الله ؟ هاج استاذ الديانة هياجاً شديداً حتى اني حمدت للنفسى حسن تبجيرو حين كتمت السؤال ؟ كان عقلي الصغير يجاهد ليفهم المطلق ولكن استاذ الديانة لم يقرب الي هذه الفكرة بل ضاق بالسؤال . وأنا بقيت كالما اغرم عقلي بالعماد . فرحت اسأل نفسي اسئلة تشابه سذجتها لك السؤال الاول سألت نفسي ان كان الله موجوداً وقد حدثونا انه عادل رحيم فلماذا يوجد الخير والشر ؟ ولماذا يشقى الاخيار ؟ وينعم الاشرار ؟ ولم أجد لهذا السؤال جواباً يطمئن اليه عقلي ولم استطع ان افهم . ولكني لم استطع قط ان استغني عن فكرة الله . كنت كلما حزني امر فرزعت الى الصلاة او القرآن . فتهدأ احزاني وتسكن مخاوفي انني انسان ضعيف وساطل ضعيفاً . ساطل ضعيفاً ما دامت حياتي لحاطة بالشور والاثم . وما دام الموت يترصدني في نهاية الطريق ولن يستطيع العلم مهما بلغ ان يتغلب على الموت ولن يستطيع المجتمع مهما بلغ ان يقتلع من نفس الانسان كل بنور الشر . الله وحده يجعل حياتي على الرغم من الشرور والموت نعمة اقبلها من يديه سبحانه وتعالى ويوم اقررت بضعفي شعرت اني قوي وملحتي الله قوة ويوم رضيت بشقائي شعرت اني سعيد وملحتي الله بركة ^(١) . هذه هي الهداية التي قدمها الانبياء للانسانية نعمة الايمان بالله . ومع الايمان بالانبياء نتجاوز كل الشبهات فاذا آمنا بدعوة محمد (ﷺ) آمنا بأنه نبي ورسول ارسله الله تعالى الى الناس كافة وانزل عليه قرآناً وفي هذا القرآن إخبار عن الغيب وعن الانبياء السابقين فلا نجد في انفسنا حرج من تصديق ما نطق به القرآن الكريم من آيات وعند ذاك عندما تقرأ في هذا القرآن ان الله تعالى قد وضع نبيه يونس (عليه السلام) في بطن الحوت وامر الحوت ان لا يؤذي النبي الذي في بطنه وهما الله لهذا النبي في بطن هذا الحوت اسباب الحياة لمنة معينة فاننا لا نجد ان في هذا الامر غرابة او ان ذلك مما يعجز الله عن فعله حاشاه وهكذا مع كل معجزة او امر خارق للمادة حصل للانبياء فان صح النقل فهو حقيقة وليست خرافة او خيال او وهم او

سحر او ما شابه لان الله بقادر على ان يهييء اسباب الحياة لنبيه في بطن الحوت
في البحر لحكمة ازانها تماما كما يهييء اسباب الحياة للجلين في رحم امه .

يونس (عليه السلام) هل كانت دعوته قبل الحوت او بعد ؟ :

قال ابن كثير : « اختلفوا هل كان ارساله اليهم قبل الحوت او بعده ؟ او هما
امتان ؟ على ثلاثة اقوال » (١٢١) . وقد تمتعت آراء العلماء استنادا الى تأثرها بروايات
اهل الكتاب وفي رواية « ان الله اوحى اليه بعد ان انجاه من الحوت ان ينهب الى ملك
من ارسل اليهم وان يطلب اليه ان يرسل معه بني اسرائيل . فقالوا : ما نعرف ما تقول
ولو علمنا انك صادق لفلاننا ولقد اتيناك من دياركم وسبيناكم فلو كان ما تقول لمنعنا
الله عنكم فطاف ثلاثة ايام يدعوهم الى ذلك فابوا عليه . فاوحى الله تعالى اليه قل
لهم : ان لم تؤمنوا بعملي فاعلموا اني قد اخرج من عندهم فلما فقدوه نموا
على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم نكروا امرهم وامر يونس للعلماء
الذين كانوا في دينهم . فقالوا : انظروا واطلبوه في المدينة فان كان فيها فليس مما
نكر من نزول العذاب شيء وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقبل انه خرج
العشي ، فلما آيسوا اغلقوا ابواب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا
الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح
راوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح
الصبيان وغثت الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب . فبعثوا الى يونس
(عليه السلام) فآمنوا به . وبعثوا معه بني اسرائيل فعلى هذا القول كما يقول
الامام الرازي كانت رسالة يونس (عليه السلام) بعدما نبهه الحوت ولبيل هذا القول
قوله تعالى ﴿ فهذه الهامات وهو سقيم ﴾ وانبأ عليه شجرة من قططين وارسائه الى
عاقبة الف او يزيهون (١٢٢) وفي رواية اخرى ان جبريل (عليه السلام) بلغه الرسالة
قبل الحوت وامره بان يعجل بالذهاب الى اهل نينوى فاراد ان يلتمس دابة قال له

(٥٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٨٧ .

(٥٣) مهراڤ / د. محمد بهوسي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٠ يخذه عن

الرازي / التفسير / ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

جبريل (عليه السلام) الامر اعجل من تلك فغضب يونس (عليه السلام) وانطلق الى السفينة والرأي الثالث وهو ما يفهم من النص مباشرة نون البحث عن خلفية القصة في المصادر الاسرائيلية وهي ان دعوة يونس كانت الى اهل نينوى وعندما دعاهم لم يستجيبوا ولما لم يصبر عليهم خرج غضبا بسبب عنادهم واصرارهم على عبادة الاصنام . وعندما خرج اعتقد ان البقاء معهم لا ينفع وطن ان الارض واسعة فليبحث عن قوم آخرين افضل استجابة منهم . وذلك في قوله تعالى ﴿ فلنظن ان لن نقدر عليه ﴾ اي لن نضيق عليه وسع الارض فحبس في بطن الحوت خلافا لظنه الذي ظنه ان الارض واسعة . وانه خرج غضبانا على قومه لربه ولم يخرج مضاضاً لربه فهذا لا يليق بالانبياء (عليهم السلام) ^(١١) . ويقل الرازي : « من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف في انه لا يجوز نسبة ذلك لاحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء (عليهم السلام) » ^(١٢) . وعلى أية حال فان النص القرآني واضح في دلالة على جوهر قصة يونس (عليه السلام) . فان الله تعالى ارسله ويلغه الرسالة قبل الحوت وهذا ما يرجحه النص اذ كيف يغضب ؟ وعلى اي شيء ؟ اذا لم يكن قد ارسل وغضب بسبب موقف قومه من رسالته وبعوته . وعندما خرج اتجه نحو بلاد الشام لان ارتباط نينوى عن طريق الجزيرة باتجاه الارمن وفلسطين معروف وطريق مطروق واذا علمنا بانه طريق شهد حملات الاشوريين على فلسطين ادر كنا قوة نهاب يونس (عليه السلام) ورجاحته باتجاه فلسطين ولكن لا يوجد لدينا دليل على المكان الذي ركب منه السفينة قد يكون بحر الروم (البحر المتوسط) وقد يكون ايلات . على خليج العقبة . والارجح انه ركب السفينة وابحر من ايلات وقد يكون قصد مصر او قصد مدن جنوب ايلات . ولا يوجد دليل على ان الحوت التلته من « خليج العقبة ثم دار به حول شبه جزيرة العرب فالبحر الاحمر فخليج عدن . ثم بحر العرب فخليج عمان ثم الخليج العربي فنهر دجلة ثم نيلوى » ^(١٣) وهذا بتأثير المصادر الاسرائيلية ولا يوجد نص اسلامي يؤكد بل ان المطلق يستبعد لانه من غير المعقول ان يقطع آلاف

(٥٤) انظر الاتوسي / رح العماني / ج ٢ : ٨٧ - ٨٤ عن مهرا / د. محمد بهوسي / م . ص / ص ١٨١ .

(٥٥) الخط الرازي / التفسير الكبير / ج ٢٢ ص ٢١٥ عن مهرا / د. محمد بهوسي / م . ص / ج ٤ ص ١٨٢ .

(٥٦) مهرا / د. محمد بهوسي / م . ص / ج ٤ ص ١٧٩ .

الكيلومترات وقد يستغرق مدة طويلة قد تصل الى شهر او اكثر وحتى ان النص القرآني يفيد بان الحوت القاء على ساحل لا نبات فيه ولا شجر كما قال تعالى ﴿ فنبهناه بالعراء وهو سقيم وانبأنا عليه شجرة من يقطين ولرستاه الى مائة الف او يزيدون ﴾ ولم يذكر النص القرآني المدة التي بقي فيها في بطن الحوت وقوله تعالى ﴿ فنبهناه بالعراء ﴾ يدل على انه مكان اجرد لا شجر فيه وهذا خلاف ضفاف الانهار وان نيلوى على حجلة وضفاف حجلة ليست عراء اذ غالباً ما تكون مزروعة بالاشجار وهذا يرجح انه القى على ساحل البحر او ساحل الخليج (خليج ألبقة) وقد اختلف المفسرون في المدة التي لبث فيها يونس في بطن الحوت : فقال قتادة : ثلاثة ايام وقال الامام جعفر الصادق رضوان الله عليه : سبعة ايام ، وروى ابن ابي حاتم عن ابي مالك انه بقي اربعين يوماً وعن الضحاك عشرون يوماً وقيل شهراً وروى مجاهد عن الشعبي قال : التقمه ضحى ولفظه عشية وقال الحسن : لم يلبث الا قليلاً واخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه ^(٧٧) ولا يمكن ان نرجع رأياً على آخر ولكن اجواء النص تلمح الى ان الفترة لم تكن طويلة وانها لم تكن قصيرة جداً لانه اذا كانت قصيرة جداً لا يمكن ان يكون سقيماً على إثرها وحاجته الى إنبات اليقطين تكون ضمنية وكذلك الدعاء الذي نداء في بطن الحوت وهو في قوله تعالى ﴿ فتنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين ^(٧٨) وفي الحديث « ان يونس (عليه السلام) حين بدا له ان يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال اللهم لا إله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاقبلت الدعوى تحن بالعرش قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضمير معروف من بلاد بعمية غريبة . فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عز وجل : عبيدي يونس ، قالوا عبيدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ ثم قالوا ؟ يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتجيبه من البلاء : قال : بلى فامر الحوت فطرحه بالعراء) . رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب ^(٧٩) وهذا يرجح انه بقي مدة قد تكون بين ثلاثة ايام الى اسبوع ثم ألقاه الحوت على الساحل وإنبات اليقطين عليه مسافة بحاجة الى زيادة نظر

(٥٧) مهراڤ / د. محمد بيومي / م س . / ج ٤ ص ١٨٣ . عن تفسير الطبري ٧٩/١٧ .

(٥٨) سورة الانبياء / ٨٧ - ٨٨ .

(٥٩) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢١ .

وتأمل لان القرآن ذكر اليقطين وتوقف المفصرون عند ذكر اليقطين ودرسوا مواصفات هذا النبات وملأته لطبيعة حالة النبي يونس بعد خروجه من بطن الحوت وفي الاثر عن ابي هريرة (رضي الله عنه) انه سأل ما اليقطينة ؟ قال شجرة الدباء قال ابو هريرة (رضي الله عنه) وهيا الله له اروية وحشية (اي طيبة) تاكل من حشاش الارض قال فتتفصغ عليه فترويه من لبنها . وقوله تعالى (بالمرء) قال ابن عباس (رضي الله عنهما) وغيره هي الارض التي ليس فيها بيت ولا بناء « (١٠) » وعندما ألقي على الساحل وهو سقيم وقد ضعفت قوته عار . « قال ابن مسعود : كهية الفرخ ليس له ريش وقال ابن عباس والسدي كهية الصبي حين يولد . وقال ابن زيد : ما لفظه الحوت حتى صار مثل الصبي المنفوس قد نثر اللحم والمظم فصار مثل الصبي المنفوس » (١١) » واختلفوا في اليقطين « فابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف والسدي وقتادة والضحاك وعطاء وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع وقال هيثم عن القاسم بن ابي ايوب عن سميد بن جبير كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين وفي رواية كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين . وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتقليل ورقه لكبره ونموته ، وأنه لا يقرها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنه ياكل نيئاً ومطبوخاً ، وقشره ايضاً ، وقد ثبت ان الرسول (ﷺ) « كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة » (١٢) .

بعد هذه التجربة وبعد ان استعاد عافيته وعندما أمره تعالى بالعودة الى قومه كان قد استفاد من الدرس الذي رآه عليه رؤى سبحانه وتعالى . عاد يونس (عليه السلام) وهو أقوى عزيمة وأوسع حلماً مما كان عليه قبل ابتلائه في جوف الحوت . ولهذا اراد الله سبحانه وتعالى أن يقول للنبي محمد (ﷺ) آخر أنبيائه ورسله الى الارض ومن خلال الدرس الذي تلقاه يونس ان طريق الدعوة لا يد له من الصبر فقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . لو لا ان تنازلناك من ربه لنبد بالمرء وهو مضموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ (١٣)

(٦٠) ابن كثير / م / ج ٤ ص ٢١ .

(٦١) مهرا / د . محمد بهوسي / م . ج ٤ ص ١٨٦ محمد الطبري / ٢٣ / ١٠٢

(٦٢) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢٢ .

(٦٣) سورة القم / ٤٨ - ٥٠ .

ومحمد (ﷺ) الرسول العظيم الذي ارتبط مع الانبياء برباط الاخوة والمحبة لم يكن ينظر الى يونس على انه ضعف او تهاون وحذر المسلمين ان يسيطر عليهم هذا التصور عن هذا النبي الكريم يونس (عليه السلام) فأراد رسول الله (ﷺ) تادباً ومحبة لاخته يونس فقال (ﷺ) : لا ينبغي لعبد ان يقول أنا خير من يونس بن متي « رواه الامام احمد وروى البخاري عن النبي (ﷺ) قال : ما ينبغي لعبد أن يقول أنني خير من يونس بن متي ، ونسبه الى أبيه وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين »^(٦٤) وفي حديث البخاري تأكيد على ان يونس (عليه السلام) كان اسم ابيه متي وقد خالف ابن الاثير هذا الحديث ونهب الى ان اسم امه متي وقال : قيل لم ينسب احد من الانبياء الى امه الا عيسى بن مريم ويونس ابن متي وهي امه »^(٦٥) .

(٦٤) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٩٣ - ٢٩٥ .

(٦٥) ابن الاثير / الكامل في التاريخ / ج ١ ص ٢٠٨ .

المبحث الثالث

يونس (عليه السلام) في المصادر فهر الإسلامية والحفريات

أكثر المصادر غير الإسلامية أشارت بوضوح الى حياة يونس (عليه السلام) وسيرته هو العهد القديم حيث وضع سفر كامل له يحتوي على اربعة فصول تلك سفر يونا (كتاب يونا) كما هو مسمى في العهد القديم وقد وضع كتاب يونا قبل ميخا وناحوم وبعد عويديا وبعد سفر يونا من الاسفار الصغيرة ولا يخلو وجوده بين اسفار العهد القديم من الغرابة اذا انه لا يتحدث عن الشعب اليهودي . وقد استل مترجمو الكتاب المقدس من خلال هذا السفر على محبة الله لكل البشر « حيث عبر الله عن صحبته لكل الجنس البشري سواء اكانوا من بني إسرائيل او من الامم لم يكن في وسع يونا ان يخلص الحب لشعب آشور غير ان الله لم يشأ لها سوى كل خير وخلص لهذا ارسل لهم نبياً يعرض عليهم التوبة فيحيون ، كذلك يجسد هذا الكتاب قوة الله وتحكمه بقوى الطبيعة »^(١١) وقد جاء في هذه المقدمة « يونا من مواليد إسرائيل وقد دعاه الله ليحمل رسالة التوبة الى مملكة آشور التي كانت عاصمتها نينوى وهي المملكة التي قامت بتدمير مملكة إسرائيل في سنة ٧٢٢ ق م . عندما

(٦٦) الكتاب المقدس / مقدمة كتاب يونا في العهد القديم كتب التوضعات على العهد القديم

لغيف من علماء اللاهوت / ص ١٠٨٨

تسلم يونان الرسالة من الله أبت عليه روح الوطنية ان يبشر بالخلاص أمة وثنية فحاول الهرب من الله على ظهر سفينة ولكن بعد سلسلة احداث طرح يونان الى اعماق البحر فابتلعه الحوت ثم ما لبث الحوت ان لفظه عند شاطئ البحر وأخيراً أنعن يونان الى أمر الرب فانطلق الى نينوى ليبشر أهلها بالخلاص^(١٧) . « ولا يقدم لنا العهد القديم معلومات وافية عن شخصية يونان صاحب السفر فكلماء جاء في سفر الملوك الثاني (١٤ / ٢٥) انه النبي (يونان بن امثاي) من (جت حافر) على مقربة من الناصرة بارض الجليل^(١٨) . وسنقتطع مقاطعاً من سفر يونان لمقارنتها بالرواية القرآنية :

يونس يهرب الى ترشيش : ١ : وأمر الرب يونان بن امثاي (هيا امضي الى نينوى المدينة العظيمة وبلغ أهلها قضائي لان اثمهم قد صعد الي . غير ان يونان تاهب ليهرب من الرب الى ترشيش فانحدر الى مدينة يافا حيث عثر على سفينة مبحرة الى ترشيش فذفع أجرته وصعد اليها ليتوجه مع بحارته الى ترشيش هرباً من الرب . [ثم تحدث ربح ويتحدث الكتاب عن ابتلاع الحوت له] . وأمر الرب فاعد حوتاً عظيماً ابتلع يونان فمكث يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال [ويذكر الكتاب صلاة يونان وفيها تسبيح ودعاء] . استغثت بالرب في ضيقي فاستجاب لي ومن جوف الهاوية ابتهلْتُ فسمعت صوتي لانيك طرحتنى الى اللجج العميقة في قلب البحار فقلت قد طردت من حضرتك ولن اعود اتفرس في هيكلك المقدس عندما وهنت نفسي في داخلي تذكرت الهي فحلقت في صلاتي اليك ... فأمر الرب الحوت فكنف بيونان الى الشاطئء [بعدها يبعثه الله الى نينوى] فهب يونان وتوجه الى نينوى بموجب امر الرب وكانت نينوى مدينة بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام ويبدأ ينادي قائلاً : (بعد اربعين يوماً تدمر المدينة) فأمن شعب نينوى بالرب واعلنوا الصيام وارتدوا المسوح ... فلما رأى الله أعمالهم وتوبتهم عن طرقهم الآثمة عدل عن العقاب الذي كان مزعماً ان يوقعه بهم وعفا عنهم فاتار ذلك غيظ يونان وغضبه الشديدين وصلى الى الرب قائلاً : « ايها الرب أليس هذا ما قلته عندما كنت في بلادي ؟ لهذا أسرعت الى الهرب الى ترشيش لاني عرفت انك إله

(٦٧) الكتاب المقدس / العهد القديم / توضيحات ومقدمة على كتاب يونان .

(٦٨) مهراڤ / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرن الكريم / ج ٤ ص ١٨٨ ويلكر خطا

سفر الملوك الاول والحقيقة الملوك الثاني . انظر العهد القديم / ٢ مل / ١٤ : ٢٥

رحيم رؤوف بطيء الغضب كثير الاحسان ترجع عن العقاب والان دعني ايها الرب
الفظ انفاسي لانه خير لي ان اموت من ان احيا . فقال الرب : أنت محق في
غضبك ٩ . [ويعدنا يذكر الكتاب كيف ابه ربه بانبات اليقطين] ولكن في فجر اليوم
التالي اعد الله بودة قرصت اليقطينة فجفت فلما أشرقت الشمس أرسل الله ريحاً
شرقية حارة لفحت رأس يونان فاصابه الاعياء وتمنى لنفسه الموت قائلاً : خير لي ان
اموت من ان أظل حياً [فقال الله ليونان أنت محق في غضبك من اجل اليقطينة ؟
فاجاب انا محق في غضبي حتى الموت . فقال الرب : لقد أسفقت أنت على اليقطينة
التي لم تتعب في تنميتها وتربيتها هذه اليقطينة التي ترعرعت في ليلة ونوت في
ليلة . أفلا أسفقت أنا على نيدوى المدينة العظيمة التي يقيم فيها اكثر من مئة
وعشرين الف شخص ممن لا يفرقون بين يمينهم وشمالهم فضلاً عما فيها من بهائم
كثيرة ١٠١] . نجد ان الرواية التوراتية تقترب من الرواية الاسلامية (النص القرآني
مع تفسيراته مع الاحاديث النبوية الشريفة) ولكن لا بد ان نحدد ان التقاء النص
القرآني مع الرواية التوراتية في نقطتين مهمتين فقط هما :

— ان الشخصية المتحدث عنها واحدة وهي شخصية النبي يونس (عليه
السلام) .

— أم حدث وقع لهذا النبي هو ابتلاع الحوت له مع تقارب في ملابسات هذا
الحدث وفيما عدا هاتين النقطتين تختلف الرواية التوراتية عن القرآنية وفيما
يلي ايجاز لأهم الفروقات مع المقارنة :-

١ نسبت التوراة يونس الى بني اسرائيل ولم يذكر القرآن هذه المعلومة بل على
العكس من ذلك جعل القرآن يونس نبي قومها حدثت الرواية التوراتية ان
يونان هرب الى ترشيش اين تقع ترشيش ؟ لا أحد يعرف ولا احد يعرف اسم
هذه المدينة الحالي^(٧٠) . والقرآن الكريم لم يحدد الجهة التي قصدها يونس
(عليه السلام) ولم يذكر انه هرب من الرب كما تذكر التوراة بالنص ولكن
القرآن الكريم يذكر انه ذهب مفاضياً لقومه بسبب موقفهم فهو اعلان عدا

(٦٩) العهد القديم / يونان : ١ - ٤ .

(٧٠) يلعب على الحوت الى ان تهبط (من اتصال اسفانيا على لقلب الهن) انظر الحوت /

على الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ص ٣٠٩ انظر التوضيح في الهامش

ص ٣١٩ .

بينه وبين القوم وأيضاً يبدو ان بعض التفسيرات لقوله تعالى ﴿ فظن ان لن نقدر عليه ﴾ التي فسرتها بأنه اعتقد انه يستطيع الهرب من الله هذه التفسيرات متأثرة بمعلومات أهل الكتاب ولكن المفسرين أكتوا ان هذا لا يجوز في حق الانبياء ونسروها بأنه اعتقد سعة الارض وذهب يبحث عن قوم آخرين أي ظن ان الله لن يضيق عليه . وفي التوراة تفاصيل انه انحدر الى مدينة يافا وصعد الى السفينة ولم يتطرق القرآن الى هذه التفاصيل وانما ركز النص القرآني على الحدث من تون ملاسته وهي منهجية القرآن في رواية الواقعة التاريخية .

٢ - حددت الرواية التوراتية المدة التي مكث فيها يونس في بطن الحوت بـ (ثلاثة ايام وثلاث ليل) ولم يحدد النص القرآني هذه المدة وهذا التحديد يعكس لنا تطلعات بشرية لسياق القصة .

٣ - في التوراة تسبيحات وترتيلات يونس (عليه السلام) فيها معان طيبة هذه الترتيلات تقابل في القرآن الكريم دعاء يونس (عليه السلام) في بطن الحوت في قوله تعالى ﴿ فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحاتك اني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجينا من الغم وكذلك ننهي المؤمنين ﴿ ولا يمكن مقارنة تراثيل يونس (عليه السلام) التي أوردتها التوراة وهو يصلي في بطن الحوت وبين هذه الدعوة المظيمة التي نكرها النص القرآني . ففي هذه الدعوة توحيد الالهية التي هي غاية الانبياء والرسالات والاقرار بالعبودية والاستغفار من الذنب وقد روي عن الحسن البصري : « ما نجاه الله تعالى الا باقراره عن نفسه بالظلم »^(٧١) ومن خلال هذه الدعوة يرتبط المسلم بربه ويتعلم حقيقة نكرها القرآن الكريم فقد « روى ابن جرير عن ميمون بن مهران قال : سمعت الضحاک بن قيس يقول على منبره : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ان يونس كان عبداً لله ذاكراً . فلما أصابته الشدة دعا الله فقال : ﴿ لولا انه كان من الصبحين لبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ . فنذكره الله بما كان منه »^(٧٢) وقد وردت روايات وأحاديث نبوية عن هذه الدعوة المظيمة التي أوحاها الله تعالى الى نبيه وفي الحديث « دعوة

(٧١) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية م . ص / ج ١٨٤ عن الرازي / التفسير .

(٧٢) مهران / د. محمد بيومي / م . ص / ص ١٨٦ عن تفسير الطبري / ٢٢ / ١٠٠

ذي اللون اذ هو في بطن الحوت ﴿ لا اله الا انت سبحتك اني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب لـ ﴿ (٢٣) . وفي صلاة يونان في التوراة مع لطافتها وحسنها فإنها لا تخلو من شوائب التصورات اليهودية كما في قوله (ولن اعود اتفرس في هيكل المقدس) وتامل هذه العبارة (ان الذين يجعلون الاصنام الباطلة يتخلون عن مصدر نعمتهم أما انا فيهتاف الحمد اذبح لك وما نذرت اوفي به لان للرب الخلاص) . وتامل صفاء التوحيد مع الاقرار بضعف الانسان في قوله تعالى ﴿ لا اله الا انت سبحتك اني كنت من الظالمين ﴾ .

٤ - في الرواية التوراتية معلومة تسلط الضوء على نينوى وإنها مدينة كبيرة (بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة ايام) وهذه المعلومات التي لم يتطرق لها النص القرآني ولا تتعارض مع هدف القصة القرآنية ومحورها فإنها تسلط الضوء على بعض النقاط وتوضح بعض الغموض وتعين على إكمال الصورة وزيادة فهم النص القرآني وبذلك تتأكد لدينا الحاجة الى دراسة التوراة وتحصيلها والاستفادة مما فيها كمصدر من مصادر تفسير النص القرآني . ولا سيما ان التوراة تمتاز بانها اقدم النصوص المكتوبة والمحفظة^(٢٤) . وكذلك خلفيات القصة وقوم يونس وكل القضايا التي لم يتطرق لها النص القرآني نستطيع ان نستأنس بها عند دراسة النص القرآني ولا بد ان نشير هنا الى معظم ما ذهب اليه المفسرون عندما تناولوا هذه الموضوعات المشتركة بين القرآن والتوراة فانهم اقتبسوا وتأثروا فيها فيما تعرضوا له من تفسير من نصوص القرآن الكريم بالتوراة .

٥ - وعكس الحوار بين يونس والرب جلّت قدرته سلوكا لا يليق بالنبى الكريم وهو يعترض على توبة الرب عن أهل نينوى وفيما تبقى من الرواية التوراتية مما تقربت به التوراة ولم يتعرض له النص القرآني وقد صيغ بأسلوب قصصي وعظمي والحوار الذي سجلته التوراة بين الرب ويونس لا يخلو من معاني

(٧٣) الترمذي والنسائي وفي مستند احمد ١ / ١٧٠ . انظر مهراڤ / محمد بيومي / م . ص / ص ١٨٦

(٧٤) لا نلني بها محظوظة من التحريف والتبديل كما نلني بحفظ القرآن الكريم ولكن نلني انها محاطة عليها الر . الان اي باقية حتى الان .

الحكمة والتربية والتوجيهات العملية عن شجرة اليقطين وموتها وحزن يونس عليها وما ذكره الرب ليونس من الحكمة في موت الشجرة كل هذا لا يتعارض مع القرآن ولكنه أسلوب مبسط تبين عليه تأثيرات بشرية فهو نص يفكر الى الاعجاز على عكس القرآن الكريم المعجز . ولا بد من الإشارة هنا ان التوراة تكرت قصة اليقطين من دون ان تربط بينها وبين خروجه من بطن الحوت على عكس القرآن الكريم فقد ربط بين حاله بعد خروجه من بطن الحوت وانبات اليقطين عليه لذلك تؤكد على ضرورة دراسة نبات اليقطين من قبل علماء متخصصين لمعرفة ارتباطه بعلاج حالات مرضية كحالة النبي يونس (عليه السلام) . ونريد ان نؤكد هنا على حقيقة وثابت من الثوابت التي لا بد من توضيحها ونحن نوازن بين القرآن الكريم والتوراة وهي ان هذا التقارب الذي قد يصل في بعض الاحيان الى التطابق يؤكد حقيقة القصة وان احداثها قد وقعت فعلاً وليست حادثة الحوت رمزية كما ينحسب الى ذلك بعض شراح التوراة الذين قالوا بانها « قصة رمزية » او رواية تمثيلية في قالب تاريخي »^(٧٥) وفي هذه التفسيرات تأثر بالمناهج التي تنكر القدرة الالهية والمعجزات التي أجراها الله تعالى لانبياؤه ولكننا نزداد يقيناً في كل يوم نتأمل في كتاب الله تعالى وما يطابقه فيما ورد فيه مع الكتب الاخرى وكلمات تطابقت مع الزوايا القرآنية رواية الكتب الاخرى كلما نزداد ايماناً ويقيناً بأن هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد (ﷺ) .

يونس (عليه السلام) في الاناجيل :

وردت اشارات عن قصة يونس (عليه السلام) ذكرها المسيح (عليه السلام) لقومه يذكرهم بآيات الله ومعجزاته ويقوية قوم يونس (شعب نينوى) فقد جاء في إنجيل متي : عندئذ أجابه بعض الكتبة والفريسيين قائلين : يا معلم نرغب في ان نشاهد آية تجريها فاجابهم (جيل شريو خائن يطلب آية ولن يعطى آية الا آية يونان النبي . فكما بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا سيبقى

(٧٥) مهران / د. محمد بيومي / م . س . / ج ٤ ص ١٩١ عن قاموس الكتاب المقدس / ٢

ابن الانسان في جوف الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه لانهم تابوا لما انفرهم يونان وها هنا اعظم من يونان (٧٦) وفي هذه المقاطع التي ذكرها المسيح (عليه السلام) عن يونان تطابقت أحداث الحوت وذكر مدينة نينوى وتوبة قوم يونس وهذا يؤكد أصالة الحدث وترابطه الواضح في المصادر المختلفة وقد جاء في إنجيل برنابا ذكر يونس (عليه السلام) على لسان السيد المسيح (عليه السلام) . فقد جاء الفصل الثالث والستون : « وبعد ايام مر يسوع بجانب مدينة للسامريين فلم يأنزوا أن يدخل المدينة ولم يبيعوا خبزاً لتلاميذه فقال يعقوب ويوحنا عندئذ : « يا معلم ألا تريد ان تضرع الى الله ليرسل نارا من السماء على هؤلاء الناس ؟ » اجاب يسوع : انكم لا تعلمون اي روح يدفعكم لتكلموا هكذا . انكروا ان الله عزم على اهلاك نينوى لانه لم يجد احدا يخاف الله في تلك المدينة التي بلغ من شرها ان دعا الله يونان النبي ليرسله الى تلك المدينة فحاول الهرب الى طرسوس (٧٧) خوفاً من الشعب فطرحه الله في البحر فابتلعمته سمكة وقذفته على مقربة من نينوى . فلما بشر هناك تحول الشعب الى التوبة . فرأف الله بهم » (٧٨) وهذه الحادثة التي وقعت الى السيد المسيح مذكورة في انجيل لوقا ولكن من دون ذكر يونس وقصة الحوت « فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا : يا رب اتردد ان نامر بان تنزل النار من السماء وتكتهمه ؟ فالتفت اليهما وويخهما ثم نهىوا الى قرية اخرى » (٧٩) .

ان اختلاف الاسلوب وسياق الاحداث بين الاناجيل والتوراة مع انها تتكلم عن حدث واحد وقصة واحدة يؤكد التأثيرات البشرية عليها ولكن الحقيقة تبقى ثابتة وهي شخصية يونس (عليه السلام) وحادثة الحوت وهذا لا يمكن انكاره كتواتر على نقل جوهر القصة وحقيقة الحدث .

(٧٦) متى / ٢٨ : ١٢ - ٤٢ .

(٧٧) هنا يذكر اسم المدينة وهي المهد ترشيش . وقد تكون كركميش المذكورة في العهد القديم وهي مدينة قريبة من حران شمال بلاد الشام في آسيا الصغرى .

(٧٨) سفر برنابا : ٦٣ : ١ - ٩ .

(٧٩) سفر لوقا : ٢٠ : ٥٤ - ٥٦ .

يونس (عليه السلام) في الحفريات :

اجمعت الكتب التي بحثت ودرست نتائج الحفريات والرقم الطينية على استبعاد ذكر الانبياء ولا ندري هل هذا التوافق بين علم المثور على اسماء الانبياء . هل جاء عفويًا وغير مقصود او هناك اخفاء في المعلومات ولكننا وجدنا احداثًا جاء نكرها في الرقم الطينية وهذه الاحداث مرتبطة بالانبياء وشخصياتهم فوضح لنا هذا النكر والحدث المنكور في الرقم الطينية بأن هذا الحدث قد وقع وان هذه الظاهرة ربط هذه الاحداث بشخصيات غير الانبياء جاء نتيجة لاختلاف الاسماء وسبب التضخيم الاسطوري والبعد الزمني والتاريخي في الحدث والتغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والعقلية والثقافية والتبدلات اللغوية واللفظية في طبعة النطق مما ادى الى اختلاف في نطق الاصوات للاسماء او ان هذه الاسماء نقلت معانيها كما ذكرت شخصية نوح (عليه السلام) بالرجل الذي طال عمره او صاحب الحس المرهف وكما حدث بالنسبة الى ابي (ابراهيم - عليه السلام) من تبديل من أتور وآشور الى أزد وتارح في التوراة وكذلك اسم ابراهيم حدثت عليه تغيرات من ابرام وابراهيم وابراهيم وما يقال عن خل ايل وما ذهب اليه « نوبرتي ان ترجم اسم (بمقي اليشو) بحبيب الله من المعنى بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء قلبى فلن ان هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم وان الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج العربي لان الاقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أورد الكلدانيين ولان اسم (بمقي اليشو) ورد في الآثار البابلية بين ملوك عدة يُسمون بملوك الشاطيء او ملوك الارض البحرية وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات »^(٨٠) ومما ساعد على حفظ المعلومات عن الاحداث التي وقعت للانبياء او عاصرتهم او جرت لهم مع اقوامهم انها كانت احداثاً لها وقعها التاريخي وأن الاثر الذي احدثته على الواقع لم يكن لينسى بسرعة بل طُبعت نكراه في المشاعر والفكرات التي تناقلتها الشعوب

(٨٠) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ عن كتاب :

The Back ground of Islam by Philby.

كما حدث لنكرى الطوفان وحادثة تحريق ابراهيم (عليه السلام) ايضاً انعكس في اعمال بابلية لاحقة بسبب تأثيرها الدرامي واخذ اليهود هذه القصة في اثناء السبي البابلي ووضعوها في سفر دانيال « وسماع دانيال بها في بابل له دلالة في هذا الصدد »^(٨١) .

وقد وقع الامر نفسه بالنسبة لقصة يونس (عليه السلام) حيث جعل اليهود يونس (عليه السلام) نبياً قومياً من بني إسرائيل وربطوا احداث القصة ومآثرها ببني إسرائيل . ولكننا وجدنا في بعض المئونات البابلية القصة ذات طابع اسطوري ترتبط بصيرة وشخصية يونس (عليه السلام) فقد (حفظ لنا المؤرخ البابلي - بيروسس في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها بعد ان ضاع معظمه احاديث قديمة جداً عن بداية الحضارة في بلاد ما بين النهرين . وفقاً لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون . وهم في مستوطناتهم الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي مخلوقاً خرافياً عرف باسم اونيس (onnes) وكان نصف انسان ونصف سمكة ويخرج هذا المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشداً اياهم الى كل فرع من فروع المعرفة ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق . وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق اربع مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه . ونتيجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة وحسب بل ومقدسة ايضاً »^(٨٢) ان الاسم اونيس لا شك قريب جداً من يونس وارتباط الشخصية بالسمكة يقرب عناصر القصة وقد حاول علي الشوك ان يربط بين الشخصيتين وقال : « ولا ادري ان كان هناك صلة بين اسم (يونان) او (يونس) و (اونس) (Onnes) الكائن الاسطوري السومري ويحدثنا هارولد بيك (Harold peak) في كتاب الطوفان عن (اونس) هذا قائلاً : (ويحكى لنا بيروسس عن اسطورة عن كائن (هو له) غريب يُدعى أونس لصفه سمكة ونصفه الاخر انسان خرج من البحر وجاء بالمعرفة لسكان ما بين النهرين »^(٨٣) ويذكر كذلك : « ويعتقد ان مؤلف هذه الحكاية كان احد المنفيين في بابل وقد استعاد نكرى الاشوريين

(٨١) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الاتيها / ص ٤٩ .

(٨٢) كونتهلو / جريج / الحياة اليومية في بلاد بابل وتشور ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان

عبد التكريتي / ص ٣٦٢ .

(٨٣) الشوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

المكروهين ليعيظهم النبي برسالة إسرائيل^(٨٤) ويخلص الى القول : فهل يحق لنا ان نذهب الى القول بأن يونس او يونان ما هو الا اونس السومري^(٨٥) وقد عثر على ثلاثة الواح في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى تحكي قصة ادبا (Adapa) وتمطي المعاجم اللغوية البابلية مرافقات لاسم ادبا (Adapa) تدل على انه يعني الحكيم . الماقل ، العارف ، كما عرف ادبا ايضاً باسم (Uan) الذي ذكره المؤرخ بيروسوس (Berossus) بصيغة (Oannes) للدلالة على اول حكيم من اصل سبعة حكماء . من مصر الذي سبق الطوفان^(٨٦) وفي جزء من رقيم الطين يتحدث عن ادبا نكر انه تعرض للفرق وعنتما سألته الاله انو عن سبب كسره جناح ريع الجنوب فلجاب ادبا قائلاً : « كنت اصطاد السمك وسط البحر لعائلة سيدي (أيا) وكان البحر صافياً كالمرآة . لكن ريع الجنوب هبت واغرقتني — وفي سورة الغضب انزلت بها اللعنة^(٨٧) وعلى اية حال فان هذه الرقيم تعكس لنا طبيعة ثقافة المصور القديمة التي تشبثت بالاساطير ولكننا نستطيع ان نفرز من بين هذه الاساطير بعض خيوط الحقيقة التي تربطنا بيونس (عليه السلام) وقصته فالاسم والسمة والبحر والفرق والوحي والحكمة والمعرفة كلها حقائق مشتركة بين الحقيقة والاسطورة .

(٨٤) الهوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

(٨٥) الهوك / علي / الاساطير / ص ٣١٢ .

(٨٦) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحة / ص ٢٤٦ . (ان ارتباط القصة بمصر قبل الطوفان قد يكون متحلاً وقد صاغه بيروسوس ويضعه في عصر موغل في القدم والحقيقة ان قد يكون المتنبه من عصر قريب لمصره او قبله بقرون قليلة ، وعملية التنوير في الرقيم الطينية غير مستبعدة كما ذكرنا سابقاً ما ذكره المرحوم المكتنوز طه باقر عن قضية التنوير التي اكتشفت في إحدى نسخ ملحمة كلكاش . راجع فصل ابراهيم) عليه السلام (حيث نكرنا هذه القصة .

(٨٧) علي / د. فاضل عبدالواحد / م . ص / ص ٢٤٢ .

المبحث الرابع

أنبياء مزوا بلكهران (أنبياء الأمر البابلي)

ان المتأمل في حضارة وادي الرافدين تأسره الملاحظات المدينة عن طبيعة هذه الحضارة من حيث قدمها وتميزها عن الحضارات الأخرى والتاريخ يبدأ قبل الكتابة كما يقول فرانكفورت : انه لأمر بسيط جداً أن نقول ان التاريخ يبدأ ببداية الكتابة كما يفعل المؤرخون . إن قولاً كهذا يصلح بالنسبة لمصر حيث أن أقدم النقوش تشير الى أولى الحوادث والشخصيات المعروفة وهكذا فإنها كسجلات للمعارك والأسماء الملكية تكون أقدم مادة للتاريخ المصري . لكن الأمر ليس كذلك في بلاد ما بين النهرين حيث اتخذت المدينة شكلها وحيث ظهرت الكتابة قبل أن وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمان طويل . وسنرى أن هذا الفرق بين مصر وما بين النهرين يعود الى تباين الفايات التي كان على الكتابة والفن أن يخدمها ^(٨٨) . وهذه الحضارة كان الدين يؤثر فيها تأثيراً واضحاً يختلف عن تأثيرات الدين في حضارة وادي النيل فإن الدين في وادي الرافدين استغرق حياة الإنسان واستوعب معاناته ووصل الى الملوكية . ولم يكن العراقيون القدماء ينظرون الى الملك كإله على عكس المصريين . ولكنهم فصلوا بين الآلهة والملوك وإذا أرادوا رفع الملوكية جعلوا جزءاً منها آلهة والجزء الآخر بشر ولهذا قد تكون إحدى الملاحظات المبينة على نصوص القرآن الكريم التي أكدت على النظرة القديمة للمصريين القدماء بأن فراعنتهم كانوا آلهة مرتبطة بهذه النظرة ، وقد كانت محاولاتهم لتحليلت الفراعنة تجسيدا

{ ٨٨ } فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الأدنى / ص ٣٦ الهامش .

لذلك العقيدة في حين لم يذكر القرآن الكريم هذه الصورة عن ملوك العراق سوى إشارة الى الملك الذي حاج ابراهيم (عليه السلام) وادعى بأنه يحيي ويميت وهي إشارة مقتضبة تتناسب مع حقيقة نور الملوك في وادي الرافدين في حين ان القرآن الكريم سلط الضوء على الفراعنة وجعلهم نمونجا للطغيان والتآله كما في قوله تعالى ﴿ لَقَالِ إِنَّا رَبُّكَ الْأَعْلَى • فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْزَةِ وَالْأُولَى ﴾ بينما نجد ان معظم الصور التي عرضها القرآن الكريم التي كان يتصدى لها ابراهيم :- (عليه السلام) او نوح (عليه السلام) كانت تركز على الحوار بين النبي والكهنة او بين النبي والطبقة المترفة . وقد حدد هنري فرانكفورت الفروقات بين حضارتي مصر والعراق يمكن ايجازها بما يأتي : « ان اقدم الوثائق المكتوبة في بلاد ما بين النهرين كانت تخدم غاية عملية محضة كانت تسهل ادارة الوحدات الاقتصادية الكبيرة اي مجتمعات الهيكل بينما كانت النقوش المصرية الاولى اساطير عن ابنة ملكية او اختاما محفورة تعين شخصيات موظفي الملك واقدم الشخصيات الفنية في بلاد ما بين النهرين كانت دينية بالدرجة الاولى في حين انها كانت في الفن المصري تخليداً للاعمال الملكية وكانت تدور حول شخصيات تاريخية . ان الابنية الضخمة تتكون من المعابد في بلاد ما بين النهرين اما في مصر فانها كانت المدافن الملكية . اقدم مجتمع متحضر في بلاد ما بين النهرين يتبلور في خلايا منفصلة في عدد من المدن المتمايزة المتمتعة باستقلال ذاتي وحدات سياسية مستقلة اما المجتمع المصري فاتخذ شكل مملكة منفردة موحدة لكنها زراعية تحت سلطة حاكم مطلق . ان الاختبارات التي لدينا عن مصر تدل على ان الانتقال لم يكن بطيئاً ولا تدريجياً بل كان هناك عصر ابداع اول . وقليلة في مصر الفرعونية هي الاشياء المهمة التي لم تكن لها اصول في عصر الابداع العظيم : الاول هذا . في حين تاريخ ما بين النهرين يبين سلسلة من الانقراضات المتتالية على فترات من قرون قليلة حققت اكثر من تعديل واحد في تركيبيه السياسي فاللفة السومرية - مثلاً - كانت مهيمنة خلال مرحلة تكوين حضارة ما بين النهرين حلت محلها اللغات الاكدية اثناء النصف الثاني من الالف الثالث وانتقال مركز السلطة في الالف الثالث من سومر في اقصى الجنوب الى بابل في الوسط وفي الالف الثاني اُسور في اقصى الشمال جلب معه تغيرات ثقافية مهمة . فان حضارة ما بين النهرين لم تفقد شخصيتها اطلاقاً . ان شكلها اصيب

بالتعميل خلال تاريخها المضطرب لكنه لم يتحطم ابداً^(٨٩). إن نشوء المدن في بلاد ما بين النهرين يمسك لنا قدم هذه الحضارة حيث صوّرت لنا متابعة نشوء هذه المدن زمنياً موغلاً في القدم يؤكد بان البدايات الاولى للمجتمع المدني والقرى كانت على ارض الرافدين « ولعل من اهم الشواهد الدالة على قدم وأصاله حضارة وادي الرافدين ان باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها مرحلة بعد اخرى خلال المصور الزمنية المتعاقبة ولعل ابرز مثال يمكن ذكره في ذلك الصدد هو تعاقب مراحل الاستيطان في الفطر بشكل مستمر ومتسلسل ابتداء من استيطان الكهوف وانتهاء بظهور المدينة في بداية فجر التاريخ^(٩٠). ولعل اهم مدينة بقيت شاصخة عبر التاريخ هي بابل « خلال السنة الاولى من عهد حكم ملك لارسا (سمو - بيل) عام ١٨٩٤ ق م . اتخذ احد الشيوخ الاموريون واسمه سورمو - ابوم . مدينة لا تبعد عن كيش غير ايمال قليلة باتجاه الغرب على الضفة اليسرى للفرات عاصمة له . كان اسم هذه المدينة باللغة السومرية كا - نكرو - را) واسمها الاكدي (باب - ايليم) وكلاهما يعني باب - الإله) اما نحن فنسميها (بابليون) (بالمرية بابل) نقلاً عن اليونانيين وكان واضحاً منذ البداية ان حكام بابل الانكباء المتحمسين مضمون بقوة على جعلها ليست مجرد مدينة كبيرة غنية فحسب بل وعاصمة للبلد بكامله^(٩١) . لقد كانت بابل تحكي لنا قصة طويلة من خلال ابديتها وأمتداداتها عبر القرون الطويلة بقيت بابل شاصخة وقد يدرك المتأمل في بابل وعظمتها انها لم تظهر فجأة ولكنها سلسلة طويلة من الخطوات والمحاولات من اجل بناء تلك الملك الشامخ كيف استطاع حكام بابل ان يحققوا حلمهم ؟ لا يمكن ان يكون هذا البناء بلا اثر ديني او نبوة فقد قال ابن خلدون : « ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين ، اما من نبوة او دعوة حق . وذلك لان الملك انما يحصل بالتقلب ، والتقلب انما يكون بالعصبية والفاق الاهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأييدها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى ﴿ لو اتفقت ما في الارض جميعا ما التفت بين قلوبهم ﴾^(٩٢) . وسره ان القلوب اذا تداعت الى الدنيا حصل التنافس

(٨٩) فرانكلين / هنري / فجر الحضارة في الشرق الاقصى / ص ٦٠ - ٦٢ بصور

(٩٠) علي / د . فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٦٦ .

(٩١) د / جورج / العراق القديم ترجمة وتحليل حسين علوان حسين / ص ٢٥٢ .

(٩٢) سورة الانفال / ٦٣ .

ولمسا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها . فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التماون والتماضد واتسع نطاق الكلمة لذلك . فعظمت الدولة «^(٩٢) هذا الدين الذي تكلم عنه ابن خلدون ليس الذي يتكلم عنه تولبي وديورات وديوركايم فهؤلاء يستقنون الواقع الغربي على الحضارات القديمة الى حد ذهب تولبي الى انه « كان لمصر (كنيسة اوزيرية)^(٩٣) كنيسة عالمية خلقتها طبقة شعبية داخلية . ان الكنيسة كهيلة منظمة من جماعة من المؤمنين لم تكن تعرف في مصر في اي زمن (ولا في بلاد ما بين النهرين ايضا » عبادة اوزيريس التي كانت دائما شغل الملك الشاغل انتشرت بين صفوف الشعب جميعاً لكنها كانت كإحدى العبادات الاخرى التي كانت تملأ حياة كل مصري ويعزو تولبي في مكان آخر طرد الفزة الهكسوس من مصر الى (اتحاد مقدس بين الاقلية الحاكمة في المجتمع المصري والبروليتاريا الداخلية ضد البروليتاريا الخارجية كما يمثلها الهكسوس ، فانه لا يسمع المرء الا ان يقول ان هذه الكلمات منفردة ومجتمعة لا تنطبق على الواقع »^(٩٤) ولكن فرانكفورت الذي يدحض تحليلات تولبي وشبلنجر في كتابه نجده يعاني من نفس التأثيرات الغربية في تحليلاته في مواضع اخرى من الكتاب فهو يقول بان نظرية التحدي والاستجابة غير واقعية ويمكن ان يوهم القارئ في تكوين صورة خاطئة عن التاريخ فيقول « لا الاغلياء ولا الفقراء نظروا الى دولتهم هذه النظرة ، فان استلناج تولبي لا صلة له بالموضوع صحيح انه يستشهد بقصص رواها التراجمة الى سواح يونانيين في المصور المتأخرة عن الحكم الظالم لبناة الاهرام لكن الاخبار الحقيقية لمصر الفرعونية تبين لنا ان الناس كانوا يتهجون بقصص الملوك بمقدار ما كان اهل (الف ليلة وليلة) يتهجون بأعمال الطاغية هارون الرشيد »^(٩٥) وهكذا نجد انه اسقط المثل الغربي ويربط بين الفراعنة وهارون الرشيد . لذا نريد ان نؤكد انه لا بد من دراسة تاريخنا اسلاميا بأيدي باحثين مسلمين ينتصرون الى هذا التاريخ بكل ابعاده

(٩٢) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق د. علي عبدالواحد والمي / ج ٢

ص ٤٤٦ / مصر - ط ١ - لسنة ١٩٨٥

(٩٤) نسبة الى عبادة اوزيريس .

(٩٥) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة م . ص . / ص ٢٩ .

(٩٦) فرانكفورت / هنري / م . ص . / ص ٣٣٠ .

وانعكاساته وسلبياته وإيجابياته ، أننا نعلم أن العراق والنظام السياسي فيه ارتبط بالنبوات والانبياء ارتباطاً قوياً والملاحظ على تاريخ العراق لم يتعرض لمقويات تعميرية جراء فساد أو طغيان أو قتل للانبياء أو أي سبب من أسباب هلاك المجتمعات فلم يحدث أن سجل لنا التاريخ الديني عقوبة تعرضت لها المدن العراقية القديمة عدا الطوفان الذي شكل بداية تاريخية للنبوات والرسالات فكان معلماً قياسياً وحدتاً تقويمياً للبشرية جمعاء . على أننا لو قارنا التاريخ الديني لشبه جزيرة العرب نجد أن هلاكاً وتدميراً قد عم اقواماً أكثر من مدن العراق فقوم هود (عليه السلام) وهم قبيلة عاد أرسل الله عليهم ريحاً ندمت مساكنهم واهلكتهم وقوم صالح (عليه السلام) وهم ثمود أرسل عليهم صيحة فدمرتهم . وكذلك قرى في بلاد الشام قرى سدوم وعمورة قرى لوط (عليه السلام) الذين تعرضوا للزلازل مندمر وانقلبت مساكنهم فكان عاليها سافلها وامطر الله عليهم حجارة . وفي مصر تعرض المصريون الى عقوبات ريانية جراء موقفهم من دعوة موسى (عليه السلام) آخرها اغراق فرعون وجنوده في البحر . وهكذا نجد أن المدن العراقية القديمة بقيت تحت التراب بكتابتها وبنائها لكي نستطيع من خلال هذه الآثار التي حفظها التراب أن نتعرف على التاريخ القديم^(٩٧) أضف الى ذلك ارتباط العراق القديم في التاريخ مع تاريخ بني إسرائيل أكثر من مصر لأن مصر ارتبطت مع بني إسرائيل ارتباطاً مرحلياً في عصر يوسف (عليه السلام) ومن خلال موسى (عليه السلام) ولكننا نجد أن العراق القديم قد أثر في تكوين تاريخ بني إسرائيل وتعرض اليهود الى الصبي

(٩٧) يحدد الأستاذ عباس محمود العقاد مدن القوافل وهي المدن التي كانت على طريق القوافل .

في العالم القديم هي التي كانت مراكز النبوات وسهد الدعوات (فهناك حالة مشتركة في جميع الرسالات وهي الحالة النفسية التي تكون عليها الامم في طور واحد وذلك هو طورها . حيث تتصل البهاوة والحضارة . فلم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها . او في الصحراء المنعزلة دون غيرها . ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها احوال الاماكن بالعراصة من جانبها هذا الذي يوضحها لقيام الدعوات الدينية » انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٩ وهذا يفسر لنا عدم استكرار النبوات في مدن العالم القديمة في بابل وغيرها من مدن بين النهرين . وفي وادي الرافدين كما يؤمن توينبي « بالانصاح والموت » اقلية تصاحب لتتميز عن صلاتات الابهة الفاسدة ثم تعود بعد ان تكون مزوجة بطاقات وقوة قادرة على التعبير وهذا هو مبدأ الهجرة في المفهوم الاسلامي انظر كذلك ولسنون / كولن / سقوط الحضارة / ص ١٥٠

والعمار / الشامل على ايدي المراقبين مرتين مرة على ايدي الاشوريين والاخرى على ايدي البابليين وهي المرة المعروفة بالسبي البابلي في عصر نبوخذ نصر .
ولذلك كان العهد القديم او التوراة سجل حافل ، حافظ لنا على صفحات طويلة من تاريخ العراق القديم على ما فيه من تحريف وتبديل ولكن يمكن للباحث ان يتعرف على طبيعة تاريخ العراق القديم ومنه وملوكه ومعلومات كثيرة يمكن اخذها من التوراة للتعرف على تاريخ العراق القديم ولا سيما اذا قارنا هذه المعلومات مع نتائج الحفريات والمكتشفات الآتية التي توصل اليها العلماء في العصر الحديث . لقد كانت بابل تشكل هاجساً للخوف بالنسبة لليهود ولكنها تفرض نفسها على العالم « ولم يتوان النبي (ارميا) في الوقت الذي تنبأ بسقوطها عن وصلها بكونها (كاس زهبة بيد الرب اسكرت كل الارض) كما ان هيروصوت الذي يعتقد بأنه قد قام بزيارتها فعلاً نحو عام ٤٦٠ ق . م . يعلن باعجاب ظاهر بأنها « تتجاوز في عظمتها اي مدينة اخرى في العالم المعروف »^(٨٧) لقد ذكر القرآن الكريم اسم بابل بصراحة وكل المدن الاخرى التي ذكرت في القرآن الكريم ولم يرتبط ذكرها بالرسالة الاخيرة لمحمد (ﷺ) مثل بابل ، سبا ، مدين فقد ذكرت هذه المدن لأهمية الدور الذي كانت تلعبه في تاريخ قبل الاسلام ولم يذكر القرآن الكريم مدناً اخرى كانت قائمة مع هذه المدن لانها لم تكن قريبة من مساحة الضوء الذي كان يسلطه القرآن الكريم وهو يتابع الذبوات ومصيرة الدين في الحياة . وقد جاء ذكر بابل في القرآن الكريم مرتبطاً بمصر سليمان النبي الملك (عليه السلام) وهو احد انبياء بني اسرائيل الذين جمعوا بين النبوة والملك وقد ذكرت بابل مرتبطة بالسحر وهو الامر الذي شاع التعامل به في عصر سليمان (عليه السلام) لان حضارة سليمان (عليه السلام) حضارة روحية غير مادية كانت الجن تلعب دوراً مهماً فيها ولذلك شاع السحر تقليداً لحضارة سليمان وتوهمها بأنها قائمة على السحر وقد كانت بابل حتى عصر سليمان تمثل مركزاً عالمياً لا توجد مدينة اخرى تنافسها قوة وحضارة من حيث الاعتبارات المادية وان ذكر بابل في معرض الحديث عن ثم السحر ، وانها كانت مركزاً للنشاط السحري وفي النص ايضاً اشعار بان هذه المدينة على عظمتها لا تحمل قصبة ولكن ذكرها في القرآن الكريم يوضح أهمية هذه المدينة في ذلك العصر وقد جاء ذكر بابل في سورة

(٩٨) ج / جرج / العراق القديم / ص ٥٢٢ يأخذ كلام هيروصوت عن هرميا / لي / هيروصوت /

البقرة في قوله تعالى ﴿ وَتَبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١١١) لقد انقسمت الحياة في بني إسرائيل وتاريخهم الى متتين بعد الخروج من مصر وبخولهم الى فلسطين المدة الاولى حكم بني إسرائيل فيها القضاة وقد جاء في التوراة « وحين اقام لهم الرب قضاء كان الرب مع القاضي وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضي » والمدة الثانية تسمى مدة الملوك وقد استمرت المدة الاولى مدة القضاء من التيه حتى مدة الملوك ١٢٠ سنة بدأت في سنة ١١٨٠ ق م . وانتهت في سنة ١٠٦٠ ق م . « (١١١) وفي مدة الملوك انقسم اليهود في فلسطين على مملكتين مملكة يهوذا وكان عليها رحبعام بن سليمان ومملكة إسرائيل وكان عليها يريعام بن ناباط « وجمع رحبعام مئة وثمانين الف محارب من بيت يهوذا في اورشليم وسيط بنيامين لمحاربة إسرائيل ورث المملكة الى رحبعام ولكن سمعيا رجل الله كلم رحبعام وكلم يهوذا وبنيامين ان لا يحاربوا اخوتهم بني إسرائيل لان هذا الامر (انقسام المملكة) من عند الرب » (١١٢) وكان عهد سليمان اكثر استقرارا حيث صاهر فرعون مصر وقد كان ارتباك حالة مصر وأشور في نور حكمه الاول مما ساعده على الاستمرار على ذلك الاستمتاع « (١١٣) والاستقرار بالحكم وكان عهده عهد ثروة ومبعت صيت وخيال واطناب في سيرته ، مع ما كان واضحا من فضل الصناع والفنيين غير الاسرائيليين في ذلك وان ما ذكرته اسفار بني إسرائيل من هذا الصيت والحكمة والثروة والرخاء والسلام اللسبي شيء من الصحة كثير او قليل (١١٤) وقد استمرت مدة الملوك بحسب اسفار اليهود (٤٧٥ سنة) وهي

(٩٩) سورة البقرة / ١٠٢

(١٠٠) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل / ص ٣١٥ - ٣٥٣ .

(١٠١) محمد / محمد قاسم / م . س / ص ٤٢٦ .

(١٠٢) بريزه / محمد عزة / تاريخي بني إسرائيل من اسفارهم / ص ١٧٢

(١٠٣) بريزه / محمد عزة / م . س / ص ١٧٢

العدة التي تلت مدة القضاة والتي ابتدأت بمسح (شاول) وانتهت بالسبي البابلي سنة ٥٨٦ ق. م . « (١٠٤) وشاول هو طالوت في القرآن الكريم وقد حدد القرآن الكريم طريقة الحكم في بني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وذلك عندما طلبوا من نبيهم ان يسأل الله ليعت لهم ملكاً يقوهم في محاربة اعدائهم الذين كانوا يسمونهم المذاب وهم الفلسطينيين والقبائل العربية التي كانت في فلسطين فاختر الله لهم طالوت ملكا . وقد جاء في القرآن الكريم عن هذه العلاقة التي كانت تحكم بني إسرائيل وفي وجود نبي ومعه ملك يقوم باعمال الحرب وادارة الدولة في قوله تعالى ﴿ اَمْ تَرَى اِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى اِذْ قَالُوا لَنَبِيٍّ لَّهُمْ بُعِثْ لَنَا مُلْكًا تُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ اِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ اَلَّا تَقَاتِلُوا وَمَا لَكُمْ اَلَّا تُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَقَدْ اَخْرَجْنَا مِنْ بَنَاتِنَا وَلَهْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا اِلَّا لَقِيْلًا مِنْهُمْ وَآلَهُ عَلَيْهِمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٥) ويحدثنا القرآن الكريم ان نبيهم اخبرهم ان الله اختار لهم طالوت وهو (شاول) ملكا . ثم بعدها يجتاز بنو إسرائيل امتحانات متعاقبة مع طالوت يتساقط فيها ضعفاء الايمان الى ان وقعت المعركة مع جالوت المعروف في اسفار يهود بـ (جليات) « المحارب الذي طوله ستة اذرع وشبر وعلى راسه من نحاس وعلى جسمه برع خرسفي وزنه خمسة آلاف شاقل وجرموق نحاسي في حلية » (١٠٦) وبعد هذه المعركة صعد نجم داود في حياة بني إسرائيل ونكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ فهِزَمُوهُمْ يَٰٓأَيُّهَا اللَّهُ وَقَتَل دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دِفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) . اجتمعت النبوة والملك في بني إسرائيل عند داود وسليمان وكان ملك سليمان في فلسطين « واذا اردنا ان نجعل عهد سليمان بكلمة فمن الحق ان نقول ان سلطانه لم يتجاوز ارض - كنعان - غرب الاردن - » (١٠٨) وبعد سليمان انقسمت الدولة اليهودية على قسمين شمالي وتسمى دولة إسرائيل وعاصمتها شكيم وقوامها الاسباط الذين لم ينضموا الى الدولة الجنوبية التي كان اسمها يهوذا

(١٠٤) محمد / محمد قاسم / م . س . / ص ٤٩٠ .

(١٠٥) سورة البقرة / ٢٤٦

(١٠٦) نريزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ١٤٢

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥١

(١٠٨) نريزه / محمد عزة / م . س . / ص ١٧٢

وعاصمتها اورشليم وقومها سبطا يهوذا وبنيامين وهي التي كان عليها رحبعام بن سليمان وقد كانت يهوذا أكثر استقراراً من إسرائيل . وقد استمرت دولة يهوذا حتى سقطت على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق . م . وقد قتل نبوخذ نصر ملكها صدقيا (وهو آخر ملوك يهوذا حكم ثلاثة اشهر) ونهب اورشليم ونمرها وسبى اهلها الى بابل واقام على اورشليم والياً من قبله . اما دولة إسرائيل فقد تقلب على عرش هذه المملكة ثماني عشر اسرة وافدثت ثلاث اسر من ملوكها افناء تاماً وعمرت الى سنة ٧٢٠ ق . م . وسقطت على يد سرجون الثاني ملك آشور وقد اعتقل سرجون آخر ملوكها هوشع بن ايله ونفاه مع عدد كبير من اهل مملكته وجعل المملكة ولاية لشورية وقد ارسل سرجون ثم حفيده اسرحدون بعده جماعات من العراق فسكنوا مكان المنفيين وهم الذين عرفوا بالسامريين على الأرجح نسبة للسامرة التي كانت اسم عاصمة الدولة التي سكنوا في ارضها والغالب انها تسمية إسرائيلية للتمييز بينهم وبين بني إسرائيل لانهم هم الآخرون اعتنقوا الشريعة الموسوية ولكنهم كانوا على خلاف وتزاع مع بني إسرائيل^(١٠٩) ونريد ان نؤكد من خلال متابعة هذه الاحداث وجود علاقة بين العراق وما كان يحدث في فلسطين ولذلك ذكر القرآن الكريم سليمان ثم عرض ما كان يحدث في بابل وما انزل على الملكين حيث كان السحر هو السمة الغالبة وحالة شائعة في عصر سليمان العصر الذي سخر الله فيه طاقات روحية وجان وعلوم الصية لخدمة هذا النبي الكريم فكانت حضارة سليمان حضارة مسخرة بقدرة الله فهي حضارة غير مادية تغلب الجانب الفيزيقي والروحي فيها على الجانب المادي وشاع السحر ونشطت الجن في الممالك الاخرى فعرض لنا القرآن الكريم ان العراق وبابل ارسل اليهم ملكان يعلمان السحر ويحترنان من شره « وتعليمهما الناس له تعليم انذار اي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه لا تفعلوا كذا فانه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتخيلوا كذا فانه سحر فلا تكفروا فعلى هذا يفعل الملكين طاعة وتصرفهما فيما امر به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة . يروى ابن وهب عن خالد بن ابي عمران انه ذكر عنده هاريت وماريت وانهما يعلمان السحر فقال نحن لنزفهما عن هذا فقرأ مضمهم ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ فقال خالد لم ينزل عليهما . وقول خالد لم ينزل يرد (ما) نافية وهو قول ابن عباس قال مكي وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذي اقتلمته عليه الشياطين واتبعهم في تلك اليهود وما

(١٠٩) مريوز / محمد عزة / م . س . ج . ص ١٧٩ - ١٨٠ بتصرف .

انزل على الملكين^(١١٠) لقد وضحت الآية ان الشياطين كفروا عندما ادعوا بان سليمان ساحر وانه يملك اسرار السحر ونشطت الشياطين في بث هذه الاكثوية التي روجها اليهود عن سليمان (عليه السلام) فنفى القرآن الكريم ان يكون سليمان ساحراً وانزل الله تعالى عَلَيْنِ او عَلَيْنِ (بكسر اللام) يعني بشرين ارسلهما الله لاهل بابل يحذرونهم من السحر الذي تقشى وان اشاعة هذه الظاهرة من بابل يعني اشاعة الكفر بين الناس فكما ان الاطباء يحذرون الناس من الامراض والجراثيم بعث الله هذين الملكين لتحذير الناس من السحر وقتلة الناس وتمعل سنن الحياة التي جعلها الله سبباً من اسباب تطور الحياة واستمرارها فانما خضعت الحياة الاجتماعية للسحر والجل والشعوذة فان سنة الحياة ستتوقف ويلجأ الناس الى الكفر والسحر والجل . وقد ربط القرآن الكريم بين ملك سليمان وحضارته الروحية وبين بابل التي كانت تخضع لحضارة مادية وهذا يؤكد وجود علاقة بين مملكة بابل ومملكة اليهود في فلسطين وقد اثبت هذا الشعب انه عريق في الفتن لم يستقر له حال مع انبيائه وملوكه فسلط الله عليهم في لحظات وحالات ابتعادهم عن تعاليم السماء واستبدالهم الشرائع والقيم التي جاء بها انبيائهم بالاصنام والمقائد الكفرية التي كان يدين بها من حولهم من الامم والذين كانوا يتعايشون معهم على ارض فلسطين . تسلط عليهم العراقيون وكانوا معهم كالقوة التي اخبرها الله لتأديب هؤلاء اليهود اذا انحرفوا فسيبهم الاشوريون وساموهم سوء العذاب ودمر ملكهم وحطم وجوبهم السياسي بعد الاشوريين البابليين فسيبهم نبوخذ نصر واخذهم اسرى الى بابل . لذلك نجد ان كتب اليهود واخبارهم عن بابل وتوراتهم مشحونة بالكلام على بابل وبنينوى . ونقتطع بعض المقاطع من المهد القديم سفر ارميا الاصحاح (٥٠) وما بعدها حول بابل . « النبوة التي قضى بها الرب على بابل وعلى بلاد الكلدانيين على لسان ارميا النبي : انيموا بين الامم واعلنوا النصبوا الزاية وخبروا ولا تكتموا قولوا : قد تم الاستيلاء على بابل ولحق ببيل المار وتحطم مبروخ خربت اصنامها والسحقت اوتانها لان امة من الشمال قد زحفت عليها لتجعل ارضها مهجورة شرد منها الناس والبهائم جميعاً ... إسرائيل قطع غم متشنت طرته الاسود كان ملك آشور اول من افترسه ونبوخذ نصر آخر من هشم عظامه لذلك ما يعلنه الرب القدير اله إسرائيل ها

(١١٠) الحمصي / القاضي ابو الفضل عياض ت ٥٤٤ هـ / القفا بترفيد حمص

انا اعاقب ملك بابل وارضه كما عاقبت ملك آشور من قبل وارد إسرائيل الى مرتبه
غيرعى في الكرمل — ها سيف على الكلدانيين يقول اهل الرب وعلى اهل بابل وعلى
اشرافها وعلى حكمائها) وفي الاصحاح (٥١) عقاب بابل : وهذا ما يعلنه الرب :
ها انا اثير على بابل وعلى المقيمين في نيار الكلدانيين ريحا مهلكة وابعت الى بابل
مطرين وينزلونها ويجعلون ارضها قفراً — انصبوا الراية على اسوار بابل شددوا
الحراسة اقيموا الارصاد اعدوا الكمان لان الرب قد خطط وانجز ما قضى به على
اهل بابل ايتهى الساكنة الى جوار المياه الفزيرة ذات الكنوز الوفيرة ان نهايتك قد
ازلت وحان موعد اقتلاكك قد اقسم الرب القدير بذاته قائلاً : لاملئك اناساً كالفوغاء
فتملو جلبتهم عليك) . ويمضي سفر ارميا يتحدث عن بابل : تصبح قفراً — بابل
تصبح كوماً من الركام — سقوط بابل — هرب الناس — جليلة الدمار « (١١١) وفي
الاصحاح ٢٥ نبوءة ارميا « وفي ختام السبعين سنة اعاقب ملك بابل وامته وارضى
الكلدانيين على انهم واحولها الى خراب ابدى » . ويتحدث العهد القديم عن فساد
بني إسرائيل ويعددهم عن الرب ويصف كتاب مرثي ارميا ارتكبت اورشليم خطيئة
لكراء فاصبحت نجسة وكيد خيم الرب في غضبه بالظلام على ابنة صهيون — زالت
الشريمة ولم يعد انبيائها يحصلون على رؤيا من عند الرب — للفحص طرقتنا
ونختبرها ونرجع الى الرب لندفع قلوبنا وايدينا الى الله في السماوات قد تعطينا
وتمرينا وانت لم تغفر — قد جعلتنا اوساخا واقناراً بين الشعوب —) ويبقى يطلب
الرحمة والغفران — وفي السبي في بابل كانوا انبياء وهم الذين اوحى الله اليهم في
بابل وجاءت اسفارهم في العهد القديم تمثل مرحلة من مراحل حياة الشعب
اليهودي .

النبي حزقيال :

جاء في الملاحظات على العهد القديم وترجمته الى العربية في بداية كتاب
حزقيال : « انتظم حزقيال في ملك الكهنوت وكان احد الذين سبوا الى بابل مع بقية
اليهود الذين اجلوا عن المدينة المجيدة في سنة ٥٩٧ ق . م . وهناك اختاره الله

ليكون له نبياً أوحى اليه الروح القدس بهذه الرسالة لتكون تحذيراً من الديونة القائمة على البقية الباقية في اورشليم . بيد ان انذارات لم تلق أذانا صاغية من اليهود الماسوريين معه وعندما تحققت نبوءاته المحزنة بشار اورشليم في عام ٥٨٦ ق . م . اقبل عليه الناس ليستمعوا الى اقواله «^(١١٣) . لقد عاش اليهود بعد السبي في وضع نفسي فرض عليهم نوعا من العزلة الاجتماعية والخوف من المستقبل والياس القاتل فكان ارسال الانبياء لهم رحمة بهم وفرصة منحها الله لهم ليتوبوا ويصححوا من اخطائهم ومسيرتهم وایمانهم بقدرة الرب لكن لم تكن هذه الذبوات تمثل شيئا الى بني إسرائيل اكثر من تعميق احساسهم بالاستعلاء وتضخيم المقد التي تكونت في داخل نفوسهم عبر تاريخ طويل من الشك والخوف والمادية السوداء ومحاربة طريق الحق والانبياء . ويحدثنا حزقيال عن بداية نبوته في كتابه « وحدث في اليوم الخامس من الشهر الرابع العبري (اي حزيران) في سنة الثلاثين من عمري فيما كنت بين المسبيين بجوار نهر خابور ان انفتحت السماوات فشهدت روى من عند الله . في اليوم الخامس من الشهر في السنة الخامسة لسبي الملك يوياكين اوحى الرب الى حزقيال الكاهن ابن بوذي عند جوار نهر خابور . في نيار الكلدانيين »^(١١٣) ويمضي حزقيال يحدثنا عن هذه الذبوة حيث يحدثه الرب قائلا له : « يا ابن آدم ها انا باعثك الى بني إسرائيل الى امة متمردة عصتني ، انا باعثك الى الابناء المتصلبين القساة — فان سمعوا او ابوا — لانهم شعب عاص — فانهم يعلمون على الاقل ان نبياً بينهم »^(١١٤) . وهكذا نجد في كتاب حزقيال تشخيصاً لامراض بني إسرائيل ومتابعة لتاريخهم وتذكيرهم بنعم الله عليه وينكرهم الرب كيف امتن عليهم عندما اخرجهم من النذل الذي كانوا يعانونه في مصر « ولكنهم تمربوا علي ولم يسمعوا لي ولم يتركوا الارجاس التي تنجس عيونهم ولم يهجروا اصنام مصر فقلت : ساسكب عليهم غضبي »^(١١٥) . وجعل الرب بابل سيفا قد تم سنه وصفا

(١١٢) العهد القديم / مقدمة على كتاب حزقيال .

(١١٣) حزقيال / ١ - ٢ « ونهر خابور هنا غير الخابور في شمال الفرات ولا خابور شمال دجلة وانما هو منطقة تدعى (نهر خابور قرب نينوى) (نهر) انظر سوسة / د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٦٠٥ .

(١١٤) حزقيال / ١ - ٢ .

(١١٥) حزقيال / ٢٠ : ٩ .

لمعاقبة بني إسرائيل»^(١١٦) ونبوءة أخرى لحزقيال تحدث عن يابل السيف الذي يجرد على مصر وتنقض أسسها»^(١١٧) لقد كان حزقيال يحاول أن يبعث الأمل في بني إسرائيل ولكن نبوءاته كلها منصبة على انحرافات بني إسرائيل وكيف انصب عليهم غضب الرب وفي كتاب حزقيال مواعظ ونصائح تحاول أن ترشد بني إسرائيل الى طريق الخلاص وفي نهاية الكتاب اصحاحات تناقض الاصحاحات الاولى ويبدو انها كتبت لتبعث روح الأمل في الجسد المنخور ونبوءات الأمل التي بونت في كتاب حزقيال عن الهيكل والطقوس وتوزيع البلاد على الاسباط « مما فيه تناقض عجيب مع ما سبقهما من الاصحاحات التي تستبعد ان يرثوا الأرض مع ما كان منهم من انحرافات شديدة خلقية ودينية ومما نرى انه هو الآخر نتيجة لما بعثته عودة بني إسرائيل (اي من السبي) فيهم من آمال»^(١١٨).

النبي دانيال :

وهو من انبياء السبي البابلي ولقد حدثنا التاريخ ان اليهود تعرضوا الى السبي على يد العراقيين ثلاث مرات الاولى على يد الاشوريين فقد تمكن شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق. م) من اخضاع إسرائيل لسلطة الاشوريين وقد بونت هذه المعلومات على مسلة الملك شلمنصر الثالث التي عثر عليها بين انقاض كالح (نمرود) واستمرت محاولات اخضاع إسرائيل من قبل الاشوريين حتى وقع السبي الاول على اليهود على يد سرجون الثاني والذي نفذ خطة اجلاء اليهود وقد وضع هذه الخطة ويدأها سلفه تجلات بلاسر حيث اجلى سرجون (٢٧٢٨٠) شخصاً من اليهود الى ناحية حران والى ضفة الخابور وميديا واحل محلهم الاراميين من اقليم حماة ثم لحق بهم العرب هناك في عام ٧١٥ ق. م . وقد عثر الخبير الاتاري بوتنا سنة ١٨٤٣ م بين اطلال مدينة سمال (زنجري) عاصمة الاراميين غربي سورية على مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الاشورية وبالخط المسماري تفاصيل

(١١٦) حزقيال / ٢١ .

(١١٧) حزقيال / ٣٠ .

(١١٨) ريفوا / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦٨ .

الحملة الآشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء على اليهود وحمل اليهود الى
الامر «^(١١٩)» اما السبي الثاني لليهود فكان على يد الكلدانيين الذين اسسوا الدولة
الكلدانية بعد سقوط الدولة الآشورية سنة ٦١٢ ق. م. وقد تم القضاء على مملكة
يهونا وسبي اليهود الى بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني اعظم ملوك هذه الدولة وكان
لذلك سنة ٥٩٧ ق. م. والسبي الثالث على يد نبوخذ نصر كذلك سنة ٥٨٩ ق. م.
بعد ان نقض (صدقيا) عهد بالولاء لبلوخذ نصر ودخلت جيوش البابليين اورشليم
بعد حصار ومعاركة ضد المصريين الذين حرضوا صدقيا على نقض العهد فانتهصر
عليهم نبوخذ نصر ودخل اورشليم في اليوم الرابع من شهر تموز ٥٨٦ ق. م. اما
صدقيا فهرب هو وافراد عائلته ولكن البابليين لاحقوا به في سهول آري وحملوه الى
ريلة حيث كان مقر معسكر الملك نبوخذ نصر وهناك نبج اولاده امام عينيه ثم فكتته
عيناه واخذ مكبلا مع الاسرى الى بابل وكان النبي دانيال بين المسبيين «^(١٢٠)» وهكذا
تم القضاء على مملكة يهوذا وقد استطاع دانيال ان يتكيف مع الاسر وان يحظى
بقبول الملك « فقد تم اختياره مع رفاقه لخدمة الملك «^(١٢١)» وقد حوى سفر دانيال
سيرة هذا النبي وما جرى له من امتحانات امام نبوخذ نصر « ويستفاد من الصفر ان
صاحبه من انبياء بني إسرائيل وانه كان في قافلة المسبيين التي سبهاها نبوخذ نصر
الى بابل مع الملك يوياقيم او يوياقيم اي قبل تعمير اورشليم النهائي وانه ظل في
المنفى الى عهد كورش وداريوس بن احشو يريش على ما جاء في اصحاحه
الاول «^(١٢٢)» وفي سفر دانيال اعانه لاسباب زوال ملك بني إسرائيل وتعرضهم للسبي
بسبب معاصيهم وتوليهم وفيه خيال ومفارقات وخلق تاريخي وقد سبق ان اشرنا الى
حانته التحريق التي نكرها سفر دانيال والتي تبدو انها ملتحلة فهناك تشابه بين
القصة وقصة تحريق ابراهيم (عليه السلام) . وفي سفر دانيال كذلك معلومات عن
علاقة المسبيين مع المجتمع الجديد وكيف حاز ورفاقه احترام الملك وعاقب اعداء
لدانيال « ثم اصدر الملك امره فاحضروا المتأمرين الذين اتهموا دانيال وطرحوهم في
جب الاسود مع اولادهم ونسائهم وما كانوا يصلون الى اسفل الجب حتى بطشت بهم

(١١٩) سورة / د. احمد / فصل العرب واليهود في التاريخ ٢ ص ٥٨٧ .

(١٢٠) سورة / د. احمد / م. س. ٦ ص ٦٠٦ .

(١٢١) العهد القديم / كتاب دانيال : ١ .

(١٢٢) نبوة / محمد عزة / تاريخ بني إسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦٠ .

الاسود وهشمت عظامهم»^(١٢٣) وهناك معلومات مضطربة حول ملوك فارس وصراع داريوس مع الملوك الكلدانيين « وجعل كورش يأتي بعد داريوس ونمته بالمادي حيث يصوغ لك كله ان يكون السفر مما كتب مؤخراً من منكرات او نكريات وقصص معزوة الى دانيال وليس فيها مع تلك شيء ثوبال مما يتصل بتاريخ اليهود وحالتهم»^(١٢٤) ان وجود الانبياء في بني إسرائيل في اثناء السبي قد اعانهم على اعادة الضمور بالتوازن وتحمل قسوة الاحداث وكذلك ساعدهم على استمالة اجزاء من توراتهم وان كان احبارهم قد كيفوا وصاغوا توراتهم ضمن اهدافهم التي تبلورت لديهم من خلال «تد التاريخ الطويل من الكبت والقهر والاستضعاف ، التاريخ الذي وسم الشخصية اليهودية بالخيانة والجبن والتمسك بالحياة والحرس عليها مهما كانت هذه الحياة حتى نكر القرآن الكريم هذه الحقيقة التي تبلورت في العقل الباطن لليهود ﴿ وتجنبنهم احرس الناس على حياة ﴾»^(١٢٥) وان السبي الذي تعرض له اليهود قد أحدث تفاعلاً بين الثقافة اليهودية والثقافة الرافدينية (العراقية القديمة) بحيث تأثر اليهود بالثقافة العراقية القديمة واثروا فيها وبذلك حافظت احدهما على ثقافة الاخرى الى حد ما . وكان من القدر ورعايته للتاريخ بان جعل طرق الكتابة العراقية على الطين الذي يقاوم الظروف الطبيعية ولذلك نجد ان معظم المدونات المصرية والكنعانية قد تعرضت للتلف الكلي بسبب استخدام الاقوام الاخرى في المصور المتكثرة قبل الميلاد مادة الحبر وما يسمى (سلسلة اوستراسا (Ostraca)^(١٢٦) وتطورت هذه الطريقة الى استخدام رقائق البردي وبذلك حافظت حضارة وادي الرافدين على معلومات عظيمة وخطيرة عن تاريخ الانبياء واحوال العالم القديم من خلال الرقم الطينية . وقد لكر د. سوسة حقيقة فقدان المدونات القديمة في فلسطين بقوله : « ولما كان مناخ فلسطين رطباً لكثرة سقوط الامطار في الشتاء فما اسرع ما يصحح الحبر من سطح اللوح الطينية الصلبة اما ورق البردي فهو اسرع ترمضاً للتلف . ومما ييمت الاسى في نفوس الاتاريين والعلماء المؤرخين جميعاً وهم متطشرون الى هذه المظلمات ان يكون مصير جميع الوثائق والمدونات الكنعانية

((١٢٣)) دانيال / ٦ - ٢٤ - ٢٥ -

((١٢٤)) دانيال / محمد ع. / تلخيص بيني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦١ -

((١٢٥)) سورة البقرة // ٩٦ -

((١٢٦)) سورة / د. احمد / فصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ -

الفقدان الكلي لهذا السبب»^(١٢٧) وقد شاعت ارادة انه ان تحوي ارض العراق كنوز الدنيا كلها المادية والثقافية والعلمية وكانت الكنوز الثقافية اعلى واعز من كنوز المادة كما يقول معظم الاثاريين اننا بدأنا نبحت تحت ركام الارض والتراب عن كنوز الذهب والجواهر فاكتشفنا ما هو اهم من هذه الكنوز انه التاريخ الذي يقص علينا اخبار الامم الماضية والحضارات البائدة انها قصة الانسان قد حفظت تحت ترى وادي الرافدين . ومن الملفت للنظر ما يؤكد رو « اننا لا نمتلك شريعة حمورابي وحسب بل وكذلك رسائله والاراشيف الملكية اضافة الى العديد من النصوص القانونية والاقتصادية ، الادارية ، الدينية ، والعلمية من ماري ولارسا وسبار ونفرواور وتل حرمل ومن مواقع اخرى يتراوح عندها بين (٣٠ - ٤٠) الف رقيم وفي الواقع فان بوسعنا القول من يون مبالغة بأن مبرفتنا لوادي الرافدين خلال عام (١٨٠٠ ق . م .) تتجاوز معلوماتنا عن اي قطر اوروبي قبل الف سنة فقط . ومن الناحية النظرية بإمكان المؤرخين رسم صورة شبه متكاملة ومفصلة لمجتمع وادي الرافدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبل الميلاد»^(١٢٨) .

عزرا الكاتب :

استطاع اليهود اثناء السبي البابلي ان يجمعوا ما لديهم من اخبار وتراث . وفي مدينة بابل بالعراق اتفق علماء بني اسرائيل على جمع ماثورات التاريخ القديم خاصة فيما يتعلق بنسب اسحاق (عليه السلام) ووضع توراة موسى بين الماثورات وقد تم ذلك على يد عزرا في بابل ثم ان عزرا بعد ما فرغ من الماثورات ووضع فيها احكام موسى وضع مختصراً لاحكام موسى واظهر فيه الامور الجديدة التي اتفق العلماء على اضافتها الى توراة موسى وهذا المختصر اسمه (سفر التثنية خامس الاسفار الخمسة ثم بعد ذلك كتب اسفار الانبياء »^(١٢٩) وقد اكد رحمة الله الهندي : ان جمهور اهل الكتاب متفقون ان عزرا هو الذي صنف التوراة الحالية فقد جاء في تواريوخهم ما نصه : احرقت التوراة وما كان احد يعلمها وقيل ان عزرا جمع ما فيها

(١٢٧) سورة . د . احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ .

(١٢٨) د / جورج / العراق القديم ترجمة حسين علوان حسين / ص ٢٨٦ .

(١٢٩) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريوخ واحداث التوراة / ص ٥٥٤ .

مرة أخرى باعانة روح القدس» (١٢٠) وقال تهيوفلكت : ان الاسفار المقدسة انعدمت رأساً فأوجدها عزرا مرة أخرى بالهام» (١٢١) وعزرا هذا الذي جمع التوراة ليس العزير المذكور في القرآن فقد كان العزير رجلاً صالحاً ونبياً وهذا ليس بنبي . وقال السماوأل بن يحيى المغربي في كتابه الاحكام اليهود ص ١٥٢ - ١٥٣ ان عزرا هذا ليس هو العزير كما يظن لان العزير هو تعريب المازار . فاما عزرا فانه اذا عُرِب لم يتغير عن حاله لانه اسم خفيف الحركات والحروف ولان عزرا عند اليهود ليس بنبي وانما يسمونه (عزرا هوفير وتفسيره عزرا الناسخ . ويعلق د. محمد عبد الشراقوي على ذلك بان كلام السماوأل مقبول لانه متضلع في اللغتين العبرية والعربية ومتبحر في علوم التوراة والقرآن الكريم وكلامه فصل في هذه النقطة ويجب عدم الخلط بين العزير الصالح وعزرا الفاسق . وعزرا لم يكن نبيا بل كان من العلماء الهارونيين الذين حرفوا التوراة عمدا فقال اليهود انه ابن الله لانه كتبها على وفق احوالهم» (١٢٢) وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ (١٢٣) ان عزيرا كتب التوراة بعد ان ألقى في جوفه شمع كهيلة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع الى بني إسرائيل فقال لقد جئكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على اصبع من اصابعه قلما وكتب التوراة باصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء ، اخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا اودعوها في الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم انما صنع هذا لانه ابن الله» (١٢٤) وهذه الرواية من دون سند وفيها اضطراب في المتن وجهل بتاريخ بني إسرائيل . ومن المحتمل ان يكون عزير هذا هو الذي كتب التوراة وجمع بني إسرائيل عليها فضلت اليهود فيه مقاتلا عنه انه ابن الله . او ان بني اسرائيل قالوا عنه انه ابن الله بعد حادثة الامانة والاحياء بعد مائة عام القصة المذكورة في سورة البقرة وهو الراجح وان فتنة بني إسرائيل في العزير بسبب احبائه بعد موته وهذا ادعى للقبول

(١٢٠) محمد / محمد قاسم / م . س . / ص ٥٥٣ يأخذ عن الهندي / رحمه الله / اهار / الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٢١) محمد / محمد قاسم / م . س . / ص ٥٥٣ رحمه الله / اهار الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٢٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في تاريخ التوراة / ص ٥٥٤ - ٥٥٥ مع الهامش .

(١٢٣) سورة التوبة / ٣٠ .

(١٢٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٣٤٨ .

من رواية كتابة التوراة . ويسبب رواية كتابة التوراة التباس الامر وحصل خلط بين عزرا وعزرا . وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ او كاذبي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال اتي يحيى هذه الله بعد موتها فامته الله ملاة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولتجملك لمة لتأني وانظر الى العظيم كيف ننشزها لم تكسوها لحما فلما تبين له قال له اعلم ان الله على كل شيء قدير ﴾ (١٣٥) . قال اختلّفوا في هذا المار من هو ؟ في رواية كعب عن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) انه قال : هو عزير يرواه ابن جرير عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور (١٣٦) .

وبذلك اتضحت لدينا الصورة وهي ان الذي كتب التوراة في بابل هو عزرا وهو رجال من كذا بني اليهود ادعى بانه اله التوراة وقد تواطا مع احابار اليهود المسيبيين في بابل وكتبوا التوراة التي حرفوا وزادوا وحذفوا فيها وصاغوها بما يلائم اليهود ويبرر لهم كل جرائمهم عبر التاريخ ويمنحهم الحق في الاستعلاء على شعوب العالم بموجب فكرة العهد وعقيدة شمع الله المختار . اما المزير فهو الرجل الصالح الذي مر على قرية التي ذكر ابن كثير بان المشهور « ان هذه القرية هي بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل اهله (وهي خاوية) اى لبس فيها احد وقوله ﴿ على عروشها ﴾ اى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصات فوق متفكراً فيما آل امرها اليه بعد العمارة المظيمة وقال ﴿ اتي يحيى هذه الله بعد موتها ﴾ . وذلك لما رأى من نثرها وشدة خرابها وبعدها عن العولة الى ما كانت عليه قال تعالى : ﴿ فامته الله ملاة عام ثم بعثه ﴾ قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو اسرائيل اليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان اول شيء احيا الله فيه عيذه لينظر بهما الى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه فلما استقل سوياً قال الله له اى بواسطة الفلك ﴿ كم لبثت ﴾ قال لبثت يوماً او بعض يوم ﴿ وذلك انه مات اول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار فلما رأى الشمس باقية هن انها شمس نك اليوم ﴾ (١٣٧) . وفي التفسير اكمال لمعاني الاية ولكننا نريد ان نصل

(١٣٥) سبأ البقرة / ٢٥٩ .

(١٣٦) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ١ ص ٣١٤ .

(١٣٧) ابن كثير / ص ٠٢ / ج ١ ص ٣١٤ .

الى ان عزيز الرجل الصالح وانه كان نبياً وجعله الله تعالى آية للناس فضل اليهود فيه لما علموا ان الله اماته مائة عام ثم احياء فقالوا انه ابن الله . وهذه القصة اكثر دلالة على فتنة بني إسرائيل بان جعلوا عزيزاً ابن الله من قصة كتابة التوراة . وبذلك يتضح لدينا بان عزيزاً الذي عُرف على ارض العراق لم يكن عزيزاً بل كان عزرا وهو عزرا الكاتب وليس عزيز النبي .

وبعد السبي البابلي لم تقم لليهود قائمة وتشتتوا في الارض والذين بقوا منهم في فلسطين بقوا مهتضعين تابعين الى البابليين او الفرس او المصريين او الرومانيين وبعد تدمير اورشليم وخرابها « بقي في فلسطين شرانم من اليهود على الرغم من جلاء كثير منهم عن فلسطين وتشتتهم في كل قطر وبخاصة في الاقطار المجاورة مثل مصر وقبرص وتدمر وليبية وبين النهرين » (١٢٨) .

وقد لعب اليهود دوراً خطيراً في تقويض دعائم النظام في بلاد الرافدين واستطاعوا تحرير الفرس واستمدائهم على تحطيم العراق وفي العهد القديم سفر استير « المرأة اليهودية التي تزوجت من الملك الفارسي احشويريش بتخطيط من ابن عمها وقد كانت عنده واسمه مريخاي واستطاعت استير ان تحصل على الامان لشعبها من الملك وتمت تصفية هامان وزير الملك احشويريش واستطاعت استير ومن معها بعد ان اصبحت زوجة الملك احشويريش ان تساعد شعبها وتنتقم من اعدائهم وتهود عدد كبير من سكان مملكة احشويريش . وان بني إسرائيل ظلوا موالين للفرس وحياديين فيما كان ينشب في سوريا وفينيقية ومصر من ثورات ضد الحكم الفارسي وفيما نشب كذلك بين الفرس واليونان من حروب » (١٢٩) .

سقوط بابل :

لقد عبر سقوط بابل عن موت حضارة وان هذا السقوط لم يأت فجأة بل مر بسلسلة عمليات تداعي ثم الاحتضار فالموت . وموت بابل انتهى الدور السياسي والحضاري لبلاد الرافدين حتى مجيء الاسلام الذي استعاد فيه العراقيون دورهم

(١٢٨) ديوزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٣٨٥ .

(١٢٩) ديوزة / م . ص / ص ٢٩٢

في الامتداد نحو رقعة العالم الاسلامي وينكر جورج رو : بان حضارة وادي الرافدين بقيت حية حتى القرن الاول قبل الميلاد فكيف اضمحلت تدريجيا لتفقر تماما في النهاية ؟ ويجيب : يبدو ان هناك سببين ولم يحظ سؤال مهم كهذا بالاهتمام اللائق به حتى هذا التاريخ . فمن جهة يغطي هذا السؤال ثلاثة حقول منفصلة من البحث العلمي التاريخي المرهق . (تاريخ الشرق الاقصى السامي وتاريخ المبرانيين والاشوريين والتاريخ الاغريقي والايرواني » ومن جهة اخرى فان اضمحلال وسقوط حضارة ما في اي مكان من العالم هي على النوام مسألة معقدة تعتمد على عوامل سياسية ، عرقية ولغوية ودينية واقتصادية وجغرافية متشابكة والتي هي - في حالتنا هذه - خارج نطاق دائرة معرفتنا في اغلب الاحيان «^(١٤٠) وفي اعتقادنا ان بابل لم تتراجع وحدها من بين مدن العالم القديم فقد تراجعت قبلها مدن مصر ومدن اليمن ومدن الشام ولكن بابل قاومت التداعي اكثر من غيرها وبقيت مؤثرة في العالم لحد قرن قبل الميلاد . وان تداول الحضارات امر ليس غريبا بل هو سنة من سنن الوجود نكرها القرآن الكريم ﴿ وتلك الالهم نذولها بين الناس ﴾ المدن التي ارتبطت بدينا استطاعت ان تستعيد دورها حتى بعد التدمير والتداعي مثل القمص ولكن المدن التي تطورت عبر سلسلة التطور الحضاري فانها عندما تموت تضحل وتتلاشى وقد تنقرض لتتحول الى قرية هامشية لا تعبر عن شيء . يلفت الانتباه او يثير الاهتمام كما ذكرنا عن اوغاريت . بابل بقيت قوية لانها تملك جنورا عميقة في التاريخ ولولم تكن بابل لما بقي لها اثر . ولكن عندما يتوقف الابداع وتستهلك التربة حضاريا لابد من مواجهة المصير المحتوم وهو الموت ويضع جورج رو ثلاثة اسباب لاضمحلال حضارة وادي الرافدين الاول : غياب الحكومة الوطنية وثانيا تأسيس الاسكندر الكبير وخلفائه المدن الجديدة التي نافست المستوطنات القديمة وتفوقت عليها في النهاية . ثم اخيرا : السبب الاهم المتمثل في مجموعة التفيزات العرقية واللغوية والدينية والحضارية العميقة التي نجمت عن موجات متتالية من المحتلين الفرس ، الاغارقة ، الاراميين ، عرب قبل الاسلام ، كان وادي الرافدين قد اجتتحت مرات عديدة خلال تاريخه المريع ولكن الغزاة من الكوتيين والاموريين والحواريين والكاشيين والاراميين من بعدهم كانوا يجدون انفسهم على النوام بمواجهة حضارة فنية قوية اعلى بمراحل عديدة من حضارتهم لذلك فقد عملوا الى تبنيها باستمرار ولكن الوضع قد تبيل مع

غزو الاغارقة للعراق في القرن الثالث قبل الميلاد اذ كان هؤلاء اصحاب حضارة راقية انجبت شخصيات افلاطون وارسطو وغيرهما لذلك فلم يكن لدى البابليين سوى القليل مما يمكن ان يفتخروا بالتفوق به على غزاتهم الجدد مثل الاعمال العويصة لفلكيهم كما لم يمد - الخط المسماري المعقد - الذي نبذه البابليون انفسهم ليلانم المتطلبات الجديدة لمجتمع متعدد القوميات . واذا كان من الجائز ان تحتوي ظاهرة شديدة التعميد كهذه في عبارة مفردة وغير بديقة بالضرورة فيمكن للمرء ان يقول ان هذه الحضارة قد ماتت بسبب شيخوختها «^(١١١)» . ولكن هذه الحضارة لم تمت حتى تركت آثارا لا يمكن ان تحصى على العالم الذي جاء بعدها « لذلك يجب ان ننهش اذاً خلسنا الى حقيقة مفادها ان الحضارة الاغريقية قد بنيت على قواعد شرق متوسطية تشتمل معظمها على مواد اساسية تعود الى بلاد ما بين النهرين »^(١١٢) . ان الحضارة التي قامت في وادي الرافدين اكثر اقترابا من الواقعية لو قارناها بالحضارة المصرية او الحضارة الهلينية . فالحضارة المصرية كانت تنكر الفناء ولذلك « حنط المصريون حتى تاريخهم في تواريخ وارقام متسلسلة . اما الاغريق فكانوا يؤمنون الفناء ولذلك لم يزوروا بأي خبر او تحديد عام او اسم حقيقي او حادثة ملموسة »^(١١٣) بينما نجد ان العراقيين القدماء قد تعاملوا مع الموت بواقعية وما ملحمة كلكامش الا تأكيداً للواقعية ورفض لفكرة الخلود وتكيف مع الموت . ولكن عندما يتوقف نبض الفكر في الحضارة تتشكل هذه الحضارة في محددات المدنية فتتحول من حضارة الى مدنية وهذا الذي يعبر عنه شبلنجر بقوله : « ان المدنية هي المصير المحتوم للحضارة - والمدنيات هي نتائج الشيء يصير (Thing become) يخلق الشيء في حالة الصيرورة (Thing becoming) انها الموت يتبع الحياة ، انها الصلابة تعقب المرونة . ان المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع ان تنفد امام تحقيقها ارادة او عقل ومع ذلك تبلفها الحضارات مرة بعد اخرى مدفوعة بضرورة باطنية »^(١١٤) لقد حاول الغربيون المعاصرون من مؤرخين وفلاسفة ان يضيفوا تفسيرات لزوال وموت الحضارات وكانت آراؤهم تعبر عن ابداعات العقل البشري في

(١٤١) د / جورج / العراق القديم / ص ٥٦٦ - ٥٦٩ .

(١٤٢) د / جورج / العراق القديم / ص ٥٥٦ - ٩٦٠ .

(١٤٣) شبلنجر / اسوالد / تطور الحضارة الغربية / ج ١ ص ٥٥ .

(١٤٤) شبلنجر / اسوالد / م . ص . / ج ١ ص ٨٧ .

متابعة وتشخيص عوامل التداعي والانهيار وقد شخص توينبي احد الاسباب الفعالة التي تؤدي الى انهيار الحضارات عندما تحدث عن « إصابة الحضارة بمرض سماه بمصطلح اغريقي (Hybrits) ويعني الزهو والغرور والتكبر والانانية ويكون هذا الـ (Hybrits) سبباً في سقوط الحضارات »^(١٢٠) ولكن مشكلة هؤلاء انهم جميعاً يقفون خارج المشكلة لان قضية الانسان على الارض هي قضيتة الاولى مرتبطة بالدين وبالحال وكل هؤلاء يحاول ان يعطي شيئاً للحقيقة من خلال التأمل من الخارج . ولكن الحقيقة تنبع من الداخل من الذات واكتشافها وان اعظم عمل يؤديه الانسان هو اكتشاف ذاته وحقيقة وجوده عندها ستكون كل المشاكل لا قيمة لها . « يقول بوهمه (فيلسوف الماني) : ما هي السعادة ؟ ويجيب : الشعور بان القوة تنمو وان المقاومة تندحر »^(١٢١) . وهذا هو معنى زيادة الايمان في المفهوم الاسلامي عندما تحس ان شعوراً في داخلك ينمو ويكبر ويتشاعل امامه كل عائق وهاجس ضاغط على النفس فهذا يكون مقياساً لقوة الايمان ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾^(١٢٢) .

ولكن نحن نتابع اسباب سقوط الحضارات الذي فصله الفريسيون اجد مناسباً ان نذكر بصورة مركزة آراء عالم من علماء الاسلام سبق الفريسيين بمئات السنين وشخص احوال الدول في قيامها وانهيارها . ذلك هو العالم الاجتماعي الاول ابن خلدون اذ يقول في مقدمته : « اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من احوال تلك الطور . وهذه الاطوار :

- ١ - طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية .
- ٢ - طور الاستبداد على قومه والانفراد بونهم بالملك وكبحهم عن التناول للمصاهرة والمشاركة .
- ٣ - طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت .

(١٤٥) (ولسن / كولن / سقوط الحضارات / ص ١٥١ .

(١٤٦) (ولسن / كولن / م . ص / ص ٢١٨ .

(١٤٧) (سورة القامة / ١٤)

٤ - طور القنوع والمصالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قائماً بما يلي اولوه .
سلفاً لاتنظاره من الملوك واقتاله مقلداً للماضين من سلفه ، فيتبع آثارهم حنو
النمل بالنمل .

٥ - طور الاسفاف والقبلاوي ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع
اولوه في ميبيل القهوات واصطناع اخوان السوء وخضراء الدمن وتقليد
عظيمات الامور التي لا يستقلون بحملها مستفسداً لكبار الاولياء من قومه
وصنائع سلفه حتى يضطفونوا عليه ويتخانلوا عن نصرته وفي هذا الطور
تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد
تخلص منه ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض والله خير الوارثين « (١١٨)
وفي هذا التفصيل غناء عن تحليلات الغربيين المعاصرين ان تحليل ابن
خلدون تضمن ما نخب اليه الغربيون وهذا يؤكد كذلك سبق العلماء المسلمين
في هذا الميدان .

وفي القرآن الكريم آيات وضعت الاسس والقواعد التي يمكن من خلال تحليلها
وبراستها ان نفهم اسباب انهيار الحضارات وقد ركزت الآيات على الجانب الاخلاقي
والديني ورصدت حالات انهيار الحضارات والدول ومن هذه الآيات :-

- ١ - ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها لمذكروا فيها وما يصكرون الا
بأنفسهم وما يشعرون ﴾ الانعام / ١٢٣
- ٢ - ﴿ وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ﴾ الحجر / ٤ .
- ٣ - ﴿ ولذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيا ففسقوا فيها فحق عليها القول
فدمرناها دمرها ﴾ الاسراء / ١٦
- ٤ - ﴿ وما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها اظهم يؤمنون ﴾ الانبياء / ٦ .
- ٥ - ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً
آخرين ﴾ الانبياء / ١١
- ٦ - ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الفجاءة اثم كانوا قوم سوء
فاسقين ﴾ الانبياء / ٧٤ .

(١٤٨) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق وضبط وشرح وتعليق د. علي
عبدالواحد والي / ج ٢ ص ٤٩٥ .

- ٧ - ﴿ فكلين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ الحج / ٤٥
- ٨ - ﴿ وكلين من قرية امليت لها وهي ظالمة لم اخلصتها والي الصير ﴾ الحج / ٤٨ .
- ٩ - ﴿ وما اهلكنا من قرية الا لها منزول ﴾ الشعراء / ٢٠٨ .
- ١٠ - ﴿ وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ القصص / ٨٥ .
- ١١ - ﴿ وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كاذبون ﴾ سبا / ٣٤ .
- ١٢ - ﴿ واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون فلكبوهما فعززا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ﴾ يس / ١٣
- ١٣ - ﴿ وكان من قرية هي اشد قوة من قرية التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ محمد / ١٣
- ١٤ - ﴿ وكان من قرية عنت عن امر ربها ورسله فهاصبناها حساباً شديداً وعلبناها عذاباً نكراً ﴾ الطلاق / ٨ .
- هذه الايات وآيات اخرى ركزت عوامل تراجع الدول والقرى وانهيارها وقتلنا بانها حصرت اسباب الانهيار بالجانب الديني والاخلاقي وقد حددت الامراض الاخلاقية التي تصيب المجتمع الذي تقوم به القرى (اي الدول) بالكبر والظلم والترف والاستكبار . والامراض التي ترتبط بالجانب الديني حددت بتكذيب الانبياء والكفر الذي هو رفض الايمان والحقيقة وان ما يحل بالقرى من هلاك ودمار قد يكون نتيجة للعوامل مجتمعة ونستطيع تحديد طبيعة المرض الذي حددت كل آية من الايات المذكورة كما يأتي :-

- ١ - حددت الآية (١) وجود اكابر من مجموعة المجرمين يخططون لحرب ضد الرسالة والنبي فتكون عاقبة مكرهم وبالاً عليه وهلاكاً لهم .
- ٢ - وفي الآية (٢) حددت هلاك الامم بموجب تقدير الله الذي حددته وهذا ليس جبراً تاريخياً الذي تحدث عنه طه حسين في معرض حديثه عن ابن خلدون فهو ينقل عن المقدمة « متى بدأ اضحلال الدولة . فلا يقفه شيء ومهما

اتخذ الملك من تحوطات واجتهد في اصلاح الخلل فلا يستطيع ان يغير ما اراد الله لان الداء الذي يصيب الدولة قاتل ولا يقف ابن خلدون عند شرح الجبر التاريخي بتلك الصفة وبقعه الى الحد الاقصى . فهو يزعم انه يستطيع ان يمين عمر الدولة الطبيعي «^(١١٣)» . الحقيقة هذه المشكلة تعيد الينا مشكلة القدر والجبر في علم الكلام حاول طه حسين ان يربطه بالتاريخ . القرآن الكريم حدد أجلاً وهذا لا علاقة له بالجبر ولكنه يدخل في علم الله الذي يعلم الماضي والمستقبل ولا يحد علمه شيء ولكننا نستطيع ان نتصور استنادا الى الحقيقة المذكورة في القرآن الكريم بان التاريخ ليس ثابتاً بل هو متغير وان نوا من الحال من المحال وذلك يفتح القرآن ابواب التعديل للمستضعفين .

- ٣ - في الآية (٣) حددت الترف احد الاسباب المهمة لتجميع الطاقات للوقوف ضد الرسالة وضد القيم والاخلاق فممنها يتجاوز المترفون ويمثلون فسوقهم وعصيانهم تضطرب القيم والاخلاق وتنهار مرتكزات البناء الحضاري في الدولة فيحق عليها قانون الله فتتأمر تنميرا .
- ٤ - في الآية (٤) حددت كفر القرية ورفضها للايمان كان من الاسباب المطردة في هلاك الامم .
- ٥ - في الآية (٥) الظلم الذي يؤدي الى انسحاب الضمفاء والمظلومين وتوقف حركة الابداع والعمل فيحتل الميزان ويحل الهلاك .
- ٦ - في الآية (٦) الانحرافات والخبائث والشذوذ الجنسي من الامراض التي تذخر البناء الاجتماعي وتحطم القيم وتهدم مرتكزات الفضيلة وتحل غضب الرب فيجعل في تدمير القرية من خلال تمريرها الى الكوارث والزلازل فيعم الهلاك وتمحق القرية .
- ٧ - في الايتين (٧ و ٨) حددت الظلم من اسباب انهيار الدولة وتعطيل مظاهر الحياة والحركة فيها فهذه القصور المشيدة والبئر معطلة من اعظم الشواهد على توقف الحياة في المجتمع الظالم الذي تنفشي الظلم فيه ولا ناصر للمظلوم عندهم الا الله .

- ٩ - حدثت الآية (٩) اسباب الهلاك اعراض القرية وعدم اكرثائها بالانذار الذي يطلقه المرسلون .
- ١٠ - حدثت الآية (١٠) البطر من الامراض التي تصيب المجتمعات المترفة الغافلة التي لا تشكر الله على نعمه فهذه مساكنهم لم تسكن من بعدهم ولكنها بقيت اطلالاً تحكي نهاية البطر والترف .
- ١١ - الآية (١١) ايضاً حدثت الترف من اسباب اهلاك القرى .
- ١٢ - الآية (١٢) حدثت تكذيب المرسلين من اسباب اهلاك القرى .
- ١٣ - الآية (١٣) حدثت الفرور والكبرياء والصلف من اسباب الهلاك .
- ١٤ - الآية (١٤) ايضاً حدثت العتو وهو الاستكبار والاستعلاء والصلف من اسباب الهلاك .

وهكذا نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة وضحت نهاية القرى والمجتمعات والدول بموجب سنن ونواميس وضعها الله تحكم الحياة فكما ان الشمس والقمر تجريان بموجب ناموس وضعه الله كذلك حياة البشر واحوال الامم ونهايات الدول والحضارات كلها محكومة بنواميس اوجعها الله . وان الحضارة تموت والدول تنهار عندما يتوقف الابداع ويموت الدافع للحركة كما حذر المنهج الاسلامي من الزيادة واتباع الذاب البقر « يقول ابن خلدون ان النبي (ﷺ) دعا الله ان يبعد قومه عن الحرث وليس ذلك لان ابن خلدون يحتقر فلاحه الارض او يزعم ان النبي والخطباء كانوا يحتقرونها فهو يكتفي ان يقرر بانها تضعف المعصية والباس الحريري الذي يقول انه اساس الدولة المتين^(١٠٠) وبالجملته متى ما توقف الاستعداد للتضحية وفقد الامل وتعطلت الهمم بدأت الحضارة بالتراجع والاحتضار ثم الموت . وهكذا ماتت بابل ونينوى وسبأ وتممر وغيرها من المدن التي كانت تشغل العالم بالحركة والحياة والضجيج والامر لله يورثه من يشاء وهو خير الوارثين .

٤ - سور بابل بطرس بروجيل الاكبر (القرن السادس عشر للميلاد).

بوستليت / نيكولاس / حضارة العراق وآثاره / ص ٣٧

سوريا

الفسطاط

خريطة ١١

المملكة المتقسمة

بعد موت سليمان انفصل عشرة من
اسباط إسرائيل واقاموا مملكة
إسرائيل ، تحت حكم يريعام
وعاصمتها شكيم ، الذي اقام
مراكز للمعبادة في دان وبيت ايل
بدلاً من اورشليم . اما احفاد داود
فظلوا يحكمون المملكة الجنوبية
التي اصبحت تعرف باسم مملكة
يهودا ، وعاصمتها اورشليم . وقد
ظلت المملكتان منفصلتين .
(١ ملوك ١١ - ١٢)

انحر شوسط

[]

الملك الحبريا

(يهوذا)

الكنعانيون



خريطة ١١ المملكة المتقسمة

بعد موت سليمان انفصل عشرة من اسباط اسرائيل واقاموا مملكة اسرائيل تحت حكم يريعام وعاصمتها شكيم الذي اقام مراكز للمعبادة في دان وبيت ايل بدلاً من اورشليم ، اما احفاد داود فظلوا يحكمون المملكة الجنوبية التي اصبحت تعرف باسم مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم وقد ظلت المملكتان منفصلتين .
(١ ملوك ١١ - ١٢)

۱ - بحر فرویں

مادی

أشور

• گرجی

پوی •

أشور - الامبراطورية الآشورية

اعلام

في رحلة

— 9 —

46.

• دمشق

الحمد لله

فارسی

العربية

خريطة ١٣

الامبراطورية الآشورية

۱۰۰

الجار
مضر

مقبض الرصاص

(بحر سیف)

خريطة ١٢

الامبراطورية الاشورية

(نحو عام ٦٥٠ ق.م.)

بللت هذه الاميراطورية قوتها

ومجدها ، في خلال الفترة بين

عامی ۸۸۰-۶۱۲ ق. م. ولی

عام ٧٢٢ ق. م. سميت المملكة

الامم المتحدة (إسرائيل) وقامت

بترجیل سکاڻها ، ڪما اخڙت

مملكة يهودا في الجنوب .



اطلس دارسي الكتاب المقدس

خريطة ١٤

امبراطورية بابل

(حوالي عام ٥٥٠ ق. م.)

في عام ٦١٢ ق. م. استولى البابليون على نينوى العاصمة الاشورية

كما انتصروا على

في موقعة كركميش عام ٦٠٥ ق. م. وفي عام ٨٦ ق. م. دمر نبوخذ نصر -

اورشليم ونفى معظم سكان يهوذا وانتهت بذلك مملكة يهوذا (٢ ملوك

(٢٥-٢٣)

الخاتمة نتائج الدراسة

لقد تابعنا خلال دراستنا موضوعاً شائكاً وواسعاً ولكنه كان ممتعاً ويمكن ايج
اهم نتائج هذه الدراسة بما يأتي :

١ - اضطرنا البحث عن جنور حاضرة وادي الرافدين الى الخوض في متعلقات
الجنور والبحث عن اصل الحياة ونشوتها وعن اصل الانسان وهذا الذي قم

به لم يكن بدءاً من البحوث ولكن سبقنا الى ذلك كل من تصدى لبحث موضوعات التاريخ القديم وما قبل التاريخ . وقد وجدنا من خلال اطلاعنا على ما كتبه السابقون في هذا الموضوع ان القضية الاساس لاتزال خارج حدود المعرفة البشرية وان ما كتبه الباحثون من نظريات عن اصل الحياة وتطورها لا يعد ان يكون فرضاً قابلاً للحض والالفاء والتغيير كما وان البحث فيه لا بد ان يستند الى خلفية علمية وتخصصية وعملية تستوعب جوهر القضية المبحوثة **و** بما ان المبحوث عن حقيقته يمثل الحياة وان الحياة ما فتىء العلماء يصرحون بأنها لغز لا سبيل الى ادراكه كما جاء في القرآن الكريم ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ﴾ ^(*) . ما الروح ؟ وما السبيل الى ادراكها ؟ هذا السؤال لا يجد جواباً عند علماء المادة وما زالوا يخبطون في متاهات الاستنتاجات ودوامة التفكير « فالمادية العلمية تنتهي بالقول بانه لا عقل هناك وانما هناك مادة فقط والروح هي حصيلة المادة وقد نعب ببيركلي الى الناحية الاخرى فقال لا مادة هناك وانما هناك عقل فقط وحال ببيركلي الاسقف ان يحطم المادية والفكرة المادية عن الكون ولكن وايتهيد قال ان الحقيقة تكمن بينهما ^(**) » ويقول توينبي : « اذا فقد الكائن البشري روحه فانه يفقد انسانيته وذلك بسبب جوهر الكيان البشري هو ادراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية والكائن الحي انما يتصل بهذا الوجود الروحي بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً ^(***) » وقد عبّر كير كفارد الدانماكي عن اساس المشكلة حين قال : ان كل وجود انساني لا يعرف ذاته او روحه هو بانس واهم من ذلك ان الانسان البائس لا يحتاج الى ان يعرف انه بانس بل قد

(*) سورة الاسراء / ٨٥ .

(**) ولسن / كولن / سقوط الحضارة / ص ٢٨٤ .

(***) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٢٦ .

يظهر نفسه منتهى السعادة»^(١٠١) وهكذا نجد انه كلما تعمق الانسان وتعمقت مصادر استهلاك طاقته وحيويته فانه سيزداد عذاباً ومهما حاول الفلاسفة واصحاب العقول المبدئية في وصف معاناة الإنسان فان محاولاتهم هذه سوف لن تقني فتيلاً ويتمنى الانسان انه لو لم يستمر في المسيرة عبر هذا الطريق كما يستشهد تينبي بقصيدة لـ (تاوته تشنغ) (Taote Ching) التي يقول فيها معبراً عن الديانة التاوية التي سبقت المسيح (عليه السلام) :

« كلما ازدادت الاسلحة الحادة
تزداد الارض انقماساً في الظلام
كلما ازدادت القوانين التي تشرع يزداد عدد
الصوص وقطاع الطرق
شد القوس الى النهاية
وستتمنى لو انك توقفت في الوقت المناسب »^(١٠٢) .

ولكننا نريد ان نتوقف في الوقت المناسب ونؤمن بان الحياة والروح سر اودعه الله في الكائنات فهي غيب يؤمن به المتقون ﴿الم﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾^(١٠٣) .

٢ - تضمنت الدراسة أم (عليه السلام) وملاح وطبيعة حياته وقارنت بين الرواية الاسلامية والرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية وتوصل الباحث الى ان أم (عليه السلام) من المرجح ان يكون مكانه وجنته المذكورة في القرآن الكريم في العراق وتابعت الدراسة المراحل المباشرة لعصر أم وقد تحدثت النصوص القرآنية عن ابني أم وقد كشفت هذه النصوص بدائية الحياة حتى ان الانسان كان يقلد ما يراه في بيئته وتعمكت في عملية دفن (هابيل) على حد تسمية التوراة الذي قتله اخوه قابيل اذ قلد الغراب

(١٥١) / ولسن / هولن / سقوط الحضارة / ص ٢٩٨

(١٥٢) / تودبي / ارلولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٣٦ .

(١٥٣) / سورة البقرة / ١ - ٣

عندما رآه يحث التراب على غراب ميت . وكذلك اشارت الايات القرآنية الى بداية علاقة تم تنظيمها مع السماء لتعبر عن عبادة مخصصة يقترب بها الانسان الى الخالق وهي القرابين وقد كانت القرابين بموجب الدراسات الاثارية اقدم انواع العبادات التي ارتبطت بالانسان وترسدت بين افراد الله بهذه القرابين وبين إشراف آلهة أخرى معه في مفهوم عقيدة الشرك .

٣ - تعرضت الدراسة للانبيااء الذين كان العراق يمثل نشأتهم وكانت بدايتهم على ارضه . وقد تم التركيز على الانبياء الذين تضافرت واجتمعت الآراء على ارجاعهم الى العراق وقد اختير أشهر الانبياء العراقيين الذين اشتهروا في كتب التاريخ والتفسير وتحدث القرآن الكريم عن دعواتهم وسيرهم . فكان اولهم نوحاً (عليه السلام) وقد درست حياته من خلال نصوص القرآن الكريم ومقارنة النص القرآني مع التوراة وتحليل عصر نوح مع الدراسات الاثارية حيث تطابقت تحليلات النص مع التقدير الزمني لعصر نوح (عليه السلام) الذي وضع عصره مع العصر الزراعي وبداية اكتشاف الفخار الذي يحصره علماء الآثار في الألف السابع قبل الميلاد او (الألف السادس الى الألف السابع) قبل الميلاد . وقد تمثل هذا العصر في اعظم الكشوفات الاثرية وهي قرية جرمو في شمال العراق قرب مدينة ججمال الحالية . حيث كشفت قرية يقدر عدد بيوت السكن فيها بـ (خمسة وعشرين بيتاً) وقدر عدد سكانها بحوالي ١٥٠ نسمة ويرجع تاريخها الى عصر اقدم من سنة ٦٧٠٠ ق م . وقد ربطنا في الدراسة بين عصر نوح (عليه السلام) وبين عصر جرمو بسبب ذكر القرآن الكريم للتور وهو محل النار الذي يشكل دلالة على اكتشاف الفخار وصناعته المرتبطة بالنار « وقد اكتشفت في جرمو مجموعة من المجارح لطحين الحبوب وتنانير لعمل الخبز ومجموعة من الاقراص الطينية المكتوبة والتي يمكن ان تكون مستخدمة في عملية الفزل »^(١١) وقد عبر استخدام الفخار في عصر جرمو عن وعي وتطور في مستوى الحياة البشرية « وان صناعة الفخار والمثور عليه في موقع جرمو وفي الطبقة الخامسة تتبر تساؤلات عديدة ومهمة . فالمعروف ان صناعة الفخار تعد واحدة من الصناعات الرئيسة المكملة لطبيعة المجتمع الزراعي

وبخاصة في مراحل ممارسة الزراعة المبكرة ولا يحتمل اماكن العثور على صناعة الفخار في مدة اقدم من مدة صناعته في جرمو . وكذلك فان اعتناء الافراد من الممارسين للزراعة المبكرة في الاقسام الشمالية في وادي الرافدين لصناعة الفخار كان بعد انتقال الجماعات من الكهوف الى بيوت بسيطة من مواد غير طينية . فصناعة الفخار قد تم التوصل اليها بعد استقرار هذه التجمعات السكانية في بيوت مستقرة وعلى شكل مستوطنات ثابتة نوعاً ما . وصناعة الفخار بالنتيجة تعد واحدة من الخطوات المهمة التي تحدد طبيعة تعامل الافراد مع البيئة الجديدة وفي سبيل توافر الضروريات من الصناعات المكملة لهذا المجتمع القروي الزراعي الجديد . وان صناعة الفخار قد سبقتها صناعة الاواني من الحجر اصبحت عملياً بصورة كبيرة ويدل هذا التطور على وعي جيد^(١٠٠) . وهذه الاستنتاجات تتطابق مع الاستنتاجات التي توضحها النصوص القرآنية عن طبيعة عصر نوح (عليه السلام) وتكامل اللوح الانساني والتلويحات الجوهرية التي طرأت على طبيعة الحياة في هذا العصر . من اقتناء الاموال والبساتين والفخار والعلاقة الطبقة وطبيعة مستوى الادراك والتفكير التي يمكن استنتاجها من خلال الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين نوح (عليه السلام) وقومه .

٤ - تعرضت الدراسة لاهم حادث في عصر نوح (عليه السلام) وهو الطوفان وافترت له مبحثاً خاصاً وقد قارنت الدراسة بين الرواية القرآنية للطوفان والرواية التوراتية وحددت اوجه الشبه والاختلاف بين الروايتين وقد تم نقد الرواية التوراتية استناداً الى المعطيات العلمية للعصر الحديث وكذلك اشرنا الى الاوهام والاختفاء التي احاطت بالرواية الاسلامية نتيجة تلقي هذه الاخبار من اهل الكتاب وتم تحديد قاعدة أساسية هي لا بد من اسقاط هذه الروايات من المصادر الاسلامية وتنقيتها من الخيال والخرافة بسبب الاعتماد على الرواية الاسرائيلية وان القرآن الكريم يخلو من أية شائبة من هذه الشوائب وان الاكتفاء بالنص القرآني يوفر حصانة من الخطأ بالنسبة لدارس التاريخ والتفسير . وكذلك تضمنت الدراسة البحث عن الطوفان في

الرقم الطينية وقد ربطت الدراسة بين الرواية القرآنية والتوراتية ورواية الرقم الطينية وتم تحليل خبر الطوفان الذي تضمنته ملحمة كلكامش والرواية البابلية للطوفان والرواية السومرية وتوضح من خلال هذا الربط بان الطوفان الذي تحدثت عنه الرقم الطينية هو طوفان نوح (عليه السلام) تحديداً . وكذلك الشخصية الرئيسة في الطوفان هي شخصية واحدة وهي التي تتحدث عنها الرواية القرآنية والتوراتية والرقيمية وهي شخصية النبي نوح (عليه السلام) مع ملاحظة تلبس الاساطير والخرافة التي تعلقت عبر العصور بهذه الشخصية . وكذلك اثبتت الدراسة ان المعلومة التي اوردتها القرآن الكريم عن طبيعة عمر نوح (عليه السلام) التي اکتها التوراة والرقم الطينية فقد وجد علماء الآثار في قائمة سلسلة اثبات الملوك ان العراقيين القدماء كانوا يعتقدون ويتداولون فيما بينهم مسألة طول اعمار الملوك والحكام القدماء .

٥ - من الانبياء الذين تضمنتهم الدراسة إبراهيم (عليه السلام) (ابو الانبياء) وتمررنا الى دراسة حياته (عليه السلام) مع مرور سريع على حياة الانبياء اولاه المباشرين (اسماعيل واسحاق) عليهم السلام . وكذلك تطرقت الدراسة لمعاصره ابن اخيه لوط (عليه السلام) . وكذلك تضمنت الدراسة التعرض الى النبي ايوب (عليه السلام) والآراء المختلفة عن عصره ونبوته ومكانها . وتابعدنا دراسة حياة وسيرة الخليل (عليه السلام) من موطنه الاول في العراق وانتقاله الى حران ثم الى فلسطين موطن استقراره النهائي وعلاقته بمكة (بيت الله الحرام) وهاجر واسماعيل وعلاقتهم بالقبائل العربية التي سكنت عندهم عن زمزم وتعرضت الدراسة لاحدى المعالم التي يمكن ان ترتبط بين عصر ابراهيم (عليه السلام) والوضع الاجتماعي وطبيعة هذا العصر . هذه الصفة والميزة التي ميزت عصره عن عصر نوح هي ان الله تعالى ذكر في القرآن الكريم انه انزل صحفاً على ابراهيم وهذا يدل على وجود معالم شريفة وتعاليم تضمنتها هذه الصحف وكذلك يدل على شيوع الكتابة في عصره (عليه السلام) ولم يذكر القرآن الكريم ان هناك صحفاً قبل ابراهيم (عليه السلام) وانما اطلق عليها الصحف الاولى بينما تحدث عن عصر نوح (عليه السلام) بانه كان يمثل ارتباطاً بالنبي (عليه السلام) من خلال الطاعة ﴿ ان اعبدوا الله

وقته واطيعون^(١١١) بينما مثل عصر ابراهيم (عليه السلام) تغييراً في طبيعة العلاقة بين الارض والسماء . وان كتابة التعاليم والشرعية يؤدي الى انتقالها وتداولها ضمن بيئة جغرافية واسعة . لذلك قمنا بدراسة شريعة حمورابي ، لان المؤرخين الآثاريين وضعوا حمورابي في عصر مقارب ومواز للتدريرات التي وضع فيها عصر ابراهيم (عليه السلام) وتوضح لدينا من خلال الدراسة ان شريعة حمورابي متطابقة في بعض مواضعها مع ما موجود في التوراة من احكام وعقوبات وقد ثبتنا هذه الاحكام لان القرآن الكريم يثبت هذه الحقيقة وبذلك ترجح لدينا ان شريعة حمورابي والتوراة مصدرها واحد وذلك بموجب الدراسات الغربية وموسوعة وست منستر والدراسات التي قام بها شراح المهد القديم . وهذا يميز القناعات بان شريعة حمورابي لم تات من ابداع المشرع في عصره وانما جاءت نتيجة ارتباط الحياة العراقية القديمة بتراث الانبياء لا سيما ان شريعة حمورابي سبقتها شرائع اقدم منها مما يشير الى عدم قدرة العقل البشري ومستوى ادراكه في تلك المصور على ابداع هذه الشرائع لو لم تكن هناك ارشادات وتعاليم لانبياء كانوا يتلقون هذه التعاليم من السماء . وكذلك نهونا من خلال دراستنا لعصر ابراهيم (عليه السلام) الى استبدال مصطلح السامية بالابراهيمية لعدم وجود دليل علمي يستند عليه دعاة السامية واكراما لفكرى خليل الرحمن ابراهيم ابي الانبياء (عليه السلام) .

٦ - تضمنت الدراسة في فصلها الاخير النبي يونس (عليه السلام) مع موازنة بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية ودراسة عصر النبي يونس (عليه السلام) والقرية التي بعث فيها . مع موازنة للدراسات الآثارية عن نينوى ووصفها ودراسة طبيعة العصر من خلال نصوص القرآن الكريم ونتائج الدراسات الآثارية وافريت الدراسة مبحثاً عن المعجزة في حياة الانبياء وعن مفهوم المعجزة عقائدياً وفكرياً . وقارنت الدراسة بين قصة يونس (عليه السلام) في الرواية القرآنية والتوراتية وقيم طيني حوى معلومات عن اول الحكماء الذين يتلقون الوحي او الالهام وتمثل في شكل اسطوري لانسان نصفه بشر ونصفه الاخر سمكة اسمه اونس . وكذلك تضمنت الدراسة في

فصلها الرابع والآخر دراسة عن الانبياء الذين مروا بالعراق ولم يكن اصلهم عراقياً ومثل هؤلاء الانبياء السبي البابلي واستمرضت الدراسة من خلال تصديها لانبياء السبي البابلي نشوء بابل اول مدينة عظيمة في العالم . وعلاقة بابل ونيوى المحدثتان التاريخيتان باليهود والحروب بين العراقيين واليهود وكيف تم سبي اليهود على ايدي العراقيين مرتين في عصرين مختلفين العصر الاشوري والعصر البابلي الحديث .

٧ - تضمنت الدراسة في فصولها متابعة منهجية القرآن في الرواية التاريخية وكيف تعامل القرآن الكريم منذ بداية خلق السماوات والارض في ستة ايام تعامل مع السدن والدواميس التي اودعها الله تعالى الوجود من النرة ومكوناتها التي اكتشفت في العصر الحديث انها خاضعة لناموس تخلق يمبر عنه دوران الالكترونات حول النواة ومن قوانين لا تتخلف او تضطرب . والحياة وتنوعها وتطورها على وفق قوانين محكمة بها وتغير اشكال الحياة وتنوعها نحو الاحسن ثم ارتباط الحياة بالماء والنسجام الوجود والتكامل والتوازن ثم السماوات والنجوم والافلاك كل هذا يحكي قصة المظمة التي تتجلى في مخلوقات هذا الخالق العظيم كما يقول غوثيه في مقطوعة رائعة من قصيدته : « عندما يتدفق في الابدئي الشيء لنفسه مكرراً ذاته ابداً ، وتتماصك آلاف القناطر جبارة بعضها ببعض ، تفيض الرغبة في الحياة من كل الاشياء من اضخم النجوم واتفه المرد وكل اجهاد وجهاد هو هدوء سرمدى في الله » (١٥٧) وما اعظم من القرآن الذي يعتمد عن اهواء وشطحات الشعراء وبشريتهم الناقصة ان يستملي الكمال المطلق ويبين الخالق عن خلقه في آيات تتنذف في اعماق الانسان الشعور بالايمان الحقيقي بقوله تعالى ﴿ سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن انفسهم ومما لا يعلمون ﴾ (١٥٨) وفي قوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تكرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (١٥٩) .

(١٥٧) هبلنجر / اسوالد / تصوير الحضارة الغربية / ج ١ ص ٦ .

(١٥٨) سورة يس / ٣٦ .

(١٥٩) سورة يس / ٣٨ - ٤٠ .

٨ - تبين من خلال الدراسة أهمية العراق تاريخياً ودينياً حيث ارتبط تاريخ العراق القديم منذ بداياته وفجر حضارته مع الأديان والأنبياء . وقد ربطنا من خلال دراسات الآثار والتاريخ القديم بين الأنبياء وتاريخهم وما حوته الرقعة الطينية التي حوت معلومات قيمة ولها اثر فعال في بلورة فهم منطقي يربط بين القرآن الكريم والتاريخ القديم وتاريخ الأنبياء وهي دراسة اول مرة فيها نحسب ربطت بين الآثار والحفريات والنص القرآني وتاريخ الأنبياء وهي خطوة أولى على الطريق . نأمل ان يتابع المشروع من خلال باحثين آخرين يغلون هذا الميدان بحثاً وتنصباً للوصول الى الحقيقة التي تعرضت عبر مسلسل معقد من التشويش والتشويه وطمس المعالم لمسيرة الأنبياء . وهي محاولة لتقريب الفجوة بين دراسات التاريخ القديم ونتائج الحفريات والدراسات التاريخية الدينية ومقارنة الأديان .

ولقد امتازت ارض الرافدين بميزات جعلتها أهلاً لأن تكون بداية تجمع البشرية الاولى بتأسيس المجتمعات السكانية وقبلها سكانها السان الكهوف بسبب توافر مصادر الامن الحياتية من ماء وطعام واعتدال في المناخ مما رشحها لان تكون نقطة البداية للتاريخ البشري ثم احتضنت بلاد الرافدين المجتمعات البشرية الاولى واختير الأنبياء من هذه المجتمعات الاولى . وان طبيعة النهرين والفيضانات التي كانت تجتاح المنطقة كل نك ولد وعياً وحساً وحفز العراقيين القدماء على الابداع نتيجة لتحدي الظروف الطبيعية على رأي توينبي . لذلك نكر شراح العهد القديم ومتتبعو التاريخ الديني بان جنة آدم كانت على ارض الرافدين حيث الروافد النهرية المهمة وكذلك بداية المجتمع بعد آدم كانت على ارض الرافدين وهكذا تتابعت الاجيال والقرون والأنبياء من بعد آدم حتى عصر نوح الذي تضافرت الالة على انه كان على ارض الرافدين وحدث الطوفان الذي يعد من اهم الاحداث في تاريخ البشرية بعد بعث آدم واختياره للنبوة . وبعد الطوفان لم تنته البشرية وانما تمرت قرية النبي نوح (عليه السلام) وبعث القرى التي لم تتأثر بالطوفان قائمة والليل على ذلك بقاء اصنام قوم نوح في التراث الديني لمناطق عديدة في الشرق الاقصى وشبه جزير العرب . اذ لو كان الطوفان قد دمر العالم القديم فكيف نفسر بقاء الاصنام التي عكز عليها قوم نوح في قبائل العرب الى حد قبيل الاسلام ؟ وكيف يفسر وجود كتابات على رقعة طينية تذكر آلهة قوم نوح ؟ لو لم تكن هذه المخلوقات بين بقايا ثقافة قوم

نوح الذين هلكوا وقيمت اثار ثقافتهم على المجتمعات الاخرى لانها لم تتعرض للظوفان ... وبعد نوح (عليه السلام) وبعد الطوفان الذي حصل في عصره حيث مضت آلاف السنين على ارض الرافدين سكنت القرآن عنها ولكن الآثار والقرى التي كانت تحت تراب بلاد النهرين تؤكد ان الحياة كانت مستمرة وتتصاعد بوتائر مطربة . ثم جاء عصر ابراهيم (عليه السلام) وكان ابتداء بعوته من ارض العراق وقد توضحت لدينا من خلال متابعة الانبياء على ارض الرافدين قضية مهمة وهي ان اصل الانبياء والقبائل السابقة للمروية للصريحة قد بدأ من العراق وان جميع الانبياء الذين ارسلهم الله سبحانه وتعالى في هذه المنطقة والمناطق التي تجاورها كانوا يمهنون لظهور النبي العظيم محمد (ﷺ) . وقد اشار الامام محمد عبده الى هذه الحقيقة في كتابه (رسالة التوحيد) فنكر ان الانبياء الاولى خاطبت الحص يوم كانت الانسانية في طور الطفولة لا يعرف الانسان فيها الا ما يقع تحت حسه ولا يتناول بنهذه من المعاني ما لا يقرب من لمسه فلما سار ركب الانسانية وجريت وكسبت وتخالفت واتفقت وتكلمت في السعادة والشقاء اياما واياما وغالبها الوجدان وبدت المواطف جاء دين يتحدث عن الزهانة وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الانسانية في صراعها لم تستطع ان تعيش على الايتار ولم يطل مقامها في الصفاء فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم وحل التخاصم مكان المسالمة فجاء دين ينظم الشؤون كلها ويرعى الحس والعاطفة ويدرس العقل والقلب وينظم للناس شؤون دنياهم وآخرتهم ويقول الاستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى : ﴿ مصلحاً لما بين يديه ﴾ ، ان هذا الكتاب (القرآن) الذي نزل بالحق يصفق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدت الى زمانه يصفقها في اصولها في صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم محققة لاغراضها في تلك الزمان وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد ، يتفق في اصله ويختلف في فروعها تدريجاً مع الحاجات مع تصديق اللاحق للسابق في اصل الوحدة الكلية الكبير » (١١٠) .

لقد كان دور وادي الرافدين عظيماً عبر التاريخ فان اول النبوات والرسالات كانت على ارضه وان اول الحضارات قامت على ارضه ولا بد لهذا التاريخ الذي شغل الناس والصكرين والفلاسفة من ان يكون ارضاً من ارضات الدور القائم لهذا المكان من العالم . في المستقبل القائم الذي لن يكون بعيداً بل إنه تعالى .

المصادر

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) الكتاب المقدس :- (ترجمة تفسيرية - الطبعة الثالثة) .
المعهد القديم .
- المعهد الجديد (الاناجيل الاربعة) (متى ، لوقا ، يوحنا ، مرقس) .
- (٣) انجيل برنابا - ترجمة د. خليل سعادة / مطبعة محمد علي صبيح
واولاده - طبع على نفقة محمد رشيد رضا .
- (٤) ابن ابي العز / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ٧٩٢ هـ / شرح العقيدة
الطحاوية / تحقيق شعيب الارناؤوط وعبدالله بن عبدالمحسن التركي /
مؤسسة الرسالة .
- (٥) ابن الاثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني
ت ٦٣٠ هـ / الكامل في التاريخ .
- (٦) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد ت ٧٢٨ هـ /
النبوات .
- (٧) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / تحقيق محمد علي النجار ،
دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٠
- (٨) ابن الجوزي / ابو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ت ٥٩٧ هـ /
المدحش ، تحقيق د. مروان قبانلي / دار الكتب العلمية / بيروت / د. ت .

- (٩) ابن حجر / ابو العباس احمد بن محمد الهيتمي ت ٩٧٤ هـ / الزواجر
عن اقتراف الكبائر / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧
- (١٠) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / المقدمة / تحقيق علي
عبدالواحد وافي / لجنة البيان العربي / مصر / ط ١ سنة ١٩٥٧
- (١١) ابن الفقيه / ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني / مختصر تاريخ البلدان /
١٣٠ هـ .
- (١٢) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ت ٧٥١ هـ / مفتاح
دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة / دار الكتب العلمية / بيروت / د .
ت .
- (١٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤ هـ / قصص الانبياء .
- (١٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / دار المعرفة / بيروت - ١٩٦٩
- (١٥) ابن هشام / عبدالملك ت ٢١٨ هـ / السيرة النبوية / تحقيق مصطفى
المصطفى وجماعة / دار الفكر / د . ت .
- (١٦) الازرق / ابو الوليد محمد عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما
جاء فيها من الآثار / تحقيق رشدي الصالح ملحق / مطابع دار الثقافة /
مكة المكرمة / ط ٢ / ١٩٦٥
- (١٧) الحنبلي / ابن رجب زين الدين ابو الفرج عبدالرحمن شهاب الدين بن
احمد / جامع العلوم والحكم / دار العلوم الحديثة بيروت / د . ت .
- (١٨) الرازي / محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر / مختار الصحاح / المكتبة
الاموية / ١٩٧١
- (١٩) الزبيدي / التجريد الصريح لاحابيث الجامع الصحيح .
- (٢٠) الزبيدي / محمد مرتضى ت ١٢٠٥ هـ / تاج المروس من جواهر
القاموس .
- (٢١) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد ابن ابي الحصن
الخنهمي ت ٥٨١ هـ / الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن
هشام / دار المعرفة ١٩٧٨
- (٢٢) السيوطي / الاتقنين في علوم القرآن / دار الكتب العلمية / بيروت
١٩٨٧

- (٢٣) السيوطي / الاكليل في استنباط التنزيل / تحقيق / سيف الدين عبد القادر الكاتب / دار الكتب العلمية / ط ٢ / بيروت / ١٩٨٥
- (٢٤) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / دار الفكر / بيروت / ١٩٨٣
- (٢٥) الطبري / ابن جرير ابو جعفر محمد ت ٣١٠ هـ / تاريخ الرسل والملوك / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم / طه / دار المعارف / القاهرة / د. ت .
- (٢٦) المسقلاني / ابن حجر احمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / فتح الباري بشرح صحيح البخاري / دار المعرفة / بيروت / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
- (٢٧) القرطبي / ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري ت ٦٧١ هـ / الجامع لاحكام القرآن / دار الكتب المصرية / ط ٣ / ١٩٦٧
- (٢٨) المسمودي / ابو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ / مروج الذهب ومغانم الجواهر / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
- (٢٩) النووي / محيي الدين يحيى بن شرف بن مري / صحيح مسلم بشرح النووي / دار احياء التراث العربي / بيروت / ١٩٨٤
- (٣٠) اليعقوبي / القاضي ابو الفضل عياض ت ٥٤٤ هـ / الشفا بتمريف حقوق المصطفى / دار الفكر / بيروت / د. ت .

- (٣١) ابو مفلي / د. سميح / في فقه اللغة وقضايا العربية / دار مجدلاوي / عمان / الاردن / ط ١ / ١٩٨٧
- (٣٢) اغروس / روبرت . م مع جورج ستاينسو / العلم في منظوره الجديد / ترجمة د. كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩
- (٣٣) ابن دبي / مالك / الظاهرة القرآنية / دار الفكر / طرابلس / لبنان / د. ت .
- (٣٤) الاحمد / د. سامي سميد / تاريخ فلسطين / القديم مركز الدراسات الفلسطينية / بغداد / ١٩٧٩
- (٣٥) الاحمد / د. سامي سميد / ملحمة كلكامش / دار التربية / بغداد / ١٩٨٤
- (٣٦) يارو / النريه / سومر فنونها وحضارتها / ترجمة د. عيسى سلمان / طه الكوريتي / بغداد / ١٩٨٧
- (٣٧) باقر / د. طه / مقبحة في تاريخ الحضارات القديمة القسم الاول - تاريخ العراق القديم / بغداد / ط ٢ / ١٩٥٥ .
- (٣٨) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / منشورات وزارة الاعلام / بغداد / سنة ١٩٧٥ .

- (٢٩) برستد / د. جوهاميس هنري / العصور القديمة / ترجمة داود قريان /
المطبعة الامريكانية / بيروت / ١٩٢٦
- (٤٠) بوير / كارل / يؤس التاريخية / ترجمة سامر المطلبي / بغداد .
- (٤١) بوكاي / موريس / القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم دراسة للكتب المتقدمة
في ضوء المعارف الحديثة / دار المعارف / لبنان / ط ٤ / ١٩٧٧ .
- (٤٢) بوكاي / موريس / اصل الانسان / ترجمة مكتب التربية العربي لنول
الخليج / الرياض / ١٩٨٥
- (٤٣) تويلبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ترجمة نقولا زيادة / المكتبة الاهلية /
بيروت / ١٩٨٨ .
- (٤٤) تيريز / براين / علم الاجتماع والاسلام - دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر /
ترجمة احمد باقادر / دار العلم / بيروت / ١٩٨٧
- (٤٥) جعفر / د. نوري / الفكر طبيعته وتطوره / بغداد / ط ٢ / ١٩٧٧ .
- (٤٦) جمال / د. سمير يحيى / الانسان تلك المخلوق العجيب / مكتبة
ميدولي / القاهرة / د. ت .
- (٤٧) الجدي / نور تصحيح اكبر خطأ في تاريخ الاسلام الحديث / السلطان
عبد الحميد والخلافة الاسلامية / دار ابن زيد / بيروت / ١٩٨٧
- (٤٨) جورج / دولي / عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان .
- (٤٩) حاطوم / د. نور الدين مع مجموعة اساتذة / التدخل الى التاريخ / مطبعة
الانشاء / دمشق / ١٩٦٥ .
- (٥٠) حتي / سليم ملحم / منهل الشرائع / دار الفارس / بيروت د. ت .
- (٥١) حصين / د. طه / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .
- (٥٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميثولوجيا عند العرب / دار النهار
بيروت / ١٩٧٩ .
- (٥٣) خليل / د. عماد الدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / دار العلم للملايين /
بيروت / ١٩٧٥ .
- (٥٤) خليل / د. عماد الدين / حول اعادة تشكيل العقل المصمم / بغداد /
مطبعة منير / ١٩٨٥ .
- (٥٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / هيئة كتابة

التاريخ / بغداد / ١٩٨٨

- (٥٦) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجابر / عصور ما قبل التاريخ / جامعة بغداد / ١٩٨٣ .
- (٥٧) بريزة / د. محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / المكتبة المصرية / بيروت / بيروت / ١٩٦٩
- (٥٨) بريزة / د. محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي ونولها ومآثرها في العراق قبل المروية الصريحة / المكتبة المصرية / بيروت .
- (٥٩) الدوري / د. عبدالعزيز / مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي / دار الطليعة / بيروت .
- (٦٠) بيورانت / ول / قصة الحضارة / مطابع النجوي / القاهرة / ط ٤ / ١٩٧٣
- (٦١) النجبي / د. محمد حسين / التفسير والمفسرون / دار الكتب الحديثة / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٦
- (٦٢) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / دار الحرية للطباعة / بغداد / ١٩٧٣
- (٦٣) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / الموسوعة النعبية / بغداد / ١٩٩١ .
- (٦٤) رشيد / د. فوزي / الملك نبوخذ نصر الثاني / الموسوعة النعبية / بغداد
- (٦٥) رشيد / د. فوزي / سرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / الموسوعة النعبية / بغداد / ١٩٩٠
- (٦٦) رو / جورج / العراق القديم / ترجمة حسين علوان / وزارة الثقافة والاعلام / بغداد / ١٩٨٤
- (٦٧) ريز / مستيفن وآخرون / علم الاحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي .
- (٦٨) الزبيدي / د. كاسد ياسر / الطبيعة في القرآن الكريم / بغداد .
- (٦٩) سابق / سيد / العقائد الاسلامية / دار الكتاب العربي / بيروت / د. ت .
- (٧٠) سعد الدين / د. ليلى حسن / مثل النين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا / دار الفكر / عمان / ١٩٨٤

- (٧١) سفج / جي ام / التطور ترجمة د. ساهي جواد ضاحي / جامعة الموصل / ١٩٨٥
- (٧٢) سلمان / عبدالماجد / الموصل في المهديين الراشدين والاموي / الموصل / مطابع جامعة الموصل / ١٩٨٥
- (٧٣) سوسة / د. احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الآتارية والمصادر التاريخية .
- (٧٤) سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين .
- (٧٥) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / دار الرشيد / بغداد / ١٩٨١
- (٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / دار اقرأ / بيروت / ١٩٨٤
- (٧٧) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الفرسية / ترجمة احمد الشيباني / مكتبة الحياة / بيروت / د. ت .
- (٧٨) شلبي / د. احمد / مقارنة الاديان (الاسلام) مكتبة النهضة المصرية / ط ٥ / ١٩٧٧
- (٧٩) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / دار لام / لندن / ١٩٨٧
- (٨٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء .
- (٨١) صبحي / محمد الدين / ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية / الدار العربية للكتاب / انترنيت / ليبيا / صرابلس .
- (٨٢) عبدالنواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية .
- (٨٣) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في سفر نثيب الهنلي الجاهلي / عمان .
- (٨٤) عبدالمنعم / هـ ا . نبيلة / محاضرات في تكوين التاريخ .
- (٨٥) العزاوي / د. عبدالرحمن حسين / الطبري السيرة والتاريخ / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٩
- (٨٦) المقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / دار اخبار اليوم / سلسلة

- كتاب اليوم / مصر / ١٩٥٣
- (٨٧) علي / د. جواد / المفضل في تاريخ العرب قبل الاسلام / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٨٦
- (٨٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / مطبعة اوقسيت الاخلاص / جامعة بغداد ١٩٧٥
- (٨٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٧
- (٩٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٩
- (٩١) العمري / د. اكرم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة ١٩٩٢
- (٩٢) غلاب / د. محمد السيد / تطور الجسد البشري / القاهرة .
- (٩٣) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الانسى / ترجمة ميخائيل خوري .
- (٩٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ترجمه جورج طرابيشي / دار الطليعة / بيروت / ط ٢ / ١٩٧٩
- (٩٥) فريشة / انيس / ملاحم واساطير من اوغاريت رأس الشمر / دار النهار / بيروت / ١٩٨٠
- (٩٦) الفندي / محمد جمال الدين / الله والكون / الهيئة المصرية للكتاب / ١٩٧٦
- (٩٧) الفوزان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / الرياض
- (٩٨) القرضاوي / د. يوسف الخصائص العامة للإسلام .
- (٩٩) قطب / سيد / في ظلال القرآن / دار الشرق / بيروت / ١٩٨٥ .
- (١٠٠) قطب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / دار الكتاب الاسلامي / ط ١ / ١٩٩٢
- (١٠١) قلعجي / د. محمد روااس / قراءة جديدة للسيرة النبوية / دار البحوث العلمية / الكويت / ط ٢ / ١٩٨٤

(١٠٢) الكبيسي / عبدالسلام / البناء الحضاري في القرآن الكريم / رسالة ماجستير .

(١٠٣) كريم / صموئيل نوح / الواح سومر / ترجمة د. طه باقر .

(١٠٤) كلنفل / هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ترجمة د. غازي شريف / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٧

(١٠٥) كونتينو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور / ترجمة سليم طه التكريتي / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ط ٢ / ١٩٨٦

(١٠٦) لابات / ريليه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية / ترجمة الاب البيير ابونا مع د. وليد الجادر / جامعة بغداد / ١٩٨٨

(١٠٧) لنتون / رالف / شجرة الحضارة قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث / ترجمة د. احمد فخري / مكتبة الانجلو مصرية / د. ت .

فهرس الموضوعات ا

٥	المقدمة
	الفصل الاول
٩	ظهور الانبياء واثره في حضارات وادي الرافدين
	الفصل الثاني
٧٥	النبي نوح (عليه السلام) ابو البشرية الثاني
	الفصل الثالث
١٧٧	ابراهيم الخليل (عليه السلام) ابو الانبياء
	الفصل الرابع
٢٨٣	النبي يونس (عليه السلام)
٣٤٩	الخاتمة
٣٥٩	المصادر
٣٦٣	المراجع